... زدني علماً!

خُطواتٌ على درب الفاعليّة

د. أحمد البراء الأميري



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأميري، أحمد البراء

زدني علماً. /أحمد البراء الأميري. ـ الرياض، ١٤٢٧هـ

٤٧٤ص، ١٦,٥X٢٤سم

ردمك: ١-٩٥١-٤٠-٩٩٦٠

١- المقالات العربية ـ السعودية أ- العنوان

ديوي ٠٨١، ٥٣١ ١٥٧٧/ ١٤٢٧

ردمك: ١ ٩٥١ ٤٠ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٥٧٧/ ١٤٢٧

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

الناشـر



الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصَّلاة والسلام على سيِّدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فقد بدأ وعيي بذاتي وما حولي عندما كنت طالباً في الصف الأول الثانوي، في مدينة حلب الشهباء، عام (١٩٦٠م). ومنذ ذلك الحين إلى اليوم كان من أهم القضايا التي تشغل بالي: «كيفية الخروج من العطالة إلى الفاعلية»، في نفسي، ومجتمعي الصغير، وعلى مستوى الأمة المسلمة!.

وعندما تفضَّل أحد الإخوة الكرام فطلب إلي أن يكون لي في (جريدة المدينة المنورة) الزاهرة زاوية اخترت لها «زناد الفكر» عنواناً، آملاً أن أطرح فيها قضايا تحتاج إلى «قدح زناد الفكر»، أي: إلى مزيد من التفكير والتأمل المعتادين في جُلّ ما تنشره الجرائد، وحرصت في الموضوعات التي اخترت الكتابة فيها أن تسهم - بشكل مباشر أو غير مباشر - في تحقيق ذلك الهدف الأسمى، ويكون كل مقال منها خطوة في طريق «الخروج من العطالة إلى الفاعلية»، سواء على مستوى الفرد، أم الأسرة، أم المجتمع، حتى في تلك المقالات التي ظاهرها الحديث عن كتاب في الأدب، أو قصيدة من الشعر.

وهأنذا أضع هذه المقالات أمام القارئ الكريم، سائلاً المولى سبحانه أن ينفع بها، وأن يخلِّصها مما شاب النية حين كتابتها مما يُنقص الأجر أو يمحوه، إنه أكرم مسؤول وأرجى مأمول.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

د. أحمد البراء الأميري

الرياض: ١٦ صفر ١٤٢٤ هـ / ١٨ نيسان (ابريل) ٢٠٠٣م

تقديم

بقلم الشاعر الأديب المهندس: الأستاذ سليم عبد القادر

يضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات أشبه ماتكون بعقد اللؤلؤ، فكلُّ مقالة لؤلؤة في الومض والحسن، والخيط الناظم لمجموعة المقالات اللآلئ، هو روح مبدعها المفكر الأديب الدكتور أحمد البراء الأميري.

هذه المقالات تطوف بالقارئ في عوالم شاسعة من الفكر والأدب والدين والعلم والنهضة، في مجموعة من الأفكار المتألقة معنى، المتأنقة أسلوباً، الموجزة مساحة، المناسبة لطبيعة عصرنا، الموجهة للجمهور العام، الواقع بين كتابات متخصصة لا تغريه، وكتابات عامة سطحية لا تغنيه، ولا أريد التعميم، ولكنها مجرد ملاحظة.. ومن ثم فقد أحسن الدكتور الأميري بالتوجه إلى الجمهور العام، بخطاب يجمع بين اليسر والعمق، والعاطفة والفكر، والشمول والدقة.. إن مقالاته تذكر - من وجوه عدة - بمقالات الكاتب العملاق الأستاذ عباس محمود العقاد - يرحمه الله - التي استمتع بمطالعتها أبناء الجيل الماضي.

إن تقديم الفكرة التي تقدح زناد الفكر، وتروي غليل القلب، وتدفع إلى التأمل والأمل والعمل، أمر لا يدل على ثقافة الكاتب وتميزه وحسب، وإنما يدل - إضافة إلى ذلك - على ثقة الكاتب بقارئه وضميره، واحترامه لعقله واختياره وإيمانه بقيمة الكلمة الهادية الحانية. والقارئ اليوم، حتى إن لم يكن قارئاً دؤوباً، فهو فطن لَمّاح، بحكم شيوع المعرفة، وتنوع مصادر الثقافة في هذا العصر، ومن ثم، فهو منحاز إلى الوضوح والإيجاز، وإلى تفصيل الكلام على

قدر المعنى، من غير زيادة ولا نقصان، وهو اليوم زاهد كل الزهد، بالتعقيد، كما هو زاهد بالإطناب.

قارئ هذه المقالات سيجني أكثر من فائدة، ويحصل على أكثر من متعة.. فهي تستنفر الفكر مرة بعد مرة، وتستلهم التراث، وتهتدي بالشرع، وتطوف بين ثقافات الأمم، وتحمل هموم الأمة، وتربط ذلك كله بالزمان والمكان.. فهي ببساطة شديدة، تقدم العلم النافع الماتع، بلا غلو لا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، في أسلوب سهل ممتنع، اقتبس له مثالاً من إحدى المقالات التي يبدؤها بالحديث عن الأستاذ العقاد بقوله: «لعباس محمود العقاد - رحمه الله - أكثر من مئة كتاب في موضوعات شتى، تدل على ثقافة موسوعية مدهشة، طائفة صالحة منها إسلامية، يوجد في بعضها بعض الأخطاء، وانى لكاتب أو كتاب أن يكون بلا أخطاء! لذا فالقارئ العاقل لا يغلق ذهنه ويسلم لأحد، إلا لكتاب الله سبحانه، ولما صح عن رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

«وانا من المعجبين بمزايا هذا الكاتب العبقري، أما أخطاؤه فلا أقبلها ولا اتحدث عنها ما لم تدع حاجة إلى ذلك، وهذا رأيي في التعامل مع العلماء، والكبار عموماً: اتادب معهم الأدب اللازم، واقف منهم موقف الطالب من الأستاذ، فإن بدا لي شيء اعتقد انه خطأ ذكرته، مع معرفتي لقدر نفسي، ومعرفتي لحقهم.

«وكتب العقاد - إجمالاً - تعلّمك العقل والعلم معاً، لذا صلح الحديث عنها في زاوية تحمل عنوان زناد الفكر».

وسواء كان القارئ من الباحثين عن الفكر، أو الدين، أو الحكمة، أو الأدب، أو من الراغبين بذلك كله، فإنه واجد كثيراً مما يبتغيه، في هذه المقالات التي

نحتاجها اليوم جميعاً، يحتاجها الشباب الصاعد لتسهم في بناء فكره بناء سليماً، وتعينه على المضي في دربه على هدى وبصيرة، ويحتاجها المربون في استدراك أمر، أو تحصيل معرفة، أو مراجعة سلوك، ويحتاجها غير هؤلاء وأولئك، لزيادة المعرفة بالحياة، والتأمل فيها.

ولعل الله جل شأنه، يكتب لهذا العمل الطيب القبول في الدنيا والآخرة، فيكون من العلم الذي ينتفع به.

وبالله التوفيق..

سليم عبد القادر

محاولات للخروج
من العطالة إلى الفاعلية

د. أحمد البراء الأميري

١

أثر الأفكار في حياة الإنسان

لعلّ سيل الأفكار التي تدور في عقل الإنسان لا يهدأ إلا إذا نام، وانتقل من عالَم اليقظة إلى عالم الأحلام؟ وهذه الأفكار لها - بإذن الله - أثرٌ كبير في حياة الفرد وسلوكه، ونجاحه أو إخفاقه، كما أثبت علماءُ النفس اليومَ بالتجربة الميدانية المعملية ما قرّره العلماءُ المسلمون من خلال الخبرة، والتأمل في واقع الناس، مُستهدين بالقرآن الكريم والسنّة المطهرة، فهل يستطيع الفرد منا أن يسيطر على أفكاره؟ هل يستطيع أن يختار الأفكار الصائبة ويتجنّب الأفكار الخاطئة؟ أم أن الأفكار - كالتنفس مثلاً - تصعُب السّيطرة عليها جداً؟.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه (الفوائد) كلاماً نفسياً معناه:

إن الإنسان لم يُعْطَ القدرة على إماتة الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنها تهجُم عليه هجومَ النَّفس، إلا أنّ قوةَ الإيمان، والعقل، تعينُ على قبول أحسنها، ودفْعِ أقبحها. وقد خلق الله سبحانه وتعالى النفسَ الإنسانية شبيهةً بالرحى الدائرةِ التي لا تسكن، ولا تتوقّف عن الدوران، ولا بدّ لها من شيءٍ تطحنه، فإنْ وضع فيها حَبٌّ طَحَنَتْهُ، وإن وضع فيها ترابٌ طحنته.

والأفكار والخواطر التي تجول في النفس، هي بمنزلة الحَبّ الذي يوضع في الرحى، فمن الناس من تطحن رحاه حبّاً يُخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وتبناً وما إلى ذلك، فإذا جاء وقتُ العَجن والخَبز تبيَّن له حقيقةُ طحينه!.

ويقول رحمه الله: دافعِ الخواطر الضارة التي تهجم على عقلك، فإن لم تفعل تحوّلت الخواطر إلى أفكار، ثم تتحول الأفكار إلى شهواتٍ، والشهواتُ إلى همم وعزائم، فإنْ لم تُدفع صارت فِعلاً، فإن لم تتداركه بضدّه صار عادةً يصعب الانتقال عنها!! انتهى كلامه بتصرّف.

ما أهمَّ هذا الكلام وأعظم نفعه! وما أجدر كلّ فردٍ أن يطبّقه على نفسه، وخاصةً الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات، وأن يُربّوا عليه الجيلَ الصّاعد، أملَ الأمة - بعد الله - في تحقيق أمجادها!. والله الموفق.

لقد وردت أحاديث عدة عن النبي صلّى الله عليه وسلم تنهى عن التطيّر والتشاؤم - وهما طريقتان سلبيتان في التفكير - وتشجع على التفاؤل - وهو طريقة إيجابية في التفكير - منها ما رواه البخاري ومسلم، وغيرهما، رحمهم الله، أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «لا عدوى، ولا طيَرة، ويعجبُني الفأل، قال: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة».

وعند أبي داود رحمه الله: ذُكرت الطِّيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أحسنها الفأل، ولا تؤذِ مسلماً. فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقُل: اللهمّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

والذي أفهمه من هذين الحديثين الشريفين، وسواهما، أن الأفكار السلبية - كالخوف والتشاؤم - تهجم على الإنسان بدون دليل معقول، أو عَلامةٍ صحيحة، فيدفعها بالأفكار الإيجابية، ويؤكد ذلك بكلماتٍ يقولها، وأدعيةٍ يردّدها، فهو - إذن - قادر على اختيار الأفكار الصالحة، وطرح الأفكار الرديئة، ولذلك طرقٌ سنتعرّض لها في المستقبل إن شاء الله.

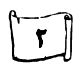
وقد عقد المؤلف الأميركي المشهور ديل كارينجي في كتابه: «دع القلق وابدأ الحياة» فصلاً بعنوان: «حياتُك من صنع أفكارك». وهي حكمة رومانية قديمة، قال فيه:

«اعتقادي الذي لا يتطرق إليه الشك أن المشكلة الكبرى التي تواجهنا جميعاً هي: كيف نختار الأفكار الصائبة السديدة. فالإنسان هو حصيلة أفكاره: فإذا نحن راودتنا أفكار سعيدة كنا سعداء، وإذا تملّكتنا أفكار شقية أصبحنا أشقياء، وإذا سيطرت علينا أفكار المرض فالأرجح أن نُمسي مرضى».

إن هذا الكلام لا يعني أن يتخذ الإنسان موقفاً سلبياً أمام الأمور التي تحتاج إلى تصرف، بل هو يدعو إلى (مواجهة) المشكلة إذا نشأت، لا إلى (القلق) من أجلها. (المواجهة) تعني إدراك طبيعة المشكلة واتخاذ التدابير كلّها، و(القلق) بشأنها هو اللف والدوران حولها دون القيام بالإجراء المناسب.

يقول عالم النفس الشهير وليم جيمس ما معناه: ليس في استطاعتنا أن نغيّر شيئاً من أحاسيسنا بمحض إرادتنا، ولكن نستطيع أن نغير أفعالنا، فإذا غيّرنا أفعالنا تغيرت أحاسيسُنا تبعاً لذلك. ومن ثمّ فإن الطريق إلى السعادة - إذا افتقدها الإنسان - أن يتصرف كما لو كان سعيداً.

ويقول جيمس آلن: «سيجد المرء متى غيّر اتجاهه الذهني حيال الأشياء والناس، أن الأشياء والناس سيستجيبون لهذا التغيّر بمثله... وسوف تتملكه الدهشة لسرعة التحول الذي يحدثه هذا التغير في جوانب حياته المتعددة...».



وزارة للذكاء؟!.

قليلون جداً من التربويين من يذكرون اسم «ماتشادو»، وأقلّ منهم من عامّة المثقفين من سمع بهذا الاسم على الإطلاق.

«ماتشادو» هو (أول وزير للذكاء في العالم) في فنزويلا، باشر أضخم مشروع «لتعليم الذكاء» لمجمل أفراد الشعب في بداية الثمانينيات، وتعليم الذكاء عند ماتشادو هو «تعليم التفكير»!.

يقول الدكتور عادل عبد الكريم ياسين في تقديمه لكتاب: «تعليم التفكير» لمؤلفه: «إدوارد دو بونو» أشهر رائد لتعليم التفكير في العالم اليوم:

«يرى (دو بونو) أن يكون تعليم التفكير موضوعاً لمقرر أساسي بين الموضوعات المدرسية، إذ سيطور هذا المقرر عقل المعلّم، وعقل المتعلّم بما يقود إلى تطوير المجتمع، لأنه سيؤدي إلى بناء عقول منهجية طالما افتقرت إليها الأمم المتخلّفة.

«إن التقدم والتخلف قضيّتان جذورهما فكرية، وتتمحوران حول المنهجية واللامنهجية، وليست التكنولوجيا عملاً خارقاً أو مستحيلاً على أي شعب إذا ما أتيح له تربية العقل المنهجي الذي تعلّم كيف يفكر، فالتكنولوجيا هي إبداع العقل المنهجي، والتربية مجال بناء هذا العقل، فإذا أسهمت التربية بهذا، استطاعت أن تقلّص الفجوة بين التخلف والتقدم». انتهى الكلام ببعض التصرف.

وأنا هنا لا أؤصّل، ولا أريد الوقوع في خطأ التعميم، إنما أريد إشعال الشرارة، وقدح زناد الفكر، للاهتمام بالموضوع، ثم الشروع بالعمل (سوياً على صراط مستقيم)، وإلا فالشمول والتوازن، في هذا الموضوع وسواه، هما العاصم لنا - بتوفيق الله - من الوقوع في كثير من الأخطاء في المنهج أو السّلوك.

عندما هزمت اليابانُ روسيا في مطلع هذا القرن، قال الجنرال الياباني: «لقد انتصر المعلم الياباني» وعندما سبق الصاروخ الروسي عام ١٩٥٧م الصاروخ الأميركي قال العالم الأميركي كارل الندورفر: «لقد انتصرت المدرسة الروسية على المدرسة الأمريكية»، وإبّان محنة فرنسا في الحرب العالمية الثانية دعا الجنرال ديغول (علماء التربية) في بلاده لبناء تربية مستقبلية طموحة!!! وفي عام ١٩٨١ شكل وزير التربية في الولايات المتحدة تيريل لجنة من (١٨) عضواً من خيرة المختصين أنفقت (١٨) شهراً لدراسة نظام التعليم فيها، فخرجت بتقرير هو بمثابة نداء إلى الشعب كله عنوانه: أمة معرَّضة للخطر.

ما أحرانا - نحن المسلمين - أن نهتمّ (بعد اهتمامنا بديننا وأخلاقنا) بتعليم التفكير الصحيح، والانتقال منه إلى التفكير الإبداعي لنكون (خير أمة أخرجت للناس) !؟.

٣

الأمية في أمة «اقرأ»

ينقل الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه «فصول في التفكير الموضوعي» عن الدكتور زغلول النجار في كتابه «قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي» أن نسبة الأمية بين المسلمين البالغين تتراوح بين ٥٠٪ و ٨٠٪، بمتوسط يقرب من ٥٨٪. بينما هي في دول الشمال المتقدمة، أي دول العالم الأول، أقل من ٢٪، ولا يزيد متوسطها في دول العالم الثالث عن ٤٥٪، أي أقل بـ ١٣٪ منها بين المسلمين!!! ومن مؤشرات الخطر أن نسبة طلاب المدارس الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة أعوام وتسعة عشر عاماً لا تزيد على ٢٧٪ من مجموع تعداد السكان في العالم الإسلامي المعاصر، بينما تزيد على ٧٥٪ في دول العالم الأول، وتقارب ٤٨٪ في دول العالم الثالث، أي بزيادة قدرها ١١٪ عن العالم الإسلامي!.

«هذا من الناحية الشكلية المحضة، فإذا تجاوزنا ذلك إلى البحث في أحوال من نسمّيهم (مثقفين)، وجدنا مأساة المضمون تتكامل مع مأساة الشكل، إذ إن إنتاجية هؤلاء المثقفين وقدرتهم على رفع سقف المعرفة في بلادهم تقترب من الصفر، مما يجعل هجرة النابغين والناشطين ضربة لازب، إذا ما أرادوا أن يرتقوا بعلومهم وثقافتهم... وأسباب هذا الخلل كثيرة، من أهمها ضعف مناهج التفكير المتبعة في حل المشكلات ومعالجة الأزمات...».

وأنا كلما فكرت أنّ أول كلمة من الوحي الأخير نزلت على النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة هي كلمة (اقرأ) ازداد عجبي، وتنامت دهشتي.. (اقرأ باسم

ربك) لا باسم شيءٍ آخر، فالقراءة موجّهة لنفعَين مترابطين لا ينفكّان: نفعِ الدنيا الفانية، ونفعِ الآخرة الباقية.. ويتكرر الأمر: (اقرأ وربك الأكرم)، ولم يقل: الأعلم، مع أن القراءة مرتبطة بالعلم، وكأن في ذلك إشارة إلى أن القراءة هي سبيل العلم، والعلم سبيل الكرامة: (قل: هل يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون)؟.

فنحن يجب علينا:

١- أن نقرأ،

٢- وأن نفهم ما نقرأ لأنّ المقصود من القراءة الفهم.

٣- وأن نعرف ماذا نقرأ،

٤- وكيف نقرأ بالطريقة المثلى،

٥- وأن ننتفع به ونطبّقه في حياتنا، إذ ما فائدة علمٍ نظري لا أثر له في حياة الإنسان: «اللهم إنا نعوذ بك من علمٍ لا ينفع».

يا أمة (اقرأ): اقرئي لتتعلمي، ولتعملي، وإلا أحاط بك الجهل، فأذلَّكِ أعداؤكِ وأعداءُ الله، والقرآنُ يقول: «ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين» فكيف تكون العزة للجاهلين؟!.

٤

الإخلاص والصواب

لا يشك أحدٌ في إخلاص الأم لطفلها، فإذامرض هذا الطفل مرضاً خطيراً، واعتصره الألم، تألّمت عليه، وانفطر قلبُها، وودّتْ لو عانت بدلاً منه. فإذا طُلب منها أن تداويه، وقُدّمتْ إليها مجموعة من الأدوية الناجعة، ربما قادها إخلاصها - إذا كانت جاهلة حمقاء - إلى أن تسقيه الأدوية دفعةً واحدة استعجالاً لشفائه، فإذا بها تستعجل القضاء عليه! لقد افتقدتِ الأمُ الصواب (أي: العلم الصحيح، والتصرف الصحيح) فلم ينفعها إخلاصُها، ولم تصل إلى ما ترجو.

وقد تذهب هذه الأمّ، أو أخرى تشبهُها، بولدها إلى طبيبٍ حاذقٍ عالمٍ، في المستشفى القريب منها، لكنّ هذا الطبيب يهمل الطفل، ويتشاغل عن معالجته، ويتباطأ في إسعافه فيموت الطفل! لقد امتلك هذا الطبيبُ الصواب (أي: العلم الصحيح والمعرفة) لكنّ ضميره الميّت لم يَجِد فيه الإخلاص مكاناً يُقيم فيه، فكانت النتيجة واحدة: موت الطفل!

إن العمل الذي يقوم به الإنسان لا بد - حتى يؤتى ثماره المرجوة منه: نفعاً في الدنيا، وأجراً في الآخرة - أن يتحقق فيه الإخلاصُ والصواب، فإذا فُقِد الإخلاص (أي: صلاحُ النية) ضاع الأجر الأخروي يقينا: «إنما الأعمال بالنيات»، وقد يضيع النفع الدنيوي أيضاً، وإذا فُقِدَ الصواب لم يتحقق المطلوب، ويؤجر المرء على نيته في الآخرة، إذا اجتهد وبذل الوسع، أما إذا لم

يجتهد، فلعله يكون آثماً، كما تشير إليه أكثر النصوص، لأنه لم يقم بالواجب عليه من السّعي والأخذ بالأسباب.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله (كما جاء في مدارج السالكين ٢/٩٣: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السّنة». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ ... فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

فالعبادة ينبغي أن تكون على السنّة النبوية، والهدي المحمدي الأرشد، أما أعمال الدنيا فينبغي أن تكون وفق السنّة الإلهية التي خلقها الله سبحانه، وجعل لكل نتيجة سبباً يوصل إليها:

ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليبسِ

٥

تدخل الهوى في الحكم

لعل أبرز صفة يُطلب من القاضي أن يتحلّى بها هي النزاهة، وعدم التحيّز إلى طرف دون طرف، وعدم السماح للعواطف، أو الهوى، أن تتدخل في حكمه.

والمفكر الجيد الذي يريد الوصول إلى الحقيقة يسعى جهده إلى التجرّد عن الهوى. وقد ذمّ القرآن الكريم اتباع الهوى وبيّن أنه:

- ❖ يضلّ صاحبه عن الحق والصواب.
- ❖ وقد يدفعه إلى التكذيب بالحقّ استكباراً وعناداً.
- ❖ وربما حمله على ارتكاب جريمة القتل!

يقول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، ويقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣].

ويقول سبحانه مخاطباً بني إسرائيل، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

ويسمّي بعض المفكرين الغربيين الهوى بـ (التحيّز)، ويعرّفون التحيّزات بأنها: «طرقٌ للتفكير تقرّرها سلفاً قوىً، ودوافعُ انفعاليةٌ شديدة، كالتي يكون مصدرها منافعنا الذاتية الخاصة، أو ارتباطاتنا الاجتماعية»، كما يقول ثاولس في كتابه: التفكير المستقيم والتفكير الأعوج.

ويقول جوزيف جاسترو في كتابه: التفكير السديد:

«إن التفكير الصحيح فنّ عسير على الكثيرين لسببين على وجه الخصوص:

الأول: أن عقولاً كثيرة ليست لديها الكفاءة للقيام بهذه المهمّة، والثاني: تدخل الانفعالات والعواطف، فكثيراً ما نقبل، أو نصل إلى نتيجة تحت تأثير رغبة، أو أملٍ، أو خوف، وهذا هو الهوى. إن الهوى هو الحكمُ على شيءٍ مُقدَّماً، وفي أثناء عملية الاستدلال يجعلنا الهوى نتجاهلُ بعض الوقائع، ونبالغ في تقدير بعضِها الآخر، مَيْلاً منا نحو نتيجة معينةٍ موضوعةٍ في أذهاننا منذ البداية».

وقديماً عبّر الشاعر الحكيم عن هذه الفكرة ببيتٍ واحد من الشعر:

وعينُ الرِّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ... ولكنَّ عين السُّخطِ تُبدي المساويا

فالمحبُّ تصغر أخطاءُ محبوبه في نظره، وتكبر حسناتُه، والمبغض على العكس من ذلك.

وأخطاء التفكير قد تكون دقيقةً بحيث لا يَفْطَنُ لوجودها المفكّر نفسُه، كما يجهل المصاب بعمى الألوان حقيقة مرضِه إلى أن يكتشف - مع الزمن - أنّ الناس من حوله يرون الأشياء على خلاف ما يراها هو!.

يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي في كتابه: القرآن وعلم النفس: «إن حالتنا الانفعالية والعاطفية تؤثر في تفكيرنا، وتميل به إلى التّحيز، والوقوعِ في الخطأ فيما نصدره من أحكام».

ترى أين يقف المسلمون اليوم من عيب الهوى في إصدار أحكامهم، وتبني مواقفهم؟! سؤال حزين لا يحتاج إلى جواب!

٦

بين التقدير والتقديس

أريد بالتقدير: الاحترام والتأدب مع الآخرين، وخاصة العلماء والكبار، وأهل الفضل، وأريد بالتقديس: المبالغة في الاحترام، والخروج به عن الاعتدال إلى التطرّف، وإضفاء بعض صفات العصمة، أو التنزيه على الشخص، سواءٌ كان عالماً، أم فقيهاً، أم داعية، أم إماماً، أم قائداً.. والمطلوب هو الاعتدال الذي حثّت عيه تعاليم الدين الحنيف.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله: إكرامَ ذي الشّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» رواه أبو داود. وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا» رواه أبو داود والترمذي.

وواقع بعض المسلمين اليوم منحرف عن خط الاعتدال، فطائفة لا تعرف قدر نفسها، تتطاول على العلماء الأجلاّء، والأئمة الأعلام (وإن أخطؤوا) فتتكلم عنهم وتكتب بقلة أدب! وطائفة تبالغ في تقدير رجالها، ولا ترضى أن يتكلم فيهم أحد، ولو كان كلامه نقداً علمياً بنّاء قائماً على الإنصاف والاحترام مع مخالفتهم، وفي الوقت ذاته لا يجدون حرجاً في تخطئة غيرهم من العلماء الآخرين الذين يحظون بالقدر نفسه من الاحترام، أو التقديس من قبل جماعات أخرى، أو في أماكن أخرى، هذا التعصب واحد من الحُجُب التي تحجب الحقيقة عن طالبها، وواحد من موانع التفكير السديد الذي يسعى العقلاء للوصول إليه.

إن احترام الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحبَّهم له لا يُجاريهم فيه أحد، ومع ذلك كانوا يناقشونه، ويقترحون عليه - في غير أمر الوحي - وُجهاتِ نظرٍ أخرى، كما في قصّة الحُباب بن المنذر رضي الله عنه في غزوة بدر، حين اقترح مكاناً للنزول غير الذي اختاره النبي المعصوم عليه أفضل الصلاة والسلام، فوافقه على اقتراحه، وكما منع عمر أبا هريرة رضي الله عنه من تبشير الناس بالجنة كما أمره الرسول بذلك. فوافق الرسول عليه السلام عمر (والحديث في مسلم). وكمناقشة بعض الصحابة نبيَّهم عليه الصلاة والسلام في وثيقة صلح الحديبية (والحديث في الصحيحين). لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم المثال الأسمى في الحب والاحترام والسمع والطاعة والتسليم من جهة، وفي حرية إبداء الرأي من جهة أخرى، كما علّمهم نبيهم صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

ويحسن في هذا المقام إيراد النقاط التالية:

١- الحق ليس حكراً على أحد، فكل إنسان يخطئ ويصيب، والمعصوم هو النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- العالم الكبير قد تحدث منه زلة صغيرة أو كبيرة، يُعتذر له عنها، ولا تقدح في سائر فضائله.

٣- قد يكون الرجل متفوقاً في علم دون علم، فيكون لرأيه وكلامه الوزنُ فيما برع فيه لا فيما سوى ذلك. وكم من إمام في الحديث لا باع له في الفقه، وكم من إمام في العلوم العقلية بضاعته في الحديث مزجاة قليلة.

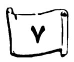
٤- قد يتصف العالم بخلق دون خُلق، فالكمال في الرجال - حاشا الأنبياء عليهم السلام - غير موجود. وتختلف حظوظ العلماء قلةً وكثرةً من فضائل:

كالذكاء الحاد، والحكمة العميقة، والتقوى، وسعة الأفق، والذاكرة القوية، وحسن الخلق... وكم من عالم تقيّ نقيّ لا يكتب حديثه لقلة ضبطه.

٥- قد يدرك الطالب الصغير أمراً يخفى على عالم كبير، وهذا لا يعني أنه أعلم منه.

٦- مخالفة الصغير للكبير في بعض الرأي لا تعني عدم الاحترام، ومخالفة العالم لمن هو أعلم منه لا تعني الانتقاص من منزلته، أو رَفْعَ النفس إلى مستواه، وما أكثر مخالفة أصحاب أبي حنيفة لإمامهم، وظلّ هو الإمام، وظلّوا هم الأصحاب.

٧- الحق لا يعرف بالرجال، لكنّ الرجال يعرفون بالحق، فلا أحد أجلّ من أن يخطئ، ولا أحد أقلّ من أن ينصح ويصوّب. والله الموفق.



النصّ وتفسير النص

هنـاك فـرق كبيـر بين قـولنا: «قـال الله تعـالى فـي القـرآن الكـريم» وبين: قـال أبوحنيفة، أو الشافعي، أو غيرهمـا من الأئمة، في معنى الآية الكريمة: كذا وكذا، فقول الله تعـالى لا يأتيـه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه، وقـول من عداه يحـتمل الخطأ والصواب، إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه عزّ وجل.

إذاً هنـاك فـرق كبيـر بين النص الشـرعي، من آية أو حـديث، وبين فهم العـالم الفـلاني لهـذا النص من آية أو حـديث. لكنّ بعض النـاس يعطـون فـهـمهم للنص، أو فهم الإمـامِ الذي يتّبعـونه، أو العـالمِ الذي يحبّـونه قدسيـةً تقـتـرب من قدسيـة النص، ويعدّون من خالف فهمهم مخالفاً للنص! ولا يخفى ما في هـذا الأمـر من البـعـد عـن الحقّ والصـواب. ولهـذا السـبب ضلّل أقـوامٌ أقـوامـاً، وفـسّق أنـاسٌ أنـاسـاً، وربمـا تجاوزوا ذلك، حتى إن عـالماً كبيـراً من علمـاء المدينة المنور هو ابن أبي ذئب، معـاصـراً للإمـام العـظيم مـالك بن أنس رحـمـه الله، حكم على الإمـام مالكٍ بأن يُستتاب وإلا يُقتل!! لأنه فهم من حديث «البيّعان بالخيار» فهماً عدّه ابن أبي ذئب - غفر الله له - ردّاً للحديث مع ثبوته عنده!!

إن أكثر نصوص القرآن والسنة تحتمل أكثر من وجهٍ واحدٍ من وجوه التـأويل (أي: هي ظنّيـة الدّلالة). والبشـر متفـاوتون في عقـولهم، وعلومـهم، وقـوة فـهـمهم واستنبـاطهم، لذلك كان الاختـلاف بينهم في فهم تلك النصوص أمـراً طبيـعيـاً اقتضته حكمة الله. وشتان بين من يقول: إن هذه الآية خطأ، ومن يقـول: إنّ فهم فلانٍ للآية خطأ.

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن عبد اله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الأحزاب قال: «لا يصلّين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضُهم العصرَ في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيَها، وقال بعضهم: بل نصلّي، لم يُرَد ذلك منّا. فَذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يُعنّف أحداً منهم.

فهؤلاء أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، حجةٌ في فهم العربية، سمعوا من أفصح العرب قاطبةً جملة مكونةً من بضع كلمات فاختلفوا في فهمها!! ولم يعنف الرسول الكريم الحكيم إحدى الطائفتين؛ لأنه يعلم أنّ الأفهام مختلفة، مع أن الذين صلّوا في الطريق خالفوا (ظاهر) الأمر النبوي المؤكَّد!!.

يقول الأستاذ عمر عبيد حسن في تقديمه لكتاب: أدب الاختلاف في الإسلام: «إن الاختلاف بوجهات النظر - بدل أن يكون ظاهرة صحةٍ تُغني العقل المسلم بخصوبة في الرأي، والاطلاع على عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلّها، وإضافةِ عقولٍ إلى عقل - انقلب عند مسلم عصر التخلّف إلى وسيلة للتآكل الداخلي، والإنهاك، وفرصةٍ للاقتتال، حتى كاد الأمر يصل ببعض المختلفين إلى حدّ التصفية الجسدية، وإلى الاستنصار والتقوّي بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف، ولهذا في التاريخ القريب والبعيد شواهد. فكثيراً ما يعجزُ الإنسان عن النظرة الكلية السّوية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة، فيقبع وراء جزئية يضخّمها، ويكبّرها حتى تستغرقه إلى درجة لا يمكن معها أن يرى شيئاً آخر، أو إنساناً يرى رأياً آخر، وقد تصل به إلى أن يرى - بمقايسات محزنة - أعداءَ الدين أقرب إليه من المخالفين له بالرأي من المسلمين الذين يلتقون معه على أصول العقيدة نفسها»!.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

٨

«.... لعلكم تتقون»

قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

يقول علماءُ اللغة: من أشهر معاني (لعلَّ): الترجّي، وهو ترقُّب شيءٍ لا وثوقَ بحصوله، ويدخلُ فيه الطّمع، وهو ترقب شيءٍ محبوب، نحو: لعلّ الحبيب قادمٌ، والإشفاق، وهو ترقّب شيءٍ مكروه، نحو: لعلّ المريض يموت. وقد اتفق جميع النحاة (كما جاء في المعجم الوسيط) على أن الترجّي هو المعنى المراد من (لعلّ).

كتب الله سبحانه علينا الصيام (لعلّنا) نتقي، والترجّي هو منّا نحن، لا من الله سبحانه، أي: افعلوا ذلك رجاءَ أن تكونوا من المتقين. أو: افعلوا ذلك (كي) تكونوا من المتقين. (انظر: تفسير القرطبي: ج١ ص٢٢٦).

فالتقوى هي غاية الصّوم، فما لم تحصل يكونُ صومنا لم يحقّق غايته، وإذا حصلت تحقّقت الغاية، فالأمر إذن - فيما أرى - جِدٌّ لا هزل فيه، يحتاج إلى قدح (زناد الفكر) و(زناد القلب) لِنعلم: هل صُمْنا حقيقةً، أم صُمنا ظاهراً فقط؟! «من لم يدع قولَ الزّور والعملَ به، فلا حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه». رواه البخاري. و«رُبَّ صائمٍ حظُّه من صيامه الجوعُ والعطش، وربَّ قائمٍ حظّه من قيامه السّهر» رواه أحمد.

يقول سيد قطب رحمه الله في «الظلال»: «وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم.. إنها التقوى.. فالتقوى التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة طاعةً لله، وإيثاراً لرضاه. والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية.. والمخاطبون بالقرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه، فهي غايةٌ تتطلّع إليها أرواحُهم، وهذا الصّوم أداةٌ من أدواتها، وطريقٌ مُوصِلٌ إليها، ومن ثمَّ يرفعُها السّياق، أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتّجهون إليه عن طريق الصيام (لعلكم تتقون)».

يقول عبقريُّ البيان مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه القيّم: «وحي القلم»، في مقالٍ له كتبه في شهر رمضان عام ١٣٥٣هـ، تحت عنوان: «فلسفة الصيام»، بعد أن أبدع في تحليل بعض معاني الصوم، وانتقد أخطاء الاشتراكية وبعض المذاهب الاجتماعية الأخرى، يقول: «كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم، فإنما استخرجتُه من هذه الآية الكريمة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾..

«وقد أوّلتُ الآية من (الاتّقاء)، فبالصّوم يتّقي المرءُ على نفسه أن يكونَ كالحيوان الذي شريعتُه مَعِدتُه، وألاّ يعاملَ الدنيا إلا بموادِّ هذه الشريعة، ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسانٍ كحمارٍ مع إنسان: يبيعُه القوة كلَّها بالقليل من العلف!».

ويقول قبل ذلك: «أمَا والله لو عمَّ هذا الصّومُ الإسلاميُّ أهل الأرض جميعاً لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلّها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السَّنة، لتطهير العالم مِن رذائله وفساده، ومَحْقِ الأَثَرة والبخل فيه، وطَرْحِ المسألة النفسية ليتدارسَها أهلُ الأرض دراسةً عمليةً مدةَ هذا الشهر بطوله، فيهبطَ كلُّ رجلٍ وكلُّ امرأةٍ إلى أعماقِ نفسه ومكامنِها، ليختبر في مصنع فِكْره

معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهمَ في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصّبر والثباتِ والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجاتِ الإنسانية والمواساة والإحسان، فيحقّقَ بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة».

٩

(.. ليدّبروا آياته...)

يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن القرآن الكريم، وعن الهدف من تنزيله:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

فالقرآن الكريم، هذا الكتاب المعجزة، ذو الخصائص العجيبة، والمزايا التي لاتُحصى، ومنها التعبّد بمجرد تلاوته، ونيل الحسنات بمجرد قراءته، إلا أن المقصد الأول من إنزاله هو (تدبُّرُ) آياته، وتذكُّر أصحابِ العقولِ والأفهام، ليعيشَ به المسلمون في واقع حياتهم، بل لتعيش به الإنسانية سعادةَ الدنيا والآخرة. و(التدبّر) هو المرحلة التي تسبق العمل. ومن هنا نتساءل: ما أهميةُ القراءة بدون فهم وتدبر؟ وما أهمية الفهم بدون تطبيق، ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢].

وإذا نظرنا إلى واقعنا نحن المسلمين مع القرآن نجد أنه واقع مؤرّق، وعلاقتنا به يحكمها الهجر والعقوق حتى لكأنَّ بعض عِلل الأمم السابقة التي حذّر منها القرآن قد تسرّبت إلينا! قال تعالى واصفاً حال اليهود: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ... ﴾ [البقرة: ٧٨]، وقد نقل الإمام ابن تيمية رحمه الله في تفسير هذه الآية أن الأميين هنا هم غير العارفين بمعنى ما يقرؤون، يعلمونه ويقرؤنه بلا فهم، لا يدرون ما فيه، وقوله: «إلا أمانيّ» أي: تلاوةً، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يُتلى عليهم[1].

---

(١) انظر: مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب: كيف نتعامل مع القرآن.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ما معناه[1]: حال المسلمين اليوم مع القرآن الكريم تستدعي الدراسة المعمّقة، ذلك أن المسلمين - بعد القرون الأولى - انصرف اهتمامُهم بكتابهم إلى ناحية التلاوة، وضبطِ مخارج الحروف، وإتقان الغُنن والمدود (أقول: إن الشيخ رحمه الله متفائل، فهذا القدْر الأضْألُ غيرُ متحقّقٍ فينا!!).. لكنهم - بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم - صنعوا شيئاً ربما لم تصنعه الأمم الأخرى، فإنّ كلمة (قرأتُ) عندما يقولها الإنسان تعني - مثلاً - أنّ رسالةً جاءته، أو كتاباً وقع بين يديه، فنظر فيه، وفهم المقصود منه، فلا فكاك بين الفهم والقراءة، أما الأمة الإسلامية اليوم فقد فصلت بين التلاوة والتدبّر، فأصبحنا - إذا قرأنا - نقرأ لمجرد البركة، (أو نيل حسناتِ التلاوة)، وكأنّ ترديد الألفاظ دون وعيٍ لمعانيها، وعملٍ بما فيها هو المقصود! لذلك وجدنا الأمة الإسلامية عندما هجرت كتابها، أو على الأقل أخذت تقرؤه على أنه تراتيلُ دينية، فإنها فقدتْ صلتها بالكون، وكانت النتيجة أنّ الذين درسوا الكون خدموا به الكفر، واستطاعوا تسخير الكون لأنفسهم، ومبادئهم، أما نحن - ومع أنّ كتابنا كتابُ الفكر، وكتاب تجاوبٍ مع الكون - فما الذي صرفنا عن هذا كلّه؟

القرآن كتابٌ يصنع النفوسَ، ويصنع الأمم، ويبني الحضارات.. هذه قدرته.. هذه طاقته.. فأما أن يُشعَلَ المصباح فلا يرى امرءٌ النور لأنّ بصره مغلق، فالعيبُ عيبُ البصر، وليس عيبَ النور:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ... ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) المرجع السابق: ص٢٧ وما بعدها

يقول عالم النفس المسلم د. مالك البدري في كتاب له لطيف الحجم، غزير الفائدة عنوانه: التفكر .. من المشاهدة إلى الشهود (وأنقل كلامه بشيء من التصرف): إذا داوم المرء على التفكر أصبح له عادةً طيبة مباركة، وخشع قلبه، واصبح يستجيب لكل (مثير) في بيئته بالطيّب من الأحاسيس والمشاعر.

ويرى الدارسون لظاهرة (التأمل الارتقائي) أن:

١- تركيز الذهن، ٢- مع الترديد لمعنى إيماني، أو لصورةٍ ذهنية لها قيمة كبيرة لدى الشخص المتفكر، سيؤديان به إلى تصوّر أعمق، ومفاهيم جديدة عن موضوع التفكر والتأمل، ويرتقيان به إلى أفق أرفع من المعاني والتصورات التي لم يكن يدركها بسبب الحياة العادية، والألفة، والإدراك الحسي الروتيني المحدود. ومن ثمَّ وُصف ذلك التأمل بالارتقائي، لأن صاحبه يرتقي من أفق إلى أفقٍ أعلى منه.

هل هناك أعلى وأغلى وأروع من القرآن الكريم مادة للتفكير والتأمل والتدبر، وتركيز الذهن، والتكرار؟ أليس في الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة في الأذكار اذكارٌ بعضها يُكرّر ثلاث مرات، وبعضها سبعاً، وبعضها عشراً، وبعضها ثلاثاً وثلاثين، وبعضها مئة مرة، وبعضها كلما أكثر منها صاحبها كان أكبر أجراً؟

لقد كان بعض السّلف رضي الله عنهم يكررون الآية الواحدة، أو شطر الآية مرات عديدة، وكان بعضهم ينفق في السورة الواحدة أو جزءٍ منها عدة ساعات، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلة كاملة بآية واحدة، يقرؤها، ويرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى في سورة المائدة حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿إن تُعذّبهم فإنهم عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، رواه

أحمد. هذا - إذن - الأصل الشرعي لفكرة التكرار بوصفه معيناً على التفكر والتدبر.

يقول الدكتور مالك البدري: «ومن الإرشادات المهمة التي يجب على المتأمل اتباعها: إهمال الأفكار والخواطر التي لا تفتأ (تحشر نفسها) في ذهنه لتمنعه من التركيز فيما يتأمل، وعليه أن يعود لتركيز ذهنه مرةً أخرى فيما اختاره موضوعاً لتفكره وتأمله. ويكون مسترخياً في جلسته، ومع مرور الأيام يتدرب على هذا، فيزداد تفكره عمقاً. وقد وجد كثير من الباحثين أن الذي يقوم بهذا التأمل مرتين في اليوم، صباحاً ومساءً، لمدة عشرين دقيقة في كل مرة، تتحسن صحته النفسية والجسمية، ويصبح أكثر تفاؤلاً، وقدرة على الإنتاج والإبداع».

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في تهذيب مدارج المسالكين: «إن المؤمن المتفكر الذاكر يُفتح له باب الأنس بالخلوة، والوحدة في الأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته (أي: تعينه على التركيز)، وتسدّ عليه الأبواب التي تفرّق همّه (أي: التي تُشتّتُ ذهنه)، ثم يُفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها»، لذا قال الحسن البصري رحمه الله: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، (يعني: بدون تفكر وتدبر).

ومما يُعين على التدبر اختيار المكان المناسب، كالمسجد، أو ركنٍ هادئ لا يقطع على المرء فيه خلوته مع القرآن الكريم، زيارة، أو حديثٌ، أو رنينُ هاتف، واختيار وقتٍ يكون فيه الجسم مرتاحاً، والذهن صافياً.



لا أدري؟!

مَنْ مِنَ الناس يحيط بأكثر العلم، حتى وإن كان عالماً كبيراً؟ ومن يستطيع أن يجيب عن كل سؤال يوجّه إليه؟ وهل هناك عارٌ على عالم أو معلّمٍ إذا سُئل سؤالاً أن يقول: لا أدري؟ ولماذا كان بعض العلماء القدامى - بعد أن يكتب أحدهم رأيهُ في مسألة من مسائل العلم، ويجتهد في بيان الصواب - يقول في نهاية كلامه: والله تعالى أعلم؟ ذلك لأن الله تعالى - ولا شك - أعلم، وبأنه - مع اقتناعه التام بما كتب اليوم - قد يغيّر رأيه غداً، وقد ينفتح له ما كان مغلقاً عليه، وينكشف ما كان مستوراً عنه، وربما ناقشه عالم أعمق منه علماً، وأوسع إحاطة فبيّن له خطأه.

إنّ كثرة الجزم والقطع بالصّواب، وأنّ الوجه الذي يراه طالب العلم هو الوجهُ الذي لا صوابَ غيره هو - فيما أرى - علامةٌ على قلة العلم، أو قلة العقل، أو على قلّتهما معاً.

قال التابعي الجليل الثقة محمد بن عجلان رحمه الله، إذا أخطأ العالم قول: (لا أدري) أُصيبت مقاتلُه. يعني: إذا ترك العالم قول: لا أدري، إذا سئل سؤالاً لا يعلم جوابه، فتكلم في مسألة من العلم لا يعلمها، فأخطأ، أصيبت مقاتله: فعرّض نفسه لغضب الله عليه، ولاحتقار الناس له. فينبغي لمن سئل عن أمر لا يعرفه أن يقول: لا أدري.

وقد تكلم في هذا المعنى إمامان متعاصران: ابن عبد البر حافظ المغرب

المتوفى عام ٤٦٣هـ، والخطيب البغدادي حافظ المشرق المتوفى في العام نفسه رحمهما الله، الأول في كتابه: جامع بيان العلم وفضله تحت عنوان: «باب ما يلزم العالمَ إذا سئل عما لا يدريه من وجوه العلم»، والثاني في كتابه: الفقيه والمتفقه تحت عنوان: «باب ما جاء في الإحجام عن الجواب إذا خفي عن المسؤول وجه الصواب». وقد نظم ابن دُريد هذا المعنى شعراً فقال:

ومن كان يهوى أن يُرى متصدّراً
ويكره «لا أدري» أُصيبَت مَقاتلُه

ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه (الفقيه والمتفقه: ٦٩/٢) أن الإمام الكبير سفيان الثوري رحمه الله قال: «إذا رأيتَ الرجل يعمل العمل الذي اختُلف فيه وأنت ترى غيره: فلا تنهه!».

كما ذكر في كتابه تاريخ بغداد (٣٥٢/١٣) عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله: «قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه. فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا».

وقد أثنى الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - على الإمام إسحاق بن راهويه ثناء عاطراً، وقال عنه: إنه في علمه لا نظير له مع أنه يخالفه في العديد من المسائل، كما جاء في «سير أعلام النبلاء» (١١ / ٣٧١)، فقال: «لم يعبر الجسرَ إلى خراسان مثلُ إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً».

ألحقتُ هذه النقول اليسيرة عن بعض الأئمة الكبار في احترام الرأي المخالف بالحديث عن قول الرجل: لا أدري، لما لا يعلم، لأن أكثر الذين (يجترئون) على العلم يتّصفون بالتعصب وضيق الأفق، ويوقعون الناس في

الحـرج، والتـشتّت، والانقـسام، والتنابز بالألقـاب، وهم يتـحـدثون في مـسـائل اجتهادية اختلفت فيـها الآراء، وفيـها والحـمـد لله سعة، فيـقولون: هذا باطل، وهذا: لا يجوز، وهذا: لا يجـزئ... إلخ، عن أقوال مشهورة معتمـدة عند ألوف العلمـاء على مـرّ السنين، بحـجـة أنهـا (تخـالف الدليل) وهـي تخـالف (فـهـمـهم للدليل)!!.

١١

الثقافة الثالثة

في عام ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨م) صدرت الطبعة الأولى من كتاب لطيف الحجم، كبير الفائدة لقارئ مثلي عنوانه: الثقافة الثالثة - أوراق في التجربة اليابانية وموقف المتفرج العربي منها، لمؤلفه الأستاذ شاكر النابلسي.

اشتريت الكتاب لاهتمامي بموضوعه، وأعجبني قول المؤلف: «وموقف المتفرّج العربي منها» لأن فيه تفاؤلاً أرجو أن يكون صحيحاً، وأن يتحول المتفرج إلى صانعٍ مشارك. أما أنا فقد كنت، ولا أزال، أرى أن العربي لم يصل إلى مرحلة المتفرَج: فهو إما نائم، أو لاهٍ، أو غافل، أو جاهل، أو منصرفٌ إلى أشياء أخرى، أو معصوب العينين حتى لا يتفرّج... إلخ ولا أُعمِّم، بل هذا غالب ظني، حسب اطلاعي، والله تعالى أعلم.

قال المؤلف في المقدمة (واسمح لنفسي بشيء من التصرف الأمين ليناسب المقام):

.... ثروة الشعب الياباني الوحيدة هي الإنسان، ولا شيء غير الإنسان. فقد كانت اليابان تستورد كل شيء من الخارج، حتى ملح الطعام استوردته في بعض السنوات من اليمن!.

سأل المؤلف مرافقه أول خروجهما من مطار طوكيو: ما هو سرّكم أيها اليابانيون؟ فأجابه وهو يشير بإصبعه إلى عقله أولاً، وإلى عضلات ساعده ثانياً: العقل والساعد! لا نملك غير ذلك!.

إن الشعب الياباني عرف منذ البداية ماذا يريد، وما هي أهدافه، وما هو المطلوب منه لتحقيقها، وقد تمَّ ذلك كلُّه ضمن صيغة قومية شاملة، وضمن استراتيجية عمل حضاري جديد.

يقول المؤلف تحت عنوان: التحديث، والتبعية، والتغيّر الاجتماعي: إن معظم نظريات التحديث والتبعية قد جاءتنا من الغرب، والنظريات التي تأتي من الغرب تكون عادةً نابعة من فكر الغرب المادي التجريدي، الذي ينسب كل فعلٍ إلى سبب مادي..

إن التبعية الاقتصادية تتلوها تبعية ثقافية..

... إن اهتمام الغرب (بالعالم الثالث) عموماً، وبالعالم العربي خصوصاً، لم يأتِ من خلال حضارات هذا (العالم) الغابرة، بقدر ما أتى من خلال الثروات المادية التي يملكها هذا (العالم).

إن التحديث يبقى ضرورة حيوية لا بدّ منها، تفرضها سنة الكون، ومنطق الحياة المتغير المتطور أبداً (والمؤلف لا يعني تحديث القيم، والعقائد، والأخلاق، أي: لا يعني تحديث الثوابت، بل تحديث المتغيرات).

إن التحديث - في بعض الأحيان - يُحدث ما يُسمّى بالازدواجية الثقافية، والازدواجية الاجتماعية في دول (العالم الثالث)، ومن هنا نشأ الخوف منه لأنه قد يقضي على بعض الخصائص القومية. إذ من الصعب جداً على معظم الشعوب التي تطرق أبواب التحديث (أو تطرقها مَطارِقُهُ) أن تأخذ ما تشاء وتترك ما تشاء، لأن عملية الاختيار تتطلب وعياً حضارياً، ورشداً عقلانياً، وحكمة عميقة، وهذا لا يتوفر لجميع شعوب (العالم الثالث).

إن نقطة البداية من أصعب مراحل أي مشروع، ولا يزال العالم العربي

(وأقول: بل غالبية المفكرين والعلماء في العالم الإسلامي)، لا يزالون يتساءلون، ويختلفون حول نقطة البداية.

اليابانيون يأخذون وقتاً طويلاً في صناعة القرار، ولكنهم سريعون ودقيقون في تنفيذه، وبذلك يعوضون عن الإبطاء في صناعة القرار، بالسرعة في التنفيذ.

إن الجماعة في اليابان هي صانعة القرار، وليس الأفراد، وإن اليابان هي بلد الجماعات، (وإن يد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية!). والياباني لا يأكل وحده، أو يسافر وحده، أو يقضي إجازته وحده، أو يعمل بمفرده، إنه يعدّ نفسه ناقصاً، والآخرون هم الذين يكمّلونه.

إن الحديث عن اليابان حديث ذو شجون، وإن تجربتهم جديرة بمزيد من الاهتمام والدراسة من قبل المسلمين، فهذا الشعب المنقطع عن الهداية الربانية، الذي لا يملك (قرآناً وسنةً) ينيران له الدروب، استطاع أن يصنع ما صنع، فلماذا يعجز عن مجاراته، أو سبقه، المسلمون الذين يرجونَ من الله ما لا يرجو غيرهم، وهم أكثر عدداً، وأغنى موارد، وأجدر بالسبق من كل وجه؟ سؤال حزين سيظل حائراً بانتظار جواب علميٍ، إسلامي، صحيح، دقيق، حكيم، لا يقع في التعميمات، أو يطير في التهويمات، وعسى أن يكون ذلك قريباً.

١٢

أوراق الورد

هذا عنوان كتاب لأديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله. ولا صلة له بموضوع المقالة ألبتة؛ لأن الحديث سيدور عن مؤلف الكتاب لا عن الكتاب، وأحببت أن يتسمّ القارئ معي شذى أسلوب هذا الكاتب العبقري، الذي أعتقد جازماً - والله تعالى أعلم - أنه من أعظم كتّاب لغتنا الخالدة في تاريخها المُشرق العريق.

والقارئ لأدب الرافعي لا بُدّ وأن يكون ذا خبرةٍ باللغة والأدب. والبيان العالي، وإلا فلا طاقة له به، لا يعرف قيمته، ولا يذوق جماله. إن كتب الرافعي ليست لعامة المثقفين، ولا لأواسطهم، إنما هي لصفوتهم.إنه قمةٌ شامخة لا يصل إليها إلا من اعتاد تسلّق الجبال العوالي، وإن فهمه، والغوص على أعماقه، والتحليق في آفاقه، وإدراك أبعاده وامتداده، هو مجدٌ من المجد الذي قال عنه حكيم الشعراء:

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكله
لن تبلغَ المجدَ حتى تلْعَقَ الصَّبِرا

يقول الأديب الكبير محمد سعيد العريان، التلميذ الوفي للرافعي، في كتابه الممتاز: حياة الرافعي: «الرافعي سوري الأصل، مصري المولد، إسلامي الوطن: فأسرته من طرابلس الشام، يعيش على أرضها إلى اليوم أهلُه وبنو عمه، ولكن مولده بمصر، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده، والأكثرون من بني عمه

مقدمة

الحمد لله، والصَّلاة والسلام على سيِّدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فقد بدأ وعيي بذاتي وما حولي عندما كنت طالباً في الصف الأول الثانوي، في مدينة حلب الشهباء، عام (١٩٦٠م). ومنذ ذلك الحين إلى اليوم كان من أهم القضايا التي تشغل بالي: «كيفية الخروج من العطالة إلى الفاعلية»، في نفسي، ومجتمعي الصغير، وعلى مستوى الأمة المسلمة!.

وعندما تفضَّل أحد الإخوة الكرام فطلب إلي أن يكون لي في (جريدة المدينة المنورة) الزاهرة زاوية اخترت لها «زناد الفكر» عنواناً، آملاً أن أطرح فيها قضايا تحتاج إلى «قدح زناد الفكر»، أي: إلى مزيد من التفكير والتأمل المعتادين في جُلِّ ما تنشره الجرائد، وحرصت في الموضوعات التي اخترت الكتابة فيها أن تسهم - بشكل مباشر أو غير مباشر - في تحقيق ذلك الهدف الأسمى، ويكون كل مقال منها خطوة في طريق «الخروج من العطالة إلى الفاعلية»، سواء على مستوى الفرد، أم الأسرة، أم المجتمع، حتى في تلك المقالات التي ظاهرها الحديث عن كتاب في الأدب، أو قصيدة من الشعر.

وهأنذا أضع هذه المقالات أمام القارئ الكريم، سائلاً المولى سبحانه أن ينفع بها، وأن يخلِّصها مما شاب النية حين كتابتها مما يُنقص الأجر أو يمحوه، إنه أكرم مسؤول وأرجى مأمول.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.

د. أحمد البراء الأميري

الرياض: ١٦ صفر ١٤٢٤ هـ / ١٨ نيسان (ابريل) ٢٠٠٣م

أديب الأمة العربية المسلمة، يعبّر بلسانها، وينطق عن ذات نفسها، فما يعيب عليه عائبٌ إلا من نقصٍ في وسائله، أو كُدرةٍ في طبعه، أو لأنّ بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التي ينطق الرافعي بلسانها حجاباً يُباعد بينه وبين ما يقرأ روحاً ومعنى».

وسأختار بعض السطور من (وحي القلم) يتحدث فيها الرافعي عن محنة فلسطين! متى؟ والرافعي قد مات عام ١٩٣٧ للميلاد؟! يقول:

أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام؛ يريدون ألا يُثبتَ شخصيته العزيزة الحرّة.

كلّ قرشٍ يُدفع الآن لفلسطين، يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضاً.

أولئك إخواننا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في هذا الجهاد.

أولئك إخواننا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحان لضمائرنا نحن المسلمين جميعاً.

أولئك إخواننا المُضطَهدون؛ ومعنى ذلك أنّ السياسة التي أذلتهم تسألنا نحن: هل عندنا إقرار للذلّ؟

ماذا تكون نكبة الأخِ إلا أن تكون اسماً آخرَ لمروءة سائر إخوته أو مَذَلّتهم؟

ابتلَوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين: من ذلّ الماضي وتشريد الحاضر.

ويحملون في قلوبهم نقمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبهم، والأخرى من رذائلهم.

في أنفسهم الحِقد، وفي خيالهم الجنون، وفي عقولهم المكر، وفي أيديهم الذهب الذي أصبح لئيماً لأنه في أيديهم.

ثم يقول رحمه الله مخاطباً اليهود:

أجهلتم الإسلام؟ الإسلام قوةٌ كتلك التي توجِدُ الأنيابَ والمخالب في كلّ أسد. قوة تُخرج سلاحها بنفسها، لأنّ مخلوقَها عزيزٌ لم يوجد ليُؤكل، ولم يُخلق ليَذلّ. قوةٌ تجعل الصوت نفسه حين يُزمجر كأنه يُعلن الأسدّيةَ العزيزةَ إلى الجهات الأربع. قوة وراءها قلبٌ مشتعل كالبركان. تتحوّل فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم.

ولئن كانت الحوافر تُهيِّئ مخلوقاتها ليركبها الراكب، إنّ المخالبَ والأنيابَ تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر!!

أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشبع ذنب يعاقب الله عليه.

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك، فافتحوا أنتم أيديكم..

كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غير مكترثين، فارموا أنتم في سبيبل الحق بالدنانير والدراهم.

لو صام العالم الإسلامي كلُّه يوماً واحداً وبذل نفقاتِ هذا اليوم الواحد لفلسطين، لأغناها.

لو صام المسلمون جميعاً يوماً واحداً لفلسطين، لقال اليهود اليوم ما قاله آباؤهم من قبل: (إن فيها قوماً جبارين).

أيها المسلمون! هذا موطن يزيد فيه معنى المالِ المبذول فيكون شيئاً سماوياً.

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين، يتكلم يوم الحساب يقول: يارب، أنا إيمان فلان!

هذه إحدى نفحات الرافعي رحمه الله. كأنه كتبها لتنشر اليوم، وكأنها لم تكتب قبل أكثر من ستين سنة!!

١٣

هل أُرَبيَ أولادي؟!

في مقال لطيف بعنوان «كان هناك طباشير»، بقلم الدكتور خالد العواد، نشرته مجلة المعرفة (عدد شوال ١٤٢١ هـ) يقول: «يخطئ من يظنّ أن الإنسان يتعلم كل شيء في المدرسة التي يلتحق بها، أو أن هذه المدرسة- بما تعنيه من مبانٍ، وأدواتٍ، وعناصرَ بشريةٍ- هي المكان الأوحد للتعلم، أو الحصول على المعرفة: فقد أثبتت الدراسات أن الإنسان عندما يلتحق بالمدرسة وهو في سنّ السادسة. يذهب إليها بعد أن يكون قد تعلم حوالي ٧٠٪ مما يمكن أن يتعلمه في هذه السّن، واكتسب من السلوك الكثير، وتحدّدت الملامح الأساسية لشخصيته. وإذا كانت المدرسة تُكسب الطلابَ المهاراتِ، والمعلوماتِ، والمعارفَ، فإن دورها يأتي بعد أن يكون الطلاب قد مروا بأخصب فترة في حياتهم، أعني بها مرحلة ماقبل الدراسة».

ويخلص الكاتب إلى القول:

«أليس من المتوقع أن الطالب يستطيع أن يدرس الكثير والكثير عن: المناخ، والجهاز الهضمي، والمجموعة الشمسية، والبيئة، وغيرها مثلاً، من غير حاجة إلى (معلمٍ براتب)، أو فصلٍ دراسي مكتظٍّ بالطلاب، أو كتابٍ ورقي سبق إعداده في ظلّ مفاهيم علمية وتربوية هي عرضة للتطور والتحديث، ومعنى ذلك - ببساطة - أن كثيراً من المعارف والمعلومات سوف يُستعاض فيها عن المعلم (الجسد)، وعن الكتاب (الورقي)، وعن المقاعد داخل المدرسة، بما توفّره

تقنية المعلومات من إمكانات تجعل (المدرسة) سوف (تُحْتَضَر) بوضعها (الحالي)، وتجعل (المكتبة) ذات الأرفف في عداد (المعارض التراثية)، وتجعل (السبورة السوداء) جديرةً أن يكتب عليها، (كان هنا طباشير)؛ ذلك لأنه سيوجد لدينا (نموذجٌ مدرسي جديد) مختلف، ولكن سوف يبقى شيء اسمه (مدرسة)، غير أنه سيكون مختلف اللون والطعم والرائحة».

ويلي هذا المقالَ مباشرةً مقالٌ آخر بقلم الدكتور إبراهيم الدوسري، بعنوان: «هذا وهْمٌ» يستهلّه بقوله: «مجتمع بلا مدارس: أعتقد أن هذا وهْمٌ. وُجدتِ المدارسُ لتبقى، وليس في المنظور القريب ما يُشير إلى عكس ذلك».

ثم يقول: «ولتوضيح أن المجتمع لا غنى له عن المدرسة أعطي نبذة عن تطور بعض الخيارات والبدائل التعليمية للمدرسة، في بلد يتّسم بانفتاحه على كل التجارب التعليمية: الولايات المتحدة الأمريكية، ويذكر سبعة خيارات، سادسها: الدراسة المنزلية، أو التعليمُ في المنزل، وهو الذي له صلة بموضوع هذه المقالة، وفيه يقول:

« يمثل هذا النوع (الذي لا يزال عاجزاً عن النهوض دون دعمٍ من المدرسة الحالية، وعن توفير تعليمٍ عبر كامل السلّم التعليمي، أو كلّ الموادِ الدراسية)، يمثل بديلاً للمدرسة، حيث يتلقى الطفل، كلَّ أو جُلَّ تعليمه داخل المنزل. ويُعزى السبب لظهور هذا النوع من التعليم إلى عدة دوافع:

- بعضها دينية، لأن تدريس الدين ممنوع في المدرسة.
- وبعضها اجتماعية للوقاية من الجريمة، والمخدرات، والعنف داخل المدرسة.
- وبعضها أُسرية أو تربوية، بتوفير تعليم يعتمد على الخبرة والاستقلالية والمزيد من الحرية في اختيار ما يتم تعلمه.

وهناك حالياً مايزيد على مليون طفل يتلقون تعليمهم (من الصف الأول حتى الصف الثاني عشر) دون الذهاب إلى المدرسة، أي ما يعادل حوالي ٢.٦٪ من طلبة التعليم العام البالغِ عَدَدُهم (٤٧) مليون طالب».

ماذا أريد أن أقول بعد هذه النقول؟

- سبعون في المئة مما يمكن أن يتعلمه طفل السادسة من العمر، تمّ تعلّمه في البيت: من المعرفة، والأخلاق، والعادات، والسلوك.. إلخ
- مليون طفل في الولايات المتحدة يدرسون في بيوتهم اثنتي عشرة سنة!!
- ماذا يفعل الأبوان المسلمان إزاء هذا الواقع؟!!!
- هل يخصص الأبوان من وقتهما ما يكفي لتربية الأولاد وتعليمهم؟
- هل يعيش الأبوان مع أطفالهم في عوالم طفولتهم ويُصغون إلى أحاديث عقولهم وقلوبهم؟ ويعينونهم على حلّ مشكلاتهم؟
- هل عندهم العلم الكافي: أولاً: ليعلموهم، وثانياً: ليربّوهم؟
- هل يشكون من ضيق الوقت، وزحمة الأعباء، وتكاثر الواجبات الاجتماعية، أم أن هذه أعذار يعلم الله أنها في حقيقتها (كذب وبهتان)!!! وأن المشكلة هي: في عدم تنظيم الأوقات، وعدم ترتيب الأولويات، وعدم تحديد الأهداف... فالزائر الطارئ، والهاتف الفارغ، والتلفاز المدمّر، وغيرُها مُقَدَّمَةٌ على حقّ الله في تربية الأولاد، وتعليمهم، وتدريسهم، وإعدادهم للنجاح في الدنيا والآخرة؟! ثم نشكو بعد ذلك ونتساءل: لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟ فإلى الله المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

١٤

عالمٌ بلا زجاج!

لو سألني سائل أن أذكر عدداً من الاختراعات التي أثَّرتْ تأثيراً بالغاً في (حياة) البشرية. لقلت له دوه تردّد: الزجاج. وبالفعل فقد سألني أخ مثقف هذا السؤال. واستغرب من إجابتي! قال: أنسيت المطبعة؟ أنسيت الحاسب الآلي؟ أنسيت كذا وكذا..؟ قلت له: لا، ولكنك نسيت الزجاج!

لولا الزجاج كيف سترى الطريق وأنت في سيارتك أو طيارتك؟ كيف سيُصنع المصباح الكهربائي؟ كيف ستستقبل النوافذ الضوءَ، فتحتفظ بالحرارة وتمنع البرودة؟ ممَّ ستصنع شاشاتُ الحاسبات؟ كيف ستقي الآلاتِ الدقيقةَ والأجهزةَ الحسّاسة البردَ، والغبارَ، وعبثَ الأيدي؟ كيف، وكيف، وكيف؟ ومع أهمية الزجاج، لا يلتفت إليه أحد! وهناك أمور غايةٌ في الأهمية لا تأخذ حظها من عنايتنا.

قال صاحبي: مثل ماذا؟ قلت: مثل: بناء الأسرة السعيدة الناجحة!

إنني أعيش على ظهر هذا الكوكب منذ أكثر من نصف قرن، وقد سمعت مئاتِ المرات أحاديثَ مكررة عن أمور صغيرة، وقرأتُ عن قضايا ثانوية أُلّفتْ حولها المجلدات، واستمعت محاضراتٍ، ودروساً، ومواعظ في الكثير من الأمور التي هي في الأهمية أقلُّ ألفَ مرة من: بناء الأسرة السعيدة، فلماذا هذه الغفلة، وما سبب هذا الخلل؟

دعني آخذ - مثالاً - أسرةً شقية وانظرُ ماذا ينجم عنها:

اختلاف وشجار بين الزوجين، أثر ذلك السلبي على صحتهما النفسية والجسمية، ليالٍ من الأرق بسبب الخصام ينتج عنه تعب وحاجة إلى النوم في اليوم التالي؛ إذ كيف سيعمل بمهارة وكفايةٍ من نام ثلاثَ ساعات بدلاً من سبع؟ إذا كان مدرّساً، كيف سيُدرِّس؟ وإن كان جرّاحاً كيف سيجري عملياته؟ وإن كان سائقاً فماذا سيسبب له نعاسُه؟

إذا كان في الأسرة أولاد: ماذا سيسبب لهم شجار الوالدين... وكيف سيُربُّونَ على الخلق المستقيم، والأخلاق الحميدة (كالصدق، والاستقامة، والشجاعة، والكرم..)، وعلى العادات الحسنة (كالنوم المبكر والاستيقاظ المبكر، وممارسة الرياضة، وحبِّ القراءة، والاعتدالِ في الطعام والشراب، واختيارِ النافع منهما..)؟! من سيربيهم على حسن الاستفادة من الوقت، وعلى أدب الحوار، وعلى التفكير السليم، وعلى أن يكون لهم أهدافٌ سامية في الحياة، يعرفون كيف يضعون الخطط الصحيحة لتحقيقها؟ مَن سيربيهم- قبلَ كل شيء وبعدَ كل شيء- على حبِّ الله تعالى، وخشيته، وتقواه، وما يثمره هذا الحب من كنوزٍ دنيوية وأخروية تتضاءل أمامها الكنوز! من سيفعل هذا إذا كان فاقد الشيء لا يعطيه؟!

لقد جئنا إلى الحياة لنعيشَ، ثم نموتَ لنعيش!!!

فلماذا لا نتعلم كيف نعيش؟ لماذا لا نتعلم كيف نعيش؟؟

أيها الآباء والأمهات.. أيها المعلمون والمعلمات..

أيها المفكرون والأدباء... يا أنظمة التربية والتعليم.. يا مدارس.. ياجامعات... يا علماءُ ويا فضلاء.. علّموا أولادكم كيف يعيشون بالطريقة المثلى التي تُرضي ربهم، وتُعلي مقامهم في الدنيا والآخرة!

علّموهم كيف يسعدون بالنعم الغامرة التي أغدقها الله عليهم ويحيطونها بسياج الشكر حتى لا تضيع! علّموهم كيف يكتشفون ما أودعه الله سبحانه فيهم من طاقات كامنةٍ هائلة ويُحسنون استثمارها!

علّموهم ذلك، أولاً: بأن تتعلموه، ثم: بأن تعيشوه أمامهم قدوةً صالحةً وأنموذجاً يحتذى، ثم: بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالرفق الذي ما دخل في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه.

إنّ (الأسرة الناجحة السعيدة) هي من أهمّ العوامل على الإطلاق في نجاح الأفراد، والمجتمعات، والأمم، والشعوب، والدول، وإنها لم تأخذ عُشر مِعشار حقّها من الرعاية والعناية والاهتمام، وليست هذه السطور إلا نفثةٌ حرّى، وإهابة بكل من يقرؤها ليسعى إلى تحقيق هذه الرسالة السامية.

١٥

الأدب الصغير والأدب الكبير

قال العلامة محمد كرد علي في كتابه «أمراء البيان»: «صحة الإيمان وحبّ الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفّع، مهما تقوّل عليه المتقولون، وكان إلى هذا رجلَ نجدةٍ، وأنَفةٍ، وكَرَم أخلاق، ومروءة، ووفاء، وحسن عشرة، وكان ربَّ جدٍّ وعمل، لا يستند في أموره على الخيال، وجُلّ اعتماده على عقله وتجاربه، وتجارب من سلف من حكماء الأمم، وكان محافظاً على شعائره..»

وقال عنه أبو حيان التوحيدي: «وهو أصيل في الفُرس، عريقٌ في العجم، مُفضَّل بين أهل الفضل... وكان سريّاً، سخياً، يُطعم الطعامَ، ويتّسع على كلّ من يحتاج إليه». ووصفه الجاحظ بقوله: «كان جواداً، فارساً، جميلاً».

وذكر الجهشياري في كتابه: «الوزراء والكتاب» القصة التالية، وكانت بعد سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، وملاحقة العباسيين لرجال تلك الدولة:

طُلب عبد الحميد الكاتب -وكان صديقاً لابن المقفع- ففاجأهما الطَّلَبُ وهما في بيتٍ، فقال الذين دخلوا عليهما: أيّكما عبدُ الحميد؟ فقال كلٌّ واحدٍ منهما: أنا، خوفاً مِن أن يُنالَ صاحبهُ بمكروه.. !!

ولا يُهمّنا عبد الله بن المقفع بشخصه، فقد مات الرجل قبل أكثر من ألف عام، لكننا نتحدث عن كتابه القيّم: «الأدب الصغير، والأدب الكبير» الذي ملأه كنوزاً من الحكم ينتفع بها العاقل اليوم، وغداً، كما انتفع بها في الأمس القريب والبعيد.

يقول الدكتور مفيد قميحة في مقدمته للكتاب: الأدب الصغير والأدب الكبير رسالتان، بل كتابان غايتهما الإصلاح السياسي والاجتماعي... تركّز الأدب الكبير حول نقطتين رئيستين هما: السلطان وما يتعلق به من شؤون، والصداقة وما يتعلق بها من روابط ومعاملات، وضمَّ الأدبُ الصغيرُ شذراتٍ متفرقةً، وخواطرَ متعددةً، اعتَصَرَتْ في كلماتها القلائلِ زُبدةَ التجارب الماضية، واختزَلَتْ في ألفاظٍ مختارة مُنتقاة حكمَ الأسلاف، ومواعظهم وآراءهم في الحياة والوجود.

يقول ابن المقفع رحمه الله: «على العاقل ان يُحصي على نفسه مساوئها: في الدين، وفي الأخلاق، وفي الآداب، فيجمعَ ذلك كلّه في صدره، أو في كتاب، ثم يُكثر عرضَه على نفسه، ويكلّفها إصلاحَه، ويوظّف ذلك عليها توظيفاً، من إصلاحِ الخَلَّةِ، والخلتين، والخِلال، في اليوم، أو الجمُعة، أو الشهر.

فكلما أصلحَ شيئاً محاه، وكلما نظر إلى مَحْوٍ استبشر، وكلما نظر إلى ثابتٍ اكتأب».

وإذا أردنا أن نعبِّر عما قاله الحكيم بأسلوب عصرنا، ونفصلّه بعض التفصيل قلنا:

إن العاقل الحكيم يسعى في إصلاح عيوبه وأخطائه ومساوئه، سواءٌ كانت دينيةً؛ كالغِيبة: وفي التهاونِ في أداء الصلاة والزكاة، أو خُلُقيةً: كسرعة الغضب، أو من العادات والآداب؛ كمقاطعة من يتحدّث في أثناء حديثه، أو حتى إهمال تنظيف الأسنان، والاستحمام وتقليم الأظافر.

ويكتب هذه العيوبَ في دفتر صغير يتّخذه، لا يُطلِع عليه أحداً، ويطالع هذا الدفتر مراتٍ في اليوم. ثم يأخذ خَصلةً واحدة يكلّف نفسَه إصلاحها.

وقد يحتاج في ذلك إلى وقتٍ يطول أو يقصر، فإذا انتهى منها، محاها، وانتقل إلى غيرها، وهكذا.

وعندما كنت طالباً في الصف الأول الثانوي (عام ١٩٦٠م)، صحوتُ على نفسي، وتأثرتُ بحكمةٍ تروى عن سيدنا عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه تقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوهَا قبل أن توزنوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر. فاتخذتُ لنفسي دفتراً صغيراً رسمتُ جداول كتبتُ فيها ما أحبّ أن أتحلّى به، وأتخلّى عنه من الأخلاق والعادات، ولبثتُ على ذلك عاماً وبعضَ عام، فاستفدتُ فوائد كثيرة، ثم توقفتُ، فتقهقرت، وإلى الله المشتكى!

وقال رحمه الله:

«لا تعتذرنَّ إلا إلى من يحبّ أن يجدَ لك عُذراً، ولا تستعيننَّ إلا بمن يُحبّ أن يُظفرَك بحاجتكَ، ولا تُحدِثَنَّ إلا من يرى حديثَك مَغْنَماً، ما لم يغْلِبْكَ.

«وإذا اعتذر إليك معتذرٌ فتلقَّهُ بوجهٍ مُشرقٍ، وبِشرٍ، ولسانٍ طلقٍ، إلا أن يكون ممّن قطيعتُه غنيمةٌ».

أما أنا فأرى أن يعتذر المرء لمن أخطأ معه، وإن كان نذلاً، لا لكرامته، إنما لكرامة نفسِ الحرّ عليه، ولأن الحقّ أحقُّ أن يُتبع.

ثم يقول: «إذا غرستَ من المعروف غَرْساً، وأنفقتَ عليه نفقةً، فلا تبخل في تربية ما غرستَ واستنمائه، فتذهب النفقةُ الأولى ضيَاعاً».

وهذا قريب من الذي يتصدّق بصدقةٍ، ثم يُبطل أجرها بالمنّ والأذى.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (المتوفى عام ١٣٧٦ هـ) رحمه الله تعالى:

في تفسير هذه الآية من سورة البقرة ما معناه:

كما أن الحسنات يذهبن السيئات، فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات. والصفوان: هو الحجر الأملس الشديد، أصابه مطرٌ غزير، فغسل التراب عنه، فكذلك حال المرائي: قلبه غليظٌ قاسٍ بمنزلة الصخر، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الحجر الأملس، إذا رآه من لا يعرف حقيقة حاله ظن أنه أرض زكية صالحة للنبات، فإذا انكشفت الحقيقة، وزال التراب، تبين أن عمله بمنزلة السراب، فلهذا لا يقدرون على شيء من أعمالهم لأنهم وضعوها في غير موضعها، وجعلوها لمخلوقٍ مثلهم، فصرف الله قلوبهم عن الهداية.

وأقربُ إلى الآية الكريمة السابقة من قول ابن المقفع السابق قولُه:

«إذا كانت لك عند أحد صنيعة (أي: معروف)، أوكان لك عليه طَوْل (أي: فضل)، فالتمس إحياءَ ذلك بإماتته، وتعظيمَه بالتصغير له، ولا تقتصِرَنَّ في قلَّة المنّ به على أن تقول: لا أذكره، ولا أصغي إلى من يذكره، فإن هذا قد يستحيي منه بعضُ مَنْ لا يوصف بعقلٍ ولا كرم، ولكنِ احذر أن يكون في مجالستك إياه، وما تكلمّه به، أو تستعينُه عليه، أو تجاريه فيه، شيء من الاستطالة (أي: التفضّل)، فإن الاستطالة تهدمُ الصّنيعةَ، وتكدّرُ المعروف».

ومن بديع الحكم قوله:

•احترس من ١- سَوْرة (شِدَّة) الغضب، ٢- وسورة الحميَّة،

٣- وسورة الحِقد، ٤- وسورة الجهل،

•وأعدد لكل شيءٍ من ذلك عُدّةً تجاهده بها من: ١- الحلم، ٢- والتفكّر،

٣- والرويّة، ٤- وذكر العاقبة، ٥- وطلب الفضيلة.

«واعلم أنك لا تُصيب الغَلَبةَ إلا بالاجتهاد والفضل، وأنّ قلّةَ الإعدادِ لُمدافعة الطبائعِ المتطلّعةِ هو الاستسلامُ لها، فإنه ليس أحدٌ من الناس إلا وفيه من كلّ طبيعةِ سوءُ غريزة، وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السّوء. فأما أن يسْلم أحدٌ من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع. إلا أن الرجل القويّ إذا كابرها بالقمع لها كلّما تطلّعت لم يلبثْ أن يميتهَا حتى كأنها ليست فيه. وهي في ذلك كامنةٌ كُمونَ النار في العُود. فإذا وجدتْ قادحاً من علّةٍ، أو غفلة، استورتْ (يعني: اتّقدت واستعرت) كما تستوري النار على القدح، ثم لا يبدأ ضُرُّها إلا بصاحبها، كما لا تبدأ النار إلا بعودها الذي كانت فيه».

ما أحكم هذا الكلام! وما أجدره بالتأمل العميق والتطبيق! والله الموفق.

١٦

شذرات للتأمل

من أشهر الكتب التي صدرت قبل سنوات باللغة الإنجليزية، ووضع لها القبول، وترجمت إلى عدة لغات، منها العربية، كتاب: ستيفن كوفي: «العادات السبع للأشخاص ذوي التأثير العالي»، وهذه ترجمة حرفية للعنوان، آثرتها لإن إحدى الترجمتين العربيتين: غيّرت في العنوان تغييراً مخلاً والثانية: وجدتُ فيها أخطاءً تغيّر المعنى تغييراً كاملاً. هاتان الترجمتان اطّلعتُ عليهما. وربما هناك غيرهما، وقارنتهما بالأصل الإنجليزي، فازددت يقيناً بأن الذي يقرأ الترجمات يقرأ شيئاً آخر قد يكون مشابهاً، وقد يكون مختلفاً عن الأصل. ولكنْ ماحيلة من لا يستطيع أن يقرأ إلا بلغته؟!

قرأت من إحدى الترجمتين (٥٦) صفحة، ووضعت إشاراتٍ على جمل وأفكار أعجبتني، فأحببت أن أضعها بين يدي القارئ الكريم. ولو بشيء من التصرّف في التعبير، ليتأملها، ويكرر قراءتها مثنى وثلاث:

يقول المؤلف:

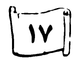
- خلال أكثر من (٢٥) عاماً من التعامل مع الناس: في العمل، والجامعة. والجلسات العائلية والزوجية، تعرّفتُ على العديد من الذين حققوا درجةً مدهشة من النجاح الخارجي، لكنهم وجدوا أنفسهم في صراع مع جوع داخلي وحاجةٍ عميقة للانسجام والتوافق مع ذواتهم، وحاجةٍ لعلاقات ناضجة مع الآخرين.

- علينا أن نهتم بعيننا التي نرى العالم بها، اهتمامنا بالأشياء التي نراها، لأن عيننا هي التي تشكّل العالم، وتفسّره لنا، وبالأصح: نفسّره نحن حسبما نراه.
- وإذا أردنا أن نغيّر أوضاعنا فإن علينا أولاً أن نغيّر أنفسنا، ولكي نغيّر أنفسنا ينبغي أن نغيّر مداركنا. بل: علينا أن نصحّح نظرتنا إلى الأمور.
- قدر الوضوح والموضوعية التي نعتقد أننا نرى بها الأشياء، نكتشف أن الآخرين يرون هذه الأشياء بشكل مختلف، بنفس القدر من الوضوح والموضوعية، من وجهة نظرهم، فموقفنا يعتمد على المكان الذي نجلس فيه. (طبعاً هذا في الغالب، ولانُعمِّم). وحينما لا يتفّق الآخرون معنا، نعتقد على الفور أنهم مخطئون، وقد نكون نحن المخطئين!
- من المستحيل علينا أن نخرق القانون الطبيعي الذي اقتضت الحكمةُ الإلهيةُ وجودَه، لكننا لا نستطيع أن نحطّم أنفسنا بالاصطدام به! إن عملية التطوّر الطبيعي لا يمكن انتهاكُها، أوتجاهلُها، أو اختصارها، ومحاولةُ البحث عن طريقٍ مختصر لن يؤدي إلا إلى الخيبة والإحباط. وقد قال العرب قديماً: مَنْ تعجّل الشيءَ قبل أوانه عُوقب بحرمانه.
- علّمتني الخبرة أن هناك أوقاتاً للتعليم، وأوقاتاً لا يجوز التعليم فيها: فحين تكون العلاقاتُ متوترةً، والجوُ مشحوناً بالانفعالات تبدو محاولة التعليم وكأنها نوعٌ من التأنيب يُقابَل بالرفض. لكنَّ الحديث (مع الولد، أو البنت، أو الطالب، أو...) بهدوء، حين يكون وحدَه، هادئاً ومتجاوباً يكون أثره أكبر بكثير.
- كلما لجأ الناس إلى الحلول السّريعة للمشكلات المزمنة، والآلام الحادة، أسهم ذلك في طمْسِ معالم المشكلات، وعدم حلها. فالطريقة التي نرى بها المشكلة جزءٌ من المشكلة وجزءٌ من حلّها. يقول ألبرت إنشتاين: «لا يمكننا أن نحلّ المشكلاتِ التي نواجهها بنفس مستوى التفكير الذي كنا عليه عندما أوجدناها»!

* إن شخصيّتنا هي- إلى حد كبير- مجموعةُ عاداتنا. ازرع فكرةً تحصدْ فِعلاً. ازرعْ فِعلاً تحصدْ عادة. ازرع عادةً تحصدْ شخصية تحصد مصيراً.
* العاداتُ مثل الحِبال الفولاذية، نجدلُ فيها كلَّ يوم سِلْكاً، بعد ذلك يصعب علينا قطعُها، أو نعجزُ عن قطعها.
* إذا كنتُ تابعاً لأحد من الناحية العاطفية، فإنَّ إحساسي بكياني وأمني يأتي من رأي ذلك الشخص بي. فإنْ كرهني فقد يدمِّرُني. وإذا كنتُ تابعاً لي من الناحية الذهنية والعقلية فإني أعتمد عليه كي يفكر لي، ويحلَّ له المشكلات المتعلقة بحياتي.
* تستطيع أن تستأجر يدَ شخصٍ ما، لكنك لا تسطيع أن تستأجر قلبه، ففي القلب يكمنُ حماسهُ وولاؤه. تستطيع أن تستأجر ظهره، لكنك لا تستطيع أن تستأجر عقله، وفي عقله يكمن إبداعه، وبراعته، ودهاؤه.

هذه شذرات للتأمل، ولقدح زناد الفكر فيها ترات وكرّات، لتتحول -عند الاقتناع بها- إلى واقع أفضل.

والله الموفق



الامام الشافعي

آهٍ لو عرفنا أقدار الرجال من غير تقديسٍ يرفعهم إلى مراتب الكمال، أو سوءِ أدب معهم، وجهلٍ بأقدار أنفسنا. فنحطّهم عن المكانة اللائقة بهم، أو نحاول الطيران إلى آفاتهم بأجنحتنا الهزيلة، فتهوي بنا الريح في مكان سحيق.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو على جلالة قدره، وعظمته، وعبقريته، أخذ العلم عن الشافعي، مع أنه كان أعلم منه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فهل ترى لهذين من خَلَفٍ، أو عنهما مِن عِوَض»؟!

وقال: «لولا الشافعيُّ ما عرفنا فقه الحديث، وكان الفقه قِفلاً على أهله حتى فتحه الله بالشافعي».

وقال لصديقه الإمام العظيم إسحاق بنِ راهويه: « تعال أريك رجلاً لم تر عيناك مثلَه». قال إسحاق: «فأراني الشافعي، فلم تر عيناي مثله قطّ». ثم قال إسحاق رحمه الله: «الشافعي إمام العلماء. وما يتكلّم أحد بالرأي إلا والشافعي أقلُّ خطأً منه».

وقال الجاحظُ، شيخُ الأدباء في عصره: «لم أر أحسنَ تأليفاً من الشافعي، كأنَّ فاه ينظم درّاً إلى درٍ»!

وقال عنه بعض الأئمة من تلامذته: «كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكّر. وكنا إذا قعدنا حوله لا ندري كيف يتكلّم، كأنّه سِحْر».

كان الشافعي رحمه الله شديد المحبة للعلم. قيل له مرة: كيف شهوتك للعلم؟ فأجاب ما معناه: « أسمع من العلم شيئاً جديداً فتودّ أعضائي أن لها أسماعاً تتنعّم به، مثل ما تنعمت به الأذنان. فقيل له: فكيف حرصُك عليه؟ قال: حِرصُ الجموع المنوع (أي البخيل) في بلوغ لذّته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة التي ضاع ولدها ليس لها غيره».

وكان بارعاً جداً في المناظرة حتى قيل عنه: «لو ناظر الشافعي الشيطان لقطّعه وجدّله». وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: «ما رأيت الشافعي ناظر أحداً إلا رحمتُه. ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننتَ أنه سَبُعٌ يأكلك. وهو الذي علّم الناس الحجج». ومع ذلك فإنه كان لا يرفع صوته في المناظرة. وكان لا يريد إلا الحقَّ، ولا يريد قَهْرَ الطرفِ الآخر. يقول رحمه الله: « ما ناظرتُ أحداً قطّ إلا أحببتُ أن يوفَّق، أو يُسدَّد، أو يُعان، ويكونَ له رعايةٌ من الله وحفظ، وما ناظرتُ أحداً إلا ولم أبالِ بيَّن الله الحقَ على لساني أو لسانه وما ناظرتُ أحداً فأحببتُ أن يخطئ، وما ناظرتُ أحداً على الغلبة، إنما على النصيحة».

كان الشافعي رحمه الله إماماً في اللغة يرى عدد من العلماء الأعلام أن كلامه حجةٌ فيها، مع أنه توفي عام ٢٠٤ للهجرة. وقد أقام الشافعي في قبيلة هذيل التي اشتهرت بالفصاحة، ونبغ فيها من الشعراء نيفٌ وسبعون شاعراً، حفظ الشافعي أكثر أشعارهم عن ظهر قلب. قال الأصمعيّ، الإمامُ العلامة راوية العرب: صححتُ أشعار الهُذليين على شابٍّ من قريش بمكة يُقال له: محمد بن إدريس الشافعي. وقال: صححت شعر الشَّنْفَرى على الشافعي. قال

مُصعبٌ، عمُّ الزبير بن بكّار: «كان أبي والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي شعر هذيل حفظاً، وقال: لا تُعلم بهذا أحداً من أهل الحديث، فإنهم لا يحتملون هذا! وقد وردت هذه الرواية في معجم الأدباء (٢٩٩/١٤) والمراد منها - فيما يبدو لي - أن أصحاب الحديث سينكرون عليه حفظ الشعر بدلاً من حفظ الحديث، والله أعلم.

أما تقوى الشافعي، وأمثالِه من الأئمة العلماء، فأشهر من أنْ يتحدّث عنها، فإنهم مانالوا الذي نالوه إلا بالتقوى أولاً، ثم بالأسباب الأخرى.

يقول الكرابيسي: «بِتُّ مع الشافعي ثمانين ليلةً، وكان يُصلّي نحوَ ثُلُثِ الليل، وما رأيته يزيد على خمسين آية في الركعة، وكان لا يمرّ بآية رحمةٍ إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، ولا يمرّ بآية عذابٍ إلا تعوّذ بالله، وسأل الله النجاة لنفسه، وللمؤمنين والمؤمنات».

«وكان قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثاني يصلّي، والثالث ينام».

رحم الله الإمام الشافعي وأبا حنيفة، ومالكاً، وأحمد بن حنبل، وأمثالهم، من مصابيح الدُّجى، ومنائر الهداية.

١٨

متى نخوّف الناس؟

قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي المتوفى عا م (٥٩٧هـ) رحمه الله تعالى في كتابه (صيد الخاطر) ما معناه:

إنّ أصلحَ الأمور الاعتدالُ في كلّ شيء. فإذا رأينا (والضمير هنا يعود - فيما يبدو لي - على العلماء الشرعيين) أربابَ الدنيا، المتعلّقين بها، قد غلبتْ آمالُهم، وفسدتْ في الخير أعمالُهم، ونسُوا لقاءَ الله، وجرّأهم ذلك على الوقوعِ في المخالفات الشرعية، أمرناهم بذكر الموت، والقبور، والآخرة. فأما إذا كان الإنسانُ لا يغيب عنه ذكرُ الموت، وأحاديثُ الآخرة، فتَذْكارُه الموتَ زيادةٌ على ذلك لا يُفيد إلا انقطاعَه عن العمل بالكُليّة، (أي: أن يصاب بمرض نفسي كالاكتئاب).

ويمضي- رحمه الله- قائلاً: بل ينبغي للإنسان الشديدِ الخوفِ من الله تعالى، الكثيرِ الذكر للآخرة، أن يُشاغل نفسَه عن ذكر الموت، ليمتدَّ نَفَسُ أمله قليلاً، فيؤلّفَ الكتب، ويعملَ أعمال الخير. فأما إذا أدامَ ذكرَ الموت كانتْ مفسدتُهُ عليه أكثرَ من مصلحته. ألم تسمعْ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سابق عائشة رضي الله عنها مرةً فسبقتْه، وسابقها مرةً أخرى فسبقَها، وكان يخرجُ ويُشاغل نفسَه؟

إنّ رؤيةَ الحقائق على حقيقتها باستمرارٍ تفسدُ البدنَ وتُزعج النفسَ (أي: توقع في الأمراض العضوية والنفسية).

وقد رُوي عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، أنه سأل الله تعالى أن يَفتحَ عليه بابَ الخوف، ففُتح عليه، فخاف على عقله فسألَ الله أن يردَّ ذلك عنه.

فتأمَّلْ هذا الأصلَ؛ فإنه لا بُدَّ من مُغالطة النفس (إذا طغى عليها الخوف طُغياناً أخلَّ بالتوازن المطلوب لتحقيق المقصود من إصلاح الأرض وإعمارها). ففي هذه المغالطة صلاحُها.

انتهى كلامُه - رحمه الله - بشيءٍ من التصرف.

ويحضرني- في هذا المقام- الحديثُ الشريف الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه رحمهما الله، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخلتم على مريضٍ، فَنَفِّسُوا له في أجله، فإنّ ذلك لا يردُّ شيئاً، ويُطيِّبُ نفْسَه».

قال ابن الأثير رحمه الله في شرح الحديث: نفّستَ عن المريض: إذا مَنّيتَه طولَ الأجل. وسألتَ اللهَ له أن يُطيل عُمُرَه.

إن الاعتدال والتوازن مطلوبان، والحكمة وضع الشيء في موضعه.

حضرتُ حفل زواجٍ، فطُلب إلى أحد الشباب الناشئين من طُلاب العلمِ الشرعي أن يلقي كلمة فتحدّث عن أهوال يوم القيامة، فانصرفتُ لما وُضع الطعام، ولم أذقْ منه لقمة!

وحدثني أحدهم أنه كان في مجلس عقدِ نكاحٍ، فلما تمَّ الإيجاب والقبول، والتهنئة للشابِّ، وأبويه، وذويهم، طُلب من أحد الحاضرين أصحابِ الصوت الجميل بالقرآن أن يقرأ لهم شيئاً من الذكر الحكيم، فقرأ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ ! ومع أنيّ أشكُّ في هذه الرواية، إلا أنني أستفيد من مغزاها.

إنني أعتقد- من تجربتي الشخصيّة: طفلاً، وطالباً، ومعلّماً- أنّ الأطفالَ، وتلاميذَ المرحلتين: الابتدائيةِ والمتوسّطة، ينبغي أن يُدفعوا: بالمحبة، والرغبة، والرجاء، والأمل، إلى العمل المطلوب منهم، ثم تُعطى لهم جرعات الخوف والترهيب بالتدريج حتى يحصل التوازن المطلوب. والله تعالى أعلم.

١٩

هل هذا ظُلم؟!

هناك فرق كبير بين أمر يعجز عن إدراكه العقل، وبين أمر يرفضه العقل:

فكثير من العقول المتخصّصة في الرياضيات تعجز عن إدراك النظرية النسبية التي غيّر بها أينشتاين العالم، وكثير من عقول لاعبي الشطرنج تعجز عن إدراك سرّ بعض نقلات بوريس سباسكي وبوبي فيشر في مبارياتهما العالمية، وقُلْ مثلَ ذلك عن مجالاتِ الحاسب الآلي، والفيزياء المعقّدة، وهندسة الصواريخ.. وما إلى ذلك.

أما ما يرفضه العقل، فمثاله: أن يكون الولدُ أكبرَ سِناً من أبيه الذي وُجد قبله، وأن يكون نصفُ الرغيف أكبرَ من كامل الرغيف.

الإنسان العاقل يعلم: أنه عاجزٌ عن الإحاطة بكل شيء:

❖ عقلُه عاجز عن حلّ كثير من المسائل البسيطة التي تحلّها آلة (كاسيو) الحاسبة التي لا يزيد ثمنها على عشرين ريالاً!

❖ يعلم أنّ حاسة شمّ النملة للسكّر أقوى من حاسّة شمّه، فهو لا يجد للسكّر رائحة بينما تسرع إليه جماعات النمل إسراعاً.

❖ يعلم أنه لو وضع (١) ملغ من مادةٍ ما على يده لما أحسّ بثقلها، وأنّ هذا الجزء الواحد من ألف جزء من الغرام هو الموجود في حبّة دواءٍ منوّم، لو بلعه لنام ساعات متتاليات!

❖ يعلم نقص علمه بدليل أنه يتعلم كلَّ يوم ما كان يجهله بالأمس، ولو كان (عالماً) لما ازداد علماً، لأنّ قابلية الزيادة أكبر دليل على النقص!

ولن أذهبَ أستقصي هذا لأنه لا يُستقصى!

أتساءلُ الآن: إن الإنسان يُدرك: بعقله، وعاطفته، ووعيه، وبكينونته البشرية أنّ (الله) سبحانه وتعالى موجود. ويدرك أنه عاجر عن إدراك ذاته العلية، وصفاته السّنية، وعجزُه عن إدراك ذاته العلية، لايقبل أن ينفي وجودها، وعجزُه عن الإحاطة بـ (عدله)، و(حكمته)، و(رحمته)، لا يسمح له أن يصفه بالظلم، حتى وإن (خُدع) هذا (العقل) أحياناً، كما يُخدع (البصر)؛ فيرى قلمَ الرصاص المغموسَ نصفُه في الماء مكسوراً، فيُصحّح العقلُ للبصر خطأه، بحكم التجربة السّابقة. ويفسّر له قانونَ الانكسار الناجمَ عن اختلاف كثافة الماء السائل عن كثافة الهواء.

التساؤل: هل من (الظلم) أنْ يولَد طفلٌ مشوّهاً؟ وأنْ يعانيَ بريءٌ من تعذيب؟ وأن تستعمر أمةٌ أمةً أخرى وتصبَّ عليها ألوان العَسْف؟ والله سبحانه الرحيم القدير لا يمنع حدوث هذا؟ الجواب: لو كان (العقل) البشري القاصر مقياساً (لحكمة) الله، وقادراً على الإحاطة بها، لربما قال قائل: نعم، ولكنّ (العقل) الذي أدرك ضآلة حجمه المتناهية، يحترم نفسه، ويعرف قدره، ويحجم عن تجاوزِ حدّه، ويلجأ إلى التسليم القائم على (إعمال) العقل، لا على (إهمال) العقل، إن صحَّ التعبير.

وإذا قبل (زيدٌ) و(عمروٌ) أن يسلّما لجرّاح القلب الشهير قلبَيهما ليجريَ عليهما العملية، ولمهندس السيارات القدير الخبير سيارتهما ليصلحها، فلماذا لا يسلّمان لِله العليم، الحكيم، الرحيم أمرهما؟!

إنَّ (التفكير)، و(التسليم) هما ركنان من أركان الإيمان مرتبطان ارتباطَ وَجْهَي العملة المعدنية، فكيف يصل إلى الإيمان من لا يفكر، ولا يتفكر:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

إن الذي (يتفكّر) في خلق السماوات والأرض، وما بثَّ الله فيهما مِن دابة، ويقرأ ما توصل إليه العلماء المختّصون من كشوف يُصاب بالدهشة. ولا يملك إلا الإيمان بوجود خالق متّصف بصفاتٍ من الكمال (يعجز) العقل البشري عن إدراكها. هنا يأتي دور (التسليم) القائم على إعمال العقل الذي يدرك قصورَ نفسه، ومحدوديتَه، وجهلَه، فيقول لما لا يعلمه، وما لايدركه: لا أعلم، ولا أدرك، ولا يقول: هذا خطأ، وهذا ظلم!

يقول الإمام أبو الفرج بن الجوزي المتوفى عام (٥٩٧هـ) رحمه الله في كتابه القيّم صيد الخاطر ما معناه:

تأملتُ حالاً عجيبةً، وهي أنّ الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسامَ في منتهى الحكمة، فدلّ بذلك المصنوعِ على كمال قدرته، ولطيف حكمته (أي: إن التأمل في هذا الجسم المعجز وصفاته المدهشة يدل على صفات صانعه، سبحانه وتعالى). ثم عاد فنقض هذه الأجسام (بالموت)، فتحيّرت العقول بعد إذعانها وتسليمها له بالحكمة في سرّ ذلك الفعل، فأُعلمتْ أن هذه الأجساد ستُعاد يوم القيامة، وأنها لم تُخلق إلا لتجوز في مجاز المعرفة، وتتّجرَ في موسم المعاملة، فاطمأنت العقول لذلك.

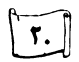
ثم رأتْ أشياء من هنا الجنس أعجبَ منه مثل:

١- اخترام شاب في ريعان شبابه مابلغ المقصودَ من بنيانه،
٢- وأخذ طفلٍ من أكفّ أبويه، وهما يتململان لفراقه، ولا يعلمان سرّ سلبه،
٣- وإبقاءُ شيخ هرمٍ لا يدري معنى البقاء، وليس له فيه إلا مجرّد أذى،
٤- وتقتير الرزق على المؤمن الحكيم، وتوسعته على الكافر الأحمق، ومثل ما ذكر أمورٌ كثيرة يتحيّر العقل في تعليلها، فيبقى مبهوتاً!

يقول رحمه الله: فلم أزلْ أتلمَّحُ جُملة التكاليف، فإذا عجزتْ قُوى العقل عن الاطلاع على حكمة ذلك، وقد ثبت لها حكمة الفاعل، علمت قصورها عن إدراك جميع المطلوب، فأذعنتْ مُقرّةً بالعجز. فلو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمة الخالق بما بنى، أفيجوز أن يقدح في حكمته أنه نقض؟ لقال: إني عرفتُ بالبرهان أنه حكيم، وأنا أعجز عن إدراكِ عِلل حكمته، فأُسلّم مُقرّاً بعجزي.

قال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله مُعلّقاً على هذا الكلام: هذا هو الحق، وقد أخذه الفيلسوف الألمانيُ الأشْهَرُ (كانْتْ) فقاله بعد قرون طوال.

والله تعالى أعلم



وقفة مع أدب الاختلاف

يثير في نفسي ألماً ممضّاً يحرق صدري، لا تكاد جذوته تخبو قليلاً حتى تشتعل طويلاً، ما أراه من «سوء» أدب الخلاف على كل صعيد في عالمنا الإسلامي، وما نتج عن ذلك من نتائج مُرّة مدمرة، كان الخاسرون فيها دائماً المسلمين، والمستفيدون دائماً أعداءهم.

لقد اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يخلق الناس متفاوتين: في العلم، والعقل، والذكاء، والحفظ، والأذواق، والطول، والقصر، والأشكال والألوان، ومن أراد جمعهم على ماعدا (البديهيات، وما هو معلوم من الدين بالضرورة)، فقد رامَ أمراً لم تقتضه إرادة الله سبحانه.

(إن اختلاف القلوب حرام، واختلاف الآراء هو سُنّةُ الله تعالى في خلقه).

اطّلعت على كتاب لطيف الحجم، كبير الفائدة عنوانه: «صفحاتٌ في أدب الرأي، أدب الاختلاف في مسائل العلم» للأستاذ محمد عوّامة، وسأقتبس في هذا المقال بعض ما جاء فيه..

تحت عنوان «حكم الاختلاف في الفروع» ينقل المؤلف الفاضل كلاماً للإمام السيوطي في رسالته: «جزيل المواهب في اختلاف المذاهب»، التي يقول فيها:

«اعلم أن اختلاف المذاهب في هذه الملّة نعمةٌ كبيرة، وفضيلة عظيمة، وله سرٌّ لطيف أدركه العالِمون، وعمي عنه الجاهلون، حتى سمعتُ بعض الجهال

يقول: النبي صلى الله عليه وسلم جاء بشرع واحد، فمن أين مذاهبُ أربعة؟ ومِن العجب أيضاً مَنْ يأخذ في تفضيل بعض المذاهب على بعض تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص المُفَضَّلِ عليه وسقوطه.

«وقد وقع اختلاف في الفروع بين الصحابة رضي الله عنهم، خيرِ الأمة، فما خاصم أحدٌ منهم أحداً، ولا عادى أحدٌ أحداً، ولا نسب أحدٌ أحداً إلى خطأ ولا قصور».

قال الإمام ابن قدامة الحنبلي رحمه الله، في كتابه «المُغني»: «أما بعد؛ فإن الله برحمته وطَوْله.. جعل سلف هذه الأمة أئمةً من الأعلام، مهّد بهم قواعد الإسلام، وأوضح بهم مُشكلات الأحكام، واتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة».

وقال الإمام الحجة، القاسمُ بنُ محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وهو أحد سادة التابعين: «لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجلٍ منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيراً منه قد عمله».

وقال الإمام الجليل سفيان الثوري رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يعمل الذي اختُلفَ فيه وأنت ترى غيرَه فلا تَنْهَهُ». وقريب من ذلك قول الإمام الأجلّ أبي حنيفة رحمه الله: «قولُنا هذا رأيٌ، وهو أحسنُ ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسنَ من قولنا فهو أولى بالصواب منّا». وقوله: «هذا الذي نحن فيه رأيٌ لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول: يجب على كلّ أحدٍ قبولهُ بكراهية، فمن كان عنده شيء أحسنُ منه فليأتِ به».

وقال إمام السنّة الأكبر، أبو عبد الله، أحمدُ بن حنبل رحمه الله، في حديثه

عن الإمام الجليل إسحاقَ بنِ راهُوْيَه: «لم يَعْبُر الجسر إلى خُراسانَ مثلُ إسحاق، وإن كان يخالفُنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضُهم بعضاً».

وتحت عنوان: «الأدب في الاختلاف، ونماذج من واقع الأئمة» ينقل المؤلف عن العنبري، أحد الحفّاظ الثقات قوله: « كنتُ عند أحمد بن جنبل، وجاءه عليُّ بن المديني، راكباً على دابّة، فتناظرا في الشهادة، وارتفعت أصواتُهما، حتى خِفتُ أن يقع بينهما جفاء... فلما أراد عليٌّ الانصراف، قام أحمد فأخذ بركابه!»

وحكى الإمام الذهبي في كتابه «سِير أعلامِ النبلاء» في ترجمته ليونسَ بنِ عبد الأعلى الصَّدفي، تلميذ الشافعي، قوله: «ما رأيتُ أعقل من الشافعي، ناظرتُه يوماً في مسألةٍ ثم افترقنا ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيمُ أن نكون إخواناً، وإن لم نتّفق في مسألة؟!»

وتحت عنوان «شروط الاختلاف المشروع» نقل المؤلف عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قوله: «وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلّما اختلف مسلمانِ في شيءٍ تهاجرا، لم يبقَ بين المسلمين عصمةٌ ولا أخوّة». وهذا الكلام نفيسٌ جدير أن يُكتب بماء الذّهب.

ثم ذكر المؤلف أنّ الأهلية العلمية شرطٌ لمن أراد أن يجتهد، ويُفتيَ في دين الله. أقول: بل ولمن أراد أن يناقش العظماء من الأئمة العلماء، ويخطّئهم، ويرفع نفسه إلى منازلهم. لا بدّ له من (الأهلية العلمية)، ولا أقول (الشهادة الجامعية)!! ولا بد له كذلك من التزام الأدب الإسلامي.

روى أبو نُعيم في كتابه «الحلية» عن الإمام مالكٍ رحمه الله، إمام دار الهجرة، قولَه: «ما افتيتُ حتى شهِد لي سبعون أني أهلٌ لذلك»، ولفظ

الخطيب في كتابه «الفقيه والمتفقه»: «ما أجبتُ في الفتوى حتى سألتُ من هو أعلم مني: هل تَراني موضعاً لذلك؟ سألتُ ربيعةَ، وسألتُ يحيى بن سعيد الأنصاري فأمراني بذلك. فقيل له: يا أبا عبد الله، لو نَهَوْكَ؟ قال: كنتُ أنتهي. لا ينبغي لرجلٍ أن يرى نفسَه أهلاً لشيء حتى يسألَ من هو أعلمُ منه».

ومجالسةُ العلماء الصلحاء تعلّم الأدب. قال إبراهيم بن حبيب: «قال لي أبي: يا بُنيّ، ائتِ الفقهاءَ، والعلماءَ، وتعلّمْ منهم، وخُذْ من أدبهم، وأخلاقهم، وهَدْيِهم فإنّ ذلك أحبُّ إليَّ لكَ من كثيرٍ من الحديث».

فلا بد إذن من العلم والأدب معاً. قال العنبريُّ: «علمٌ بلا أدب كنارٍ بلا حطب، وأدب بلا علم كروحٍ بلا جسم». وقال أبو حنيفة رحمه الله: «الحكاياتُ عن العلماء، ومجالستُهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم»، ودليل هذا ما قصّه الله سبحانه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من قصص الأنبياء السابقين للتأمل والاعتبار: ﴿ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠]

٢١

لا يسلم من ألسنة الناس أحد

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يخاطب بعض أصحابه: «اعلموا- رحمكم الله تعالى- أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحُرِمَهُ قرناؤه وأشكاله حَسَدوه، فرموه بماليس فيه، وبئستِ الخصلةُ في أهل العلم»[1].

أقول: إذا حصل هذا من (بعض) أهل العلم، فلا يُستغرب حصوله ممّن هو دونهم. «وقديماً كان في الناسِ الحسد»، كما قال الشاعر.

وأقول أيضاً: تأملتُ حال الناس- ونعوذ بالله من كل حالٍ لا ترضيه- فإذا بهم تطاولوا وتكلموا على كل شيء:

- تكلموا عن الله سبحانه، فبعضهم قال: اتخذ ولداً، وبعضهم قال: يده مغلولة، وهو فقير، وفي عصرنا الحاضر، وجد - ممن زعم الإسلام - مَنْ كفر كُفراً منمّقاً مزخرفاً، وهو يهزأ بالله تعالى!
- والأنبياء الكرام: اتهمهم أقوامهم، بالجنون، والسّحر، والسفاهة، وغير ذلك.
- والعلماء، أقصد علماء الشريعة المطهرة، في الماضي، والحاضر سبَّ بعضُهم بعضاً، وكفّر بعضُهم بعضاً، ونزلوا إلى مستويات لا يليق بالمسلم العادي أن يصل إليها. والتعميم في هذا خطأ، فحالة أغلبهم لم تكن كذلك، ولكنْ وُجدتْ هذه الظاهرة بينهم ولم يتنزّه عنها حتى بعض كبارهم! فما موقفنا نحن من كل ذلك؟

(١) رواه البيهقي في (المناقب): ٢/٢٥٩، والذهبي في (سير أعلام النبلاء): ١٠/٥٨.

موقفنا - فيما أعتقد -:

١- أن ننزّه ألسنتنا وأقلامنا أصلاً عن الخوض في هذه المسائل من غير ضرورة ملجئة.

٢- وأن نتثبّت غاية التثبت فيما نرويه.

٣- وأن نطوي هذه الموضوعات جملة وتفصيلاً إلا إذا دعت لذلك حاجة شرعية، فنتكلم بقدْر تلك الحاجة.

٤- وأن نتفطّن لحيل الشياطين، وتلبيس إبليس، الذي يوحي لبعض الناس أنهم يتكلّمون إرضاءً لله، وهم في الواقع يتكلمون لدافعٍ نفسيٍ خفيٍّ.

٥- وأن نلتمس لهم الأعذار - ما أمكن - ونُحسنَ الظنّ بهم، كما قال الله عزّ وجلّ في قصة الإفك التي اتُّهِمت فيها السيدةُ عائشة، الصديقةُ بنتُ الصدّيق، رضي الله عنهما وأرضاهما: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ روى أبو نعيم في الحلية (٢٨٥/٢): «عن أبي قلابة رحمه الله قوله: إذا بلغك عن أخيك شيءٌ تكرهه فالتمس له العذر جُهْدَك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعلّ لأخي عذراً لا أعلمه».

قال الشافعي رحمه الله: «ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر الذي فيه صلاحُك فالْزمْه».

قال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام الشافعي رحمهما الله تعالى ما معناه: «ونال بعضُ الناس من (الشافعي) غضاً من قيمته، فما زاده إلا رفعةً وجلالة، ولاح للمنصفين أنّ كلام أقرانه فيه كان بهوى، وقلَّ من برّز في الإمامة، وردَّ على من خالفه إلا عُودي، نعوذ بالله من الهوى».

وقال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه (من أخلاقنا الاجتماعية): «والجماهير دائماً أسرع إلى إساءة الظنّ من إحسانه، فلا تصدق كلَّ ما يُقال وإن سمعته من ألف فمٍ، حتى تسمعه ممن شاهده بعينه، ولا تصدق مَن شاهد الأمر بعينه حتى تتأكد من تثبته فيما يشاهد، ولا تصدق من تثبت فيما يشاهد حتى تتأكد من براءته وخُلُوّه عن الغرض والهوى، ولذلك نهانا الله تعالى عن الظن، واعتبره إثماً لا يغني من الحق شيئاً».

قال الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾.

قال سيد قطب رحمه الله في الظلال: «ويخصص الفاسق لأنه مظنَّةُ الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها.. ومدلول الآية عام، وهو يتضمَّن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق: فأما الصالح فيؤخذ بخبره لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبرالفاسق استثناء، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومُعطِّلٌ لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء، وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار».

وربما وقع بعض القراء في حيرةٍ مما سلف، وربما تطاولوا على العلماء الذين يقعون في بعض الأخطاء، وربما.. وربما.. ولعل المُخلِّصَ من هذا ما دار عليه موضوع المقالة السابقة «بين التقدير والتقديس»، أي: بين الاحترام، والمبالغة في الاحترام. ومما يحسن إيراده وإعادته في هذا المقام مما جاء في ذلك المقال:

- كل إنسان يخطئ ويصيب، إلا الأنبياء المعصومين عليهم السلام.
- الكبير قد تحدث منه زلة كبيرة أو صغيرة، يعتذر له عنها إن أمكن، ولا تقدح في سائر فضائله، ومَنْ دونه مِن باب أولى.
- قد يتصف المرء بخلق دون خلق، ولا كمال في الرجال، حاشا الأنبياء عليهم صلوات الله.
- قد يتفوق الصغير على الكبير في بعض الصفات، ولا يعني هذا أنه أفضل منه، ولهذا قالوا، المزّية لا تقتضي الأفضلية.

والله تعالى أعلم.

٢٢

«خُذوا زينتكم.. »

قال الإمام أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، المتوفى سنة (٣٩٥هـ) رحمه الله، في معجمه النفيس المسمى « مقاييس اللغة»، في مادة (زين): الزاءُ والياءُ والنون أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حُسْنِ الشيءِ وتحسينه. فالزَّين نقيض الشّين.

وقال العلامة أبو القاسم، الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى سنة (٥٠٢ هـ) رحمه الله في معجمه القرآني المسمى «المفردات في غريب القرآن» ما معناه:

الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيءٍ من أحواله، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.. والزينة ثلاثة أنواعٍ: زينة نفسية كالعلم، والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة باعتدال، وزينة خارجية كالجاه والمال.

وجاء في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الذي انتهى من وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله حوالي عام (١٩٣٩م)، وبذل فيه جُهداً شاقاً مُضنياً، قبل اختراع الحاسب الآلي، جاء في هذا المعجم: أنّ الفعل (زَيَّنَ) بتصريفاتٍ متعددة تكرر في القرآن الكريم (٢٨) مرة، وأن لفظ (زينة) تكرر (١٩) مرة، بصيغ مختلفة، منها قوله تعالى في سورة الأعراف، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.

لماذا جاء التعبير القرآني بلفظ (الزينة)، مع أن أكثر العلماء قالوا: المراد منها ستر العورة؟ وبصرف النظر عن سبب نزول الآية، وهي أن المشركين كانوا

يطوفون بالكعبة المعظمة عراةً، فأمر الله المسلمين بستر أجسامهم. بصرف النظر عن هذا، لابد أن يكون لاختيار لفظ (الزينة) عند كل مسجد، وعند كل صلاة حكمة بالغة لا تستفاد من أي لفظ آخر، كالثياب، واللباس، والرِّيش. وستر البدن.. وما إلى ذلك.

الذي يبدو لي - والله تعالى أعلم - أن المسلم مأمور بالعناية بثيابه، ومظهره: نظافةً، وأناقةً، وتجمّلاً، وترتيباً، من غير إسراف، ولا خُيلاء. والأناقةُ قد تتحقق بالبساطة والاعتدال، كما يمكن أن تتحقق بالغالي النفيس. بل غلاء الثياب لا يلزم منه أناقة لابسها، إذا كان لاذوق له، ولا حسن اختيار عنده.

ويؤيد هذا الفهم الحديث الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً (أي: فهل هذا من الكبر؟) قال: إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال. الكِبْر: بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس.» أي: ردُّ الحق وإنكاره، واحتقار الناس والتعالي عليهم.

كما يؤيده الحديث الشريف الذي رواه أبو داود رحمه الله في سننه، أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: « إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في الناس، فإن الله تعالى لا يحبّ الفحش ولا التفّحش». قال في الشرح: فالهيئة الرديّة، والحالة الكثيفة داخلةٌ أيضاً تحت الفحش والتّفحش.

والحكمة - على كل حال - وضع الشيء في موضعه، فمن رأيناه يبالغ في العناية والإنفاق على ثيابه ذكّرناه بالحديث الشريف: «تعِسَ عَبْدُ الخميصة وعبد القطيفة» (وهي أنواع من الثياب) ودعوناه إلى الاعتدال، والفقير الذي لا يجد

ما يجمّل به هيئته ذكّرناه بالحديث الشريف الذي رواه ابن ماجه: «البذاذة من الإيمان»، يعني: التقشف، والذي يهمل هيئته وهو قادر على تجميلها، فينفر الناس منه، وهو يظن أن هذا من الدين قلنا له: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.

قال العلامة الماوردي المتوفى عام (٤٥٠هـ) رحمه الله تعالى في كتابه « أدب الدنيا والدين» ما معناه:

«اعلم أن الحاجة وإن كانت في المأكول والمشروب أدعى، فهي إلى الملبوس ماسة، لما فيه من: ١- حفظ الجسد، ٢- ودفع الأذى، ٣- وستر العورة، ٤- وحصول الزينة. قال الله تعالى:﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] وسمّيت العورةُ سَوْأةً لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها من جسده!

«أما الريش، فقيل: هو اللباس والنعم، وقيل: هو الجمال.. إلى أن قال: فلما وصف الله تعالى حال اللباس، وأخرجه مخرج الامتنان عُلِمَ أنه معونةٌ منه لشدّة الحاجة إليه.

«والجمال في اللباس مستحسن بالعرف والعادة، وفيه يقع التجاوز والتقصير، والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين: أحدهما: في صفة الملبوس وكيفيته، والثاني: في جنسه وقيمته.

«أما صفة الملبوس فيراعى فيها عُرف البلاد، فإن لأهل المشرق زيّاً مألوفاً، ولأهل المغرب زياً مألوفاً، ولما بينهما من البلاد المختلفة عاداتٌ في اللباس مختلفة.

«كما يُراعى عُرف الأجناس، فإن للجنود زياً مألوفاً، وللتجّار زياً مألوفاً. وكذلك لمن سواهما. فإن عَدَلَ أحدٌ عن عُرْف بلده وجنسه كان ذلك مِنْهُ خُرْقاً وحُمْقاً.

«وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين: أحدهما: بالغنى والفقر، فإن للغني في اللباس قَدْراً، وللفقير دونه. والثاني: بالمنزلة والحال، فإنّ لذي المنزلة الرفيعة في الزي قَدْراً، وللمنخفض عنه دونه، فإن عَدَل الموسر إلى زيّ المعسر كان شُحّاً وبُخلاً، وإن عدل الفقير إلى زيّ الغني كان تبذيراً وسرفاً. ولزوم العُرف المعهود، واعتبار الحدّ المقصود أدلُّ على العقل، وأمنع من الذم. ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إيّاكم ولِبْسَتين: لبسةٌ مشهورة، ولبسةٌ محقورة. وقال بعض الحكماء: البَسْ من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء، ولا يعيبه عليك الحكماء.

واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار، ولا اطّراح، فإنّ اطّراح مراعاتها وترك تفقّدها مهانة وذُل، وكثرة مراعاتها وصرف الهمة إلى العناية بها دناءةٌ ونقص. قال ابن الرومي:

وما الحَلْيُ إلا زينةٌ لنقيصة
يُتمِّمُ مِن حسنٍ إذا الحُسْنُ قصّرا

فأما إذا كان الجمال موفراً
لحُسْنِكَ لم يحتج إلى أن يُزَوَّرا

٢٣

هل العولمة اعتداءٌ على الديموقراطية والرفاهية؟!

من المصائب التي ابُتلينا بها نحن المسلمين اليوم - وما أكثرها-: أننا نتكلم فيما لا نعرف، ونبحث عن الأشياء في غير مظانّها، ونسأل في موضوع ما رجلاً ليس من «أهل الذكر» في ذلك الموضوع: فنستمع -مثلاً- إلى دكتور في الفيزياء يعرض آراءه وتأملاته في (الحديث الشريف)، ونصغي إلى عالمٍ في الحديث، لا يعرف لغةً أجنبية، ولم يَسْبُر أغوار حضارة غربية، يُصدر أحكامَه على (العولمة)، فنصدّق هذا، ونصدّق هذا، ونُخطِئُ في الحالتين، حتى وإن نجح (الفاضلان) في إصابة أصابع قدم الحقيقة، ولم يُصيبا كبدها! هذا إذا كان للحقيقة كبدٌ، أو قدمان، أو أصابع!! أقول: هذا حال كثير من مثقفينا، ولا أُعمّم حتى لا أقع في الخطأ.

أمامي كتاب عنوانه: «فخ العولمة: الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية»، ورأيي- وقد أكون مخطئاً - أن الكتاب مرجع مُهمٌّ في موضوعه لقراء العربية، لأنّ مؤلّفَيْه، ومترجِمَه، ومُراجعَه، جميعاً، مِن «أهل الذكر» والتخصّص في هذا الموضوع، وليسوا من المتطفّلين عليه:

فالمؤلف الأول: هانس بيتر مارتن، دكتور في العلوم القانونية من جامعة فيينا، ومحرر في جريدة ديرشبيجل الألمانية منذ عام ١٩٨٦م، وزميله هارالد شومان درس الهندسة في برلين، ومحرر في الجريدة نفسها، ومدير لمكتبها في برلين. والكتاب أُلّف بالألمانية، ترجمه الدكتور عدنان عباس علي، الحاصل على الدكتوراه في العلوم الاقتصادية من جامعتي فرانكفورت ودامشتاد، وله

عدة مؤلفات في الاقتصاد، وراجَعَ الكتاب الدكتور رمزي زكي، وهو بروفيسور في الاقتصاد، وحاصل على الماجستير والدكتوراه من ألمانيا، وله (٢٧) كتاباً في مجال تخصصه. وصدر الكتاب في سلسلة «عالم المعرفة» الرصينة المحترمة، التي يُصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون والآداب، في الكويت.

إذن، فنحن لسنا أمام كتاب يتحدّث عن (التغذية) كتبه رجلٌ لم يسمع به أحد، اسمه الدكتور فلان، وإذا سألنا عنه وجدنا أنه أخذ شهادة دكتوراه في الأدب العربي من جامعة في الاتحاد السوفييتي السابق!! فهو يهرف بما لايعرف، ويأتي القارئ المسكين فيتّخذ من كتابه دستوراً في الغذاء يسير عليه، وينافح عن الأفكار التي جاءت فيه وأغلبها مجموع من مجلات نسائية، أو صحف يومية سياسية!!!

يقع الكتاب في (٤٠٠) صفحة تزدحم بالكلمات، وعدد كلمات الكتاب، فيما أقدّر، بعد أخْذِ نموذجٍ من صفحاته- يزيد على مئة ألف كلمة، استطاع مراجعه أن يكتب له مقدمةً جيدة في (١٢) صفحة، تعطي القارئ فكرة عن محتواه.

يقول المراجع (وانقل بتصرّف):

حينما انتهيتُ من قراءة هذا الكتاب قلت في دخيلة نفسي: ما أروع هذا الكتاب، وما أعظم الدروس والعبر التي يخرج بها القارئ من قراءته! بل ما أنبل الرسالة التي أراد المؤلفان أن يبعثا بها إلى القارئ، لأنهما يمتلكان رؤيةً إنسانية حميمة، تدافع عن كرامة الإنسان، وحقوقه، في هذا العالم الذي أصبح متوحشاً!

والحقيقة أن الميزة الأساسية التي تميز بها الكتاب هي تلك المقدرة اللافتة للنظر التي يمتلكها المؤلفان على تبسيط وشرح أعقد الأمور والقضايا واستخلاص النتائج التي تنطوي عليها قضية (العولمة).

لقد طرح المؤلفان مجموعة من الطروحات المهمة التي تستحق التأمل والتفكير لفهم قضية (العولمة) من منظور يختلف عن المنظور الزائف الذي غالباً ماتطرحه علينا وسائل الإعلام المختلفة.

إن (العولمة) من خلال السياسات الليبرالية الحديثة التي تعتمد عليها تنذر بقيام حركة مضادة للديموقراطية ومبادئ العدالة الاجتماعية تقتلع كلّ ما حققته الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من مكتسبات. وتبدو قتامة المستقبل الذي سيكون صورة من الماضي المتوحش للرأسمالية في فجر شبابها إذا سارت الأمور على منوالها الراهن، إذ من المتوقع أن يكون هناك فقط (٢٠) في المئة من السكان الذين يمكنهم العمل، والحصول على الدخل، والعيش في رغد وسلام، أما الباقون، وهم (٨٠) في المئة، فهم السكان الفائضون عن الحاجة، الذين لن يستطيعوا العيش إلا من خلال الإحسان والتبرعات، وأعمال الخير.

إن المصالح المشتركة لأصحاب رؤوس الأموال جمعت بينهم، وجعلتهم يهددون بتهريب رؤوس أموالهم مالم تستجب الحكومات لمطالبهم، مثل : منحهم تنازلات ضريبية سخية، وتقديم مشروعات البنية التحتية لهم مجاناً، وإلغاء أو تعديل التشريعات التي كانت تحقق بعض المكاسب للعمال، والطبقة الوسطى، مثل قوانين: الحدّ الأدنى للأجور، ومشروعات الضمان الاجتماعي والصحي، وإعانات البطالة، وتحويل كثير من الخدمات العامة التي كانت تقوم بها الحكومات لكي يقوم بها القطاع الخاص (الخصخصة)..

ومع نموّ العولمة سيزداد تركز الثروة، وتتسع الفروق بين البشر والدول اتساعاً لا مثيل له. يقول المؤلفان: إن (٣٥٨) غنياً في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يمتلكه (٢,٥) مليار من سكان المعمورة! وإن هناك (٢٠) في المئة من دول العالم تستحوذ على(٨٥) في المئة من الناتج العالمي الإجمالي،

وعلى(٨٤) في المئة من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها (٨٥) في المئة من مجموع المدخرات العالمية. وهذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوتٌ آخر داخل كل دولة، إذ تستأثر قلةٌ من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني والثروة القومية، وتعيش أغلبية السكان على الهامش.

وفي الفصل الثالث من الكتاب الذي خصّصه المؤلفان للكلام عن «صندوق النقد الدولي» والأسواق النقدية العالمية، يبيّنان أن العالم تحول إلى رهينة في قبضة حفنة من كبار المضاربين الذين يتاجرون بالعملات والأوراق المالية، مستخدمين مليارات الدولارات التي توفرها البنوك، وشركات التأمين، وصناديق الاستثمار الدولية، وصناديق التأمين والمعاشات، وقد سبب هؤلاء المضاربون عدداً من الأزمات، وأصبحت لديهم مقدرة فائقة على التحكم برفاهية، أو فقر شعوب ودولٍ برّمتها، دون أن توجد أي سلطة محلية أو عالمية لمحاسبتهم، أو ردعهم!

وعند الحديث عن النمو المضطرد للبطالة، وتحت سياط السعي المحموم لخفض كلفة الإنتاج وزيادة الأرباح، تمّت (مذبحة العمالة) في البنوك وشركات التأمين، وحتى في قطاع صناعة الكومبيوتر، إذ بدأت الشركات الكبرى تستورد العلماء الهنود ذوي الرواتب المنخفضة ليحلّوا محل العلماء الأمريكيين، وحينما تدخلت الحكومة الأمريكية للحدّ من هذا السلوك، قامت الشركات بنقل جزءٍ من أنشطتها إلى نيودلهي.

وبعد؛ فهذه لمحات لا تسمن، ولا تغني من جوع. والكتاب جدير بالقراءة المستأنية من قبل المهتمين بموضوع العولمة. والمسلمون عليهم أن يدركوا تمام الإدراك الواقع الذي يعيشونه، والتحديات التي تواجههم، وأن يقدحوا زناد الفكر، وزناد الروح، وزناد العمل ليكونوا هم الأعْلَيْن، إن كانوا مؤمنين.

٢٤

القلق وكيف نتخلص منه

القلق مرض العصر، له آثار سيئة على الجسم والعقل على حد سواء، وقد وقع في يدي كتاب لطيف الحجم، كبير الفائدة عنوانه: «القلق، وكيف نتخلص منه» لمؤلفين فاضلين هما: الدكتور زهير أحمد السباعي، والدكتور شيخ إدريس عبد الرحيم..

جاء في التمهيد للكتاب: يتحدث هذا الكتاب عن مشكلة القلق، ويبحث أسبابه ودواعيه ومظاهره، كما يتطرق إلى وسائل الوقاية والعلاج التي هي في متناول يد الإنسان. وأول هذه الوسائل: الصلة بالله سبحانه وتعالى، وذلك بتلاوة القرآن والصلاة والذكر والتقوى.. وثانيها العلاجُ النفسي الذي يعتمد على إدراك الإنسان لبواعث القلق وأسبابه وطرق التخلص منه. وأخيراً التفكير الإيجابي الذي يساعد الإنسان على اتخاذ أسلوب صحيح في الحياة يقيه من أسباب القلق. وهذا الكتاب يفيد القارئ في علاج القلق المزمن إذا استطاع أن يطبق المفاهيم والأسس الواردة فيه.

وبعد التمهيد تأتي المقدمة، ومما جاء فيها: القلق حالة نفسية تتصف بالتوتر والخوف والتوقع، سواء كان ذلك حيال أمور محددة أم غامضة. قد يكون هذا الانفعال عارضاً، وهو ما يعرفه كل الناس حين يعانون لحظاتٍ من الحزن والألم، ثم ينقضي هذا الإحساس بانقضاء أسبابه، وقد يكون مزمناً، وهو المشكلة التي نحن بصددها.

لا يولد الخوف أو القلق مع الإنسان، ولكن قد يولد معه استعداد وراثي للانفعالات العصبية، ويبرز هذا الاستعداد إذا ما تهيأت له الأسباب البيئية. أسباب قد تكمن جذورها في محيط الأسرة أو المدرسة أو العمل. فمن أهمّ أسباب القلق البيتُ الذي يسوده الشقاق، أو سوء التفاهم أو إهمال الأبوين للأولاد، والمجتمعُ الذي تركّز قيمه على التفوق المادي، والصراع من أجل البقاء، ومطامح الإنسان وآمالُه، عندما تتجاوز قُدُراتِه. ورغباتُ الإنسان ونزواتُه عندما تصطرع مع الأخلاق والفضيلة والضمير.

أما الأعراض العامة للقلق فهي الإحساس بالانقباض، وعدم الطمأنينة، والتفكيرُ الملحّ في بعض الأمور، واضطرابُ النوم، وفقدانُ الشهية للطعام، والعزوف عن مباهج الحياة، وقد ينعكس هذا الاضطراب النفسي على الجسم فتبرد الأطراف، ويتصبَّبُ العرق، ويخفق القلب، وتتقلّص المعدة، ويفتر الجسم، وتتعطل القدرة على الإنتاج.

وقد يصل الأمر إذا استفحل إلى ما يسمى عُصابَ القلق، ويتمثل في الوسوسة، وهي الخضوع لفكرة ملحّة، كفكرة الموت أو المرض، أو إلى الرُّهاب (أو الخوف المرضي) كالخوف من الأماكن المرتفعة، أو الغرف الضيقة، أو الأماكن المزدحمة، أو يصل إلى العُصاب القهري، كغسل اليدين عشرات المرات طلباً للنظافة. وقد يتعرض مريض القلق لأزمات حادة تستمر دقائق أو ساعات، وتنعكس على الجهاز الدوري الدموي، فيشعر المريض بألم في الصدر، وصعوبةٍ في التنفس، واضطرابٍ في دقات القلب. فإذا أزمن القلق واشتد، فقد يؤدي إلى بعض الأمراض النفسية الجسدية كأمراض القلب، وقرحة المعدة، وارتفاع ضغط الدم، والبول السكري، والربو، وأكزيما الجلد.

بهذا تنتهي مقدمة الكتاب. والكتاب مقسم إلى أربعة فصولٍ مرتبةٍ كما يلي:

أسباب القلق وأعراضه وعلاماته: العلاج النفسي للقلق: الوقاية والعلاج بالقرآن الكريم: التفكير الإيجابي. وسأقتطف للقارئ الكريم بعض ما جاء في الفصلين الأخيرين.

يقول المؤلفان: الخوف والتوجّس من أهم أسباب القلق. ولكن لماذا يخاف المؤمن، وممَّ يقلق؟ وهو يعرف عن يقين أن كل شيء بيد الله. عليه أن يأخذ بكل ما يقدر عليه من الأسباب الواقية من غوائل الفقر والمرض، ثم يترك الأمر لله. فالرزق بيده سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. هل يخشى الإنسان مصائب الحياة؟ إذن فليتق أسبابها، ثم يكلْ أمره إلى الله، وليتدبرْ قولَه سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هل يخاف الإنسان من المرض؟ عليه أن يأخذ بأسباب الوقاية والعلاج، ثم يتدبر قوله تعالى على لسان خليله إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

وفي الفصل نفسه يقول المؤلفان تحت عنوان: «القرآنُ وعلاج القلق»: من أهم بواعث القلق: شعور الإنسان بالوحدة والضياع والفراغ الروحي، وعدم الالتجاء إلى الله. والمدارس الحديثة في الطب وعلم النفس تعالج هذه الأسباب بالتأمل لشغل الذهن بأمور أخرى خارجة عن نطاق النفس، وبالعمل حتى ينشغل الإنسان عما يقلقه، وبالعلاج الجماعي الذي يحكي فيه المريض مشكلته لمرضى آخرين مثله، فيتخفف من معاناة الكبت، وبالاسترخاء الجسدي الذي يساعد على الاسترخاء النفسي.. والإسلام يوفر مقوّمات العلاج الروحي

جميعاً، وذلك بتلاوة القرآن عن وعي وتدبر، وبالصلاة الخاشعة التي تستغرق العقل والقلب، وبذكر الله الذي يتجه فيه العبد بكل جوارحه إلى مولاه، وهكذا ينتفي الضياع وينتفي الفراغ الروحي، ويتحقق صدق الالتجاء إلى الله القوي العلي الأعلى.

أما الفصل الرابع فعنوانه التكفير الإيجابي، ويبدأ المؤلفان حديثهما فيه عن تعريف التفكير الإيجابي، ويقولان: إن تعريف التفكير السلبي يعين على معرفة التفكير الإيجابي، لأن الأشياء تتميز بضدها، فالتفكير السلبي: هو نوع من الإيحاء الذاتي يوحي المرء فيه لنفسه بأنه عاجز، أو فاشل، أو غير محبوب.. إلى آخر هذه القائمة من الأفكار والمشاعر السلبية. وقد يبدأ هذا الإيحاء إثر تجربة مرّ بها الإنسان كرسوب في امتحان، أو إخفاق في عمل.

والتفكير الإيجابي هو أيضاً اقتناع بفكرة، ربما يبدأ بحادثة طيبة كنجاح في امتحان، أو في مشروع تجاري، فيستقر في نفس صاحبه الاعتقاد بأنه إنسان مقتدر ناجح، ويملأ هذا الاعتقاد عليه نفسه، ويوجه سلوكه في مستقبل حياته.

يقول المؤلفان: إن الإيحاء الذاتي الإيجابي، هو بيت القصيد في الفصل فكيف يدربّ الإنسان نفسه عليه.

إن لدى كلّ منا عقلاً واعياً وعقلاً باطناً. العقل الواعي هو الذي نمارس من خلاله أمور معاشنا. وندرك به حقائق الحياة حولنا. أما العقل الباطن فهو كامن في أعماقنا، وهو الذي يوجّهنا في الحياة؛ يوجه أحاسيسنا ومشاعرنا ويتحكم في تصرفاتنا.

إن العقل الباطن يختزنُ تجارب الحياة بإيجابياتها وسلبياتها، وهو لا يُميّز بين الحقيقة وغير الحقيقة لذا كان من الممكن برمجته عن طريق الإيحاء

الذاتي بشكل إيجابي وإلى هذا أشار الأثرُ القائل: إنّ هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا. لأن التباكي المصطنع سيؤدي إلى البكاء الحقيقي في نهاية الأمر.

وللإيحاء الذاتي الإيجابي عدة طرق، من أهمها أن يجلس الإنسان على أريكة مريحة، أو يستلقي على السرير في استرخاء تام يمكن الوصول إليه عن طريق التنفس العميق. ويُستحسنُ أن يكون الضوء خافتاً، والجوُ هادئاً، ويجب أن يضمن الإنسان العزلة، وعدم قطع خلوته عليه بجرس هاتف، أو دخول صديق، ويبدأ يهمس لنفسه بالفكرة التي يريد زرعها في عقله الباطن، يرددها بثقة، واطمئنان وإيمانٍ بها. ويجب ألا يكون في العبارة نفي أو استقبال. فإذا أراد الإقلاع عن التدخين مثلاً، فهو لا يقول: أنا سوف أقلع عن التدخين، أو أنا لن أدخن بعد اليوم، بل يقول: أنا أكره التدخين، أنا اقلعت عن التدخين بفضل الله وعونه.. ويردد هذه العبارة وأمثالها لمدة عشر دقائق، مرة في الصباح، وأخرى قبل النوم.. لمدة أسبوعين أو ثلاثة، وسيتحقق له ما يريد بفضل الله وتوفيقه.

لقد نقلت من الكتاب بتصرف وأضفت بعض السطور، وأرجو أن يكون فيما اخترته للقارئ الكريم عون على التخلص من القلق الذي هو من أكبر أسباب العطالة، والله الموفق.

٢٥

هل نحتاج إلى الزهد؟

أعرفُ أنّ في دنيانا فقراءَ هدّهم الجوع والمرض، وأذلّتهمُ الحاجةُ والفقر الذي كاد أن يكون كفراً؛ منهم في فلسطين الذبيحة، ومنهم في الهند والشيشان، والصومال والسّودان، ومنهم في إفريقيا السوداء.. ولست إلى هؤلاء في هذه المقالة أتحدّث، ولستُ أسأل الآنَ عنهم، وإن كنتُ أخشى أن أُسألَ غداً بين يدي الله عنهم!

إنما أتحدّث إلى نفسي، وإلى كلّ مَنْ عرفتُ (تقريباً)، نحن الذين نسبَحُ في بحورٍ من النّعم، ولا نؤدي عُشْر حقّها من الشكر: نشتري أكثر مما نحتاج، ونلبس، ونأكل، ونركب، ونسكن، ونُهدي.. كلُّ ذلك في إسراف (قد) يكون خرج من دائرة الحلال إلى دائرة الحرام، والله أعلم، ونستغفره ونتوب إليه. وكأننا المعنيّون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

أمامي كتاب «الزهد الكبير» للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى عام (٤٥٨) هـ رحمه الله، الذي قال عنه الإمام السّبكي في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»: «كان جبلاً من جبال العلم، أوحدَ زمانه، وفارسَ ميدانه، وأحذقَ المحدّثين، وأحدَّهم ذِهنا، وأسرعَهم فهماً، وأجودهم قريحة، وكان قانعاً من الدنيا بالقليل».

---

(١) البخاري ومسلم والترمذي.

وقد اشتهر عن إمام الحرمين رحمه الله قولُه: «ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي (بعد الله) عليه منّة، إلا أحمد البيهقي فإنّ له على الشافعي منّة»، وذلك للخدمة الجليلة التي خَدَم بها البيهقيُ مذهب الشّافعي.

وكتاب «الزهد الكبير» يقع، مع التعليقات عليه، في (٣٦٨) صفحة، وعدَّ محقّقه الشيخ عامر أحمد حيدر فيه (٩٨٩) قولاً مأثوراً عن الصحابة والتابعين والصالحين، رضي الله عنهم، وفيها بعض الأحاديث الشريفة. ومن هذه الأقوال الواردة في الزهد أختار لنفسي وللقارئ الكريم بعضها، وهي لا تصلح أن تُقرأ (كالجرائد)، وإلا قلّتِ الاستفادة منها، بل لابدَّ من تأمّلها، وترديدها، والتفكّر فيها مرّةً بعد مرة، ليحصلَ الانتفاع بها، إن شاء الله تعالى:

- قال أبو موسى الديبلي جواباً لمن سأله: ما الزهد في الدنيا؟ قال: لا تأسَ على ما فاتك منها، ولا تفرحْ بما أتاك منها.
- قال الحسن البصري رحمه الله: يا معشر الشباب عليكم بالآخرة فاطلبوها، فكثيراً رأينا من طلب الآخرة فأدركها مع الدنيا، وما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدركَ الآخرة معها.
- قال الإمام سفيان بن عُيينة: سمعت أبا حازمٍ يقول: أوحى الله إلى الدنيا: مَنْ خدمكِ فأتْعبيه، ومن خدمني فاخدميه.
- قال الجُرجاني في التعريفات: الزُّهْدُ في اللغة: ترك الميل إلى الشيء، وفي الاصطلاح: ترك راحة الدنيا طَلَباً لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلوَ قلبُك مما خلتْ منه يدك.
- قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكنِ الزهد: أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يديك، وأن تكون

في ثواب المصيبة إذا أُصبتَ بها، أرغبَ منك فيها لو أنها بقيتْ لك»، أي: لو أنك لم تُصَبْ بها أصلاً. رواه الترمذي وابن ماجه.

- سأل رجلٌ عبدَ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألكَ امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مَسْكنٌ تسكنُهُ؟ قال: نعم، قال: فأنتَ من الأغنياء.
قال: فإنّ لي خادماً، قال: فأنت من الملوك!! رواه مسلم.

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يدخل فقراءُ المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً» رواه الترمذي. يعني: بأربعين سنة.
والذي أفهمه - والله أعلم - أنّ هذا بصفةٍ عامة، وقد يدخل بعض الأغنياء الجنة قبل بعض الفقراء. وفي صحيحي البخاري ومسلم، وغيرهما، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «اطّلَعْتُ في الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء».

- كتب الخليفة الراشد الزاهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، إلى سيّد التابعين وزينة أهل زمانه الحسن البصري رحمه الله: عِظْني وأوجز. فكتب إليه الحسن: أما بعد؟ فإنّ الدنيا مشغلة للقلب والبدن، وإن الزهد راحةٌ للقلب والبدن، وإن الله تعالى سائلُنا عن الذي نعِمْنا في حلاله، فكيف بما نعمنا في حرامه؟!

- قال بِشْر بن الحارث: ليس الزّهْدُ في الدنيا تركَ الدنيا، إنما الزهد أن تزهَدَ في كل ما سوى الله عزّ وجلّ. هذا داود وسليمان عليهما السلام قد ملكا الدنيا، وكانا عند الله من الزاهدين.

- قال الفضيل بنُ عياض رحمه الله: رهبةُ العبد من الله على قدْر علمه بالله، وزهده في الدنيا على قدْر رغبته في الآخرة.

- قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ليس الزاهد مَنْ ألقى غمَّ الدنيا واستراح منها، إنما تلك راحة، وإنما الزاهد من ألقى غمّها وتعب فيها لآخرته.
- وقال: مَنْ عَدِمَ القناعة لم يزدْه المالُ غِنىً.
- قيل للحسن البصري رحمه الله (ما معناه): إن بعض الناس يأتون مجلسَك، يلتمسون أخطاءَك، وهفواتك، فينقلونها عنك، ويوقعون بك.

فقال للقائل: هوّنْ عليك، فإني أطمعت نفسي في جوار الله فطمعت، وأطمعتها في الجنة فطمعت، وأطمعتها في الحور العين فطمعت، وأطمعتها في السّلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلاً! إني لما رأيتُ الناس لا يرضون عن خالقهم، علمتُ أنهم لا يرضون عن مخلوقٍ مثلهم!

وبعد؛ فلكل مقامٍ مقال. وما يقال للفقير المُعدِم لا يقال للغني المُمْسِك، وما يقال للصابر الشاكر لا يقال للجازع الجاحد، والتوازن مطلوبٌ في كل شيء، والمرء يأخذ من الحكمة ما يناسب حالَه، فذاك من الحكمة. والكلام الذي يوجَّه للفرد الذي أتعب نفسه النهمة إلى المال، لا يُقال للأمة الكسلى، التي تداعت عليها الأمم كما يتداعى الأكَلةُ إلى قصعة الطعام.

فالأمة المسلمة دائماً مُطالبَةٌ بأنْ تُعِدَّ ما تستطيع من القوة، والمال هو الركن الأول للقوة المادية، ومسكينة هذه الأمة (التي تدفع لأعدائها) مليارات الدولارات لتشتري الأسلحة والذخيرة التي تدافع بها عن نفسها ضدهم!!

٢٦

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾!!

تأملتُ في حال هذه الدنيا: أفرادها، وجماعاتها، وشعوبها، وحكّامها ودُوَلها.. فرأيتُ من أنواع الظُلم عجباً:

أخٌ يظلم أخاه، وزوجٌ يظلم زوجته، وجارٌ يظلم جاره، ورَبُّ عملٍ يظلم مَن يعمل عنده، وبيضٌ يظلمون سُوداً (كما كان في جمهورية جنوب إفريقيا العنصرية) وصربٌ يظلمون المسلمين البوسنويين، وحاكم فردٌ مع أذنابه يظلم شعباً بكامله، ويُجيعه، ويُذلّه، ويُذيقه ألوان الفقر والقهر، وآخرُ يملأ سجونه بالأحرار الأخيار الأبرار الأطهار، لا ينقم منهم «إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»، وفرنسا: ماذا فعلت في الجزائر؟ وإيطاليا: ماذا فعلت بليبيا وعمرَ المختار؟ وبريطانيا كيف امتصّت دماءَ الشعوب التي حكمتها؟ وروسيا كم وكم ظلمتْ؟ وأمريكا التي تفاخر بصنَم الحريّة هي أمُّ العدل والرحمة والحرية، وعدم الكيل بألفِ ميزانٍ مختلفٍ في القضايا المتشابهة، لا تستعملُ حقَّ النقض (الفيتو) أبداً من أجل أن ينال شعب فلسطين حقّه من اليهود الظالمين... ولو ذهبتُ أُحصي وأعدّد صُوَر الظلم لعجزتُ، وعجزتْ معي فئة من المُحْصِين العالمين الأكفياء!

كنتُ بالأمس أقرأ قوله تعالى في سورة إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾.

فهالتني الآية وأرعبتني، وقلت في نفسي: سبحان الله ألا يوجد عند هؤلاء الظالمين ذرة من علمٍ أو عقل أو حكمة ليعرفوا ماذا ينتظرهم؟.

يخاطب الله نبيَّه محمداً عليه الصلاة والسّلام، ويُعْلِمُهُ أنّ هؤلاء الظالمين لهم عقابٌ يومَ القيامة، يومَ تشخص الأبصار. اي: لا تقرُّ في أماكنها من هَوْل ما ترى، وأجفانُهم ثابتة لا تطرُف. مُهْطِعِين: مُسْرِعِينَ إلى الداعي، أو مُسْرعين مدفوعين إلى النار. مُقنعي رؤوسهم: رافعي رؤوسهم، مُلْتصقة بأعناقهم. وقيل: ناكسي رؤوسهم. لا يرتدّ إليهم طرْفُهم: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدّة النظر. فلا ينظرون إلى أنفسهم، لكثرة ما هم فيه من الهول، والمخافة لِما يحلُّ بهم. وأفئدتهم هواء: قلوبُهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل. أو إنّ أمكنة أفئدتهم خاليةٌ لأنّ القلوب لدى الحناجر، قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقيل: قلوبهم قد تمزّقت من الخوف لا تعي شيئاً.

قال سيد قطب رحمه الله في (الظلال):

«والرسول صلى الله عليه وسلم لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون، ولكنّ ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتّعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا. فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها، ولافكاك منها. أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظلُّ مفتوحةً، مبهوتة، مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك. ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول: مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء. رافعين رؤوسهم لاعن إرادة، ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً. يمتدّ بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتدُّ إليهم. وقلوبهم من الفزع خاويةٌ خالية، لا تضمّ شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء.

ويأتي بعدَ ذلك بآيات، قولُه تعالى: ﴿ فلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾. ومزيدٌ من وصف حال الظالمين المجرمين: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ... ﴾.

المجرمون مقرّنون: أي أنَّ أيديهم وأرجلَهم قُرنتْ إلى رقابهم بالقيود والأغلال. ملابسُهم من القطران لأنه يُبالغ في اشتعال النار في الجلود، والنار تعلو وجوهَهم، وتلفُّها، وتحرقُها إحراقاً شديداً لا عهد لأهل الدنيا بشدته.

هل يقرأ هذه الآيات وأمثالها ذو عقل ويجرؤ بعد ذلك على الظلم؟! اللهم إنا نعوذ بك من أن نَظْلِمَ أو نُظْلَم.

وفي الحديث الشريف أحاديث كثيرة تحذّر من الوقوع في الظلم، وتبيّن بشاعة عقوبته، وفي صحيح الإمام البخاري رحمه الله كتابٌ عنوانه: كتاب المظالم. أختار منه، ومن شرحه، فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله بعض الأحاديث:

قال الشارح: المظالم، جمع مَظْلَمة، واسمٌ لما أُخذ بغير حقّ، والظُّلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خَلَصَ المؤمنونَ من النار حُبِسوا بقنطرةٍ بين الجنة والنار، فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقّوا وهُذِّبوا أُذن لهم بدخول الجنة... يعني: خلصوا من الآثام بمقاصصة بعضها ببعض. وفي حديث جابر رضي الله عنه: « لا يحلّ لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ قِبَلَهُ مظلمة»، أي: وفي عنقه حق لأحد.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلمه..» ولا يظلمه: خبرٌ بمعنى الأمر، فإن ظلم المسلم للمسلم حرام. بل هو حرامٌ لغير المسلم أيضاً.

وفي وصية النبي عليه السلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: .. «اتَّقِ دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له مظلمة لأخيه (أي: من كانت عليه مظلمة أخيه) من عرضه، أو شيء، فلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولادرهم، إن كان له عملٌ صالح أُخذ منه بقدْر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخِذَ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه».

إن من أعظم صور الفاعلية الامتناع عن الظلم بأشكاله كافّة، فإن وقع فالمسارعة إلى رفعه والتحلل منه قبل فوات الأوان.

٢٧

الحبّ والطب ومعجزات الشفاء

موضوع هذا المقال كتاب حظي بشعبية كبيرة عند قراء اللغة الإنجليزية، واحتل مرتبة عالية بين أكثر الكتب رواجاً في أمريكا.. عنوان الكتاب: الحب، والطب ومعجزات الشفاء. أما المؤلفُ فهو الدكتور بيرني سيجل، أستاذُ الجراحة في جامعة ييل الأمريكية، الذي أسّسَ جماعة مرضى السرطان المتميزين، وانتُخب رئيساً للجمعية الأمريكية للطب الشامل الذي يهتم بالتكامل في العلاج من النواحي النفسية والاجتماعية والطبية، وتقوم فلسفته في علاقته بمرضاه على الإيمان بأثر العقل في الجسم، وبثّ روحِ الأمل، وإرادةِ الشفاء بإشاعة الإيمان والحب والتفتح للحياة. وأما المترجم فهو الدكتور عِزّت شعلان، الطبيبُ الحائز على عدة شهادات منها: دكتوراه الصحة العامة من جامعة تكساس. وعلى إحدى الصفحات الأولى، من الكتاب وجّه المترجم إهداءه «إلى الصابرين في البأساء والضراء، الذين لا يقنَطون من رَوْح الله».

يقول المؤلف في الفصل الثالث من كتابه، وعنوانه المرض والعقل: إنّ إهمالَ الطب الحديث للعلاقة بين العقل والجسم هو في الحقيقة استثناءٌ قصيرُ الأمد إذا قيس بتاريخ فنّ العلاج كلّه. فقد كانت الحاجةُ إلى العمل من خلال عقلِ المريض معروفةً دائماً في طب القبائل التقليدي، وفي مزاولة مهنة الطب في بلاد الغرب منذ بدايتها في أعمال أبو قراط. وندر أن أخفق الأطباء حتى القرن التاسعَ عشر في ملاحظة تأثير الحزن، أو اليأس، أو الإحباط على نشأة

المرض ونتيجته، كما أنهم لم يتجاهلوا التأثير الشافي للإيمان، والثقة بالنفس، وراحة البال، بل كان الاطمئنان شرطاً أساسياً للصحة.

غير أنّ رجل الطب الحديث اكتسب قدراً عظيماً من السيطرة على بعض الأمراض بواسطة الأدوية، حتى نسي القوة الكامنة داخل المريض وقد حدثني صديق طبيب عن قراءته لمذكرات خاله الذي كان طبيباً أيضاً، فقال: إنه كان يُسَجّل في يومياته ما حدث للفرد- قبل ظهور المرض- من أحداثٍ أو تغيرات اجتماعية أو نفسية. وعندما أصبح الطب أكثر اعتماداً على التكنولوجيا، أخذ هذا الأمر تتناقصُ أهميتُه عند خاله إلى أن ألغاه تماماً.

يقول المؤلف: إنني أستخدم مع مرضاي وسيلتين رئيسيتين لتغيير الجسم: ١- الأحاسيس (أو المشاعر)، ٢- والتخيّلات. وهاتان هما الوسيلتان اللتان نستطيع بهما أن نجعلَ عقولنا وأجسامنا على اتصالٍ فيما بينها. إنّ أحاسيسنا وكلماتنا تجعل جسمنا يعرف ما نتوقّعه منه، وحين نتخيّل تغيُّراتٍ مُعينةً تحدثُ لنا فإننا نساعدُ الجسم على أن يقوم بها، لأنها تنتقل خلالَ جهازِنا العصبي. لقد وجد الباحثُ بيكر أن المرضى المنومين مغناطيسياً يُمكنهم إحداث تغييرات في الجهد الكهربيّ في مناطقَ معينة من الجسم عند الطلب، تتحكم في عمليات الشفاء الكيمياوية والخلوية. إن المريض الحكيم لا يعتمد على الدواء وحده، إنه يستطيع بالإيمانِ، والدعاءِ، والرضا، وحب النفس، وحبٌ الآخرين وبراحةِ البال أن يُحدِثَ - بعون الله - التغييراتِ اللازمةَ ليتحقّق له الشفاء.

إن الخسائر، والمصائبَ ليست هي العاملَ الأول في الإصابة بالمرض، لكنّ الطريقة التي نستجيب بها نحو ما يُصيبُنا ويُلمُّ بنا أهمُّ من الحادث نفسه. إن الذين يعلمون كيف يتغلّبون على مُشكلاتهم، وكيف ينفسون عن مشاعرهم يَظلّون في حالةٍ طيّبة. إنّ الغضبَ إحساسٌ طبيعي إذا عبرنا عنه عند

الإحساس به، فإن لم يحدثْ ذلك فإنه يتطوّر إلى شعورٍ بالسُّخط أو حتى الكراهية التي يمكن أن تكون بالغةَ التدمير.

ولو عالج الإنسان الغضبَ أو اليأسَ عند بداية ظهورهما، فلن يكونَ هناك ما يدعو إلى حدوث المرض. إنّ الحقيقة البسيطة هي أن السعداء من الناس لا يمرضون كثيراً، وموقفُ الإنسانِ تُجاه نفسه هو أهمّ عاملٍ وحيد في الشفاء، أو المحافظة على صحة طيبة. وأولئك الذين يكونون في سكينةٍ مع أنفسِهم ومن حولَهم مباشرةً تكون أمراضهم الخطيرة أقلَّ بكثيرٍ من الذين ليسوا كذلك. إنّ جهاز المناعة القويَّ يستطيعُ التغلّب على السرطان إذا لم نتدخلْ في عمله، كما أن النمو العاطفي نحو المزيد من تقبّل الذات وإشباعِها يساعد على بقاء جهاز المناعة قوياً.

يقول المؤلف في الفصل السادس من كتابه، وعنوانه: تركيز العقل في سبيل الشفاء: إن أوسع الأساليب استخداماً وأنجَحَها من بين الأساليبِ النفسيةِ العديدة المطبَّقةِ على المرض الجسمي أسلوب يُسمَّى: التصوّرَ أو التخيّل. والتخيّلُ يجب أن تسبقَه مرحلةُ الاسترخاء، الذي هو تهدئة النشاط العقلي، وانسحاب الجسم والعقل من التنبيه الخارجي. ومسحُ الهموم الدنيوية استعداداً للاتصال بالطبقات الأعمق في العقل. والهدف من ذلك أن نصل إلى مرحلة تشبه (الغيبوبة) الخفيفة تُسمى أحياناً (حالة ألفا) لأنّ موجات المخ فيها تحتوي على موجات ألفا التي يكون تردُّدها بين ثماني إلى اثنتي عشرة في الثانية. وإثارة هذه الحالة هو أول خطوةٍ في التنويم المغناطيسي، والاسترجاعِ الحيوي، وتأمّلِ اليوجا، وأغلبِ الصور المتعلقة باستكشاف العقل.

يقول المؤلف: لقد لاحظ أستاذُ علم الإنسان كلود ليفي شتراوس أن أغلب الطب الشعبي في العالم قائمٌ على (المعالجة النفسية للعضو المريض) بواسطة

التخيل. فالمريض يرسم صورة عقليةً نابضةً بالحياة يرسلُها إلى عقله وهو في حالة الغيبوبة. هذه الصورة تمثل العضو المريض وقد طردَ الأعراضَ المرضية منه، وأصبح في أتمّ حالات العافية والحيوية. لقد وصف مؤلّفا كتابِ (ما بعدَ الاسترجاع الحيوي) تجربة لهما لمساعدة رجلٍ في تخفيف ألمه الناتج عن سرطان في الحوض. وقد قاما بتنويمه مغناطيسياً، وطلبا منه أن يجدَ في مُخه الغُرفة التي تحتوي على صِمَامات التحكم في تزويد جسمه بالدم، فلما وجدها طلبا منه أن يُغلق الصمَّامَ الذي يتحكم في سريان الدم إلى ورمه. وبعد عدة جلسات انكمش الورم إلى رُبُع حجمه الأصلي، وزال ألمه، وخرج من المستشفى.

إن التخيُّل يستغلّ ما يمكن أن نطلق عليه (ضعفَ الجسم) إذ أن الجسم لا يستطيع أن يميّز بين التجربة العقلية الحيّة والتجربة الجسمية الواقعية. وقد درس عالم النفس تشارلز جارفيلد بالمركز الطبي لجامعة كاليفورنيا حالات الذين ظلوا أحياءً بعد إصابتهم بالسرطان، وانتهى إلى أن أغلبهم كانت لديهم القدرةُ على الدخول في حالاتٍ عقليةٍ مكّنت أجسامهم من الأداء كأجسام الرياضيين في مستويات تفوق المعتاد. فقد ظهرت في أوروبا الشرقية طريقةُ تدريب الرياضيين عن طريق التخيل بالإضافة إلى التدريب الفعلي على أرض الملعب. فبعد الاسترخاء العميق يتصور الرياضيُّ أداءً يفوز فيه بكل دقائقه وتفصيلاته. ويتكرّر هذا التصور أو (التخيل)، مراتٍ ومراتٍ حتى يصبح الأداء البدني نسخة من الأداء العقلي الذي تمَّ تصوّرُهُ من قبلُ بنجاح. وقد أشارت البحوث في الاتحاد السوفيتي السابق إلى أن الرياضيين الذين ينفقون ثلاثة أرباع وقتهم في التدريب العقلي يكون أداؤهم أفضل من الذين يكون كلُّ اهتمامهم موجهاً إلى التدريب البدني.

آمل أن يكون في هذه المعلومات فائدة كبيرة للقارئ الكريم، وهي- على أي حال- نموذج مدهش من آيات الله سبحانه في جسم الإنسان ونفسه ، تجعلنا نذكر الآية القرآنية الكريمة: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ؟! وهي خطوة مهمة لكثيرين منا تخرج بنا من دائرة العطالة إلى دائرة الفاعلية إن شاء الله.

٢٨

إن الحياة دقائق وثوان

اهتمامي بالوقت، ومعرفة طبيعته، وحسن تنظيمه والاستفادة منه قديم، وقد كتبتُ في هذا كتيباً، سجلته على شريطين طامعاً أن تستفيد منه أكبر شريحة من المجتمعات.

وقد استفدت من كتاب بعنوان: «إدارة الوقت» للدكتور نادر أحمد أبو شيخة، وددت الحديث عنه للقارئ الكريم، لأن الوقت هو الحياة، وكل إنسان قد قدَّر الله أن يعيش في هذه الدنيا (ساعات محدودةً معدودةً)، والعاقل هو الذي يحسن الاستفادة منها، ويستثمرها لتحقيق أكبر ربح ممكن في الآجل والعاجل.

يبدأ المؤلف مقدمته مقتبساً بضعة أسطر من كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبدِ الله عندما ولاّه المأمون الرّقة ومصر. ومما جاء في الكتاب: وافرَغْ من عمل يومك، ولا تؤخّره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإنّ لغدٍ أموراً وحوادثَ تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت، واعلم أن اليوم الذي مضى ذهب بما فيه، فإذا أخّرت عمله اجتمع عليك عمل يومين، وإذا أمضيت لكل يومٍ عمله، أرحت بذلك نفسك، وجمعت أمر سلطانك».

يقول المؤلف: دارت في ذهني هذه المقولة بعد أن انتهيت من إعداد هذا الكتاب ورحت أتساءل: كيف يكون غيرنا أقرب منا إلى قيمنا، وأوفى عهداً لتراثنا وأشبه منا بأسلافنا؟ نظرت لواقعهم فأدركت أننا كنا بهذا أولى منهم، ولو اعتنقنا ماجاء به سلفنا الصالح لكان مكاننا في العالم الأول، لا العالم

الثالث كما يحبون أن يصنفونا! لقد تأكد لي، لا للمرة الأولى، بل للمرة الألف بعد الألف، أن مفتاح الباب الذي يعبر بنا من حيث نحن إلى حيث نريد، يتلخص في ثلاث كلمات: الوقت هو الحياة.

إن قضية التنمية في المقام الأول قضية وقت وقضية إنتاج، وإن الأمر في حاجة إلى التعامل مع الوقت على أنه موردٌ لابد من استثماره لتحقيق النتائج المطلوبة لرفاهية شعوبنا، ويقع عبء ذلك في الدرجة الأولى على عاتق كلّ فردٍ منا.

إن العلوم الاجتماعية الحديثة قد أثبتت خطأ إلقاء اللوم على الأفراد فيما يختص بالظواهر الاجتماعية، كالاستهتار بقيمة الوقت، وأثبتت أن الأفراد نتاج بيئتهم الاجتماعية، وعلى هذا، فإننا لابد أن نتساءل: ماذا حدث في المجتمع بحيث أصبحت قيمة الوقت لا تحتل مكانتها على قمة سُلّم القيم الاجتماعية عند الناس؟

إن الأفراد يكتسبون قيمهم الموجِهة لسلوكهم، ومن بينها قيمة الوقت، من خلال الأسرة، والمدرسة ، والجامعة، ووسائل الإعلام، فإلى أي حدّ تغرس هذه المصادر قيمة الوقت في نفوس الناشئة منذ نعومة أظفارهم؟

ترى: هل يقدّر الآباء والأمهات قيمة الوقت؟ وهل في المقررات الدراسية على طول السنوات الطويلة مقرر يعلّم قيمة الوقت وكيفية إدارته واستثماره على أحسن وجه؟ وهل نال هذا الموضوع في المعاهد العليا والجامعات ماهو جدير به من الاهتمام؟ أقول بكثير من الجرأة: لا!

قسم المؤلف كتابه إلى ثمانية فصول جاءت على التسلسل التالي: خصائص الوقت وأهميته في الإدارة؛ الوقت: الرؤية والافتراضات؛ تسجيل الوقت وتحليله: تحديد الأهداف والأولويات، تخطيط الوقت؛ مضيّعات الوقت وكيفية

السيطرة عليها؛ إدارة الاجتماعات؛ تفويض السلطة أسلوبٌ من أساليب إدارة الوقت. وجاءت - في آخر كل فصل - خلاصة مركّزة لأهم أفكاره لا تزيد على نصف صفحة إلا قليلاً. واعتمد المؤلف على حوالي عشرين مرجعاً باللغة العربية ومثلها بالإنجليزية. ومما يُحمد له أنه استفاد من مراجع اللغة الإنجليزية بصورة رئيسية، لأن هذا المجال قد سبقت إليه الشعوب الناطقة بتلك اللغة، ولا تكاد تمر بصفحة إلا وجدت فيها بعض المصطلحات والعبارات الإنجليزية بجانب ترجمتها.

يستهل المؤلف الفصل الأول من كتابه ببعض الأقوال المأثورة التي قيلت في الوقت. منها: قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما. وقول الحسن البصري رحمه الله: يا ابن آدم إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك. وقول الوزير الصالح يحْيى بن هُبيرة:

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه
وأراهُ أسهل ما عليك يضيعُ

وقول توماس مان: حافظ على وقتك جيّداً، احرسه، راقبه، افعل ذلك مع كل دقيقة وساعة. إن الوقت ينسلّ من بين أصابعك كالأفعى الناعمة، اعتبر كل دقيقة من وقتك شيئاً مقدساً. أعط كل دقيقة معنى ووضوحاً ووعياً.

إن الوقت مورد نادر لا يمكن تجميعه أو إدخاره وتخزينه، ولما كان سريع الانقضاء، وما مضى منه لا يعود، ولا يمكن أن يعوّض، فهو أنفس ما يملك الإنسان، إنه مورد محدد يملكه جميع الناس بالتساوي. وهو لا يمكن بيعه، أو سرقته، أو استعارته، أو تصنيعه. وكل ما يمكن أن يفعله المرء هو أن يقضيه وفق معدل ثابت مقداره ستون ثانية في كل دقيقة.

ومن أهمّ فصول الكتاب فصل تحديد الأهداف والأولويّات. فالمرء إذا أراد أن يسيطر على وقته ويزيد من فعاليّته فعليه أن يحدد أهدافه تماماً وأن يعمل على تحديثها باستمرار، فالأهداف تحول بينه وبين القفز في المجهول، أو بينه وبين العمل غير الهادف، وتضعه في الاتجاه الإيجابي، وبدونها ربما يجد نفسه مسربلاً بالقلق، مؤتزراً بالتوتر، محاطاً بكل أنواع الضغوط الخارجية، بعضها يدفعه في اتجاه، والآخر يدفعه في الاتجاه المعاكس. إن وضع أهداف واضحة هو المقدمة الأولى لحسن توظيف الوقت المتاح. ومن خلال الأهداف يمكن للمرء أن يقيّم ما إذا كان نشاط بعينه يمثل توظيفاً أحسن للوقت من غيره من الأنشطة. ومن خلال الأهداف كذلك يمكن للمرء أن يضع سلماً لأولوياته.

إن الأهداف عنصر أساسي لتحقيق الاستقرار الشخصي والاستمتاع بقيمة الحياة.

وقد دلت بعض الدراسات الغربية على موت عدد لا يستهان به من المديرين الذين يتقاعدون في سنّ الخامسة والستين بعد ثمانية عشر شهراً من تقاعدهم، وربما كان ذلك لأنهم فقدوا الأهداف التي كانوا يسعون لتحقيقها، وبالتالي فقدوا الأمل، واتجاه السير، وحيوية اتخاذ القرارات، فأصبحت الحياة عندهم لا تستحق العيش. وسواء كان الأمر متعلقاً بإدارة الوقت الخاص بالشخص ذاته، أو بوقت وظيفته وعمله، فإن الأهداف تظلّ المفتاح الرئيسي لأي جهد رشيد، والمحور الأساسي للعملية التخطيطية، وبدونها لا تؤدي الجهود إلى شيء. فبالأهداف تصبح إدارة الوقت ممكنة، وبإدارة الوقت يصبح تحقيق الأهداف ممكناً بعون الله وتوفيقه.

ومن أهم فصول الكتاب أيضاً فصلُ مضيِّعات الوقت وكيفية السيطرة عليها. ويذكر المؤلف عدداً من مضيّعات الأوقات، منها: الزيارات المفاجئة،

والاجتماعات غير الناجحة، والتردد في اتخاذ القرارات، وسوء ترتيب الأولويات، والمقاطعات في أثناء العمل، والمجاملات الاجتماعية، وقراءة الصحف والمجلات، والمكالماتُ الهاتفية غير اللازمة.

وحول استخدام الهاتف يقول: يُستخدم الهاتف عادة لتحقيق أهداف معينة، ويكون حينئذٍ أكثر فعالية من أي وسيلة اتصال أخرى. ولكنْ كثيراً ما يكون وسيلة لإضاعة الوقت. ويذكر المؤلف تسعة مقترحات حول استخدام الهاتف ويختمها بنصيحة عدم استعماله لمناقشة المسائل المهمة لأنّ الحديث فيه ينقصه التأثير الذي تحدثه المقابلة وجهاً لوجه. ثم يقدم المؤلف اثنتي عشرة نصيحة لزيادة فعالية استخدام الهاتف منها: تخصيص وقت معين في اليوم- إن أمكن- لإجراء المكالمات الهاتفية، والاتصال قُبيل نهاية دوام الموظف، وقُبيل موعد عودة الزوج من عمله، أو الأولاد من مدارسهم للأم وربة البيت، فلا تطول المحادثة الهاتفية حينئذ. ومن أهمها عدم الرد على الهاتف إذا كان المرء مشغولاً بأمرٍ مهم، وقد حلَّ جهاز التسجيل مشكلةَ تلقي المكالمات المهمة نيابةً عن صاحبه. وما أكثر الأوقات التي تضيع على الموظفين بسبب مكالمات المجاملة في أماكن العمل، وفي أوقات الصباح الحافلة بالواجبات على ربات البيوت.

ومن فضل الله أن المكتبة العربية ظهرت فيها بعض الكتب الجيدة عن الوقت، منها ما يثير الحماسة لحسن الاستفادة منه، ويقنع المرء بأهميته ولكنه لا يعلّمنا: ماذا نعمل!! ومنها ما أخذ طابع الإدارة البحتة فصار فيه بعض الجفاف، والجمع بين الصنفين خير، ولا بد منه.

٢٩

فَنُّ الكذِب

هل يكذبون علينا فقط؟ أم يكذبون علينا وعلى أنفسهم؟

(المفعول به) في هاتين الجملتين المراد به نحن، العرب والمسلمون، (والفاعل) يُراد به أعداؤنا، وخاصة ما اصطلحنا على تسميته (بالغرب)، ونحن نريد به: أوروبا وأمريكا، أو ما يُسمَّى في بعض البلاد بـ (الرجل الأبيض).

الحقيقة التي بدت جلية لا خفاءَ فيها (والله تعالى أعلم) أنهم يكذبون علينا وعلى أنفسهم: يخطئ من يظنُّ أنّ (الغرب) لاهمَّ له إلا نحن، ويخطئ كذلك من يظنُّ أننا لا نعنيهم في صغير أو كبير.

وبعبارة أخرى نَفْيُ (المؤامرة) خطأ يدلّ- فيما أرى على جهل صاحبه، وتضخيم (المؤامرة) لتملأ كلَّ شيء وهْمٌ من أوهام الكُسالى الذين يعتذرون عن ضعفهم وعجزهم بالمقادير!

أصدرت سلسلة (عالم المعرفة) الكويتية (مرّتين) كتاباً بعنوان: «المتلاعبون بالعقول: كيف يجذب محرّكو الدُّمى الكبارُ في السياسة والإعلان ووسائلِ الاتصال الجماهيري خيوطَ الرأي العام..» الكتاب من تأليف: هربرت شيلر، وعنوانه الحرفي بالإنجليزية: مديرو العقول، لكنّ مترجمه الأستاذ عبد السلام رضوان وُفّق في اختيار الكلمة العربية لأنه استوحى المعنى المراد من اللفظ، لا اللفظ نفسَه.

أما مؤلف الكتاب فهو أستاذ جامعي أكاديمي، يكتب في مجال اختصاصه، إذ أنه أستاذُ مادةِ «وسائل الاتصال» بجامعة كاليفورنيا، وكان قبل ذلك أستاذاً بمعهد «برات» بنيويورك، وبجامعتي: إلينوي، وأمستردام.

نظرت إلى تاريخ الكتاب فأُصبتُ بخيبة أمل لأنه (قديمٌ قديمٌ) في عالم السرعة المحموم (١٩٧٤م)!! حاولت أن أحصل على آخر طبعةٍ له فقال لي موظف المكتبة - بعد استشارة حاسبه الآلي -: إن الكتاب لم يُعَدْ طبعه! قرأت في الكتاب فشدّني بقوة، وعشت معه أياماً أحسست أنه لا يعدو وصفَ الواقع الذي أعرفه في خطوطه العريضة، وإن كنت أجزم أن تفاصيله تغيّرتْ، وإحصاءاتِه تضخمّتْ. ونظرةٌ إلى عناوينه الرئيسية والفرعية تعطينا فكرة عنه:

التضليل الإعلامي والوعي المعلب - أسطورة الفردية والاختيار الشخصي- أسطورة الحياد- فورية المتابعة الإعلامية - السلبية هي الهدف النهائي لتوجيه العقول- صناعة المعرفة - الحكومة بوصفها مروّجة دعاية - الحكومة بوصفها أداة توجيه للإعلام - العنصر العسكري في صناعة المعرفة - الترفيه والتسلية تعزيز للوضع الراهن - شركة والت ديزني - صناعة استطلاع الرأي قياسٌ وتصنيع للرأي - هل تقدم استطلاعات الرأي حقائق موضوعية- توجيه العقول ينتقل إلى ماوراء البحار: تقنيات الاستمالة - المكاتب الاستشارية ومكاتب السمسرة الأمريكية في الخارج - من قانون السوق إلى السيطرة السياسية المباشرة... هذه بعض العناوين، حبذا لو تدبرّها القارئ (الكريم) من غير أن يمرّ عليها مرور (الكرام) بمجالس اللئام!

قال المؤلف في مقدمته: يقوم مديرو أجهزة الإعلام في أمريكا بوضع أسس عمليةِ تداولِ (الصورِ والمعلوماتِ)، ويشرفون على معالجتها، وتنقيحها وإحكام السيطرة عليها. تلك الصور والمعلومات التي تحدّد معتقداتنا، ومواقفنا، بل

وتحدّد سلوكنا في النهاية. وعندما يعمد مديرو أجهزة الإعلام إلى طرح أفكار وتوجهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعي فإنهم يتحولون إلى سائسي عقول..

إن تضليل عقول البشر هو (أداةٌ للقهر). إنه يمثل إحدى الأدوات التي تسعى النخبة خلالها إلى تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة..

على أن تضليل الجماهير لا يمثل أول أداة تتبناها النخب الحاكمة من أجل الحفاظ على السيطرة الاجتماعية. فالحكام لا يلجؤون إلى التضليل الإعلامي إلا عندما يبدأ الشعب بالظهور كإرادة اجتماعية في مسار العملية التاريخية، أما قبل ذلك فلا وجود للتضليل بالمعنى الدقيق للكلمة، بل نجد بالأحرى قمعاً شاملاً: إذ لاضرورة هناك لتضليل المضطهدين عندما يكونون غارقين لآذانهم في بؤس الواقع».

إن امتلاك وسائل الإعلام والسيطرة عليها، شأنها شأن أشكال الملكية الأخرى، متاحٌ لمن يملكون رأس المال. والنتيجة الحتمية لذلك هي أن تُصبح محطات الإذاعة، وشبكات التلفزيون والصحف، والمجلات، وصناعة السينما، ودور النشر مملوكةً جميعاً لمجموعة من المؤسسات المشتركة والتكتلات الإعلامية. وهكذا يصبح الجهاز الإعلامي جاهزاً تماماً للاضطلاع بدور فعال وحاسم في العملية التضليلية...

إن فهم آليات الصناعة الثقافية الأمريكية أصبح ضرورياً بصورة مُلِحّة؛ فمنتجات ومبتدعات هذه الصناعة يتمّ إنجازها وفقاً لمواصفات مُحدّدة، وبمقومات تمّ اختبارها عمليا. ويُشار على المشاهدين، والمستمعين، والقراء، داخل البلاد وخارجها، أن يعوّدوا أنفسهم على هذه السّمات المميّزة. إلا أنه

يتعيّن أن يُلاحَظَ أنّ هذا التعوّدَ (أو التعويد) يمكن في ظروف معينة أن يُلحق الضرر بصحتكم العقلية!!

هذا بعض ما جاء في (المقدمة). والكتاب زاخر بمعلومات جديرة بالتأمل. وحسبُ كاتب أن يستيقظ العقل المسلم، وألا يقبل أو يرفض إلا بالحجّة والبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وأن لا يُخدع هذا العقل: لا من قبل الأعداء، ولا من قبل الأقرباء، وإنها لعملية شاقّة على العقول التي اعتادت الكسل، وشاقةٌ لأنّ أصحابها سيصطدمون مع أقرب الناس إليهم. ولكنْ: لا بُدّ مما ليس منه بدٌّ، والله الموفق.

٣٠

هل التسلية والترفيه وسيلة لتضليل العقول؟

هذا المقال امتداد للمقال الماضي، وهو يعتمد على الكتاب نفسه، ومحوره: التسلية والترفيه، ولكني أود أن أشير - قبل الشروع في المقال - إلى أن (الدعاية) قد تكون أكثرُ (تضليلاً) للناس من التسلية والتركية؛ لأنها قائمةٌ في معظمها على «فنّ الكذب» لترويج السلعة.

يقول روبرت كريهون في مقدمة كتابه: «علم التغذية الميسّر» - وأنا هنا أترجم من اللغة الإنجليزية - : «في عام ١٩٩٢م أنفق المعهد الوطني للسرطان (٤٠٠) ألف دولار لتشجيع الناس على أكل الخضار الطّازجة، وفي السنة نفسها أنفقت شركة (كيلوج) (٤٩) مليون دولار لإقناع الأطفال بأكل منتجاتها المحتوية على السكّر!»، فتأمّلوا!!

الفصل الرابع من كتاب شيلر عنوانه: الترفيه والتسلية: تعزيزٌ للوضع الراهن. ويتناول فيه ثلاثَ مؤسساتٍ ثقافيةٍ إعلاميةٍ مُهمة نموذجيةٍ، تقدّمُ نفسَها بوصفها (لا أيدولوجية) بالمرّة: أي أنها لا تحمل قِيَماً مُعيّنة، وأفكاراً ومبادئَ تريدُ نشرها. وهي: ١- مجلة دليل التلفاز ٢- والمجلة القومية للجغرافيا (ناشونال جيوغرافيك) ٣- وشركة والت ديزني المتحدة للإنتاج الفني، صاحبة التشكيلة المنوعة من منتجات ديزني.

وسأقصر حديثي على شركة والت ديزني، لأنها الأشهر بالنسبة لقراء العربية، وأنا لست أكثر من قارئٍ ينتقي لقارئ كي يقدح زناد فكره، ولست

داعياً إلى تصديق ما أنقله في أمثال هذا المقال. لكنني أدعو القارئ العربي إلى قراءة أمثال هذه الكتب بفكر ناقد، وبصيرة نافذة، ليعلم إلى أين يسير، أو إلى أين يُسار به:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟!

يقول هربرت شيلر - وأنقل بشيء من التصرف -: في الولايات المتحدة، حيث تتيح الإنتاجية المتزايدة لقوة العمل المزيدَ والمزيدَ من وقت الفراغ، تصبح التسلية والترفيه صناعةً عالية النمو، لها أثرها الثقافيُّ الهائل، رغم عدم الاعتراف بذلك! إن الفكرة القائلة بأنّ الترفيه والتسلية مستقلان عن (القيم الأخلاقية والاجتماعية وسواها)، ولا ينطويان على وجهة نظر، وبالتالي فهما خارجَ العملية الاجتماعية هي أسطورة كبيرة.

إن (أجهزة تشكيل الوعي) تستخدم كافة الوسائل: الكتب الهزلية، والرسوم المتحركة، والأفلام السينمائية، والإذاعة، والتلفاز، والأحداث الرياضية، والصحف، والمجلات. وتضخّ وسائل الإعلام والاتصال ألواناً مختلفةً من التسلية والترفيه المحمَّل بالقِيم، مُنكرةً طول الوقت وجودَ أيِّ تأثير، ماعدا الهروبَ المؤقتَ من الواقع، وتحقيقَ حالةٍ من الاسترخاء والمتعة. بل إن الفكرة القائلة: (إن الترفيه لا ينطوي على أيِّ سمةٍ تعليمية) ينبغي أن يُنظر إليها بوصفها إحدى أكبر الخدع في التاريخ!!

يقول مؤرخ التلفزيون الأمريكي إريك بارنو: «إن مفهوم الترفيه في تصوري هو مفهوم شديد الخطورة، إذ تتمثل الفكرة الأساسية للترفيه في أنه لا يتصل من بعيد أو قريب بالقضايا الجادّة للعالم، إنما هو مَلءُ ساعةٍ من الفراغ. والحقيقة أنّ هناك أيديولوجيةً مُضمرةً بالفعل في كلّ أنواع القصص الخيالية، فعنصر الخيال يفوق في الأهمية العنصرَ الواقعي في تشكيل آراءِ الناس».

نأتي للحديث عن والت ديزني. كتب ريتشارد سكيكل- كاتب القصص البطولية لديزني- يقول: «في عام ١٩٦٦م قُدّر عدد مشاهدي أفلام ديزني في مختلفِ أنحاء العالم بحوالي (٢٤٠) مليون شخص، كما شاهد (١٠٠) مليون إنسان عرضاً من عروض ديزنى كل أسبوع، وقرأ (٨٠٠) مليون إنسان كتاباً أو مجلة لديزني، واستمع (٥٠) مليوناً إلى موسيقى وتسجيلات ديزني ورقصوا عليها، كذلك اشترى (٨٠) مليون إنسان بضائع مجازة من ديزني، وقرأ (١٥٠) مليون شخص مسلسلة كوميدية لديزني، وشاهد (٨٠) مليون فرد أفلام ديزني التعليمية في المدارس والكنائس وأماكن العمل...»

والواقع أن والت ديزني ليس مجرد ظاهرة أهلية محلية في حقل التسلية، فمنذ بداية الثلاثينيات ظهرت كتب ديزني فيما لا يقل عن (٢٧) لغة عالمية، وجرى توزيعها في كل أنحاء العالم.

ويتساءل شيلر: ماهي الرسائل التي توجَّه عبر عشرات الأفلام الطويلة، والمسلسلات التلفزيونية، وآلاف الكتب القصصيّة، والهزلية والوسائل التعليمية، وحدائق الملاهي ذاتها.

ويجيب: إن أفضل طريقة لفهم هذه الرسائل هي أن تتبنى أسلوباً يقوم على التحليل النفسي لإنتاج شركة ديزني.. وبهذه الطريقة ندرك أن (الرسالة) هي العامل المسيطر، بينما تبدو الوسائل الإعلامية التي تحملها ثانوية!

لقد وَصَفَ ماكس رافيرتي - المراقبُ السابقُ للتعليم العام في كاليفورنيا وهو رجل محافظ - وَصَفَ والت ديزني بأنه «المعلم الأعظم في هذا القرن» !! فما هو نوع التعليم الذي قدّمه؟

حَلَّلَ باحثان شابان كانا يعملان في شيلي قبل الانقلاب (وهما: أريل

دورفــمــان، وأرمــانـد مــايتــلارت) كــتبَ ديزنـي الهــزليــة وتوصــلاً إلى بعض الاكتشافات المثيرة للاهتمام؛ إذا اكتشفا العنصرية، والامبريالية، والجشع والعجرفة متخلّلةً الهزليات التي يجري توزيعها على نطاق جماهيري في أنحاء أمريكا اللاتينيـة. فـأكـثـر من ثلاثة أرباع القـصص التي قـرأوها تصـور رحلةً تستهدف البحث عن الذهب، وفي الربع الباقي تتنافس الشخصياتُ على المال أو على الشهـرة. وفي نصف القصص تقع الأحداث في أماكن أجنبيـةٍ حيث تعيش أقوامٌ بُدائية، أفرادُها جميعاً من غير البيض.. إن والت ديزني يستخدم (البراءة) لتغطية النسيج المتشابك من المصالح الذي يؤلّف نظاماً حتمياً- من الوجهة الاجتماعية والتاريخية- متجسّداً في الواقع الملموس، وهو «إمبريالية أمريكا الشمالية»! فلا ريب- عند شيلر- أن ديزني يمثل جزءاً ناجحاً للغاية من النظام التجاري الصناعي الأمريكي. والأكثر أهمية أن منتجات ديزني تؤثر في العقل، وفي الانطباعات الذهنية التي تعتمل فيه!

وبعد؛ فلا أدري إلى أي درجة من الصحّة والصواب بلغ مؤلفُ الكتاب، لكني أدري أنّ قراءة أمثال هذه الكتب تكوّن لدى القارئ (ملكة) تُعينه في الحكم على ما يدور حوله حتى وإن كانت التفاصيل محلَّ نظر واختلاف. والله تعالى أعلم.

٣١

برتقال ودجاج يدمّران البشر!!

قرأت في عدد الأحد ١٩ صفر ١٤٢٢هـ، الموافق (٢٠٠١/٥/١٣م) من جريدة الجزيرة، وفي الصفحة الأولى، العنوان التالي: برتقال ودجاج إسرائيلي يدمّر البشر. وجاء الخبر كما يأتي:

«بيروت - وكالة الأنباء السعودية: كشفت معلوماتٌ (أوروبيةٌ) النقابَ عن مخطط إسرائيلي في مجال الهندسة الوراثية، يهدف إلى تدمير صحّة الإنسان من خلال مشروع رصدت له إسرائيل نحو (ملياري) دولار أمريكي!!

وتقول المعلومات التي نشرتها (صحيفة الديار) اللبنانية أمس: إن المشروع الذي أُطلق عليه اسم «شلوع» تمّ إنشاؤه كفرع من فروع سلاح الطيران تحت إشراف الجنرال يوفاك توتمان وذكرت المعلومات أن أبحاث وحدة «شلوع» تتركز على إنتاج أسلحة تعتمد على الهندسة الوراثية، وتستخدم في الإنتاج الزراعي، وتستعين إسرائيل بأجهزة الكومبيوتر في مشروع الوحدة، ولها قدرة خارقة في مجال الحسابات المعقدة، وتتميّز بأن ما تحتاجه الأبحاث في فترة (٨) أشهر يتم إنجازه والتوصل إليه في شهر واحد!

«وتقترب وحدة «شلوع» من إنتاج برتقال يؤثر على الجهاز العصبي، ويصيب الإنسان بالتوتر، والإجهاد الذهني سريعاً. كما نجحت في إنتاج أدوية بيطرية تستخدمها مزارع الدجاج للوقاية من الأمراض تؤدي إلى إصابة الإنسان بالفشل الكبدي بعد (٣) أشهر، ومُخصّبات مُشعّة تستخدم لإنضاج الطماطم

سريعاً تؤدي إلى إصابة من يتناول هذه الخضار بالسّرطان، والتأثير القاتل على الحيوانات المنوية للرجال». انتهى الخبر بحذافيره.

تركتْ قراءةُ الخبر في نفسي الانطباعاتِ التالية، التي بعضها علميٌّ أكاديمي بحكم دراستي الشرعية، وبعضها عاطني لأنني عربي مسلم موقفي من دولة اليهود معروف بداهةً، وبعضها لأنني بشرٌ أخاف على نفسي وأولادي، وأبناء ديني، وأبناء وطني، وجِلدتي، ولساني:

١- جزى الله خيراً جريدة الجزيرة وصحيفة الديار على نشر هذا الخبر.

٢- تُرى: ما مدى صحّة هذا الخبر؟ هل هو كما يُقال: (كلام جرايد)؟ وهذا التساؤل لا يعني أنّ كلّ ما في (الجرايد) ينبغي ألا يُحترم، وإذا قلتُ هذا فأنا أهجو نفسي لأنني أكتب في جريدة!!

٣- إذا كان هذا الكلام صحيحاً، ومصدره أوروبي موثوق، فما واجب الدول المجاورة حِياله؟ وما الاحتياطات اللازم اتخاذها؟

٤- الانطباع الرابع الذي تركته قراءة الخبر في نفسي، هو هَمٌّ فكري تربوي يشغلني منذ زمنٍ بعيدٍ، بحكم تدريسي مدة تقارب (٢٥ سنة) في المدارس الثانوية والجامعات، ثم انتقالي إلى حقلٍ آخر من حقول التربية والتعليم هذا الهمّ هو: آلية تلقي المعلومات، والاستيثاق من صحّتها، لأنّ الحكم الصحيح على الأشياء ينبني على معلومات صحيحة عنها. وهذا هو المحور الثاني لهذا المقال.

لا أعرف في تاريخ البشرية - على طوله وعرضه - منهجاً أقومَ وأحكم وأدقَّ من المقاييس التي وضعها المحدّثون رحمهم الله للاستيثاق من صحة الحديث.

فالحديث الصحيح يجب أن يكون سنده متصلاً، اي أن كل راوٍ من رواة الحديث قد أخذه من الذي قبله من أول السند إلى منتهاه، ولهم في ذلك

تفصيلات دقيقة في (طُرُقِ التحّمل وطُرق الأداء) لا مجال لذكرها.

ويجب أن يكون كل راو من رواة الحديث ١- عَدْلاً ٢- وضابطاً. والعدالة تعني أن يكون الراوي: مسلماً، بالغاً، عاقلاً، لم يرتكب ذنباً يجعلُه فاسقاً، وألا يتصرف بشكل معيب لا يليق به، وإن كان هذا التصرف حلالاً في ذاته، كأن يلعب مع الصبيان في الطرق، ويتكلم بشكل مضحك.. فهذه التصرفات وأمثالها تنقص من مروءته.

وأما ضبط الراوي: فهو أن يكون الراوية نادر الخطأ إذا حدّث من حفظه، أو إذا حدث من كتابه.

ونلاحظ أن هذه الشروط تتعلق بالرواة، أي: بما يسمى سند الحديث، أما نص الحديث (أي: مَتْنُه) فقد وضع له العلماء شرطين قاسيين: الأول: ألا يخالف أحد رواته الثقات راوياً أوثق منه، فهذا يَسقط بالحديث إلى رتبة الضعيف، ويسمى شُذوذاً. والثاني: ألا يكون في الحديث علةٌ خفية لا تظهر إلا للخبير، مع أن ظاهر الحديث السلامة. فهذه العلة تقدح في صحة الحديث، وتجعله ضعيفاً.

فالمراد بقول العلماء: «هذا حديث صحيح»، أن الشروط الخمسة السابقة قد تحقّقت فيه، لا أنه مقطوع بصحته في نفس الأمر، لجواز الخطأ والنسيان على الثقة. والمراد بقولهم: «حديث غير صحيح»: أنه لم تتحقق فيه الشروط الخمسة السابقة، أو بعضها، لا أنه كذب في نفس الأمر، لجواز إصابة من هو كثير الخطأ.

هذا أقصى ما يستطيعه البشر في العناية بالنقل والتثبت من الأحاديث، ومن أجل هذا وجدت موسوعاتٌ ترجمتْ لعشرات الألوف من الرواة، وقام علمٌ

لا يوجد عند غير المسلمين يسمى: علم الجرح والتعديل، يتحدث عن رواة الحديث، هل هُمْ مُعَدَّلون تُقبل روايتهم، أو مجروحون تُردُّ روايتهم؟

هذا ما يناسب المقام من الحديث عن هذا الموضوع، موضوع التثبت في قبول الأخبار، ثم في روايتها. وبالطبع لا يستطيع الإنسان أن يطبق مقياس المحدِّثين الصارم على كل ما يسمع، ولكنّ فهمه واستيعابه يعينانه على أن يفكر بشكل أقرب إلى الصواب.

يبقى موضوع البرتقال المسموم والدجاج المدمِّر لصحة الإنسان موضوعاً خطيراً أهيب بكل ما يقدر على التصدي له من قريب أو بعيد ألا يدخر وسعاً في ذلك، فهو من أعظم ما يتقرب به المرء إلى ربه، ويدخره لآخرته. والله تعالى أعلم

٣٢

دعوةٌ إلى المناظرة..!!

ما أحلى أن تحيا المناظرات (المُخلصة) في حياتنا: في البيت بين أفراد الأسرة الواحدة ، وفي المدرسة بين الطلاب، فيما بينهم، وبين المعلمين، وفي وسائل الإعلام المختلفة.. ووضعتُ كلمة (المُخلصة) بين قوسين لأنّ المناظرات التي تشوب نيّاتِ أصحابها الشوائبُ، أو تعتري عقولَهم أمراضُ الجهل، والهوى، وقلةُ الأدب لم تمتْ مع الأسف.

والذي أريده بالمناظرة هو : المناقشة والمباحثة، والمحاججة، والذي أريده بالمخلصة، أن تكون طلباً للحقّ، لا طلباً للغلبة، وأن تكون مهذّبةً مؤدّبةً بالآداب التي تعرفها الفطر السليمة، والعقول المستقيمة، ويؤسّس لها-قبل هذا وبعده- الشّرع المطّهر لمن آمن به وعرفه.

ومن ثمرات القنوات الفضائية أنها أصبحت تعرض علينا مناظراتٍ بين طرفين مختلفين، أكثرُ ما اطلعتُ عليه منها لا يتحلّى: لا بعلم ولا بأدب. وفي بعض الأحيان يتمّ اختيارُ مَنْ يمثل الحقَّ، أو الفضيلة، أو جهةً معينة، بشكلٍ يسيء إلى الفكرة أكثر مما يحسن إليها. وهذا من المكر الذي يخفى على كثيرين من الناس.

كتب العلماء والأدباء كثيراً عن المناظرة وآدابها، وكانوا يسمونها أحياناً (الجدل)، وقد ذكروا من الآداب التي يجمل بالمناظر أن يتحلّى بها:

١- تقوى الله تعالى، وأن يخلص النية في جداله، ويطلب من الله العون.

٢- أن يكون هدفه إيضاحَ الحق لا مغالبة الطرف الآخر.

٣- ألا يرفع صوته.

٤- أن لا يُقاطع الطرف الآخر.

٥- أن يبيّن خطأ الرأي بدون إساءة الأدب مع صاحبه.

٦- ألا يكون معجباً بكلامه، مفتوناً بحجته، بل يدلي بها متواضعاً؛ فذلك أدعى لقبول الطرف الآخر، وأحظى في نفوس الناس.

ومن أشهر علماء الإسلام في المناظرة، الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، ومن الأسباب التي أعانته على إفحام مناظرية: شدة تقواه، وسعة علمه، وحدةً ذكائه، وسرعة خاطره، وتواثب الحجج إلى ذهنه، ومعرفة مواضع الضعف في أدلة مناظره، وبيانه الذي لا يجارى فيه، وثروته اللفظية والتعبيرية الهائلة، وقوة قلبه، وثباتُهُ عند اصطراع العقول.

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: «ما رأيت الشافعي ناظراً أحداً إلا رحمتُه (أي: أشفقت على الرجل الذي يناظره الشافعي). ولو رأيت الشافعي يناظركَ لظننت أنه سبُعٌ يأكلك، وهو الذي علّم الناس الحُجج». وقال الربيع للمزني: «لو ناظر الشافعيُ الشيطانَ قَطَعَه وجدّله». ومع ذلك يقول ابنه أبوعثمان: «ما سمعته يناظر أحداً قطّ فيرفع صوته»!

أما من كلام الإمام الشافعي رحمه الله في هذا المجال فأقتطف للقارئ الكريم مايلي:

«مانظرتُ أحداً إلا أحببت أن يوفّق، أو يُسدّد، أو يُعان، ويكون له رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه. وما ناظرت أحداً فأحببتُ أن يخطئ، وما ناظرت إلا على النصيحة».

ومن أمثلة مناظرات الإمام الشافعي التي لا يحتاج فهمها إلى تخصّص في العلم، مناظرته مع الإمام الأجلّ أحمد بن حنبل رحمه الله، الذي كان يرى أن تارك الصلاة كسلاً وتهاوناً، مع إيمانه بها، واعترافه بتقصيره، كافراً خارجاً من الإسلام، تطلق منه زوجته، إلخ... بينما يرى بقية الأئمة- ومنهم الشافعي- رحمهم الله جميعاً أنه كافرٌ كفراً أصغر لا يخرج به من الملّة، ومرتكب لكبيرة من أعظم الكبائر. جاء في كتاب طبقات الشافعية (ج٢ ص٦١):

قال الشافعي: يا أحمد، أتقول: إنه يكفر؟

قال أحمد: نعم. قال الشافعي: إذا كان كافراً فبمَ يُسلم؟

قال أحمد: يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الشافعي: فالرجل مستديمٌ لهذا القول لم يتركه.

قال أحمد: يُسلمُ بأن يصلي.

قال الشافعي: صلاة الكافر لا تصحّ، ولا يحكم له بالإسلام بها.

فسكت الإمام أحمد، رضي الله عنه وأرضاه.

ومن المناظرات المشهورة مناظرة جرت بين الإمامين الجليلين أبي حنيفة رحمه الله، ومحمد الباقر، والد الإمام جعفر الصادق رحمه الله، الذي ولد هو وأبو حنيفة عام ٨٠ هـ على الراجح فيكون الإمام الباقر في مقام الوالد والأستاذ لأبي حنيفة رحمهما الله.

قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابه: الإمام الصادق (ص٢٢): كان أبو حنيفة قد اشتُهر بكثرة القياس في الفقه، حتى تناولته الألسن بالملام. (ولما زار أبو حنيفة الإمام الباقر) قال محمد الباقر: أنت الذي حوّلتَ دينَ جدي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه إلى القياس؟!

قال أبو حنيفة: اجلس مكانك... فإن لك عندي حرمةً كحرمة جدّك صلى الله عليه وسلم في حياته على أصحابه. فجلس، ثم جثا أبو حنيفة بين يديه، ثم قال: إني سائلك عن ثلاث كلمات فأجبني: الرجل أضعف أم المرأة؟ قال الباقر: المرأة أضعف. قال أبو حنيفة: كم سهم المرأة في الميراث؟ قال الباقر: للرجل سهمان وللمرأة سهم. قال أبو حنيفة: هذا علم جدّك، ولو حوّلتُ دين جدك، لكان ينبغي في القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان، لأن المرأة أضعف من الرجل ثم: الصلاة أفضل أم الصوم؟

قال الباقر: الصلاة أفضل. قال أبو حنيفة: هذا قول جدّك. ولو حوّلتُ قولَ جدك لكان أنّ المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتُها أن تقضي الصلاة ولا تقضي الصوم.

ثم البول أنجسُ أم النطفة؟

قال الإمام الباقر: البول أنجس. قال الإمام أبو حنيفة: لو كنت حوّلتُ دينَ جدّك بالقياس لكنت أمرت أن يُغتَسَل من البول، ويُتَوضَّأ من النطفة، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدّك بالقياس. فقام الإمام الباقر، وعانقه، وقبّل وجهَه.

لا أدري: هل أنا مصيب بالدعوة إلى إحياء المناظرة المخلصة المهذبة، التي فيها تنشيط ورياضة للعقول، وتبادل للآراء، وتعويد على طلب الحقيقة وضبط النفس، أم أن دفن الفكرة الأولى؟ الله أعلم.

٢٣

تذكرة السامع والمتكلم

يقولون: إن جريراً كان في الشعر يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، يريدون صعوبة الشعر على الفرزدق في النظم، وسهولة ذلك على جرير ومطاوعة القريض له.

وما ينطبق على الشعر ينطبق على النثر، وما ينطبق على الحالتين أجده منطقباً عليّ! فأحياناً أفكر الساعات الطوال فيما أكتب فلا أهتدي إلى شيء، وأحياناً تأتيني الأفكار: الواحدة تلو الأخرى، فتتعب يدي في ملاحقة أفكاري!

وبما أنني (معلّم) متواضع، لست عالماً، ولا مفكراً فإنني أميل، احتراماً للقارئ، ولنفسي، أن أتخير له أحياناً بعض ما أستحسنه من الكتب القيمة في نظري، لتكون استفادته من دررها وغررها أكبر من استفادته من الكلام الإنشائي الذي قصده تسويد الصفحات، لا شيء تحته ولا شيء فوقه، ينفخه الكاتب نفخاً، فلا يسمن ولا يغني من جوع!

أعجبتني رسالةٌ تربوية عنوانها: «تذكرة السامع والمتكلم، في آداب العالم والمتعلم» للقاضي أبي عبد الله بن جماعة، الحموي الشافعي، الذي ولد بحماة عام (٦٣٩هـ)، وتوفي عام (٧٣٣هـ) رحمه الله، والذي وَلي خَطابةَ القدس، ثم قضاء مصر ثم دمشق مع خطابة الجامع الأموي، ثم طلب لقضاء مصر بعد ابن دقيق العيد.

يقول رحمه الله: أما بعد: فإنَّ من أهم ما يُبادر به اللبيبُ، شَرْخَ شبابه (شَرْخُ الشباب: أوله)، ويُدْئِبُ نفسه في تحصيله واكتسابه، حُسْنَ الأدب الذي شهِد الشرع والعقل بفضله، واتّفقتِ الآراء والألسنة على شكر أهله. وإنّ أحقّ الناس بهذه الخَصلة الجميلة، وأولاهم بحيازةِ هذه المرتبة الجليلة، أهلُ العلم الذين حلُّوا به ذَروة المجد والسنّاء، وأحرزوا به قصبات السّبق إلى وراثة الأنبياء، لعلمهم بمكارم أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وآدابه، وحُسنِ سِيَرا الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة علماء السلَف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف.

قال ابن سيرين: كانوا يتعلّمون الهَدْيَ كما يتعلّمون العلم. (والهَدْيُ: السِّيرة والهيئة والطريقة).

وقال حبيب بنُ الشهيد لابنه: يابني اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلّمْ منهم، وخذ من أدبهم، فإنّ ذلك أحبُّ إليّ من كثير من الحديث.

قال المؤلف رحمه الله: ومن أدب العالم في نفسه أن يُنزِّه علمَه عن جعله سُلّماً يَتوصّل به إلى الأغراض الدنيوية من جاهٍ، أو مالٍ، أو سُمعةٍ، أو شهرةٍ، أو خِدمةٍ، أو تقدُّمٍ على أقرانه. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «وددت أنّ الخلق تعلّموا هذا العلم، على أن لا يُنسَب إليّ حرفٌ منه». وقال سفيانُ بنُ عُيينة: كنتُ قد أوتيتُ فهمَ القرآن، فلما قبلتُ (صُرَّةَ المال) من أبي جعفر المنصورِ سُلِبْتُه. فنسأل الله تعالى المسامحة!!

ومن أدب العالم في نفسه: معاملة الناس بمكارم الأخلاق، من طلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكفُّ الأذى عن الناس، واحتمالِه منهم، والإيثار وتركِ الاستئثار، والإنصافِ وتركِ الاستنصاف،

وشكرِ التفضّل، والسعي في قضاء الحاجات، وبذلِ الجاه في الشفاعات، والتلطفِ بالفقراء، والتحبّبِ إلى الجيران والأقرباء، والرفقِ بالطلبة، وإعانتهم وبرّهم.

ومن أدب العالم في نفسه: أن لا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً، أو نسباً، أو سِناً... قال سعيد بن جبير رحمه الله ورضي عنه: لا يزال الرجل عالماً ما تعلَّم، فإذا ترك التعلّم وظنَّ أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهلُ ما يكون. وكان جماعةٌ من السلف يستفيدون من طلبَتهم ما ليس عندهم. قال الحُميدي (وهو تلميذ الشافعي): صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت أستفيدُ منه المسائل، وكان يستفيد مني الحديث. وقال أحمد ابن حنبل قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صحّ عندكم الحديث فقولوا لنا حتى نأخذ به. وصحت رواية جماعةٍ من الصحابة عن التابعين رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين.

أما المتعلم فمن آدابه في نفسه أن يبادر شبابه، وأوقات عُمُره إلى التحصيل، ولا يغترّ بخدع التسويف والتأميل، فإن كل ساعة تمضي من عمره لاَ بَدَلَ لها ولا عِوَضَ عنها. ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذلِ الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل، فإنها كقواطع الطريق، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل، والبعد عن الوطن، لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق، وغموض الدقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه. وكذلك يقال: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. ويروى عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال: لو كلفت شراء بصلة لما فهمت مسألة! (وبعض هذه الأقوال) وإن كانت فيها مبالغة فالمقصود بها أنه لابد من جمع القلب واجتماع الفكر.

ومن آداب المتعلم في نفسه أن يقنع من القوت بما تيسر وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما يستر.. فالصبر على ضيق العيش يُنيل سعة العلم، ويجمعُ شملَ القلب عن مُفْتَرِقات الآمال، فَتَفَجَّرُ فيه ينابيع الحكم. قال الشافعي رضي الله عنه: لا يطلب أحدٌ هذا العلم بعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفسن وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح.

ومن آداب المتعلّم أن يقسّم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره. وأجودُ الأوقات للحفظ الأسحار، ثم وسَط النهار. وحفظُ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع. قلت: ولا يريد بالجوع الذي يزيد فيمنع من الفهم والحفظ، لكنِ الجوع اليسير، وخُلُوّ المعدة من الطعام الذي يُثقلها.

ومن أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال أكل اليسير من الحلال. قال الشافعي رضي الله عنه: ما شبعت منذ ست عشرة سنة. وسبب ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وكثرته جالبةٌ للنوم والبلادة وقصورِ الذهن وفتورِ الحواس وكسلِ الجسم، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية، والتعرض لخطر الأسقام البدنية، كما قيل:

فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه
يكونُ من الطعام أو الشراب.

ولم يُرَ أحدٌ من الأولياء، والأئمةِ العلماء يوصف بكثرة الأكل، ولا حُمِدَ به.

والذهن الصحيح أشرف من تبديده وتعطيله بالقَدْر الحقير من طعامٍ يؤول أمرُه إلى ما قد عُلم.. ومن رام الفلاح في العلم، وتحصيلَ البُغية منه مع كثرة الأكل والشرب والنوم فقد رام مستحيلاً في العادة. والأولى أن يكون أكثرَ ما

يأخذُ من الطعام ما ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنها بحسب ابن آدمَ لقيمات يُقمن صُلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه». رواه الترمذي. فإن زاد على ذلك فالزيادةُ إسراف خارجٌ عن السنة، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

ومن أدب المتعلم مع أستاذه أن يُعَظِّم حُرمته، ويرُدَّ غيْبَته، ويغضبَ لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس.

وينبغي أن يدعو له مدةَ حياته، ويرعى ذريتَه وأقاربه وأصدقاءه بعد وفاته، ويعتمدَ الاستغفار له، والصدقةَ عنه.

فأين المعلمون والمتعلمون اليوم من هذه الآداب؟!

٣٤

فنُّ الاستماع

أحفظُ- منذ الصغر- أبياتاً لابن الرومي، أتمثّل بها، وأحاول أن أطبّقها، فأفلح أحياناً دون أحيان. تلك الأبيات هي:

مَنْ لي بإنسانٍ إذا خاصمتُه
وجهلت كان الحِلمُ ردَّ جوابِهِ
وإذا صبوتُ إلى المُدام شربتُ مِن
أخلاقِه، وسكرتُ من آدابِهِ
وتَراه يُصغي للحديث بسمْعِه
وبقلبِه، ولعلَّه أدرى به!!

إن حُسنَ الاستماع، مع الفهم، والصبرِ على المحدِّث دونَ مقاطعة، هو واحدٌ من آداب كثيرة، وعاداتٍ حميدة نحتاج إلى إعادة إحيائها بيننا، وإلى أخذ انفسِنا بها، وتربيةِ أولادنا عليها.

يقول ديل كارنيجي في كتابه الشهير: «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس»، في المصل الرابع الذي عنوانه: «لكي تصبحَ محدّثاً بارعاً»:

«إذا أردتَ أن يحبُّك الناس: كنْ مستمعاً جيّداً، وشجّع محدّثك على الكلام عن نفسه».

ويقول: «إذا كنت تريد أن ينفضَّ الناس من حولك، ويسخروا منك عندما توليهم ظَهرك، فهاكَ الوصفة: لا تُعطِ أحداً فرصةَ الحديث، تكلّم بغير انقطاع

عن نفسك، وإذا خطرتْ لك فكرة بينما غيرُك يتحدّث فلا تنتظر حتى يُتمَّ حديثه، فهو ليس ذكياً مثلك، فلماذا تضيع وقتك في الاستماع إلى حديثه السخيف؟! اقتحم عليه الحديث، وقاطِعْهُ في منتصف كلامه!»

على أن (حُسْنَ) الاستماع و(فنَّ) الاستماع أمرٌ أعمق بكثير مما يبدو من الوهلة الأولى، (طبعاً إذا لم يكن الكلام ثرثرة فارغة أو غِيبةً للناس، أو ما إلى ذلك). هو أعمق من أن يُطبق المستمع شفتيه، ويفتح أذنيه، وينظر إلى محدِّثه بعينيه!

تقول آلاينا ذوكر في كتابها «التأثير: القوة الخفية في عصر متغيّر» الذي نشرته دار المعرفة للتنمية البشرية في الرياض (وأنقل بتصرف): يتكون رمز كلمة (استمع) في اليابانية من رسم لِ (أذن) داخل (بوّابة). وهذه الكتابة التصويرية ذات مغزى؛ فعندما نستمع إلى شخص ما، فنحن- في الواقع- نمرّ من خلال (بوابة) ذلك الشخص، وندخل عالمه! إن الاستماع الجيّد هو أن ترى الأشياء من وجهة نظر الشخص الآخر ، إذ قد يكون هو على صواب. لذلك فإن الكثيرين يخشون أن (يحسنوا) الاستماع خوفاً من التعرض للتغيير، ومن اهتزاز ثقتنا ببعض أفكارنا واقتناعاتنا.

لكن المطلوب هو التقبل وليس الموافقة بالضرورة.

إن (حُسْنَ) الاستماع يقول فيه المستمع لمن يحدثه بلسان حاله، وحركاته، وتعابير وجهه، أنا مهتمٌ بك، ولا أحاول أن أُصدر عليك أحكاماً أو أصنِّفَك. أنا أحترمُك، وإن كنتُ أرى أن أفكارك غيرُ صحيحة بالنسبة إليّ.

وهذا الموضوع ليس بعيداً عن (العادة الخامسة) التي أوردها ستيفن كوفي في كتابه الشهير: «العادات السبع للأشخاص ذوي التأثير الكبير»، الذي تُرجم

إلى العربية أكثر من مرة بعناوين مختلفة، والذي اقتبستُ منه للقارئ الكريم بعض الأفكار الجديرة بالتأمل في مقال سابق.

العادة الخامسة لهؤلاء الناجحين أن يفهموا الآخرين أولاً ثم يحاولوا أن يفهمهم الآخرون.

يقول كوفي (بتصرّف):

نحن عادة نسعى إلى أن يفهمنا الآخرون. أغلب الناس لا يستمعون بنيّة الفهم، بل يستمعون بنيّة الردّ، فهم إما أن يتكلموا، وإلا هم يستعدّون للكلام. إنهم (يُسقطون) ما يحدث معهم على تصرفات الآخرين، ويضعون النظارات الطبية التي يستعملونها لكل من يشكو مشكلة تتعلّق بالنظر!!

حين يتحدّث شخص آخر فنحن عادة (نصغي) إليه بطرقٍ عدة:

١- قد (نتجاهله) ولا نصغي إليه ٢- وقد (نتظاهر) بالإصغاء ٣- وقد نمارس الإصغاء (الانتقائي)، فنسمع أجزاء معينة من حديثه. ٤- وقد نصغي (بانتباه) وتركيز على ما يقول. لكنَّ القليلين منا يمارسون ما يسميه كوفي: (الإصغاء بتقمّص)، ويعني: الإصغاء بنية فهم الآخرين، والنظر إلى الأمور من خلالهم، ومحاولة رؤية الأشياء بالطريقة التي يرونها بها، والتعرّف على مشاعرهم، وكأننا نتقمص شخصياتهم.

يتضمنً (الاستماع بتقمّص) أكثر بكثير من وعي الكلمات التي تقال، أوفهمِها، أو تأمُلِها. ويُقدّر خبراء الاتصال أن (١٠) بالمئة من اتصالاتنا (أو تفاهمنا، أو تواصلنا) يتمّ عن طريق الكلمة المحكيّة، و(٣٠) بالمئة عن طريق أصواتنا، و (٦٠) بالمئة عن طريق حركاتنا، وتعابير وجوهنا، أي لغة أجسادنا. في الاستماع (بتقمص)، يقول كوفي، أنت تصغي بأذنيك،

وبعـينيك وقلبك (وهذا هو الأهمّ)، وهذا ما قـاله ابن الرومي قبل مئـات السنين!!

يقول ريتشـارد كـارلسـون في كتـابه القـيّم: « لا تهتمّ بصغـائر الأمور مع أسرتك»:

«لو كان علي أن أختار اقتراحاً واحداً لوضع حلٍّ لجميع المشكلات الزوجية والأُسرية لاقترحت على الزوجين أن يُنصت كلٌّ منهما للآخر بصورة أفضل. فمِنْ بينِ مئات النساء اللاتي قابلتهنّ على مدار حياتي، والآلافِ اللاتي تحدثت إليهن خلال عملي، شكتْ غالبيتُهن من أنّ أزواجهنّ، أو آباءهنّ، أو غيرَهم من الرجال المُهّمين في حياتهنّ، لا يستمعون إليهنّ بشكل جيد! إن حسن الاستماع للآخرين أشبهُ بالدواء السّحري الذي يؤتي ثماراً جيدة في جميع الأحوال!»

اللهم اجعلنا ممّن يستمعون القول فيّتبعون أحسنه.

٣٥

دعوةٌ إلى الضحكَ!

قال الجاحظ في فاتحة كتابه «البخلاء»، بعد أن تحدّث عن فوائد البكاء ومنافعه التي تعود على الجسم والروح جميعاً، قال: (وأنقل بشيء من التصرف):

«فما ظنُّكَ بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عن سببه. ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك - أي: في موطن الضحك اللائق به - لما قيل للزهرةِ، والحَلْيِ، والقَصْرِ المبنيّ: كأنّه يضحك ضحِكاً.

«وكيف لا يكون موقعُه من سرور النفس عظيماً، ومن مصلحة الطباع كبيراً، وهو شيءٌ في أصل الطباع، وفي أساس التركيب، لأنّ الضحك أولُ خيرٍ يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسُه، وعليه ينبتُ شحمُه..

«ولفضل خصال الضحك عند العرب تُسمّي أولادَها: بالضحّاك، وببسّام، وبطَلْق، وبطليق. وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم ومزح وضحك الصالحون ومَزَحوا.

«وإذا مَدحوا قالوا: هو ضحوك السِّن، وبسّام العَشيِات، وهَشٌّ إلى الضيف، وذو أريحية واهتزاز. وإذا ذمّوا قالوا: هو عبوس وهو كالح، وهو قطوبٌ، ومُقَبَّضُ الوجه، وحامِضُ الوجه، وأنما وجهُهُ بالخل منضوح!

«وللضحك موضعٌ وله مِقدار، وللمرح موضعٌ وله مقدار، متى جازَهُما أحدٌ، أو قصَّر عنهما أحد صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً».

أقول:

مَنْ منا لم يضحك؟ ومن منا لم يشاهدْ مَن يضحك؟! لا أحد بالطبع ولكن لو أردنا ان نَعْرِفَ ماهيةَ الضحك واسرارَه، وما يفعله في جسم الإنسان. لاقتضى ذلك منا البحثَ الطويل.

يرى أرسطو في كتابه (السياسة) أن الضحك من الانفعالات الخطيرة،

ويقول: لا ينبغي للمشرّع اليوناني أن يسمح للشبان بمشاهدة الملهاة قبل بلوغهم سنّ الرشد. وعرّفه الفيلسوف الألماني (كانت) بأنه: نتيجةُ انتظارٍ ينتهي فجأة بلا شيء! أما فرويد فقال: إن الضحك هو نتيجةُ تحررِ طاقةٍ نفسية كانت موظفةً في جُهدٍ نفسي معين. وفي عام ١٩٠٦ كتب عالم اللغة الإنجليزية لويس كازاميان مقالاً بعنوان: لماذا لانستطيع تعريفَ الضحك؟

أما الراغب الأصفهاني فقد عرّف الضحك بأنه: انبساطُ الوجه، وتكشُّرُ الأسنان من سرور النفس؛ ولظهور الأسنان عنده سُمّيتْ مقدماتُ الأسنان: الضواحك.

والحقيقة أنّ الضحكَ أنواع؛ لذا صَعُبَ حَصْرُه في تعريف جامع مانع.

فالضحك قد يكون بدافع السخرية، كما قال تعالى: «فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون»، وكقوله: «إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون»، وقد يكون للتعجّب المجّرد كقوله تعالى عن زوجة إبراهيم عليه السلام: «وامرأتُهُ قائمةٌ فضحكتْ»، وقد يكون بسبب السعادة والسرور كقوله تعالى: «وجوهٌ يومئذٍ مسفرة، ضاحكةٌ مستبشرة». أما قوله تعالى في سورة النجم: «وأنه هو أضحك وأبكى» فيقول في التعليق عليه الأستاذ سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) - وأنقل بشيء من التصرف -:

• وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة، ومن خلاله تتبعث صورٌ وظلال موحيةٌ مثيرة.. (اضحك وأبكى): فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك والبكاء وهما من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركّب المعقد.. الذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه، وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك والبكاء.

«وأضحك وأبكى فأنشأ للإنسان دواعيَ الضحك ودواعي البكاء، وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكي لهذا، وقد يضحك غداً مما أبكاه اليوم، ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس، في غير جنونٍ ولا ذهول، إنما هي الحالات النفسية المتقلّبة، والموازين، والدواعي، والدوافع، والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال....

«هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال، وغيرها كثير، تنبثق من خلال النص القصير، وتتراءى للحسّ والشعور، وتظل حشودٌ منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيدُ النفس من التجارب، وكلما تجددت عواملُ الضحك والبكاء في النفس وهذا هو الإعجاز في صورةٍ من صوره الكثيرة في هذا القرآن المجيد».

أورد القرطبي في تفسيره، أنّ عمر رضي الله عنه سُئل: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم، والإيمانُ- واللهِ- أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي!

ومن أعجب ماقرأتُ أنّ كليةً في اليابان افتُتحت لتعليم الضحك لخفض حدّة التوتر لدى المواطن الياباني الذي يعمل أكثر من أي مواطن في العالم. كما صدر في باريس كتابٌ بعنوان: (الضحك وإدارة المؤسسات) يبيّن أنّ الإدارة الناجحة لا تتحقق إلا بالابتسامة. وفي بعض المستشفيات في أمريكا خُصّصتْ

غرفٌ تعرض فيها الأفلام الضاحكة، وتوجد فيها الكتب التي تجمع النُّكات، حيث يقوم الأطباء والممرضات بإضحاك المرضى للتخفيف من آلامهم ومساعدتهم على الشفاء بإذن الله.

إنّ أمتنا المسلمة اليوم بحاجةٍ إلى بعض الضحك تُروِّح به القلوب المثقلة، وبحاجة إلى الكثير من الجد والعمل لتلحق بركب المدنية. ولتؤدي واجب الشهادة على الناس، وتخرج من طور (القصعة) التي يتداعى عليها الأكلة، لتكون داعية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله. فعسى أن يكون ذلك قريباً.

٣٦

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾

لعباس محمود العقاد - رحمه الله - أكثر من مئة كتاب في موضوعات شتّى تدل على ثقافة موسوعية مدهشة، طائفة صالحة منها إسلامية، يوجد في بعضها بعض الأخطاء، وأنّى لكاتب أو كتاب أن يكون بلا أخطاء! لذا فالقارئ العاقل لا يغلق ذهنه ويسلّم لأحد، إلا لكتاب الله سبحانه، ولما صحّ عن رسول الله، عليه أفضل وأزكى سلام.

وأنا من المعجبين بمزايا هذا الكاتب العبقري، أما أخطاؤه فلا أقبلها ولا أتحدث عنها مالم تدع حاجة إلى ذلك، وهذا رأيي في التعامل مع العلماء، والكبار عموماً: أتأدّب معهم الأدب اللازم، وأقف منهم موقف الطالب من الأستاذ، فإن بدا لي شيء أعتقد أنه خطأ ذكرته، مع معرفتي لقدر نفسي، ومعرفتي لحقّهم.

وكتب العقاد- إجمالاً- تعلمك العقل والعلم معاً، لذا صلح الحديث عنها في كتاب يدعو إلى الاستزادة من العلم يخرج به المرء من العطالة إلى الفاعلية.

ورأيت- في هذا المقال- أن أطوف مع القارئ الكريم في كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»، للعقاد رحمه الله.

بين دفتي الكتاب حديث عن بعض حقائق الإسلام، وشبهاتِ بعض خصومه يعرِضها المؤلف بأمانة، وينقضها بقوة. وفي العُنوان نفسهِ استعلاء من المؤلف

واعتزاز بدينه، وكان هذا دأبه في كل ما يكتب عن هذا الدين، وما يردُّ به على أعدائه، فنسأل الله أن يغفر له إنه واسع المغفرة.

يقول العقاد رحمه الله: يندر أن يَطرُق خصومُ الإسلام موضوعَ الزواج دون أن يُعرِّجوا منه إلى زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويتذرَّعوا به إلى القدح في شخصه الكريم، والتشكيكِ من ثم في دعوته المباركة ودينه القويم.

وللإسلام خصومٌ محترفون، وخصومٌ ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه عليه السلام.

ولا خفاء بخصومة المحترفين، فهم جماعةُ المبشرين الذي اتخّذوا القدح في الإسلام صناعةً يتفرّغون لها ويعيشون منها، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملاً لها أهم وأخطر من عملها في تبشير المسلمين أو تبشير الوثنيين، وأشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية إلى الإسلام.. أما خصومُ الإسلام من غير زمرة المبشرين فأكثرهم يخاصمونه على السماع، ولا يعنيهم أن يبحثوه، ولا أن يبحثوا ديناً من الأديان، حتى الدين الذي آمنوا وشبّوا من حجور أمهاتهم عليه.

وما اتفق خصوم الإسلام - عن سوء نية - على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير في موضوع الزواج على الخصوص، فكلّهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الإسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي عليه الصلاة والسلام، وتمثيله لأتباعه في صورةٍ معيبة لا تلائم شرف النبوة، ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الإصلاح. وأي صورةٍ تغنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد العازف في معيشته البيتية، ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح.

إنهم لعلى صواب في الخطة التي تخيّروها لإصابة الإسلام في مقتله من

هذا الطريق الوجيز، وإنهم لعلى أشدّ الخطأ في اختيارهم هذه الخُطة بعينها، إذ أن جلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه، المطّلع على سيرة نبيّه، فإذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفي بها المسلم، ولا يحتاج إلى حجة غيرِها لتعظيم نبيه، وتبرئة دينه من قالة السُّوء الذي يُفتري عليه.

فلا حجة للمسلم على صدق محمد عليه الصلاة والسلام في رسالته أصدقُ من سيرته في زواجه وفي اختيار زوجاته، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته.

لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب، وأفتن جواري الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية، ولم يكن عسيراً عليه أن يوفّر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة مالم يتوفر لسيّد من سادات الجزيرة في زمانه. فهل فعل ذلك محمدٌ عليه الصلاة والسلام بعد نجاحه؟ وهل فعله في مطلع حياته؟.

كلا! لم يفعل قط، بل فعل نقيضه، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من خشونة العيش في داره، ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة، ولم يبن بعذراء قط إلا العذراء التي علم قومه جميعاً (أن الله سبحانه اختارها له ربما لأنها بنت صديقه، وصفيه، وخليفته من بعده: أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه).

هذا الرجل الذي يفتري عليه الأثمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق في لذات جسده، قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين، وكان هو في عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين، قد اختارته زوجاً لها لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة وفيما لقبه به عارفوه بالصدق والأمانة

فيه، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية..

وما بنى- عليه الصلاة والسلام- بواحدةٍ من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة وإنما كانت صلة الرحم، والضنّ بهن على المهانة هي الباعث الأكبر في نفسه الشريفة على التفكير في الزواج بهن، ومعظمهن كُنّ أرامل فقدن الأزواج والأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن:

فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ولامأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها على الردة أو تتزوج بغير كفء لها أو بكفءٍ لا يريدها. والسيدة هند بنت أبي أمية أم سلمة مات زوجها، وكانت كهلة مسنة، فاعتذرت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بسنها لتعفيه من خطبتها فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها. والسيدة رملة بنت أبي سفيان هاجرت إلى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها بغير عائل يكفلها، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي يطلبها..

والسيدة جويرية بنت الحارث سيد قومه، كانت بين السبايا في غزوة بني المصطلق فأكرمها، وتزوجها وحضّ المسلمين على إعتاق سباياهم، فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم.

ويختم المؤلف كتابه ببيانٍ مشرق عذب، وأسلوب بليغ رفيع بقوله: ونحن لم نكتب فصول هذا الكتاب لنبشر بالإسلام هؤلاء الماديين المتعطشين إلى إنكار كل معنى شريف من معاني الحياة البشرية، ولكننا كتبناه للمتدين المنصف الذي يستطيع أن ينظر إلى دينه وإلى هذا الدين نظرة واحدة. كتبناه - أولاً وآخراً-

للمسلم الذي يتلقى حملات الخصوم من المنتدبين وغير المنتدبين ليعلم أنه خليق أن يطمئن إلى حقائق دينه في هذا العصر، سواء نظر إليها بعين العقل أو بعين الإيمان، وأنه خليق أن يواجه الغد بما يؤمن به من عقائد دينه ومعاملاته وحقوقه وآدابه وأخلاقه فلا يعوقه عائق منها أن يجاري الزمن في المستقبل إلى أبعد مجراه.

وإذا وفَّى المسلم لربه بأمانة الشكر وعرفان الجميل فلا ينسى أنه مدين لهذا الدين الحنيف بوجوده الروحي ووجوده المادي في حاضره الذي وصل إليه بعد عهودٍ شتى من عهود المحنة والبلاء. ولولا قوة بالغة يعتصم بها المسلم من هذه العروة الوثقى لضاع بوجوده الروحي ووجوده المادي في غمارٍ يمحوه ولا يبقي له على معالم بقاء. ومن حق هذا الدين عليه أن يسلمه إلى الأعقاب قوة يعتصم بها العالم في مستقبله بين زعازع المحن التي ابتليت بها الإنسانية في هذا الزمن العصيب..

لعله من نصيب هذا الميراث في غده القريب أن يكون مصادقاً لنبوءة الإسلام بحكمته جلّ وعلا في خلق عباده شعوباً وقبائل متفرقين، ولعل هذا الدين القويم الذي دعا أول دعوة إلى رب العالمين أن يكون دين الشعوب والأمم متسالمين مسلمين، ولا تكوننّ أمانة الدين يومئذ سياسة حسنة نخدم بها نحن المسلمين حاضرنا ومصيرنا. بل هو الإيمان بإرادة الله- كما تتجلى الخلقة- يؤديها كل من عرفها بمقدار ما عرف منها، وسيذكرها كل من ينجو بها من أمم العالم، فيذكر الرسائل الإلهية التي تفتتح اسم الله الرحمن الرحيم، وتختتم بحمد الله رب العالمين.

٣٧

صُبْحُ الأعشى في صناعة الإنشا

كتابُ: صُبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشندي: المتوفى سنة إحدى وعشرين وثمانمئة، رحمه الله. والأعشى ضعيفُ البصر ليلاً. وعشا عن الشيء: أعرض ومضى عنه. وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾. شرح الكتاب وعلّق عليه وقابلَ نصوصَه: محمد حسين شمس الدين، فجاء في أربعةَ عشرَ مجلداً، وسبعةِ آلاف صفحة!

ولد القلقشندي بقلقشندة، إحدى قرى مديرية القليوبية بالديار المصرية، من أصل عربي صميم، ودرس في القاهرة والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر، وتخصّص في الأدب والفقه الشافعي، وبرع في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، وقد لفتتْ براعتُه في الكتابة والإنشاء رجالَ البلاط ومهدتْ له سبيل الاضطلاع بالمنصب الذي أهلته له مواهبه الأدبية والفنية وهو العمل في ديوان الإنشاء.

وإذا نظرنا إلى الكتاب نظرةً مدققة فاحصة فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية، وعلى أسلوب التفريع داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى، وقد قسم كتابه إلى عشر مقالات ومقدمة وخاتمة أهمها - في نظري- المقالة الرابعة التي زاد حجمها على مجلدين وهي تتحدث بالتفصيل عن الكتابة والمكاتبات، مع ضرب الأمثلة وتقديم النماذج.

يقول القلقشندي رحمه الله عند حديثه عن «المعرفة بالنحو وبيان احتياج الكاتب إليه»: لا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها، وقد تقدم أن اللغة العربية هي رأسُ مالِ الكاتب، وأسُّ مقالِه، وكنز إنفاقه. وحينئذ فيحتاج إلى المعرفة بالنحو، وطرق الإعراب، والأخذِ في تعاطي ذلك، حتى يجعلَه دَأْبه، ويُصيِّره ديدنه: ليرتسم الإعراب في فكره، ويدورَ على لسانه، وينطلقَ به مقالُ قلمِه وكَلِمِه، ويزولَ به الوهم عن سجيته، ويكونَ على بصيرة من عبارته. فإنه إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحن في كلامه ذهبتْ محاسن ما أتى به، وانهدمتْ طبقة كلامه، وأُلغي جميعُ ما حسَّنه، ووقف به عندما جهله. قال في «المثل السائر»: وهو أول ما ينبغي إثبات معرفته؛ على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة، بل بكل علم؛ لا بل ينبغي معرفته لكل أحد ينطلق باللسان العربي ليأمنَ مَعَرَّةَ اللحن. قال صاحب «الريحان والريعان»: ولم يزل الخلفاء الراشدون- رضي الله عنهم- بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يَحثُّون على تعلم العربية، وحفظِها، والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، والمحلِ المخصوص. قال عثمان المهري: أتانا كتابُ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء، ويذكر فيها: تعلّموا العربية فإنها تُثبِّت العقلَ وتزيدُ في المروءة. وقال الرشيد يوماً لبنيه: ماضر أحدَكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه، أيسرُّ أحدَكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته؟ ومن كلام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة رحمه الله: الإعراب حَلْيُ اللسان، فلا تمنعوا ألسنتكم حَلْيَها.

واللحن قبيح في كبراء الناس وسَراتهم، كما إن الإعراب (أي الكلام من غير خطأ) جمال لهم، وهو يرفع الساقط من السَّفِلة، ويرتقي به إلى مرتبة تُلحقه بمن كان فوق نمطه وصِنفه. وإذا لم يتَّجِهِ الإعرابُ فسدَ المعنى، فإن اللحن يغيِّر المعنى، ويقلبه عن المراد به إلى ضده، حتى يفهمَ السامع خلاف المقصود

منه ـوكان من يؤثر عقلَه من الخلفاء يعاقب على اللحن، وينفر من خطأ القول. قال أبو جعفر النحاس: وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلاً وتعدياً.. واعلم أن اللحن قد فشا في الناس، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب (أي: بدون غلط) عَيباً، والنطق بالكلام الفصيح عيّاً.

وخُطَبُ البُلغاء من آكد ما يحتاج إليه الكاتب. وذلك أن الخُطَبَ من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم. وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مَشَتِ الكتّاب. وقد قال أبو هلال العسكري رحمه الله في (الصناعتين): والرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلامٌ لا يلحقه وزن ولاقافية، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، والفرق بينهما أن الخطبة يشافَهُ بها بخلاف الرسالة، والرسالةُ تُجعل خُطبةً، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة.

ومن الخطب المشهورة خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيها الناس إنه أتى عليَّ حينٌ وأنا أحسَبُ أنّ من قرأ القرآن إنما يريد اللهَ وما عنده، ألا وإنه قد خُيلَ إلي أنّ أقواماً يقرؤون يُريدون ما عندَ الناس، ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذِ الوحيُ ينزل، وإذِ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رُفِعَ الوحي وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم اقْدَعوا هذه النفوسَ عن شهواتها (أي: كُفّوها)، فإنها لَمَلَقَةٌ (أي: خادعة)، وإنكم إلا تقدعوها تَنْزِعْ بكم إلى شرٍّ غاية. إنّ هذا الحقَّ ثقيلٌ مريء، وإنّ الباطل خفيف وبيء، وَتَرْكُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة، وربَّ نظرةٍ زرعتْ شهوةً، وشهوةِ ساعةٍ أورثتْ حُزناً طويلاً.

إن التـأمل في أمثال هذا الكـلام يُهذِّب اللسـان، ويقوِّي ملكةَ البيـان، ويسمـو بالخلق وأدب النفس، وكلٌّ هذا مما يُصلح الفكر ويقدحُ زناده، ويسيـر بنا خطوة في درب الفاعلية، والله تعالى أعلم.

٣٨

الشِّفا

لاختيار هذا العنوان أسباب عدّة منها: أنّ مناسبةً جمعتْني بكاتب إسلامي طبيب ذكي. شفى الله على يديه كثيراً من المرضى، وكان الحديث دائراً عن أسباب تخلف المسلمين، فقال الأخ الكاتب في معرض حديثه: إنّ عُمر يَغلط، وحتى (محمد) يَغلط! هكذا بدون أي لفظٍ من ألفاظ الاحترام التي اعتاد جهلةُ المسلمين وعوامُّهم أن يقولوها عند ذكر اسم سيّد البشر، وخاتم النبيين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبارك وعظّم!!

وتكررت هذه (الخطيئة) مرة أخرى في مجلس آخر ضمّني مع نخبةٍ من المثقفين، فلم يَفُه أحد الحاضرين بكلمة تعليق، فوفّقني الله إلى تنبيهه بأدبٍ، فيه شيء من الشدة، من غير قسوة تنفّره!

أغلب القراء الكرام سمعوا باسم كتاب: «الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى» صلى الله عليه وسلم، للقاضي عياض، العلامة الإمام، الذي ولد بمدينة (سبتة) المغربية التي هي الآن تحت حكم الإسبان، وتوفي بمراكش عام (٥٤٤هـ)، رحمه الله. وقد قام بتهذيب الكتاب وخدمته، الشيخ المحدّث عبدالله التليدي حفظه الله، المغربي، الطنجاوي، وطبع للمرة الأولى عام ١٤٢١هـ. والكتاب الآن أمامي، وأنا في مدينة طنجة أكتب هذه السطور، وهو في مجلد واحد، وجعل عنوانه: إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشّفا.

يتحدث القاضي عياض، رحمه الله في القسم الثاني من كتابه عن لزوم

محبته صلى الله عليه وسلم، ووجوب احترامه وتعظيمه وتوقيره حيّاً وميّتا، وكيف كان الصحابة رضوان الله عليهم فمَنْ بعدهم معه ومع حديثه الشريف. ومن هذا القسم أقتطف للقارئ الكريم بعض ما يناسب المقام:

روى البخاري ومسلم والنسائي - ثلاثتهم في كتاب الإيمان - رحمهم الله عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

وفي الترمذي وغيره أن صفوان بن عسّال رضي الله عنه قال: هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأتيته فقلتُ: يا رسول الله.. إني أحبك. قال: «المرءُ مع مَنْ أحبّ».

ومن علامات محبته صلى الله عليه وسلم كثرة ذكره (فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره) وكثرة الشوق إلى لقائه، وتعظيمه وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه. وقد كان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرّت جلودهم وبكوا (وقد ذكر الدارمي في سننه جملة من ذلك). وكان كثير من التابعين من يفعل ذلك.

روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ماكان أحدٌ أحبَّ إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا أَجَلَّ في عيني منه، وما كنتُ أُطيقُ أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو شئتُ أن أصفَه ما أطقتُ، لأني لم أكن أملأ عيني منه.

وروى الإمامِ أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم عن أسامة بن شريك رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي صلى الله عله وسلم، وأصحابه حوله، كأنما على رؤوسهم الطير. يعني من السكون والأدب، فالإنسان إذا وقف على رأسه طائر، يجمد في مكانه لأنّ أي حركة تفزع الطائر فيطير.

وفي صحيح البخاري: قال عروة بن مسعود حين وجّهته قريشٌ عام الحديبية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضوءه (أي: الماء النازل من أعضائه الشريفة)، وكادوا يقتتلون عليه.. ولا تسقط منه شعرةٌ إلاّ ابتدروها، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمره، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، ومايمدّون إليه النظر تعظيماً له- فلما رجع إلى قريش قال: يامعشر قريش، إني جئت كسرى في مُلكه، وقيصر في ملكه، والنجاشيّ في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمدٍ في أصحابه.

وكان الإمام مالك رحمه الله، إمام دار الهجرة، إذا ذُكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغيّر لونُه، وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليّ ما ترون. ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر، وكان سيّدَ القُرّاء، لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلاّ بكى حتى نرحمه.

وكان ابن سيرين ربما يضحك، فإذا ذكر عنده حديث النبي صلى الله عليه وسلم خشع. وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي عليه الصلاة والسلام أمرهم بالسكوت، وقال. (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ)، ويتأول، أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله. فأين نحن- مسلمي اليوم- من الأدب مع رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؟!

وينبغي لنا أن نتذكر في هذا المقام أنّ من كمال محبتنا لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن لا نغالي في ذلك كما غالت النصارى واليهود، فهو قد علمنا أن لا نطريه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام. بل نقول: عبد الله ورسوله، ولا نسبغ عليه بعض صفات الألوهية كما يفعل بعض العوام، أو المغالين، أو المتأولين، والله تعالى أعلم.

٣٩

الأحلام في كهوف الماضي الجميل

يقول الشاعر:

مَنْ لم تُفِدْهُ عِبَراً أيامُه
كان العمى أولى به مِنَ الهُدى

ويقول آخر:

ومَن وعى التاريخ في صدره
أضاف أعماراً إلى عُمْرِهِ

ولا يُعرِضُ عن دراسة التاريخ، والاستفادةِ منه حكيمٌ يرجو الانتفاعَ من دروس الماضي في يومه وغده. ودراسة التاريخ القريب أو البعيد تشبه- من بعض وجوهها- حالةَ سائق سيارة لا يهمل النظر في المرآة التي تريه ماوراءه كي يُحسن التقدم إلى الأمام، ولا ينشغل بما خلفه انشغالاً يُلهيه عما هو فيه، ويودي به إلى كارثة.

واظن أن بعضنا - نحن المسلمين - وقعنا في ماوقع فيه السائق المسكين!

التفتنا إلى الماضي الجميل نعزّي أنفسنا بعزّ الأجداد عن ذل الآباء والأبناء والأحفاد. حتى عكسنا قول الشاعر:

إنّ الفتى مَنْ يقول: هاأنذا
ليس الفتى من يقول: كان أبي!!

فأصبح:

ليس الفتى مَنْ يقول: هأنذا

إن الفتى من يقول: كان أبي!!

ولا نزال نسمع بعض السّاذجين يردّدون في بعض المجالس: إنّ ما وصل إليه الغرب اليوم من تقدّمٍ علمي، ما كان ليصل إليه لو لم يستفد من عطاء المسلمين في الطب، والهندسة، والكيمياء، والرياضيات.. وما إليها. وينسى هؤلاء المساكين أن العلم والمعرفة تراثٌ بشري إنساني تتوارثه الأمم والشعوب، وليس حكراً على أحد، ونحن اليوم نأخذ ولا نُعطي، بل نحن أعجز من أن نأخذ كما ينبغي لنا أن نأخذ!!

ومن أكبر المصائب - في نظري. والله تعالى أعلم إحياءُ خلافات تاريخية وعلمية، غطّتها بغبارها القرون، وَبَعْثُ الحياةِ فيها من جديد، والاقتتالُ حولها، والتنازعُ والفشل المؤدي إلى الضّعْفِ المُزري، والتباغُضِ المحرّم، متذرّعين بتلبيس إبليس علينا: «إننا نحبّ ونكره، ونوالي ونعادي في الله»، وأننا أهل الحقّ؛ «وماذا بعد الحقّ إلا الضلال»؟! ناسين قوله تعالى: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم»، وقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا..»

فنحن بدلاً من أن ندرس القرآن الكريم، دراسة عميقةً، ونعيش معه ليخالط أرواحنا وقلوبنا ويظهرَ في سلوكنا وأعمالنا، ونفعلَ كذلك بالسنة المطهرة، نضيعُ أعمارنا بدراسة مذاهبَ فرقٍ بادتْ أصولها وفروعها، لم يَبْقَ لها اليومَ باقية، إلا في قاعات بعض الكليات على أحسن، أو أسوأ الأحوال، وبدلاً مِنْ أن ندرس أسباب تفوّق بعض الأمم علينا، وإذلالها لنا، ونَهْبِ خيراتنا، وسَفْكِ

دمائنا، وضَرْب بعضنا بعضاً، نُحيي خلافات شجرتْ بين الجيل الأول رضوان الله عليه، ونثير الشكوك والشبهات، ونشتغل بما هو مَضْيَعةٌ للعمر، وربما الأجر؛ والله أعلم، إن لم يكن جالباً للوزر، ونسوّد الصفحات التي تسوّد الوجوه، ونوزع مجاناً الكتب التي تعمّق هذا الخطر، وتشغل الناس عن الفرائض بالفوارغ، نبتغي بذلك وجه الله! إنها لمصيبة من أعظم المصائب، لا يجوز لمقتدر على دفعها أن يَقْعد عن ذلك.

حتى الكثيرين من طلبة العلم الشرعي عندنا لا يشتغلون بالأصول ويقدّمون الأهمّ على (المهمّ)، بل تحاول كل فرقة منهم أن تعيش مع كتب أئمتها وعلمائها، وتفضّل الواقع الحاضر على الماضي الغابر.

يقول بشير شكيب الجابري -المتخصص في الصيدلة - في كتابه: «القيادة والتغيير» تحت عنوان: أحلام الماضي الزاهر، وهو يتحدث عن العوائق الثقافية للتغيير:

«لعل من أخطر المقاومات للتغيير العيش على أحلام الماضي الزاهر؛ فالأمة التي تعيش في الماضي، تفعل هذا لكي تحسّ بالاطمئنان والأمان. أنها توحي إلى نفسها بأنها بخير، لأنها كانت كذلك يوماً ما، وتنسى العناصر التي كانت سبباً في هذا الخير، فكأنها تشم الرائحة، ولا تذوق الطعم».

«وهذه الغيبوبة قد يطول مداها حتى تصبح مخدراً، وتصبح عملية الإيقاظ أشد صعوبة من استرجاع مُدْمن المخدرات. وفي هذه المشابهة عنصر مفيد نقف عنده: فنحن نعلم من علم العقاقير أن النيكوتين ، والكوكائين، وما شابهها، من الشبه قلويات المخدرة تلتصق على مستقبلات داخل الخلية أولاً، ثم عندما تنتهي من إغلاق جميع هذه المستقبلات الداخلية، تلتصق على

مستقبلات خارج الخلية، فإذا توقف الإنسان عن تعاطي هذه المواد بدأت تتفكّ عن المستقبلات الخارجية، فإذا فرغت هذه المستقبلات الخارجية أحس الإنسان بجوع رهيب إلى هذه المواد حتى تستكمل عملية التنظيف الداخلية أيضاً، لذا يُعطى جرعات مخففة، أو مواد أخرى تتغشى المستقبلات.

«وكم من الشركات الكبرى أحبطت عمليةَ التغيير فيها هذه المقاومة: الاطمئنان المرتكز على النجاحات السابقة؛ فإذا جاء من يدعوها إلى التغيير، لم تستطع أن تفهم هذه الدعوة، ولا الحاجة إليها، وهي كانت - حتى عهد قريب - متفوقة متقدمة.. ما الذي جرى؟ ولماذا؟

وتكثر الأسئلة، ويزداد الاستغراب حتى يصل الإنسان إلى الرغبة في التوقف عن التفكير، وإغلاق أحاسيسه، ليحافظ على جمال الصورة السابقة. فيصبح بذلك غير جاهز لعملية التغيير التي تحتاج إلى:

١- وعي ٢- ورغبة ٣- وجهد».

فأين الوعي؟ وأين الرغبة؟ وأين الجهد؟ وإلى الله المشتكى!

٤٠

«أنْفِقْ أُنْفِقْ عليك»

هذا حديث قدسي، رواه البخاري ومسلم والترمذي رحمهم الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله عزّ وجلّ، يا ابنَ آدم، أنْفِقْ أُنْفِقْ عليك»!! فأنفق رسولُ الله عليه الصلاة والسلام ما عنده، فكان أكرمَ وأسخى وأجود خلق الله، وبه اقتدى أصحابه، ثم الصالحون من أمته.

والمتفكر في الحديث القدسي يجد عجباً!! أنا العبد المخلوق، الضعيف، الفقير، المرزوق، أُنفقُ على عبدٍ مثلي، من مال الله الذي ليس بمالي في الحقيقة، فينفقُ عليَّ الرب، الخالق، الغني، الرزاق، الذي لا يَغيضُ يدَه نفقةٌ، فهي ملأى، سحّاء الليل والنهار. فأي كسبٍ هذا؟! «مانقص مالٌ من صدقة، بل تزده، بل تزده»!

وفي هذا المقال حديث عن الجود والسخاء، مُختارٌ من أقوال الحكماء ومَنْ دونهم، جديرٌ بنا أن نتدبره ونتفكّر فيه، لينتقل إلى الواقع الذي نعيش فيه.

قالت أم البنين بنتُ عبد العزيز، أختُ عمر بن عبد العزيز، الخليفة الراشد الخامس رضي الله عنه وأرضاه: لو كان البخل قميصاً ما لبستهُ، ولو كان طريقاً ما سلكته، وأبخلُ الناس مَنْ بخِل على نفسه بالجنة!!

وقال أحد الحكماء: مَنْ أحبّ أن يعرف فضلَ الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ما جاد الله عزّ وجلّ به من المواهب الجليلة، والنعم الجزيلة على عباده، وما وعدهم به في الجنان، فتبارك سبحانه من جوادٍ كريم.

وقال المأمون، الخليفة العبّاسي: الجود بذل الموجود، والبخل سوءُ ظنٍّ بالمعبود.

وشكا رجل إلى إياس بن معاوية كثرةَ ما يهبُ، ويصل، وينفق، فقال له: إن النفقة داعية للرزق. وكان جالساً بين بابين، فقال للرجل: اغلق هذا الباب، فأغلقه، فقال: هل تدخل الريحُ البيت؟ قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه، فجعلت الرياح تخترق في البيت، فقال: هكذا الرزق، إنك إذا غلّقت الباب لم تدخل الريح، وكذلك إذا أمسكتَ لم يأتك.

وحُكي عن حاتم الطّائي أنه خرج في الشهر الحرام يطلبُ حاجةً، فلما كان بأرض عَنَزةَ ناداه أسيرٌ لهم: يا أبا سَفّانة أكلني الأسر، قال: ويلك، واللهِ ما أنا في بلادي، وما معي شيء، وقد أساتَ أنْ نوّهتَ بي! فذهب إلى العَنَزيّين فساومهم به، واشتراه منهم، وقال: خلّوا عنه، وأنا أقيم مكانه، في قيده حتى أؤدي فداه، ففعلوا، فأتاهم بفدائه!!

وقال المهلّبُ بن أبي صُفرة لبنيه: يا بَنيَّ إن ثيابكم على غيركم أحسنُ منها عليكم، ودوابّكم تحتَ غيرِكم أحسنُ منها تحتكم. لا تتكّلموا على ماسبق من فعلي، وافعلوا ما يُنسب إليّ. ثم قال متمثّلاً:

إنما المَجْدُ ما بنى والدُ الصّدْقِ
وأحيا فَعالَه المولودُ

وقال: ابتداءُ الفضل يدٌ موفورة، والبذل بعد الطلب يدٌ مقبوضة. أي: بادر بالعطاء والبذل قبل أن تُسألَ ويطلبَ منك.

روى الترمذي، والبيهقي في (شُعبَ الإيمان) والطبراني في (الأوسط)، بأسانيد يقوّي بعضُها بعضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «السّخيّ

قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار، والبخيل بعيدٌ من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار..» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

إن الذي دعاني للكتابة في هذا الموضوع في «زناد الفكر» أننا بحاجة إلى التفكر في الفرق ين الكرم من جهة، وبين الإسراف والتبذير من جهة أخرى، وبين البخل والإمساك من جهة وبين التدبير من جهة أخرى.

فالمال الذي يوضع في موضعه ليس إسرافاً. مثال ذلك: مَرِضَ لوالدٍ ولدٌ، فاقترض لأجل الإنفاق عليه خمسين ألفاً زيادةً على ماكان يدّخره، فهذا ليس من الإسراف في شيء وكذلك لو انفق دخله كلّه ثمناً لطعام عياله، وكسوتهم، وسدٌ حاجاتهم الضرورية،ومازاد على الضرورية بالمعروف. أما لو اقترض خمسين ألفاً زيادةً على ما عندهم ليأخذهم في إجازةٍ -مثلاً- يستمتعون فيها بالبحر والنهر ومدن الألعاب وما إلى ذلك، فهذا -فيما أرى- من الإسراف المنهي عنه.

إن هناك عدداً من المعاني السّامية- كالجود والسخاء، والزُّهد، والورع، والمروءة، وعلوّ الهمة- لا نكاد نجد لها وجوداً في واقعنا، وبعضها يوجد مشوَّها يحتاج إلى عملية تجميل تعيده إلى طبيعته! فأنا - مثلاً - أذبح شاتين لضيفٍ عزيز عليّ، وأدعو له من الضيوف مَن يحتاج أكثرهم إلى (ريجيم) وإقلالٍ من الطعام، وتكلّفني الدعوة ما يرهقني أحياناً، وأبخل بدفع نفس الكلفة إلى أسرة يتيمة، أو وجه من وجوه الإنفاق الضروري للمحتاجين، وأُسيء الاستشهاد بالحديث الشريف: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وصفوة القول: لا بُدَّ من الكرم والسخاء والجود ليسموَ الإنسان ويسمو المجتمع. ولكنّ هذه المعاني الثابتة الدائمة قد تختلف وتتغيّرُ طرق التعبير عنها باختلاف الزمان، والمكان، والإنسان والله تعالى أعلم.

٤١

المؤامرة: وهمٌ أم حقيقة؟

هل هناك مؤامرة ضدنا نحن العرب والمسلمون؟ (والعطف هنا لا يقتضي المغايرة، إنما هو من باب عطف الكل على الجزء، ومن باب الإيضاح، لأن أكثر العرب مسلمون)، أم ليس هناك مؤامرة؟

بعض الناس من طبيعةِ تفكيرهم المبالغة والتهويل، وبعضهم يميلون إلى التقليل والتهوين، والأمران كلاهما خطأ. فمن زعم شيئاً فعليه البرهان: (قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، والحقيقة ينبغي أن تَأخذ حجمَها الواقعيَّ، فلا يُنظر إليها من خلال عَدَسةٍ مُصَغِرّة، ولا مُكَبِرّة، بل تأخذ حقَّها كاملاً: «فآتِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه».

الدكتور راشد المبارك، أستاذ الفيزياء، والشاعر والناقد والأديب المعروف، له كتاب ممتع عنوانه: «فلسفة الكراهية: دعوةٌ إلى المحبّة» يتحدث فيه عن «المؤامرة» في خمس صفحات ونصف (١٠٢-١٠٨)، يخيّل لمن يبدأ في قراءته المستأنية أن المؤلف ينفي فكرة المؤامرة تماماً بأسلوبه الأدبي اللاذع، وحججه الذكية، لكنه يستريح عندما يقرأ في نهايته مايوازن به بين الكفتين. وكم كان بودّي لو تضاعف حجم المقال ضعفين، وخاطب مَنْ ينفون المؤامرة ويهملونها، ويعطونها أقلَّ من حجمها الواقعي، ولعلّه لم يفعل لأن جُلَّ الناس هم ممّن يحتاج ردُّهم إلى الصواب الميلانَ بهم عن الاعتدال حتى يعودوا إليه: كمن يريد إقامةَ غُصنٍ مُعْوجٍ يميناً فيربطه بحبلٍ ويشدّه إلى اليسار البعيد ليعود بعد مدة إلى استقامته.

يقول الدكتور المبارك في نهاية مقالته: «غني عن البيان أنّ ما مرَّ ليس نفياً لفكرة المؤامرة إذا فُهمت بمعنى: أن كلّ أمةٍ، أو مجتمع، أو قبيلة، أو فرد يضع، أو يضعون من الخطط ما يحقق سلامتهم، أو قوتهم، أو طموحهم، أو مطامعهم، أو تفوّقهم، ومتى كانت (أي: عندما تُصبح) البلاد الإسلامية أو الدول العربية مصدر تهديد حقيقي فسيكون من الغفلة أن لا نظنَّ، بل أن لا نجزم أن يأخذَ الطرفُ المهدَّدُ- أو الشاعر بالتهديد- لنفسه من الوسائل ما يدفع عنه هذا الخطر، والتآمر عندئذ بعض وسائل المدافعة والاحتياط. وما تنشره وتذيعه وسائل النشر والإعلام بصفةٍ متصلةٍ لا تنقطع عن أخبار التجسّس، والتجسّس المضاد، حتى بين الدول المتآلفة أو المتحالفة، أمرٌ معروف ومألوف. وعلاقةُ (العشقِ غيرِ العذري) الدائمِ والمتوهّج بين الإدارة الأمريكية وأكثر فئات المجتمع نفوذاً في الولايات المتحدة (من جهة) وبين إسرائيل (من جهة أخرى) لم تمنع إسرائيل من التجسّس على عاشقها! ولن يكون آخرها الجاسوسُ الإسرائيليُ بولارد، الذي رفضت حكومة الرئيس كلينتون الإفراجَ عنه، رغم ما بذلته إسرائيل من محاولات.

«سفارة أي دولة في بلد ما، ومكاتبها العسكرية، والاقتصادية ، والإعلامية، ما هي إلا وسيلة رصد واستشكاف، اتفق الناس على مشروعيتها والقبول بها. هذا الرصد والاستشكاف هو أحد القواعد التي تبني عليها الدولة صاحبةُ السفارة علاقتها مع الدولة التي توجد فيها السفارة، وتحدد سياستَها نحوها وتعامُلَها معها».

وتعليقاً على المقال، وعلى موضوع المقال، أورد بعض النقاط التي أرجو من الله سبحانه أن يوفقني فيها للصواب:

١- بعض العَجَزة، وكثيرٌ من المخفقين يبحثون عن مشاجب يعلّقون عليها

أخطاءهم، وعجزَهم، وتخلُّفَهم، سواءً على مستوى الأفراد أم الجماعات. كان (الاستعمار) بالأمس أكبرَ هذه المشاجب، وأصبح اليوم (المؤامرة).

٢- «يخيل للمرء أن الغرب قد عطَّل كل اهتماماته وكشوفه، وبعثاته الآلية والبشرية إلى خارج هذا الكوكب، وانشغل عن كل الأخطار التي يخشاها ويُعدّ لها ليفرغ لمصدر وحيد يهدّد أمنه العسكري، والسياسي، والاقتصادي ويدمرّ ثقافته وحضارته ذلك المصدر الوحيد والمُهدِّد، هو العرب والمسلمون..»

لا أظن أن رجلاً يحظى بعقله يقول مثل هذا الكلام! فالغرب لم يُعطل أيَّ شيء مما ذكر لكنّ العرب والمسلمين (بند) في (قائمة) اهتماماته، يعطيه ما يراه مناسباً من الاهتمام، دفعاً لشرٍّ محتمل، أو طمعاً في خيرات بلادهم أو ما شابه ذلك.

٣- هناك (طائفة) ليس من اليسير تحديد حجمها تؤمن بالمبالغة في (تخيّل) نظرية المؤامرة، وهناك مفكرون وكتاب وعلماء وسياسيون، منهم المؤلف الفاضل، يُعطون (المؤامرة) حجمهان ويركّزون - كما فعل مالك بن بني رحمه الله - على ما سماه «القابلية للاستعمار» أكثر من تركيزهم على الاستعمار، كما يركّزون - كما فعل جودت سعيد- على ضرورة تغيير ما بالأنفس أولاً، وعدم تحميل (الغير) مسؤولية التخلُّف.

٤- إن خطأ نفاة (المؤامرة)- في نظري- قد يكون أكبر من خطأ المغالين في إثباتها. فالأولون (انعدمت) عندهم الرؤية. والآخرون أصيبوا بمرض نفسي أدّى بهم إلى ما يمكن تسميته في الطب النفسي - مع شيء من التجاوز - بالهلاوس السمعية والبصرية والأوهام!

٥- تساؤل الكاتب الفاضل: «كيف لم يفلح الغرب في كبح قوة الاتحاد

السوفيتي العسكرية، وفي كبح انطلاق ألمانيا واليابان..؟، جوابه - حسب علمي - أن الصراع من سُنّته أن يغلب أحد المتصارعين، وأن الضعيف قد يقوى، والقوي قد يضعف، ولا مجال في هذا المقام للتدليل على ذلك من التاريخ القريب والبعيد.

٦- يقرر الكاتب الفاضل- والحق معه- أن إلقاء المسؤولية على الآخر هو أبلغ هجاءٍ للذات العربية، والمسلمة، إذ يضعها في موضع من ينفعل ولا يفعل ويتأثر ولا يؤثر. وماذا تكون النتيجة؟ مزيدٌ من الذل، والمعاناة، وتلقيّ الظلم.. الخ.

٧- وصفوة القول عندي في هذه العجالة: المؤامرة موجودة، منذ القدم، على لغتنا، وعلى ديننا.. وتمّ استعمارنا- نحن وغيرنا: سياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، وفكرياً.. وتمَّ ضربُ بعضِنا ببعض؛ لخيانتنا، وغبائنا وضَعفنا، وهواننا.. ويجب على (الغرب) أن يقول لنا كما قال إبليس: ﴿فلا تَلُومُونِي ولُومُوا أنفُسَكُم﴾!

٤٢

الشرُّ الأبيض: كتابة التاريخ بالمقلوب

روجيه غارودي المفكر الفرنسي الكبير، صاحب رؤية عالمية لا تفرّق بين دين ودين، وبين أمة وأمة.

قرأت في جريدة الوطن العمانية (العدد ٦٠٥٦ الصادر في (١) ذي القعدة ١٤٢٠هـ ٧ فبراير ٢٠٠٠م) مايلي:

قال غارودي: «إن فكرة تعارض الماركسية والإسلام فكرة زائفة...»!!

وقال: «أنا لم أنتقل من اعتقاد إلى آخر: فأنا بقيت مسيحياً، وماركسياً»! وأمامي الآن أحد الكتب المهمّة لجارودي، «من أجل حوار بين الحضارات»، أنقل منه للقارئ الكريم بعض الأفكار.

المؤلف على عتبات التسعين من العمر، كان عضواً بارزاً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي، وأظنّ أنه رُشح لمنصب رئاسة الجمهورية. يقول د. ذوقان قرقوط، مترجم الكتاب: إن الكتاب قرار اتهام لم يسبق لكاتب غربي أن وجَّهَ مثله، بمثل هذه القسوة والوضوح، إلى جرائم (الرجل الأبيض).

يقول غارودي: إن التاريخ البشري يُكتب بالمقلوب: ذلك أن إحدى المصائب الكبرى في التاريخ المكتوب هي أنه من كتابة المنتصرين الذين يريدون دوماً أن يثبتوا أن هيمنتهم كانت ضرورةً تاريخية، أي أنها بالضرورة نتيجة تفوق حضارتهم وثقافتهم.. وهذا شأن معظم مؤرخي أوروبا.

ومن أمثلته على ذلك تحليله لما كتبه الغرب عن فتح المسلمين لإسبانيا، فهو يرى أنه لم يكن فتحاً عسكرياً إذ لم يطأ أرض إسبانيا أكثر من (٧٠) ألف فارس عربي، بينما كان سكانها أكثر من (١٠) ملايين. لقد جاء العرب بنظام اجتماعي أرقى كثيراً من النظام القائم آنذاك، وسرعان ما أصبحوا محرّرِين، إذ خلّصوا عبيد الأرض من ربقة ملوك الفيزيقوت المنحلين، ثم لم يستولوا على الأراضي، واكتفوا بأخذ الخراج.

ومن هنا يتجه رأي (أنا تول فرانس) في قصته (الحياة المزهرة) في الحوار بين السيد دوبوا والسيدة نوزيير عن أشأم يومٍ في تاريخ فرنسا، وكانت تجهل ذلك، فقال لها: إنه يوم معركة بواتييه (بلاط الشهداء) عندما تراجع العلم والفنّ والحضارة العربية عام ٧٣٢م أمام الهجمة الفرنجية.

لقد توصل الغرب الآن إلى التفوّق والهيمنة، وغزو الفضاء، لكنه وصل إلى طريق مسدود فقد فيه الإنسان- سواء في الشيوعية أم الرأسمالية- أبعاده الأصيلة. لذلك ينادى غارودي بثورة ثقافية عالمية لتيسير حوار بين الحضارات تتوافر فيه عدة شروط، أهمها:

١- أن تحتل الحضارة اللاغربية في الدراسات مكانة مساوية في الأهمية لمكانة الثقافة الغربية.
٢ النظر إلى الفلسفة نظرة جديدة لا كما يفرضها الغرب بحثاً فكرياً بحتاً، إنما على أنها طريقة حياة.
٣- أن يحتل علم الجمال مكانة لا تقلّ عن مكانة تلقين العلوم والتقنيات.
٤- أن يكون للمستقبلية- وهي عملية تصور المستقبل، والتفكير في الغايات - ما للتاريخ من أهمية.

يقول غارودي (بتصرف):

الغربُ عارضٌ. تلك هي الحقيقة الأولى المسلَّم بها في كل ارتياد للمستقبل، فإن طريقة الغربيين في النظر للفرد على أنه المركز والمقياس لكل شيء، ورفع العلم والتقنية إلى قيمٍ مُثلى، هي استثناء صغير جداً في الملحمة البشرية التي يبلغ مداها ثلاثة ملايين سنة! هذا الوجه المشئوم للدور الذي يلعبه (الرجل الأبيض) في التاريخ هو ما أدعوه بـ (الشرّ الأبيض)!

إن (النهضة)- التي لم تكن حركة ثقافية فقط، إنما هي ميلاد الرأسمالية والاستعمار المتلازمين- قد هدمت حضاراتٍ أرقى من حضارات الغرب في علاقاتها بالإنسان والطبيعة، والمجتمع، والأديان.

إن التاريخ الحقيقي- أعني ذلك التاريخ الذي لا يبقى متمحوراً حول الغرب - سوف يكون: «تاريخ الفرص الضائعة» على الإنسانية بسبب تسلّطٍ غربي لا يرجع إلى تفوقٍ ثقافي، بل إلى استخدام عسكري عدواني لتقنيات الأسلحة. انتهى الاقتباس من غارودي.

أنا- في هذا المقال- لا أريد الحديث عن الكتاب، إنما لَفَتَ نظري هذا الهجوم الكاسح على (الحضارة الغربية) من رجل ينتمي إلى واحدة من أعرق دول العالم الغربي: فرنسا.

وأنا مقتنعٌ بهذا الهجوم، وأجده «لذيذاً يدغدغ عندي عواطف متعددة من القهر، والإحساس بالظلم، والشعور بعقدة النقص» أمام (التقدم) الغربي الهائل الذي غزاني، وامتصّ خيراتي، واستعمرني، وآذاني.. إلخ. وهذا الشعور خطيرٌ، إذ ماهي النتيجة التي يمكن أن تنجم عنه؟ إعذار النفس، ووجود مشجب ومسوّغات أعلق عليها: جهلي، وعجزي، وتقصيري!

ومن المضحك أن يهاجم غارودي الحضارة الغربية، وأدافع عنها أنا- المسلم، العربي، الشرقي-!! وانا هنا لا أريد الدفاع عنها.

ومع أنني لا أطالب غارودي أن يذكر الجوانب المشرقة في حضارة الغرب. لأنه - ربما- لم يتخذ منها موقف القاضي، إنما اتخذ موقف الطبيب الذي تخصُصُه في التعامل مع الأمراض والمرضى، لا مع الأصحاء، والصحة!

وينفعني - أنا المسلم، العربي، الشرقي - أن أقرأ ماكتبه غارودي عن حضارة قومه حتى لا أرزح تحت عقدة النقص، لكنه يؤذيني كلّ الأذى إذا جعلني أقعد عن السعي إلى اللحاق بالغرب في الإنجازات العلمية الهائلة المدهشة التي لم يعرف لها تاريخ البشرية مثيلاً في مجالات: الطب، والهندسة، والصيدلة، والرياضيات، والصناعة، والزراعة، والإلكترونيات، والحاسب الآلي، والعمارة، وعلم الحيوان، وعلم النبات. وعلم الجيولوجيا، وعلم الفلك.. إلخ.

إنني أقرأ في كتابي المجيد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، وكل ما ذكرت آنفاً هو من القوة التي عَلِموها وصنعوها، وجهلناها واستوردنا منها فُتات الموائد!! وكنا- ولا أقول هذا تعزيةً للنفس، بل لوماً لها وتقريعاً - سادةَ تلك العلوم التي أخذوها عنا: نباتات صغيرة قبل بضعة قرون، وحوّلوها إلى أشجارٍ عملاقة وغاباتٍ يعجز بصرنا عن إدراك أولها وآخرها!!

فمتى تخشع قلوبنا، وتصحو عقولنا، وتنشط هممنا، لنتحول من العطالة إلى الفاعلية، ونكون جديرين بالشهادة على الناس؟ ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾!

٤٣

انتهى الوقود.. فسقطت الطائرة!!

أقلعت الطائرة في موعدها المحدد تحمل (٤٠٠) راكب. وما إن استوت (بنت الغمام) في الجو حتى استسلم الركاب جميعاً إلى نوم عميق، إلا شاباً في مقتبل العمر سأل نفسه: تُرى إلى أين نتّجه؟ وانتابه القلق! هو لم يحدد وجهةً معيّنة، وانسلَّ إلى الطائرة بدون بطاقة صعود، ولم يلاحظه أحد. وبنفس الطريقة استطاع أن يصل إلى قائد الطائرة وسأله: أين محطتنا القادمة؟ فأجابه القائد: والله يا بني لم أُحدّد اتجاهي بعد! بل إنني نسيت كل الخرائط... لكني تأكدت من أن الخزان مملوء بالوقود، فأقعلت متوكلاً على الله!!

هذه قصة خيالية لم ولن تحدث. فمصير هذه الطائرة- بالطبع- أن ينفد وقودها وهي في الجو، فتقع وتتحطم لأنها لم تحدد لها هدفاً معيناً، ولم تملك الخطة، أو الخارطة التي توصلها إلى غايتها.

لكن حياة الألوف المؤلفة من الناس تتحطّم كل يوم لأنهم لم يحدّدوا لأنفسهم أهدافاً معينة، ولم يرسموا الخطط الصحيحة التي توصلهم إليها، فينطلقون في دروب الحياة على غير هدى، حتى ينفد الوقود، وتنتهي الرحلة!

حديثنا اليوم عن: الأهداف، والتخطيط للوصل إليها، وما هذه القصة الخيالية إلا محرّضة لانتباه القارئ الكريم.

الحكيم لا يعيش بدون أهداف يسعى إلى تحقيقها: هدفه الأول والأسمى الفوز برضوان الله سبحانه ليفوز في الآخرة، فأمرها الأهم والأخطر، لأنها نعيم الأبد، أو شقاء الأبد، لا سمح الله.

وطريقها: فعلٌ وترك. فعلٌ للأوامر، وترك للنواهي. وعمليتا التحلّي بالفضائل، والتخلّي عن الرذائل تتمّان جنباً إلى جنب، والتدرّج أصل، والإنسان حكيم نفسه، ولا يستغني عن استشارة المخلص العارف.

وبعد هذا الهدف الأسمى هناك أهداف مهمة، منها:

١- العناية بالجسم عن طريق الغذاء الصحيح والرياضة الصحيحة.

٢- العناية بالعقل عن طريق القراءة النافعة، وصحبة الجادّين، وحضور مجالس العلم بمختلف أنواعه.

٣- أهداف تتعلق بالأسرة: قبل الزواج وبعده، كَبِّر الوالدين، وصلة الرحم، وتربية الأهل والأولاد.

٤- أهداف تتعلق بالعمل، فالموظف يجب أن يزداد كفاية وعلماً في حقل تخصصه، وكذلك: المعلم، والطبيب، والمهندس.. إلخ

٥- اتخاذ هواية نافعة، يستجمّ بها الفؤاد وتعين الجسم والنفس على الجِدّ.

٦- أهدافٌ مالية (معقولة)، فلا خير فيمن لا يحبّ المال: يعبد به ربّه، ويصل به رحمه، وينفع به خلق الله، ويستغني به على الناس. و«اليد العليا خير من اليد السفلى».

ويركز علماء النفس على أن كتابة الأهداف بالتفصيل أمر مهم جداً لتحقيقها، وإلا بقي احتمال تحققها أقلّ.

يقول الدكتور جيمس شيرمان، أستاذ علم النفس التربوي بجامعة مينوسوتا

سابقاً في كتابه: «خطط أعمالك، ونفذ مخططاتك» الذي نشرته دار المعرفة للتنمية البشرية تحت عنوان: التخطيط أول خطوات النجاح:

التخطيط هو تصميم المستقبل المؤمل، وتطوير الخطوات الفعالة لتحقيقه. إنه طريقة عقلانية منظمة في صنع القرارات وحلّ المشكلات. وهو يشير إلى المخاطر التي قد تواجهك عند رسم طريقك في ممرات المستقبل التي تجهلها، كما يساعدك على اقتناص فرص النجاح التي قد تسنح لك، ويبين لك كيف تحولها من فرص إلى أهداف قابلة للتحقيق خلال فترة زمنية معينة، وبهذا يساعدك على الوصول إلى المحطات المهمة في طريق النجاح. ويحفزك على التفكير في مستقبلك بلغة الحقائق بدلاً من الأوهام.

ويذكر المؤلف مثالاً على أهمية التخطيط، يقول:

في العقد الخامس من القرن العشرين (أي حوالي عام ١٩٥٠م) أخذ فريقٌ مختصٌ بالأبحاث السلوكية من كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد عَينة عشوائية عددها (١٠٠) من طلاب السنة النهائية، وسألوهم عما يود كل واحد منهم أن يكون بعد عشر سنوات من التخرج، فجاءت إجابات الجميع بأنهم يودون أن يكونوا أغنياء، وناجحين، وذوي تأثير في دنيا المال والأعمال. وقد لاحظ الباحثون أن عشرة طلاب فقط من المئة: ١- وضعوا أهدافاً محددة ٢- وفصّلوها ٣- وكتبوها. وبعد مرور عشر سنوات قام نفس فريق الأبحاث بزيارات متابعة لكامل أفراد العينة، واتضح لهم أن مايملكه هؤلاء العشرة الذين حددوا أهدافهم كتابة يعادل (٩٦) بالمئة من إجمالي الثروة التي يملكها المئة!!

أمامي الآن الطبعة الثالثة (١٩٩٠م) من كتاب باللغة الإنجليزية عنوانه: «كيف تنجح بتحديد أهدافك» للدكتور ريغ باريت، المولود في بريطانيا عام

(١٩١٦م) والمتخصص في: علم النفس، وإدارة الأعمال، والمحاسبة. وقد رأيت في زياراتي للمكتبات في الخارج العديد من الكتب التي تتحدث عن: الأهداف، وأهميتها، وكيفية تعديلها، ورسم الخطط المرنة لتحقيقها وما إلى ذلك. بل إنني سمعت شريطاً بالإنجليزية لمؤلف أمريكي يدعى «برايان تريسي» يقول فيه: لقد نشأ فرع من فروع علم النفس سُميّ «علم نفس الأهداف».

الموضوع شائق جداً، ومهمٌّ جداً، ومن المحزن جداً أنّ طلابنا يدرسون (١٢) عاماً لينالوا الثانوية العامة و(٤) سنوات على الأقل في الجامعة، ولا يأخذون مادة واحدة في هذه الأعوام الـ (١٦) عن هذا الموضوع، ونحن ندرّسهم (وأقول هذا لأنني معلّم، درّست في: المتوسط، والثانوي، والجامعة ٢٥سنة!!) ندُرسهم ما (قد) يصل إلى ٢٠٪ من المقررات التي لافائدة منها لا في الدنيا ولا في الآخرة!!

إنني أهيب بإخواني، وزملائي في وزارة التربية والتعليم، وفي الجامعات، وكثيرٌ منهم من خيرة من عرفت كفاية وإخلاصاً، أن يدرسوا هذا الاقتراح، ويطبقوه إذا تبينت لهم جدواه. وتكون هذه (الإهابة) تالية لتلك (الاستغاثة) التي أطلقتها في مقال سابق بلسان أبنائنا وبناتنا: نرجوكم أن تعلمونا كيف نعيش، وكيف نواجه الحياة، ونتعامل مع أنفسنا ومع الناس بدلاً من أن نرهق أذهاننا بحفظ تواريخ تتلاشى، ومساحات دولٍ قصية، ومقدار ما تنتجه من الفحم والحديد!! ومن الله نستمد الهداية والتوفيق.

٤٤

التضليل الإعلامي والوعي المعلب

هذا هو عنوان الفصل الأول من كتاب «المتلاعبون بالعقول» لمؤلفه الأمريكي هربرت شيللر، الذي كان أستاذاً لمادة «وسائل الاتصال» بجامعة كاليفورنيا، وغيرها من الجامعات.

تحدثت سابقاً عن هذا الكتاب ووعدت القارئ الكريم أن أرجع إليه مرة أخرى لأهميّته، وهأنذا أفي بوعدي.

قال المؤلف في مقدمته: يقوم مديرو أجهزة الإعلام في أمريكا بوضع أسسٍ لعمليةِ تداولِ (الصورِ والمعلوماتِ)، ويشرفون على معالجتها، وتنقيحها، وإحكامِ السيطرة عليها. تلك الصور والمعلومات التي تُحدّد معتقداتِنا، ومواقفَنا، بل وتحدّد سلوكنا في النهاية. وعندما يعمد مديرو أجهزة الإعلام إلى طرح أفكارٍ وتوجّهاتٍ لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعي فإنهم يتحوّلون إلى (سائسي عقول)...

إن تضليل عقول البشر هو- على حدّ قول باولو فرير- (أداة للقهر). إنه يمثل إحدى الأدوات التي تسعى (النخبة) من خلالها إلى تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة.

إن امتلاك وسائل الإعلام والسيطرة عليها متاحٌ لمن يملكون رأس المال. والنتيجة الحتمية لذلك هي أن تُصبح محطات الإذاعة، وشبكات التلفزيون، والصحف، والمجلات، وصناعة السينما، ودور النشر مملوكةً جميعاً لمجموعة

من المؤسسات المشتركة، والتكتلات الإعلامية. وهكذا يصبح الجهاز الإعلامي جاهزاً تماماً للاضطلاع بدور فعال وحاسم في العملية التضليلية...

إن فهم آليات الصناعة الثقافية الأمريكية أصبح ضرورةً ملحة: فمنتجاتُ ومبتدعات هذه الصناعة يتمّ إنجازها وَفْقاً لمواصفاتٍ محدّدة، وبمقوّماتٍ تمّ اختبارها عملياً. ويُشار على (المشاهدين)، والمستمعين، والقراء، (داخل البلاد وخارجها)، أن يعوّدوا أنفسهم على هذه السمّات المميزة. إلا أنه يتعيّن أن يُلاحَظَ أنّ هذا التعوّد أو (التعويد) يمكن في ظروف معينة أن يُلحق الضرر بصحتّكم العقلية!!

هذا بعض ماجاء في المقدمة. والكتاب زاخر بالمعلومات التي تغيّرت تفاصيلها وإحصائياتها كثيراً لقدم تاريخ طباعته، لكن الأُطُرَ العامة فيه لم تتغيّر فيما أظن. ونحن -على أي حال- لا نأخذ كل ما نقرأ بالتسليم. لكننا نحاكمه في ضوء الواقع، وفي ضوء الاستماع إلى وجهات نظر أخرى مخالفة.

وسأقتطف من مواضع متفرقة من الكتاب بعض ما يناسب المقام حسب اجتهادي:

❖ تصاب المجموعات، والشركات ذاتُ النفوذ الاقتصادي القوي بتوترٍ بالغ إذا ماتمّ لفتُ الأنظار للممارسات الاستغلالية التي تشارك فيها!

❖ في أمريكا يحوّل النظام التنافسي الأخبار إلى سلع، ويتحقق الامتياز لمن يسبق الآخرين في الحصول على تلك السّلعة السريعة التلف (أي: الأخبار) وبيعها للمستهلك. ومن الأمثلة النموذجية لذلك حالة (جاك أندرسون)، وهو كاتبُ عمودٍ يومي حقّق نجاحاً واسعاً، وسجّل انتصاراتٍ صحفيةً عديدة نالت شهرة واسعة. فقد انساق إلى توجيه العديد من التهم على الهواء، ودون وثائق، ضد ثوماس

ايجلتون الذي كان يخوض معركته من أجل البقاء ضمن لائحة مرشحي الحزب الديموقراطي عام ١٩٧٢م لمنصب نائب الرئيس. وعند مواجهته بعدم صحة معلوماته، وبعد أن أضرّ بايجلتون ضرراً بالغاً، اعتذر أندرسون بالوضع التنافسي، فلو أنه لم يشرع هو في الاتهام لسبقه إلى ذلك صحفي آخر!!!

❖ عند وقوع أزمة فعلية، أو كاذبة، ينشأ جوٌّ هستيريٌّ محموم بعيدٌ تماماً عن المعقولية. ويؤدي الإحساس الزائف بالطابع الملحّ للأزمة المترتب على الإصرار على فورية المتابعة، يؤدي إلى النفخ في أهمية الموضوع.. ونتيجةً لذلك تضعف القدرة على التمييز بين الدرجات المتباينة للأهمية.. (على أن الأحداث المهمة يحتاج استيعابها إلى مدة كافية من الزمن)، وليس مما يسهّل فهم هذه التطورات أن تنقل الأقمار الصناعية رسائل الأخبار (كل بضع ثوانٍ)، فالانشغال التامّ باللحظة يدمّر الروابط الضرورية بالماضي.

أقول: وبالحاضر والمستقبل، ويضعف قدرة العقل على اتخاذ القرارات الحكيمة التي لا يتبيّن خطؤها، إلا بعد فوات الأوان!

❖ لقد أصبح (حَجْبُ المعلومات) أكبرَ أداةٍ للسيطرة والتحكم داخل الحكومة نفسها. يقول جورج ريدي، السكرتير الصحفي السابق للرئيس ليندون جونسون: «من الآن فصاعداً ستجدون أن جانباً كبيراً من النشاط الفعلي للحكومة قد تركز داخل البيت الأبيض نفسه حيث يجري حجبه من خلال الامتياز التنفيذي». ثم يمضي متحدثاً عن الصعوبات التي تتعيّن مواجهتها فيما يتعلّق بالحصول على المعلومات الصحيحة.

❖ يقول جون هنري مارتن في شهادته أمام إحدى لجان الكونجرس، وكان حينذاك مراقباً عاماً للمدارس في ولاية نيويورك: «إن النشاط التجاري

والصناعي الكبير قد قرر أن تصبح (صناعة المعرفة) نشاطاً مربحاً. كما أن مركز الثقل بالنسبة للتغيير التعليمي ينتقل الآن من مواقع السلطة القديمة- أي: هيئات التدريس، ومكتب المراقب العام - إلى حاشية السلطة التنفيذية ».

❖ وتحت عنوان: هل تقدم استطلاعات الرأي حقائق موضوعية؟ يقول المؤلف:... نؤكد أن إجراء استطلاعات للرأي العام حول قضايا اجتماعية وسياسية بحتة في ظل النماذج القائمة من نشر المعلومات المجزأة في الولايات المتحدة، وفي أماكن أخرى عديدة، يمكن اعتباره أكثر التحايلات انطواءً على الخداع. فإذا كان الأفراد يجدون أنفسهم في واقع ينظمه لهم جهازٌ للوعي يغزو المدرسة والمنزل، فما هي الجدوى التي يمكن أن تنطوي عليها إجاباتهم عن أسئلة تزيد من اختزال السياق العام للقضية المطروحة؟

وبعد: فأريد أن أختم مثال اليوم بالتعليقات التالية:

١- هذا كلام ليس له علاقة بما يجري اليوم على الساحة الأمريكية لأنه قد كتب عام ١٩٧٤م.

٢-صحيحٌ الاستشهاد بقوله تعالى: (وشَهِدَ شاهدٌ من أهلها)، لأن هربرت شيللر أمريكي، لكننا (أنا وأكثر القراء الكرام) لا نستطيع أن نتأكد تماماً من صحة المعلومات التي أوردها، مع أنها تبدو منطقية.

٣-لا أظن أن الصورة التي يخرج بها قارئ الكتاب صحيحةٌ تماماً - وإن كانت صحيحة جزئياً -، لأن هذا يعني غياب الحقيقة، وأن نسبة ضئيلة جداً من الناس تضحك على مئات الملايين من البشر الذين عندهم ذكاء، وعقول، وثقافة، ومال، و.. إلخ. فالهدف - إذن - من هذا المقال قدحُ زناد الفكر لنكون أقربَ ما يمكن من الحقائق. والله تعالى أعلم.

٤٥

فَزِدْني مِنْ حديثِكَ يا سَعْدُ!!

١- التأمُّل نعمةٌ قلَّ من ينعَمُ بها أو يبحث عنها.

٢- للعناية الإلهية أسرارها، ولكنَّ الجزعَ يُعمي.

٣- لو اتفقتْ رؤى الناس لغدتِ الحياةُ نمطاً مملاً لا يُطاق.

٤- رحيلٌ يُسفِرُ عن رحيل، وسفَرٌ يسفر عن سفر

٥- للجمال عرائسُ من الأبدان والبُلدان.

٦- الغربة أن تُسافر إلى أعماقِ ذاتك لتُخاطر غريباً مثلك.

٧- ليس بين العِزَّةِ والذلّة إلا أن ترفعَ وجهكَ إلى السماء!!

٨- تحتَ لفح السّراب يغدو الظلُّ حُلُماً، وظلال الوحي (حقيقةٌ) أجملُ من كل الأحلام.

٩- مَجدٌ قِوامه الكرسيّ والأوراق ينهار عند اهتزاز الكرسيّ وتطايرِ الأوراق.

١٠- خليلُكَ ماتراه أنتَ، لامَنْ هو!

١١- الوجودُ أحوال: يدقُّ حتى لا يُرى، ويعظُمُ حتى لا يُرى!

١٢- لا يكفي أن تتعشّق الجمال، لا بدّ أن تتمثله وتكونه.

١٣- التفاؤل زادُ مَنْ لا زادَ له.

١٤- في بلاد النور والحرية يغدو العفافُ جريمةً، والحجاب مبرّراً لسلْب الحرية والتعليم.

١٥- للرحيل طعمٌ تذرفه العين، ويصلاه القلب.

سَببُ اختيار العنوان هو: أن الأقوال (أو الحكم) الخمسة عشرة المنتقاة آنفاً هي للدكتور سعيد عطية الغامدي، فهو المنادى المُفردُ العَلَم المقصودُ بقولي: يا سعدُ! وهي (مقدّمات) لبعض القصائد في ديوانه: «شطآن ظامئة»، رأيت فيها من العمق ما يستحقُّ مادةً يَقْدحُ في فهمها القارئ الكريمُ زنادَ فكره، لينظرَ بماذا يخرج منها:

١- التأمل نعمة، حَرَمنا منها القلق، والتوتر، والسّعي المحموم خلف الدنيا، والخللُ المخيف في ترتيب سُلّم أولوياتنا. والتأمل كلمةٌ مرادفة للتفكر والتدبر، والكلمتان قرآنيتان، وهما عبادة من أجلّ العبادات:

- ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾.
- ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

التأمل نعمةٌ عُظمى أغلى من الملايين، ومع ذلك لا تغري الفقراءَ المحرومين، لا الأغنياء المساكين!!

٢- لو سلَّم المرءُ أمرَه إلى الله، وبرمَجَ نفسه وقتَ الرخاءِ على التماسك والصّبر والتسليم لما يُمكنُ أن يصيبَه وقتَ الشّدة، لنجا من الجزع إن شاء الله، وما يُسببه الجزع من العمى والطيش. وصدق الذي لا ينطق عن الهوى: «تعرّفْ على الله في الرخاء، يعرّفك في الشدة ».

٣- لو كان الناس قوالبَ متشابهة لم يَبْقَ لقول شوقي: «كُلُّ مليحةٍ بمذاقٍ»!! أيّ معنى.

٤- ما آبَ من سفرٍ إلاّ إلى سفرٍ
مُوَكَّلٌ بفضاءِ اللهِ يذرعه

ثم: أليست الحياةُ سفراً؟! وصدق الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين قال: «كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابر سبيل»، وصدق التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله حين قال: «يا ابنَ آدمَ، إنما أنت أيام: إذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ».

٥- ما أحلى أن يلقى الإنسان عرائس الأبدان في عرائس البلدان.

ولمّا نزلنا منزلاً طَلَّهُ الندى

أنيقاً، وبُستاناً من النَّور حالياً

أجدَّ لنا حُسْنُ المكانِ وطِيْبُهُ

مُنىً، فتمنينا، فكنتِ الأمانيا

٦- لا غربة مع الأنس بالله، ولا أنس مع الغربة عنه. اللهم ارو قلوبنا بالأنس بك.

٧- ليس بين العزة والذلة إلا أن ترفع وجهكَ إلى السماء. هذه مقدمة قصيدة عنوانها: «الفِصام»، تقول القصيدة:

قبلُ كنا عرباً .. نئدُ البنتَ، ونستحيي الولدْ

هاجسُ العزة يُطغينا .. فننساق إلى أدنى مماتْ

وسُعار العار يُشقينا .. ؟ فنغتال أزاهير الحياة

غير أنا .. لم نكن نحسب للعار حِسابا

في قضايانا الخطيرة

لا نرى بأساً بأن يقتتلَ الحيان.. عشرينَ.. ثلاثينَ سنة

حول تيسٍ ضامرٍ... أو حول شاة

أو كئيبٍ قاحلٍ.. أو طيفِ مرعى.. أو نبات

أو رهان خاسرٍ، أو شجارٍ بين بعض السيّدات»!!

لا نرى بأساً بأن يحكمنا الفرسُ.. أو الروم، أو الصِّبْيـة في ديوانِ بعض الأبرهات.

فلقد كنا جميعاً ننحني للات والعزّى ونجثو لمناة.

ثم جاءتنا رسالة

بَعثتنا.. أنقذتّنا من براثين الضلالة

فخرجنا بكتاب الله، إذ كان لنا مجداً، وإذ كُنّا رجالَه

وحكمنا الفرسَ والرومَ، وشرّقنا وغرّبنا بناموس العدالة

ورفعنا الحقَّ فوق الشمسِ هالة

وسهرنا.. وسهرنا ليبيتَ الناسُ في أحسنِ حالة.

وللقصيدة بقية، وللحديث بقية إن شاء الله.

بقي أن أقول: إن الحكيم الشاعر الدكتور سعد عطية الغامدي متخصّص في المحاسبة في جامعة ولاية أوكلاهوما، وهو الآن نائب تنفيذي لرئيس مجموعة شركات عبد اللطيف جميل، وكان أستاذاً بكلية العلوم الإدارية بجامعة الملك سعود، وعميداً لشؤون الطلاب فيها.

هذا لقاء مع فكره، وعسى أن يكون لنا لقاء مع شعره!

٤٦

إمام الدنيا: أحمد بن حنبل

لم يكن- بالطبع - معصوماً عن الخطأ، لكنه كان عظيماً بكل ما تحتويه هذه الكلمة من آفاق وأعماق. تقرأ سيرته فتتضاءل نفسُكَ أمامك حتى لكأنك طفل صغيرٌ أمام عملاق، أو نملةٌ أمام جبل! إنه دنيا من النبل والمكارم، والسّجايا والمزايا، والنبوغ والعبقرية، والعلم والعمل، وأشياءَ أخرى... إنه أحمد بن حنبل رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، وأعلى مقامه عنده، وأكرمنا بصحبته في دار كرامته.

كان أستاذنا الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني رحمه الله يقول: عجباً لأمواتٍ تحيا بذكرهم النفوس، ولأحياءٍ تموت بمجالستهم القلوب!! أما الصنف الثاني فما أكثره، وأما الصنف الأول فما أقلَّه! ومنه العلم الشامخ، أبو عبد الله، أحمد ابن حنبل، إمام أهل السّنة، المولود عام ١٦٤ هـ، والمتوفى عام ٢٤١هـ.

قال الإمام الشافعي، شيخ الإمام أحمد، المتوفى عام ٢٠٤هـ: «خرجتُ من العراق، فما خلّفتُ بالعراق أفضلَ، ولا أعلم، ولا أتقى من أحمد بن حنبل »!

وقال الإمام الحافظ العَلَم يحيى بن معين: «أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل؛ لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد بن حنبل، ولا طريقته».

وقال عنه الإمام ابنُ حِبّان، صاحب الصحيح: «كان حافظاً، متقناً، فقيهاً، ملازماً للورع الخفيّ، مواظباً على العبادة الدائمة، أغاث الله به أمة محمد

صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه ثبت في المحنة، وبذل نفسه لله، فعصمه الله تعالى، وجعله علماً يُقتدى به، وملجأ يُلجأ إليه ».

وقال عنه مؤرخ الإسلام العلامة الإمام الحافظ الذهبي: «شيخ الإسلام، وسيد المسلمين في عصره، الحافظ الحجّة، كان إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الفقه ودقائقه، إماماً في السنّة وطرائقها، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه ».

❖ **تمسكه بالسنة:**

كان شديد التمسّك بالسنة فعلاً وتركاً إلى درجة مُدهشة:

قال: ماكتبتُ حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقد عملتُ به. وقد احتجم، وأعطى الحجّام ديناراً (من الذهب) لأنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً. واختفى عند إبراهيم بن هانئ أيام المحنة ثلاثة أيام، ثم أصرّ على الخروج إلى موضع آخر ليختبئ فيه، وقال: اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثة أيام، ثم تحوّل، وليس ينبغي أن نتبّع رسول الله عليه الصلاة والسلام في الرخاء، ونتركه في الشدّة!!

❖ **ورع الإمام احمد:**

معنى الورع في الأصل: الكفّ عن المحارم، والامتناع عنها، ثم أصبح: البعد عن الشبهات. روي أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «كنّا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام »!

وأسارع فأقول: إن هذه الدرجة الرفيعة، والطريقة الصعبة العسيرة التي أخذ العظماء بها أنفسهم لا ينبغي إلزامُ الناس بها. ويحضرني- في هذه

المقام- كلمة سمعتها من والدي، الشاعر الإسلامي الراحل: عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله، معناها:

ينبغي للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يأخذوا أنفسهم بما يطيقونه من عزائم الدين، وأن يأخذوا الناس بما يتّسع له صدر الإسلام من الرّخص. ولعمري، ما أحكمَ هذا الكلامَ وأسلمه!

عاش الإمام أحمد فقيراً، كثير العيال. ولم يكن له غلّةٌ إلا ملكٌ ورثه عن أبيه أجرته في الشهر (١٧) درهماً، ينفقها على عياله، ويقنع بذلك حامداً، شاكراً، صابراً، محتسباً. وربما اضطُرّ فَنَسَخَ بالأُجرة! ومع ذلك لا يرضى أن يأخذ من مال السّلطان.

ومن ورعه في الفقه أنه كان إذا صحّتْ لديه روايات متعددة عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، لم يحاول الترجيح بينها، بل يثبتها كلَّها، وتُروى عنه، وليس ذلك عجزاً عن الترجيح كما يظن بعض الناس، فهو إمام في الفقه، لكنه يتورع أن يلتزم بقول أحدهم، ويكون الصواب مع غيره!

وبعث الخليفة المأمون مرةً دنانير ذهباً تُقسم على أصحاب الحديث، فما بقي أحدٌ منهم إلا أخذ، ماعدا الإمام أحمد فأبى.

وأكتفي بهذا القدر القليل الذي يناسب المقام، وإلا فورعه يطول الكلام عنه.

❖ زهده رحمه الله:

أساس الزهد قوله تعالى: «قل: متاعُ الدنيا قليلٌ، والآخرةُ خيرٌ لمن اتّقى». وعرّفه الإمام أحمد فقال: هو عدم الفرح بإقبال الدنيا، وعدم الحزن على إدبارها. وقد صنّف في الزهد كتاباً عظيماً، أغلبُ الظن- كماقال الحافظ الإمام ابن كثير- أنه كان يأخذ بما أمكنه منه.

قال أبو داود: كانت مجالسُ أحمد مجالسَ آخرة، لا يُذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قطّ.

وقال مرة لابن صالح: إذا لم يكن عندي قطعةٌ- يعني من المال- أفرح! وقال: ما أعدل بالفقر شيئاً. وصدق رحمه الله، إذ صبر على الفقر طول عمره.

❖ وكان رحمه الله عفيفاً:

لا يرضى أن يأخذ شيئاً من أحد على شدة حاجتة: رَهَنَ نعلَه مرةً عند خباز ليأكل، وأكرى نفسه (أي: اشتغل أجيراً) لناسٍ من الجمّالين، ونسخ بالأجرة، ونَسَجَ أحزمة السراويل وباعها، وأبى أن يأخذ مالاً، لا قرضاً، ولا هدية، من شيخه الإمام عبد الرزاق.

غفر الله لأحمد بن حنبل، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ويا ليتنا نحن الذين نقول: إننا حنفيةٌ، أو مالكية، أو شافعية، أو حنابلة، ليتنا نقتدي بأولئك الأئمة في أخلاقهم، وعاداتهم، ودينهم، وعبادتهم، لا في فقههم فقط. والله المستعان.

٤٧

«وقالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة»؟!

عادٌ هم قوم هود عليه الصلاة والسلام.

يقول د. محمد بيومي مهران في كتابه «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» ما معناه:

ينظر الأخباريون إلى قوم عادٍ على أنهم أقدم الأقوام العربية. وتحديد العصر الذي عاشوا فيه بالغ الصعوبة، ومنطقتهم تقع في الأحقاف، إلى الشمال الشرقي من حضرموت في جنوب الربع الخالي. وتتجه آراء المحدثين إلى أنها في شمال الجزيرة العربية. وروي عن قوتهم وضخامة أجسامهم قصص كثيرة، فكانت هذه القوة سبباً للغرور والكبر والبطر. وهذا محور حديث هذا المقال.

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

استكبر قومُ عاد مغترّين بقوتهم، وباهوا بقولهم: مَنْ أشدُّ منا قوة؟! القوة التي عندهم أصلها وأساسها نعمةٌ من الله عليهم، فبدلاً من أن يقابلوها بالشكر، والتواضع لله، ولخلق الله، تكبروا، ناسين أن الله الذي خلقهم، ورزقهم النعم المختلفة، هو طبعاً أشد قوة منهم، فما أسخف هذا الغرور! فماذا كانت

نتيجة التكبر، وماذا كانت عقوبته: أرسل الله عليهم ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾.

قال الراغب الأصفهاني: عامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكل موضع ذكر فيه لفظ الجميع فعبارة عن الرحمة. وقوله تعالى: ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ إما من الصَّر بالفتح وهو شدة الحر، أو بالكسر وهو شدة البرد، أو شديدة الصوت. والأيام النحسات: التي كانت شؤماً ونحساً عليهم، هي أيام الحسوم، كما ورد في صفوة البيان لحسنين مخلوف.

إن كل أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب يستكبر في الأرض، ويطغى، ويبغي محتملٌ أن يعاقبه الله بالعقوبة التي عاقب بها عاداً قومَ هودٍ عليه السلام.

يقول الله عز وجل في سورة القصص: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾.

قال ابن الجوزي في زاد المسير: البطر: الطغيان في النعمة، و﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾أصلها: بطرت في معيشتها. والقرية: هي المدينة، والمكان الذي يجتمع فيه الناس. قال ابن كثير في تفسيره: «يقوله تعالى معرّضاً بأهل مكة»، فتلك المدن، يعني أهلها، طغوا، وكفروا نعم الله، فأهلكهم الله تعالى، وبقيت مساكنهم خراباً لم تسكن من بعدهم.

وكذلك فإن كلّ أمة على مرّ التاريخ تبطر في معيشتها فهي معرضة أن تعاقب بمثل هذه العقوبة الإلهية.

وهذا العقاب يمكن أن يصيب مثلُه الأفراد إذا تكبروا: روى الإمام أحمد في مسنده (برقم ٩٢٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل:

«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحداً منهما قذفته في النار»، وفي رواية: «فمن نازعني شيئاً منهما عذّبته» وفي رواية: «فمن نازعني فيهما قصمته». قال ابن الأثير في جامع الأصول: شبّه العزّ والكبرياء بالإزار والرداء، لأنّ المتّصف بهما يشملانه كما يشمل الإزارُ والرداءُ الإنسانَ، وأنه لا يشاركه في إزاره وردائه أحد، فكذلك الله عزّ وجل: العز والكبرياء إزاره ورداؤه، فلا ينبغي أن يشركه فيهما أحد، فضربه مثلاً لذلك.

وفي صحيح مسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبةٍ من كِبرٍ» وعرّف عليه الصلاة والسلام الكبر فقال: هو: «بَطَرُ الحقّ، وغمط الناس»، أي: يطغى ويتكبر عن سماع الحق فلا يقبله، ويحتقر الناس ويتعالى عليهم.

وفي حديث حسّنه الترمذي، يقول عليه الصلاة والسلام:

«يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذرِّ (يعني: صغار النمل)، في صور الرجال، يغشاهم الذلّ من كل مكان يُساقون إلى سجن في جهنم.. يُسقون من عُصارة أهل النار...» .

وعند الترمذي أيضاً: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبّارين، فيصيبه ما أصابهم».

وفي البخاري ومسلم: «بينما رجل يمشي في حُلَّةٍ، تُعجبُه نفسُه، مُرَجِّلٌ رأسَه، يختال في مِشْيته، إذ خسف الله به، يتجلجل في الأرض (أي: يسوخ ويغوص) إلى يوم القيامة».

قال الإمام الغزالي في الإحياء: ذمّ الله الكبر في مواضع من كتابه، وذمّ كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

ثم قال رحمه الله: اعلم أن الكِبْرَ ينقسم إلى باطن وظاهر: فالباطن: هو خُلُقٌ في النفس، والظاهر: أعمال تصدر عن الجوارح، واسم الكبر بالخلق الباطن أحقّ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وآفة الكبر عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواصّ من الخَلق، وقلّما ينفكّ عنه العُبّاد، والزُهّاد، والعلماء، فضلاً عن عوامّ الخلق!

والتكبر أنواع، منه التكبر على الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما حكى الله سبحانه عن بعض أقوامهم: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟! وقولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

ومن التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه، ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا عظيمٌ من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعزّ والعظمة والعَلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمن تكبّر على عبدٍ من عباد الله فقد نازع الله في حقّه.

الثاني: أن الكبر يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأنّ المتكبر إذا سمع الحقَّ من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله، وتشمّر لجحده، ولذلك ترى المُناظِرينَ في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، ثم إنهم يتجاحدون تجاحُد المتكبرين، ومهما اتضح الحقُّ على لسان واحد منهم أنِفَ الآخر من قبوله، وتشمّر لجحده، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين! انتهى الاقتباس بتصرّف.

إنا وجدنا الكبر في أنفسنا، ووجدناه في جماعات منا، أو من غيرنا، ووجدناه في بعض الأمم والشعوب الطاغية الباغية، ووجدناه في بعض الحكام والمحكومين، ولو عَرَف المرءُ عاقبته لحاول أن يتطهرّ منه كما يتطهّر من النجاسة المغلّظة، ولكن أين الذين يفقهون؟!

«اللهم زكّ نفوسنا وآتها تقواها، إنك خير من زكاها، انت وليّها ومولاها».

٤٨

هل يمكن أن نَعُدَّ المُفرد؟!

إذا قال لك صديق: خذ هذا القلم وعُدَّه لي، أو خذ هذه الورقة، أو هذه التفاحة وعُدَّها لي، فلا شك أنك تستغرب قوله، لأنّ الذي يُعَدُّ هو الجمع لا المفرد. أليس كذاك؟ أما لو قال لك: خذ هذه الأقلامَ، أو هذه الورقاتِ، أو هذه التفاحاتِ وعدّها لي لأجبته إلى طلبه إن أردت ذلك. فالجمع يمكن عدّه والمفرد لا يمكن عدُّه.

قرأت قوله تعالى في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾، وفي سورة النحل: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ فتعجبت لعدة أمور جديرة بأن يقدح القارئ الكريم لمعرفة سرّها زناد فكره، مهتدياً بما ورد عن أئمة التفسير رحمهم الله.

إن الله سبحانه لم يقل: وإن تعدوا نِعَمَ الله، كما هو المعتاد في كلام الناس، فكأنه- وهو أعلم- ينبهنا إلى أن النعمة الواحدة في طيّاتها نِعمٌ كثيرة، لو أردنا إحصاءَها لعجزنا عن ذلكن فكيف بسائر النعم؟!

لنأخذ نعمة البصر: ألسنا نجد في كلِ لمحةِ بصرٍ نعمةً فيها؟ في كل ثانية نرى مالا يُحصى من الأشكال المختلفة، والألوان المتوعة، والحجوم المتباينة.. إلخ، ونعمة البصر مستمرة باستمرار حياة الإنسان مادام مستيقظاً.. وخذ بعد ذلك نِعَمَ: العقل، والسمع، والشمّ، والذوق، والعافية، والأمن، والمال، والإيمان قبل كل شيء، و... مالا يحصى من النعم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: رُوي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا ربّ كيف أشكرك، وشكري لك نعمةٌ منك عليّ؟ فقال الله تعالى: يا داود الآن شكرتني، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمةٍ من نعمه إلا بنعمةٍ حادثة توجب على مؤديها شكرَه بها.

قال الإمام فخر الدين الرازي (المتوفى سنة ٦٠٤هـ) رحمه الله في تفسيره المسمى: «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب»:

اِعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عَجْز نفسهِ عنه. ثم ذكر مثالين، ثانيهما:

قال: إنك إذا أخذتَ اللُّقمةَ الواحدة لتضعها في فمك، فانظر إلى ماقبلها، وإلى ما بعدها؛ أما الأمور التي قبلها: فاعرفِ أنّ تلك اللقمة من الخبز لا تتمّ ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائماً على الوجه الأصوب؛ لأن الحنطة لا بد منها، وأنها لا تنبت إلا بمعونة الفصول الأربعة، وتركيب الطبائع، وظهورِ الرياح والأمطار، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دورانِ الأفلاك، واتصالِ بعض الكواكب ببعض على وجوهٍ مخصوصة في الحركات، وفي كيفيّتها في الجهة، والسّرعة، والبطء. ثم بعد أن تكون الحنطةُ، لا بد من آلاتِ الطحن والخبز، وهي لا تحصل إلا عند تولّد الحديد في أرحام الجبال. ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن صنعها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة لها، ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية، في أول هذه الآلات.. ثم لا بد من اجتماع العناصر الأربعة: الأرض، والماء، والهواء، والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق. فهذا هو النظر فيما تقدّم على حصول هذه اللقمة. وأما النظر فيما بعد حصولها: فتأمل في

تركيب جسم الإنسان، وكيف خلق الله سبحانه وتعالى الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة. (أقول: وكيف تمضغها الأضراس، ويقلّبها اللسان، ويخالطها اللعاب، وتسري في المرئ، وتنزل إلى المعدة.. إلخ) ولا يمكن معرفة تفاصيل ما يحدث إلا بمعرفة جوانب من علمي التشريح والطب..

فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة أمور، والعقول قاصرةٌ عن إدراك هذه المباحث، فظهر البرهان القاهر على صحة قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾.

ثم إنه تعالى قال: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾، قيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها، وكفّار: شديد الكفران لها.

يقول رحمه الله: ولما تأملت قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لاحَ لي فيه دقيقة، كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت الذي أخذتها، وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك: ظلوماً، وكفّاراً، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني: غفوراً ورحيماً، كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم، أعلَم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء. ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة.

ومما يناسب المقام الحديث عن الآية السابقة في سورة إبراهيم نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ هو من جملة ما قال موسى عليه الصلاة والسّلام لقومه، كما في الآية السّادسة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا

نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾، واذكروا حين تأذّن، أي: أعْلَمَ، أو: أقْسَمَ. وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم».

جاء «في ظلال القرآن»:

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة، حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر. نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن بها قلوبُنا أولَ وهلةٍ لأنها وعدٌ من الله صادق، فلا بد أن يتحقق على أية حال. فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة، ونبحثَ عن أسبابه المُدرَكةِ لنا، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمّس الأسباب.

إن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة، بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشرّ. وهذه وتلك مما يزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيهان ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً، ويُصلح روابطَ المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان، إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة..

والكفر بنعمة الله قد يكون: بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبُها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكدّ الشخصي والسّعي كما قال قارون عندما قيل له: ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾! كأن هذه الطاقات ليست من نعم الله! وقد يكون كفر النعمة بسوء استخدامها بالبطر، والكبر على الناس، واستغلالها للشهوات والفساد، وكله كفر بنعمة الله.

والعذاب الشديد قد يتضمّن مَحْق النعمة عيناً بذهابها، أو سحْق آثارها في الشعور. فكم من نعمةٍ تكون بذاتها نقمةً يشتى بها صاحبها، ويحسُدُ الخالين!

وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله، ولكنه واقع لأنّ الكفربنعمة الله لا يمضي بلا جزاء.

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته، وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره. فالله غني بذاته، محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه.

اللهم اجعلنا من عبادك الشكورين.

٤٩

أكثر الناس أعداء نِعَم اللهِ عليهم!!

كثيرٌ من الناس يحبّون ما يؤذيهم، ويكرهون ما ينفعهم، بل إنهم يَجْهَدون في دفع المنفعة، ويتعبون للحصولِ على الأذى، ويدفعون في سبيل ذلك الكثيرَ من أموالهم، وأوقاتهم، وجهودهم، وذلك إما لغلبة الجهل، أو لغلبة الشهوة. نسأل الله السّلامة والعافية.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم (الفوائد) ما معناه:

من الآفات الخفية التي عمّت بين الناس، ولم ينتبهوا إليها: أن يكون العبد في نعمةٍ أنعم الله بها عليه، واختارها له، فيملُّها العبد، ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم -لجهله- أنه خير له منها. وربُّه - برحمته - لا يُخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله، وسوء اختياره لنفسه. حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة، وتبرّم بها، وملَّها، سلبه الله إياها! فإذا انتقل إلى ماطلبه، ورأى التفاوت بين ماكان فيه وما صار إليه، اشتدّ قلقُه وندمُه، وطلب العودة إلى ماكان فيه! فإذا أراد الله بعبده خيراً أشهده أن ماهو فيه نعمةٌ من نعمه عليه، ورضّاه به، وأوزعه شكره عليه. فإذا حدثته نفسُه بالانتقال عنه، استخار ربه استخارة جاهلٍ بمصلحته عاجزٍ عنها، مفوّضٍ إلى الله، طالبٍ منه حُسْنِ اختياره له.

وليس على العبد أضرّ من مَلَلِهِ لِنعم الله: فإنه لا يراها نعمةً، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يَسخطها، ويشكوها، ويَعدّها مصيبة، وهي من أعظم نعم الله عليه.

فاكثر الناس اعداءُ نِعَمِ الله عليهم، وهمْ مجتهدون في دفعها وردّها، جهلاً وظلماً. فكم سعتْ إلى احدهم نعمةٌ وهو ساعٍ في ردّها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعها وزوالها بظلمه وجهله. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾، فايس للنعم أعدى من نفس العبد، فهو مع عدوه ظهيرٌ على نفسه، فعدوّه يطرح النار عليه، وهو ينفخ فيها، فإذا اشتدّ ضِرامُها استغاث من الحريق، وعاتبَ الأقدار:

وعـاجـزُ الرأي مِـضـيـاعٌ لفُـرصـتـه

حـتـى إذا فـات أمـرٌ عـاتب القـدرا!!

ولا بأس من الاسـتطراد مـع ابن القـيـم في كـلامـه القـيم، إذ يُتـبـع حـديثـه بحديث مهمّ طريف لطيف شـريف عن مـعرفـة الرب سبحـانه بالجمـال. يقول رحمه الله:

من أعزّ أنواع المعرفة: معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواصٌ الخلق، وكُلهم عـرفـهُ بصـفـةٍ من صـفـاته، وأتمُّهم مـعـرفـةً من عـرفـه بكمـاله، وجلاله، وجماله، سبحانه وتعالى، (ليس كمثله شيء) في سائر صفاته..

ويكفي في جماله - عزّ وجلّ - أنّ كل جمالٍ ظاهرٍ وباطن في الأكوان كلّها، في الدنيا والآخرة هو من آثار صَنعته. فما الظنّ بمن صدر عنه هذا ؟؟. جلّ جلاله!

ومن أسـمـائه الحـسنى «الجـمـيل»، وفي الصـحـيح: «إن الله جـمـيل يحبّ الجمال». وجماله سبحانه وتعالى على أربع مراتب:

١-جمال الذات ٢- وجمال الصفات ٣- وجمال الأفعال ٤- وجمال الأسماء.

فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمةٌ، ومصلحةٌ، وعدل، ورحمة، «وإن لم تدركها عقول المخلوقين الموصوفة بكل صفات النقص».

أما جمال الذات فأمر لا يدركه سواه، ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرّف بها إلى مَن أكرمه من عباده.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حَجَبَ الذاتَ بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حُجب بأوصاف الكمال، وسُتر بنعوت العظمة والجلال؟!

ومن ههنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله، وأن أحداً من خلقه لا يُحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. وأنه يستحقّ أن يُعبد لذاته، ويُحبَّ لذاته، ويشكر لذاته، ولا يُحسِنَ على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو؟

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال» يدخل فيه بطريق العموم: الجمال من كل شيء، كما ورد في الصحيح: «إن الله طيّب لا يقبل إلا طيباً»، وفي السنن: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وفيها عن أبي الأحوص الجشمي رضي الله عنه قال: «رآني النبي صلى الله عليه وسلم وعليّ أطمار (أي: ثياب بالية)، فقال: هل لك من مال؟ قلت نعم قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشّاء، قال: فَلْتُرَ نعمتهُ وكرامتهُ عليك».

وهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، وهو من الجمال الظاهر، ويحب شكره عليها وهو من الجمال الباطن.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله.

ولكن ضلّ في هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا: كلّ ماخلقه جميل، فنحن نحبّ كلَّ ماخلقه، ولا نرى في الوجود قبيحاً. وقابلهم الفريق الثاني فقالوا: ذمّ الله سبحانه جمال الصور وتمام القامة والخلقة فقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾، وفي صحيح مسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وفصلُ النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يُحمد، ومنه ما يُذمّ، ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه ماكان لله، وأعان على طاعته، وتنفيذ أوامره، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمَّل للوفود. وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمَّنَ إعلاء كلمة الله، ونَصْرَ دينه، وغيظ عدوه. والمذموم منه ماكان للدنيا، والفخر والخيلاء، والتوسل الشهوات، وأما مالا يحمد ولا يُذم، فهو ماخلا عن هذين القصدين.

والمقصود: أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك. فيُعرف الله سبحانه بالجمال التي لايماثله فيها شيء، ويُعبد بالمال الذي يحبّه من الأقوال والأعمال والأخلاق. فيحب عبده أن يجمِّل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والتوكل والإنابة، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه: فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف عليه بالأفعال، والأقوال، والأخلاق الجميلة: فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه ويعبده بالجمال

الذي هو شرعه ودينه، وهكذا جمع الحديث الشريف قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

إننا - في عالم اليوم المحموم بالسرعة- لانجد الوقت للتأمل، ولا لكي (نقدح زناد الفكر) في أمور تستحق منا إمعان النظر فيها، والغوص إلى أعماقها لنصل إلى (اللؤلؤ المكنون)، بل نكتفي بالزبد وما يلقيه الموج على الشاطئ مما لا يسمن ولا يغني من جوع.

اللهم بصرنا باللباب، وأرنا الحق وانفعنا به، وأرنا الباطل وعافنا منه، إنك أكرم مسؤول.

٥٠

العبرة بالقيمة لا بالقامة

أصدر مركز البحوث والدراسات في دولة قطر بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع كتاباً قيّماً بعنوان «الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد» ضمَّ (٣٥) بحثاً لنخبة مختارة من الكتاب الإسلاميين، قاربت صفحاتُه (٧٥٠) صفحة، وقدم له معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أحمد بن عبد الله المرّي.

أول مقال في الكتاب للأستاذ الفاضل، المربّي الرباني، أبي الحسن الندوي، رحمه الله وأكرم مثواه، بعنوان: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. يقول (بتصرف):

كلما مرَّ بي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٣]، وقفت حائراً مشدوهاً أمام هذه الآية القرآنية.. أحار عند قراءة هذه الآية: ذلك أن الجاهلية كانت مخيمة على العالم كلّه، على البلاد المتمدنة والمتخلفة كما اتفق المؤرخون، وكانت الجاهلية هي بمثابة الديانة الوحيدة التي تؤمن وتعمل بها شعوب العالم كافة.

كان الجزء الكبير المتمدن المعمور خاضعاً للإمبراطورية الرومانية المسيحية، وللإمبراطورية الفارسية المجوسية الساسانية، ولوثنيات سافرة فاحشة عارية، ولأوهام وخرافات واضطهاد. وكان عدد هؤلاء كبيراً لأنهم يشكلون العالم كلّه تقريباً، وإن لم يكن هناك إحصاء علمي دقيق لعدد سكان العالم.

وكان مقابل ذلك المسلمون، حفنةٌ بشرية تملأ الكفّ إذا قيسوا بالعالم المتدن المعمور، المالك لأزمة الأمور، والموجّه للعالم كلّه كما يشاء. فقد صحّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإحصاء المسلمين في المدينة المنورة فكان الإحصاء الأخير لا يتجاوز ألفاً وخمسمئة!

أخرج الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسمئة رجل. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: لعله كان عند خروجهم إلى أحد أو غيرها. وقيل: عند حفر الخندق، وقيل لما كانوا بالحديبية (فتح الباري: ٢٠٦/٦)، والثابت أن سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر حين كان عدد المسلمين كما سبق.

إذن هؤلاء (الألف وخمسمئة) يُخاطبون في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فهم جبهة واحدة، و ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ خطاب لتلك القلة ليكونوا جبهة واحدة مقابلة، وهذه الجبهة إن لم تكن معسكراً واحداً، واتجاهاً سافراً واضحاً للدعوة إلى الله تعالى، والتوحيد الخالص، والدعوة إلى احترام الإنسانية والإخاء الإنساني، والأخوة البشرية، والدعوة إلى الإنصاف والمساواة، وخشية الله تبارك وتعالى، والعطف على الإنسانية، ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾!!

إن كل مهمة كبيرة تحتاج إلى أن يكون الذي يضطلع بها، والذي يقبل مسؤليتها صاحب كفاف، وكفاية، وقوة، فالعبرة بالقيمة لا بالقامة.. كان المسلمون صغاراً في القامة، ولكنهم كانوا كباراً في القيمة. وهذا المعيار يثبته التاريخ: إن القيمة تغلّبت دائماً على القامة، وهزمتها مهما كانت كبيرة شامخة. ولولا هذا

لما كان لهذا العالم المتمدن المعمور بقاء ولا كيان ولما بقيت هناك عقيدة صحيحة، ولا دين صحيح، ولا دعوة صحيحة ولا كرامة بشرية.

والعالم البشري الآن يعاني عللاً وأسقاماً، وموبقات وأخطاراً، لا يوجد لها نظير في كثير من القرون الماضية، والعالم الإسلامي نفسه يعاني أهوالاً ومحناً لم تخطر ببال، ولم تكن تسنح للخيال.

إنه يعاني مؤامرات ومعارضات تختلف في الأشكال ولكنها تلتقي على نقطة واحدة، وهي الأثر الإسلامي إبادة وإفقاد الثقة بصلاحية الإسلام للبقاء في هذا العهد الراقي المتطور. (أقول: وقد ساعد المسلمون أنفسُهم على إنجاح هذه المخططات)!!

وقد التقى في هذا المشروع المدمِّر والمخطَّط المبيدِ ذكاءُ إسرائيل (وبالأصح شطارة إسرائيل) مع وسائل الأعداء الآخرين وطاقاتهم. التقى هذان المنصران القويان المبيدان على محو الأثر الإسلامي في العالم الإسلامي، وفي الأقطار الإسلامية العريقة في الإيمان بالإسلام، والتضلّع بالدعوة الإسلامية ونشرها في العالم.

ثم هناك معركة أخرى حامية غير طبيعية وغير معقولة، وهي التي استنزفت جهود القادة والساسة، وولاة الأمور، والمفكرين في البلاد الإسلامية، وهي المعركة بين الشعوب والجماهير من جهة، وبين الحكومات من جهة أخرى..

إن هناك فراغاً ليس مثله فراغ، يمثل خطورةً ضد الإنسانية، وضد رحمة الله تبارك وتعالى بالإنسانية. وهو فراغ الدعوة العالمية، وفراغ الاعتماد على الله تبارك وتعالى بالنصر المبين، ثم على القوة الإيمانية، وقد شوهد وجُرّب مراراً وتكراراً في التاريخ الإنساني: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

ويمضي الشيخ أبو الحسن الندوي (الهندي) رحمه الله قائلاً: أنتهز هذه الفرصة لأقول لإخواني المسلمين والعرب: اجعلوا قوله تبارك وتعالى ﴿ إِلاَّ

﴿تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ نُصْبَ أعينكم، وإذا لم تقوموا بالدعوة الصحيحة، الصادقة. المخلصة، الراحمة، الرائفة بالإنسانية، فالعالم في خطر بما عنده من عتاد وأسلحة مادية ومعنوية وثقافية وإعلامية.

والعرب هم أحق بذلك، لأنهم هم الذين أكرمهم الله تبارك وتعالى بتوجيه الدعوة إليهم، وهم السادة والأساتذة والرعيل الأول في ميدان الدعوة.

انتهى كلامه رحمه الله بتصرف في النقل لا يخل بالمعنى إن شاء الله. وأقول تعليقاً:

إن الذين كفروا هم بشرٌ من البشر، يحارب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، والتاريخ زاخر بما يدل على هذه البدهية. والذين يظنون أن الذين كفروا لا همَّ لهم إلا المسلمين واهمون. وواهمون مثلُهم من يظنون أن المسلمين ليسوا همّاً للذين كفروا، وأنهم لا يتفقون ضدهم، ويوالي بعضهم بعضاً لحربهم عندما تدعو الحاجة لذلك. والتاريخ أيضاً والواقع زاخران بما يثبت هذه البدهية. لكنْ أي الفريقين أحق باللوم:

الكافرون الذين ينطبق عليهم القول: «ليس بعد الكفر ذنب»، ولا يُستغرب منهم، بل تُنتظر عداوتهم وأذاهم، أم المسلمون الذين يقرؤون القرآن الكريم والحديث الشريف ويعلمون أن التوحّد، وائتلاف القلوب، فرض عين، وأن أخوة الدين فوق كل رابطة، ومع ذلك: يؤذي بعضهم بعضاً، ويكفّر بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً؟! وصدق عمر أبو ريشة حين قال:

لا يُلام الذئب في عدوانه
إن يك الراعي عدوَّ الغنم

إنني على يقين - والله تعالى أعلم بالصواب - أن مشكلة المسلمين اليوم ذات أوجه متعددة: منها الجهل بكثير من الأمور التي يجب أن يكونوا عالمين فيها، ومنها عدم تطبيق كثير من الأمور التي يعلمونها ولكن لا يطبقونها، ولو طبقوها لكانت حالهم مختلفة تماماً. وبهذا يستحق المقتَ من يستحقّه: (لم تقولون مالا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)!!

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: «إن كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود، فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تناصروا، وتعاونوا على إيذائه ومحاربته.. إن الجنسية علّةُ الضمّ، وشبيهُ الشيءِ منجذبٌ إليه، والمشركون واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم، صارت هذه الجهة موجبةً لانضمام بعضهم إلى بعض، وقرب بعضهم من بعض، وذلك يدل على أنهم ما أقدموا على تلك العداوة لأجل دينهم، لأن كل واحد منهم كان في نهاية الإنكار لدين صاحبه، بل كان ذلك من أدل الدلائل على أن تلك العداوة لمحض الحسد والبغي والعناد. ثم إنه تعالى لما بيّن هذه الأحكام قال: ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾، والمعنى: إن لم تفعلوا ما أمرتكم به في هذه التفاصيل المتقدمة تحصل فتنة في الأرض، ومفسدة عظيمة. والتفاصيل هي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا... ﴾ هي إذن: ١- الإيمان ٢- الهجرة ٣- الجهاد بالمال ٤- الجهاد بالنفس ٥- الإيواء ٦- النصرة وهي عناصر الموالاة. والله تعالى أعلم؟.

٥١

واعَجباً، كيف صالحتَهُ وتَرَكْتَنا؟!

كثيراً ما أقرأ كلاماً أشمّ منه رائحة (التصوف) لأنه يشبه كلام بعض أئمة الصوفية المتقدمين، ثم أنظر إلى القائل فإذا هو من أئمة (السلفية) المشهورين!! ولا عليَّ، فالحكمة ضالة المؤمن، كما جاء في الحديث الشريف، وكل ما وافق الكتاب والسنة فهو على الرأس والعين، وكل ما خالفهما فهو مردود مرفوض.

أقدّم بهذه السطور القليلة لكلام نفيس كتبه الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله (المتوفى عام ٧٥١ هـ وعمره ستون سنة).

❖ يقول: «لو عرفتَ قَدْر نفسكَ عندنا ما أهنتَها بالمعاصي، إنما أبْعدْنا إبليس إذ لم يسجدْ لك، وأنتَ في صُلب أبيك. فواعجباً كيف صالحتَهُ وتركتَنا!»

عبارة عجيبة! يتخيّل الكلامَ مِنَ الله جلَّ جلالُه، للإنسان، وأنا أتوقّف في الحكم الشرعي على هذا، لكنّ الأسلوب الأدبيَّ، واللفتة الفكرية يهزّانِ القلب والعقل هزّاً. وقد كان ابن القيم رحمه الله من أرباب القلوب أيضاً.

تأمّلُ العبارة يغني عن التعليق عليها، ولا يمنع من تداعي الأفكار المتشابهة معها إليها.

إنّ (الله) العظيم الذي لا حدّ لعظمته، الجليل الذي لا حدّ لجلاله، الجميل الذي لا حدّ لجماله، وكماله.. وليقلِ العبدُ في الثناء، ما يشاء، بلا انتهاء، فوزْنُ

كلٌ ذلك هباءٌ، بالنسبة لذات الله العلية، وأسمائه القدسية وصفاته السَّنية.. هذا الرب الجليل يكرّم آدم عليه السلام وذرّيته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾. بعد هذا التكريم الضخم، كيف يرضى المكرَّم أنْ يَعصيَ من كرّمه؟! وكيف يرضى أن يُهين نفسَه بالمعصية؟!وكيف يرضى أن يسعى لعدوّه الأكبر، الذي لن يصادقه أبداً، ويستحيل ألا يعمل على إهلاكه، يسعى له ليرضيه ويصالحه؟! ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

❖ «يامَنْ هو من أرباب الخبرة، هل عرفت قيمة نفسك؟ إنما خلقتُ الأكوان كلَّها لك».

❖ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

❖ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

❖ « يا مَنْ غُذّي بلِبان البرّ، وقُلّب بأيدي الألطاف، كل الأشياء شجرة وأنت الثـمرة، وصورةٌ وأنت المعنى، وصَدَفٌ وأنت الدر، ومَخيضٌ وأنت الزُّبد ». والمخيض: هو اللبن الذي قد مُخِضَ، وأُخذ زبدهُ.

هذه العبارات العجيبة، وأمثالها، حلَّتْ إشكالاً كان عندي، وهو: كيف أكون معتزاً بنفسي واثقاً بها، وأنا مأمور بالتواضع؟ ما الفرق بين الغرور والكِبْر من ناحية، وبين الثقة بالنفس من ناحية أخرى؟ ما الفرق بين التواضع وبين الذل؟ وجوابي لنفسي:

أن يعرف الإنسان قدر نفسه، ومزاياها، ويحمدَ الله على ذلكَ، ويعلمَ أنّ الفضل في تحصيلها واكتسابها لله سبحانه، فهذا هو خُلُق محمود، والله أعلم، أما الكبر فأن ينسى نعمة الله عليه بها، ويزهو، ويقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ وأقول بصراحة: إن كثيراً من كتب (تزكية النفس)، فيما فهمتُه منها، تُعلِّم الخمول، والسلبية، والانسحاب من الحياة.

❖ «قَدْرُ السِّلعة يُعرفُ بقدْرِ مُشتريها، والثمنِ المبذول فيها، والمنادي عليها، فإذا كان المشتري عظيماً، والثمنُ خطيراً، والمنادي جليلاً كانت السلعة نفيسة»!

وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، فما أنفسَ هذه الأنفس! أنفسٌ هو - سبحانه - خلقها، وأموال هو رزقها، ثم اشتراها وهو مالكها... هو مالكها، ممن لا يملكها، بثمنٍ لا يتصور خيالُ المملوك مقدارَه فما أعظمَ كرمَ المشتري!! جَلَّ كرمُه.

❖ «سلِّم المبيع قبل أن يتلف في يدك، فلا يقبله المشتري؟ قد علم المشتري بعيب السِّلعة قبل أن يشتريَها، فسلِّمْها ولك الأمان من الردّ».

❖ «من لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا. تذكّر حلاوة الوصال يهُنْ عليك مُرُّ المجاهدة».

❖ «علَّمت كلبك، فهو يترك شهوتَه في تناول ما صاده احتراماً لنعمتك، وخوفاً من سطوتك، وكم علّمكَ معلمُ الشرع وانت لا تقبل!».

بعض هذه الحكم يحتاج إلى قدْح زناد الفكر ليُفهم، والمفهوم منها يحتاج إلى التكرار على فترات ليرسخ في النفس. ومن هنا: فالمادة المقروءة أنواع، أعلاها كلام الله سبحانه الذي ينبغي الدوام على قراءته مادامت الحياة، فهو لا يَبْلَى على كثرة الترديد (لا يخلَقُ على كثرة الردّ)، ويحتاج إلى التأمل فيه، والغوص

على معانيه، وبقدْر ما يُعطيه العبدُ يعطيه، ثم يحتاج - بعد ذلك - إلى أن تظهر آثاره على الجوارح، ويظهر في حياة الفرد والأمة واقعاً مشاهداً محسوساً.

وبعض ما يُقرأ لا يستحقُّ أن يُقرأ، وبين هاتين الدرجتين تتفاوتُ الأقدار. غير أن (اقرأ) تبقى خالدة أبد الدهر ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .. والفردُ الذي لا يقرأ، والأمة التي لا تقرأ يخالفان أول أمرٍ إلهي، في أوّل الوحي الخاتم على النبي الخاتم الذي كان أمياً لا يقرأ! فما أعظمها من مخالفة، وما أعظمها من خسارة!

يقول عباس محمود العقاد رحمه الله: « .. أهوى القراءة لأن عندي حياةً واحدةً في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرّك كلَّ ما في ضميري من بواعث الحركة، والقراءة- دون غيرها - تعطيني أكثر من حياة أحدة في مدى عُمُر الإنسان الواحد؛ لأنها تزيد هذه الحياةَ من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.

فكرتكَ أنتَ فكرة واحدة..

شعوركَ أنتَ شعور واحد..

خيالُك أنت خيال فردٍ إذا قصرته عليك..

ولكنك إذا لاقيتَ بفكرتك فكرةً أخرى، أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر، أولا قيت بخيالك خيال غيرك، فليس قُصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أنّ الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خيالين.. كلا، وإنما تُصبح الفكرة بهذا التلاقي مئاتٍ من الفِكر في القوة، والعمق، والامتداد.. ومهما يأكلِ الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من مَعِدة واحدة، ومهما يلبسْ فإنه لن يلبس على

غير جسدٍ واحدة، ومهما يتنقّل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحلّ في مكانين. ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمرٍ واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحبّ المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين متقابلتين!!.

٥٢

العقل والمرض: دروس مثيرة عن الشفاء الذاتي*

الدكتور بيرني سيجل، أستاذ الجراحة في كلية الطب بجامعة ييل في الولايات المتحدة، انتخب عام ١٩٨٨م رئيساً للجمعية الأمريكية للطب الشامل. تقوم فلسفته في العلاج على الإيمان، والأمل، والحب، وأثر العقل في الجسم، وهو مؤلف كتاب: «الحب، والطب ومعجزات الشفاء»، محور هذا المقال.

والمترجم أستاذ في الطب أيضاً دَرَسَ في بريطانيا، وبلجيكا، والولايات المتحدة، وله في الترجمة خبرة عريضة، وهو الدكتور عزّت عبد الرحمن شعلان.

إن رجل الطب الحديث اكتسب قدراً كبيراً من السيطرة على أمراض معينة بواسطة الأدوية، حتى إنه نسي القوة الكامنة داخل المريض.

إن العقل لا يعمل فقط من خلال خياراتنا الشعورية، وكثير من تأثيراته يتحقق في الجسم مباشرة دون أي وعيٍ منا، وكثيرٌ من العبارات التي يطلقها بعض الناس في حالات التوتر، أو الغضب، أو الحزن، أو الإحباط، لها أسوأ الأثر على صحتهم الجسمية والنفسية. فالجسم يستجيب لرسائل العقل، سواء كانت شعوريةً أم لا شعورية، وقد تكون هذه الرسائل رسائل حياة أو موت!!

إن المخ يتحكم في جهاز المناعة.

(*) سبق الحديث عن هذا الموضوع في مقال سابق.

وهناك دليل تجريبي عندنا على أن (الأحاسيس السلبية)، كالحزن، ومشاعر الإخفاق، والغضب تزيد من إفراز الهرمونات التي تضعف جهاز المناعة في جسم الإنسان.

ونحن لا نعرف حتى الآن كل الوسائل التي ترتبط بواسطتها كيمياويات المخ بالأحاسيس والأفكار، ولكن النقطة البارزة التي نعرفها: هي أن حالتنا العقلية لها تأثير فوري مباشر على حالتنا الجسمية، ونحن نستطيع أن نغير الجسم إذا غيّرنا مشاعرنا.

يقول الدكتور بيرني سيجل: «إنني أستخدم وسيلتين رئيسيتين لتغيير الجسم: الأحاسيس والتخيلات، وهاتان هما الوسيلتان اللتان نستطيع بهما أن نجعل عقولنا وأجسامنا على اتصال فيما بينها.

«إن أحاسيسنا وكلماتنا تجعل الجسم يعرف ما نتوقعه منه، وحين نتخيل تغيّرات معينة فإننا نستطيع مساعدة الجسم على القيام بتوقعاتنا، ومن الواضح أن الأحاسيس والتخيلات كلّها تنتقل من خلال الجهاز العصبي.

«لماذا تضمُرُ الأورام أحياناً حين يقتنع المرضى أن علاجاً غير تقليدي كالتنويم المغناطيسي، أو الغذاء، أو الصلاة، أو التأمل سوف ينجح. إن تأثير (الدواء الوهمي)، وهو حبوب خالية من أي مادة فعّالة يقتنع المريض أنها دواء ممتاز جداً، هذا التأثير ليس حقيقياً فقط، ولكنه ذو أهمية كبرى! وقد تكون وسائل المريض ذاته أشدّ فعالية بكثير مما يظنّ.

إن المريض الذي لم يُكتشفْ بعدُ علاجٌ لمرضه، لا حاجة به إلى الانتظار بلا حول ولا قوة، ويشاركه في هذا المريض الذي وَجَدَ لمرضه علاجاً يستعمله، إن هؤلاء المرضى في مقدورهم تعلم شفاء أنفسهم- بإذن الله- والوصول إلى حالة

صحية طيبة. «ولو أنني استطعتُ تعليمك كيف ترضى عن حياتك، وتحبّ نفسك والآخرين، وتحقق راحة البال، لأمكن أن تُحدث التغييرات اللازمة ». وأُضيف إلى ما قاله: فإذا كان المريض مسلماً، وأضاف إلى ذلك: الدعاء الصادق مع التذلل بين يدي الله، والرقية الشرعية التي صحّت بها الأحاديث النبوية، والاستشفاء بالقرآن، وماءِ زمزم، لتضاعف الأمل بالشفاء بإذن الله.

إن أوسع الأساليب استخداماً، وأنجحها من بين الأساليب النفسيّة العديدة المطبقة على المرض الجسمي هو أسلوب يُسمًى (التصوّر أو التخيّل)، وهو يحتاج قبله إلى الاسترخاء في مكان هادئ.

ليس المراد بالاسترخاء الجلوسَ بكسلٍ أمام جهاز التلفاز، أو قضاء سهرة أُنس مع عدد من الأهل والأصدقاء. المراد بالاسترخاء هو تهدئة النشاط العقلي، وانسحاب الجسم والعقل من التنبيه الخارجي، وهي طريقةٌ لإبعاد الهموم والأشغال الدنيوية، استعداداً للاتصال بالطبقات الأعمق من العقل. والهدف أن نصل إلى حالة تشبه (الغيبوبة) الخفيفة تسمى أحياناً (حالة ألْفا)، لأن موجات المخ فيها تحتوي بصفة رئيسة على موجات (أ)، التي يكون ترددها بين (٨) إلى (١٢) دورة في الثانية، والتي تظهر خلال الاسترخاء العميق. وإثارة هذه الحالة هو أول خطوة في التنويم المغناطيسي، والاسترجاع الحيوي، وتأمل اليوغا، وأغلب الصور المتعلّقة باستكشاف العقل.

والاسترخاء صعب في البداية على كثير من الناس، لكن بعد عدة محاولات يصبح سهلاً. وهو المرحلة التي تسبق التأمل ويُعِدُّ له، فهو طريقة لتركيز العقل في حالة من الوعي المسترخي على أشياء نريد الاهتمام بها، كالشفاء على سبيل المثال.

وهناك عدة طرق للوصول إلى حالة الاسترخاء منها تركيز الانتباه على كلمة أو جملة قصيرة. واقترحُ أنا - مثلاً -: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ - ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾.. ويركّز آخرون على حركات الشهيق والزفير المسترخية في التنفس. أو كبح العقل بلطف عن متابعة الأفكار التي تومض على سطحه. وخاتمة الطرق جميعاً في النهاية واحدة: فراغ مريح عميق، أو غيبوبة خفيفة تقوّي العقل بتحريره من شواغله، أو همومه المعهودة.

لقد تمّ توثيق الفوائد البدنية للتأمل بواسطة الباحثين الطبّيين الغربيين، الذين وجدوا أن التأمل يخفض ضغط الدم ويعيده إلى المستوى الطبيعي، ويخفض معدل النبض، وينتج تغييرات في أنماط موجات المخ تظهر قابلية أقل للانفعال والغضب، ويقلل احتمال الإصابة بالنوبات القلبية. وتتضاعف فوائده عندما يضاف إلى التدريبات الرياضية المنتظمة، واتباع نظام غذاء صحيّ صحيح. وهو- بإيجاز- يحافظ على صحة الجسم والعقل معاً، ويحسّن من نوعية حياة الإنسان، بإذن الله تعالى. وقد دلت أبحاث أجراها مؤسس معهد كونداليني للبحوث في بوسطن أن تدريبات اليوغا المنتظمة، والتأمل زادت مستويات ثلاثة هرمونات مهمة في تقوية جهاز المناعة في الدم بنسبة مئة في المئة!!

ومن الطريف أن البحوث في أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفييتي السابق تشير إلى أن الرياضيين الذي ينفقون ثلاثة أرباع وقتهم في التدريب العقلي التخيلي على رياضتهم، والربع الباقي في الملعب، يكون أداؤهم أفضل من الذين يقضون الوقت كلّه في الملعب، في التدريب البدني، بدون أي تدريب عقلي، تخيلي، إيحائي!!

أجرى الدكتور كينيث بيليته دراسة نفسية على كثير من المرضى الذين منّ الله عليهم بالشفاء بعد أن يئس الأطباء من شفائهم، فوجد هناك خمس خصائص مشتركة بينهم جميعاً:

١- تغيرات هائلة داخل نفوسهم وعقولهم عن طريق التأمل، والصلاة، والدعاء.

٢- تغيرات هائلة في علاقاتهم مع الآخرين، فازدادوا لهم حباً، وتقبّلاً.

٣- تغيرات جذرية في العادات الغذائية، إذ صاروا يختارون الطعام الصحّي الأمثل.

٤- الإحساس العميق بالجانب الروحي في الحياة، وعدم المبالغة في إعطاء القيمة للجوانب المادية.

٥- الشعور بأن شفاءهم كان - بالإضافة إلى أنه منحة إلهية- نتيجة لكفاح شاقٍ طويل انتصروا في نهايته. (وهذا ما نعبر عنه نحن المسلمين بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله).

وبعد: فإن هذا الموضوع وثيق الصلة بزناد الفكر، وماجاء في هذا المقال الماحاتٌ لا تغني، ولا تسمن من جوع، والكتاب جدير بالقراءة هو وأمثاله، لأننا نحن المسلمين في شرقنا المسكين أصابتنا كثير من أمراض الغرب وسلبياته، وأخذنا القليل من إيجابياته. والله تعالى أعلم.

٥٣

هل أدفع زكاة فطري نقداً؟!

«تحقيق الآمال في إخراج زكاة الفطر بالمال». كتابٌ جيدٌ في موضوعه، مؤلّفه عالمٌ محدّث حافظ من علماء المغرب، هو أبو الفيض، أحمد بن محمد ابن الصدّيق الغُماري الحسني المتوفي عام ١٣٨٠هـ في القاهرة. بلغت مصنّفاته أكثر من (٢٠٠)، اكثرها في الحديث الشريف، يسير فيها على طريقة الأولين، ولا يقلد أحداً.

طبع الكتاب أول مرة في تطوان عام ١٣٦٢هـ، وطبع محققاً عام ١٤٠٩هـ بعناية وتحقيق الأستاذ نظام بن محمد صالح يعقوبي. والكتاب - كما يدل عليه عنوانه - يأتي بالأدلة (النقلية والعقلية) على جواز إعطاء صدقة الفطر نقوداً. ومن أهم أدلته قول المؤلف رحمه الله:

وأما إخراج المال فهو قول جماعة من الصحابة والتابعين منهم: الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز رحمهما الله. وهو مذهب الثوري، وأبي حنيفة، وأبى يوسف رحمهم الله. واختاره من الحنفية الفقيه أبو جعفر الطحاوي، وبه العمل والفتوى عندهم في كل زكاة، وفي الكفارات، والنذر والخراج وغيرها. وهو مذهب الإمام الناصر، والمؤيد بالله، من أئمة أهل البيت الزيدية. وبه قال إسحاق بنُ راهويه، وأبو ثور، إلا أنهما قيدا ذلك بالضرورة، كما هو مذهب بقية أهل البيت.

أخرج الإمام ابن أبي شيبة رحمه الله في المصنف (١٧٤/٣) عن ابن عون

قال: سمعت كتاب عمرَ بنِ عبد العزيز إلى عديٍّ بالبصرة: «يؤخذ من أهل الديوان من أعطياتهم، عن كل إنسان، نصف درهم»، يعني زكاة الفطر.

كما أخرج - رحمه الله - أن التابعي الجليل أبا إسحاق، عمرو بن عبد الله، شيخَ الكوفة، وعالمها، ومحدثها، الذي ولد في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: «ادركتهم - يعني الصحابة - وهم يُعطون في صدقة الفطر الدراهم بقيمة الطعام».

ثم يستعرض المؤلف عدداً كبيراً من الأدلة، منها:

إنّ أخْذَ القيمة في الزكاة ثابتٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة في عصره وبعد عصره.

قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: (باب العروض في الزكاة): «... قال معاذٌ رضي الله عنه لأهل اليمن: ائتوني بِعَرْضٍ، ثيابٍ، خميصٍ أو لبيسٍ، في الصدقة، مكان الشعير والذّرة، أهونُ عليكم، وخير لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة». والعَرض: المراد به ما عدا النقدين. كما قال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (٣/٣١٢). ثم قال: قال ابن رُشَيْد: وافق البخاري في هذه المسألة الحنفيةَ، مع كثرة مخالفته لهم، لكن قاده إلى ذلك الدليل.

ومعلومٌ أن مُعاذاً كان يرسل ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قبل ذلك وأقره عليه، مع أنه صلى الله عليه وسلم لما وجّهَهُ إلى اليمن قال له: «خُذِ الحبَّ من الحبِّ، والشاة من الغنم، والبعير من الإبل، والبقرةَ من البقر» كما رواه البيهقي في السنن الكبرى (٤/١١٢). ومع هذا التعيين الصريح قال معاذ رضي الله عنه للناس: ائتوني بثياب بدل الشعير والذرة؛ لعلمه أن المرادَ سدٌّ حاجة الفقراء، لاخصوص هذه الأعيان، ولذلك قال: «فإنه أهون عليكم، وخير

لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ». وأقرّه النبي صلى الله عليه وسلم، على ذلك. ولو كان خلاف الشرع المفترض لما أقرّه، ولأمره بردّ ذلك إلى أهله، ونهاه عنه، كما وقع في غيره.

واستدل البخاري رحمه الله أيضاً على جواز أخذ القيمة بما رواه... «ومن بلغت صدقتُه بنتَ مخاضٍ وليست عنده، وعنده بنتُ لَبُونٍ، فإنها تُقبل منه ويُعطيه المُصَدِّقُ عشرين درهما..» (فتح الباري: ٣/٣١٢).

واستدل البخاري أيضاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم للنساء يوم عيد الفطر، كما ورد مصرّحاً به في مسند الإمام أحمد: «تصدّقن ولو من حُلِيِّكُنَّ»، فجعلت المرأة تلقي الخُرْص (الحلَق)، والخاتم، والشيء. قال البخاري رحمه الله: فلم يستثنِ صدقة الفرض من غيرها.

قال الإمام بدر الدين العيني في شرحه لصحيح البخاري (٩/٨/)، : «واعلم أن دفع القيمة في الزكاة جائز عندنا، وكذا في الكفارة، وصدقة الفطر.. وهو قول عمر، وابنه عبد الله، وابن مسعود، وابن عباس، ومعاذ، رضي الله عنهم. وقال الإمام سفيان الثوري: يجوز إخراج العروض في الزكاة إذا كانت بقيمتها. وهو مذهب البخاري، وإحدى الروايتين عن احمد. وقال الطرطوشي: هذا قول بيّن في جواز إخراج القيم في الزكاة. قال: وأجمع أصحابنا على أنه لو أعطى فضةً عن ذهب أجزأه...»

قال الغُماري رحمه الله: وإذا ثبت ذلك في الزكاة، فهي شاملةٌ لزكاة الفطر، إذ لا فارق أصلاً، والقيمة كما تكون عَرْضاً (أي: سلعةً) تكون نقداً، بل هو الأصل فيها. ثم قال: إذا ثبت جوازُ أخذِ القيمة في الزكاة المفروضة في الأعيان فجوازها في الزكاة المفروضة على الرقاب من باب أولى.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسميتُها زكاة الرؤوس كما رواه الطبراني في المعجم الكبير، والمعجم الأوسط (٣/٨٧ برقم ٢١٧٤). ولما كان الحال كذلك اقتضت حكمة الشرع البالغة أمْرَ الناس إخراج الطعام... وذلك لأن النقود كانت نادرة الوجود في تلك الأزمان ببلاد العرب، لاسيّما البوادي منها، وخصوصاً لدى الفقراء. فلو أمر بإعطاء النقود في الزكاة المفروضة على الرؤوس لتعذر إخراجها على الفقراء بالكليّة، ولتعسَّر أيضاً على كثير من الأغنياء الذي كان غناهم بالمواشي، والطعام... أما الطعام فإنه متيسّر للجميع، ولا يخلو من منزل، إلا من بلغ الفقر به منتهاه.

ومن الأدلة الشبه قاطعة على اعتبار القيمة (أي: الثمن) أن النبي صلى الله عليه وسلم غايَرَ بين القدر الواجب من الأعيان المنصوص عليها، مع تساويها في كفاية الحاجة وسدّ الخَلّة: فأوجب من التمر والشعير صاعاً، ومن البُر نصف صاع، وذلك لكونه اغلى ثمناً، لقلّته بالمدينة في عصره، ولو كان المعتبر العين دون القيمة لسوّى بينها في المقدار.

هذه بعض المقتطفات من الكتاب الذي تقارب صفحاته المئة، أورد فيه المؤلف عشرات الأدلة على صحة رأيه، وردٌ على المخالفين له، فمن اقتنع بكلامه، قلّد إن كان من أهل التقليد، ونظر إن كان من أهل النظر، ومن لم يقتنع، فـ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فكيف يكره الإنسانُ آخرَ على الأخذ برأيه، بل كيف يقول له: إن ما تعبد الله به باطل، أو لا يجزئ، وهو في كل ذلك إما مقلّدٌ لإمام من أئمة الهدى أو ناظرٌ في الأدلة متّبعٌ للصواب الذي تبيّن له، وهو في (أسوأ الحالات) اجتهد، فأخطأ، فله أجر.

ونأتي الآن إلى «فقه الخلاف»: هل يجوز- مثلاً- للحنفي أن يقول للشافعي الذي يقرأ الفاتحة خلف الإمام: إن قراءته مكروهةٌ تحريماً في الصلاتين السرية

والجهرية، لأنهم رووا من عدة طرق قوله صلى الله عليه وسلم: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، ولأنهم نقلوا عن ثمانين من الصحابة رضي الله عنهم أن قراءة المأموم خلف إمامه مفسدة للصلاة، أو مكروهة تحريماً؟!! (ونحن هنا لا نناقش أدلتهم، بل ننقل عن كتبهم المعتمدة). وبالمقابل: هل يجوز للشافعي الذي يرى أن قراءة الفاتحة خلف الإمام فرض أن يقول للحنفي الذي لا يقرؤها: إن صلاته باطلة؟!!

ننهي هذا المقال اليوم ببعض النقول التي وردت في مقالة سابقة:

قال الإمام السيوطي رحمه الله، في رسالته: «جزيل المواهب في اختلاف المذاهب» «وقع اختلافٌ في الفروع بين الصحابة رضي الله عنهم، خيرِ الأمة فما خاصم أحدٌ منهم أحداً، ولا عادى أحد أحداً، ولا نسب أحدٌ أحداً إلى خطأ أو قصور».

وقال الإمام ابن قدامة الحنبلي في كتابه (المغني): «إن الله برحمته وطَوْله... جعل سلف هذه الأمة أئمةً من الأعلام، مهّد بهم قواعد الإسلام، وأوضح بهم مشكلات الأحكام، اتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة».

وقال الإمام الجليل سفيان الثوري رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يعمل الذي اختُلِفَ فيه، وأنت ترى غيرَه، فلا تَنْهَهُ».

وقال إمام السنة الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله عند حديثه عن الإمام الجليل إسحاق بن راهويه: «لم يعبر الجسر إلى خُراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلّما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا، لم يبق بين المسلمين عصمةٌ، ولا أخوّة».

٥٤

العقّاد عبقريٌ.. لا شكَّ عندي!!

قلت: العقـاد عبـقريٌ، ولم أقل: عظيم! فـالعظمـة أكبـر من العبـقرية -كمـا تعلمت منه - رحـمـه الله، إلاّ إذا قـيّـدنا فـقلنا: شـاعـر عظيم، وكـاتب عظيم، ومخترع عظيم، وفيزيائي عظيم...

وكُتُب العقاد التي ألّفها زادت على المئة: في كثير منها دلائل العبقرية، وفي تنوعها دليل آخر على العبقرية.

وعبقرية العقاد عندي تقوم على أركان عدة أهمّها - فيما يحضرني الآن وأنا أرتجل كتابة هذا المقال -: ١- خصائصه النفسية ٢- وعقلُه البالغ القوة ٣- وسعة اطلاعه وتنوعه.

والعقاد- رحمه الله- ليس مصلحاً اجتماعياً، ولا مربياً روحياً يُقتدى به، ولا عالماً شرعياً طويل الباع في الكتاب والسُّنة والفقه والأصول، وعليه في سلوكه ملاحظات يُسكت عنها بعد رحيله إلى دار البقاء؛ فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا». وعند أبي داود، والترمذي، والطبراني، والحاكم عن ابن عمر رَفَعه: «اذكروا محاسن موتاكم، وكفّوا عن مساويهم» قال الترمذي: غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، وفي كتبه مالا أرضاه أنا، وما لا يرضاه غيري، ومع ذلك أقول: العقاد عبقري، وقارئ كتبه يتعلم منها: العقل، والعلم، وكثيراً من الصفات النفسية الحميدة التي حثّ عليها الإسلام. إنه مدرسة

فذّة!! فهل أنا مبالغ في حبه والإعجاب به تبقى بعد كلّ ماقلت؟! إذن دعني اقل للمتوهمين: إني احبّ كل حسنات العقاد ومزاياه وأدعو الله له عليها، وأكره كل أخطائه وعيوبه، وأستغفر الله له عليها! فهل انصفتُ؟!!

ثم إن أكثر كتب العقاد كالأشجار الدائمة الخضرة، ليست كتباً مرتبطة بمرحلة زمنية معينة تنقضي مدتها بانقضاء تلك المرحلة، بل تتجدد استفادة قارئها على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وأقرب مثال على ذلك كتبه عن عظماء الصحابة، رضي الله عنهم وأرضاهم.

استطردت قليلاً في هذه المقدمة، وأنا أريد أن أقدم للقارئ، العقاد (كما هو)، لا العقاد (كما أراه)، إذ قد أكون مخطئاً في رؤيتي بالكلية!!

● قال العقاد رحمه الله: «أؤمن بالله.. أؤمن بالله: وراثةً، وشعوراً، وبعد تفكير طويل.

... أما الإيمان بعد تفكير طويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقوله الماديون، وما من مذهب اطّلعتُ عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي إلى توفيق، أو يلجئه إلى زعم لا يقوم عليه دليل، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير، فضلاً عن تصديق العقائد الدينية، وتصديق الرسل والدعاة...».

● وقال: «أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني... والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.

فكرتك أنت فكرة واحدة

شعورك أنت شعور واحد

خيالك أنت خيال فردٍ إذا قصرتَه عليك

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى، أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر، أولاقيت بخيالك خيال غيرك، فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أن الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خيالين.. كلا، وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئاتٍ من الفكر في القوة، والعمق، والامتداد.

«ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسدٍ واحد، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحلّ في مكانين. ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين ».

❖ وعند حديثه عن أسباب النجاح في الحياة يلخصها في عواملها الغالبة التي لا يكاد يخلو منها نجاح:

١- الاهتداء إلى استعداد الفطرة، يعني أن يعرف الإنسان منطقة التفوق عنده.

٢- أن يُعنى العامل بالعمل لذاته، لا للنتيجة التي يترقبها من ورائه، سواء كانت ربحاً من المادة، أو شهرة على الألسنة، أو وجاهة في المجتمع والتاريخ. أي: صدق الرغبة في تحقيق ذلك الاستعداد.

٣- الثقة بالنفس، أمام الموانع والعقبات، والاستخفاف بإنكار المنكرين عن جهل، أو حسد، أو تباين في الرأي والأخلاق.

❖ وكتب تحت عنوان: «تعلمت من أوقات الفراغ »:

«أوقات العمل تملكنا، ولكننا نحن الذين نملك أوقات الفراغ ونتصرف فيها كما نريد، فهي من أجل هذا ميزان قدرتنا على التصرف، وميزان معرفتنا بقيمة الوقت كله وليست قيمة الوقت إلا قيمة الحياة.

«فالذي يعرف قيمة وقته يعرف قيمة حياته، ويستحق أن يحيا، وأن يملك هذه الثروة التي لا تساويها ثروة الذهب، لأن مالك وقته يملك كل شيء، ويصبح في حياته سيد الأحرار.

«إن أفرغ الناس هو الذي لا يستطيع أن يملأ ساعات فراغه، وعندنا في الشرق كثيرون، بل كثيرون جداً من هؤلاء الفارغين».

❖ ويتحدث العقاد رحمه الله عن فلسفته في الحياة فيقول:

«لم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال، إن لم يكن أهلاً للتعظيم بغير مال. ولم أشعر قط بصغري إلى جانب كبير من كبراء الثراء، بل شعرت كثيراً بصغرهم حيث يستحقون التصغير. ومن هنا كنت قليل المبالاة بالمقتنيات المادية، لأن احتواءها لا يُعظِّمُ من يحتويها في نظري، ونقصُها عندي لا يصغِّرني بالنسبة إليه.

«أما فلسفتي في الحياة مع الناس فأثر التجربة والدرس فيها أغلب من أثر الطبيعة الموروثة:

«كنت أتعب في معاملتهم، ثم عرفتُ ما أنتظره منهم، فأرحت نفسي من التعب، واتخذت لنفسي شعاراً معهم، ألا تنتظر منهم كثيراً. ولا تطمع منهم في كثير».

❖ كتب الأستاذ طاهر الطناحي - الذي كان رئيس تحرير مجلة الهلال-

مقدمةً لكتاب: (أنا)، الذي يضمّ (٤٠) مقالاً كتبها العقاد رحمه الله عن نفسه، ونُشرت له في مجلة الهلال وغيرها، ثم جمعت في هذا الكتاب.. كتب قائلاً:

«كتابة العقاد عن نفسه كتابة لها طابع جديد في كتابة التراجم. كتابة ليست شخصية بحتة، ولا سرداً لأحداث مرت به، أو عاش فيها، فحسب، بل هي كتابة باحث عالم، وفنان نابغ، تعوّد النظر في مسائل العلم، وقضايا الفن والفكر، وجال في شؤون الفلسفة وعلم النفس والأدب، والتربية والاجتماع، وتمرّس بتجارب الحياة، ومارس حلوها ومرها، وخرج منها بخبرة العالِم، وعبرة المفكر، وحكمة الفيلسوف.

«وحياة العقاد حياة ضخمة لا يجمعها كتاب واحد. فإذا كنتُ أقدم للقراء في كتاب (أنا) حياته النفسية والشخصية، أو «العقاد الإنسان»، فسيبقى بعد ذلك أمام المؤلفين والباحثين: «العقاد الكاتب»، و «العقاد الشاعر» و «العقاد السياسي» و «العقاد اللغوي» و«العقاد الصحفي» و«العقاد الناقد». و «العقاد الفيلسوف». فقد كان بحراً في اطّلاعه وإنتاجه، وكان فذاً في مواهبه وعبقريته».

❖ كتب يقول: «الكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية (المعرفة)، وهي النوافذ التي تطل على حقائق الحياة. ولا تغني النوافذ عن النظر!

ومن جهة أخرى فإن الكتب طعام الفكر. وتوجد أطعمة لكل فكر، كما توجد أطعمة لكل بنية. ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام، وكذلك الإدراك القوي الذي يستطيع أن يجد غذاء فكرياً في كل موضوع».

وبعد؛ فمن الذي يقرأ ما أكتب في هذه الزاوية؟! وكم نسبة الذين يقرؤون في عالمنا العربي والإسلامي؟؟ وكم عدد الذين يزهقون أوقاتهم أمام الشاشة الصغيرة؟! وكم عدد الذين (يُحسنون) الاستفادة من الحاسب الآلي، ومن الشبكة العالمية (الإنترنت). ولا يسيئون استخدامهما، فهما ركن ركين من أركان المدينة الحديثة لا غنى عنه، لكن أضرارهما الجانبية قاتلة، وقدتكون فائدتهما صفراً!!

أسئلة حائرة لا تنتظر الجواب!!

٥٥

لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟

عندما ضاعت فلسطين من المسلمين نتيجة: الجهل، والعجز، والتفريط، والخيانة، عام ١٩٤٨م كان عمري إذّاك بضع سنين، وفتحت عيني على الدنيا، ووالدي - رحمه الله - يَقْنُتُ في صلاة الفجر ويدعو: «اللهم رُدَّ فلسطين إلينا رداً جميلاً»، وخطباءُ الجمعة، وأئمةُ المساجد، والصائمون عند فطرهم، والمعتكفون في اعتكافهم، والحجّاج في عرفة، والصالحون في أوقات الإجابة، واليتامى، والثكالى، وغير هؤلاء، يدعون ويدعون... أكثرَ من نصف قرن، والله سبحانه لا يستجيب بل الأمور تزداد سوءً، والأمة تزداد انحداراً!!

فما سبب ذلك؟؟

موانع استجابة الدعاء عديدة، سنشير إلى بعضها في هذا المقال، ولكني أبادر فأقول: إن الدعاء المخالف للأسباب التي جعلها الله سبحانه مُوصِلةً إلى نتائجها هو من أهم هذه الموانع.

ونزيد الأمر وضوحاً فنقول: لو تعطّلتْ سيارتي آخذها إلى الورشة وأدعو أن ييّسر الله إصلاحها، لا أتركها، وأتوضأ وأصلي ركعتي الحاجة وأدعو أن يصلحها الله! يعني: آخذ بالأسباب المناسبة.

ولو وضعتُ على فرنِ الغاز قِدْر الطعام، ثم اكتشفتُ أن أُسطوانةَ الغازِ فارغةٌ، فلن ينفعني دعاءُ مئةِ رجل صالح أنْ يَنْضَجَ الطعامُ مالم أضعْ أسطوانةً ملأى بالغاز، وأوقد النار.

وهكذا: نحن ندعو للمسلمين في أفغانستان، وفي الشيشان، وفي فلسطين، وفي الجزائر، وفي كشمير، وفي كل مكان.. ولكن هل أخذنا بأسباب النصر؟

- الله تعالى يقول: «﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ونحن لا ننصر الله تعالى، بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، لذا ينبغي ألا نتوقع منه النصر.

- والله تعالى يقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ويقول عن الذين يحبُّهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ونحن - في أغلب أحوالنا اليوم -: رحماءُ بالكفار، أشداء فيما بيننا، أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنين!!

- إن للدعاء - حتى يستجاب - شروطاً. وآداباً. ومن الشروط أن يكون مَطعَمُ الإنسان حلالاً، ورزقه حلالاً. فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم «الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء، ويقول: يا ربّ، ياربّ، ومطعمه من حرام، ومشربه من حرام، وملبسه من حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب له؟!» رواه مسلم والترمذي، فأين تحرّينا جميعاً للحلال في كل هذا؟ ومن قرأ سِيرَ بعض أهل (الورع)، صغرتْ عنده نفسُه!!

وقد تحدث الإمام أبو الفرج بن الجوزي في كتابه الممتع النافع «صيد الخاطر» في عدة مواضع عن الدعاء، وعن تأخر الإجابة. ومن المناسب أن نختار بعض ما قال رحمه الله، وإن كانت صلته بالفكرة التي أريد الحديث عنها ليست قوية جداً. قال:

«تأملت حالةً عجيبة، وهي أن المؤمن تنزل به النازلة فيدعو، ويبالغ، فلا يرى أثراً للإجابة، فإذا قارب اليأس نظر حينئذ إلى قلبه: فإن كان راضياً

بالأقدار، غيرَ قنوطٍ من فضل الله عزّ وجل، فالغالبُ تعجيلُ الإجابة حينئذ..
وقد أُشيرَ إلى هذا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. وكذلك جرى ليعقوبَ عليه السلام، فإنه لما فقد ولداً، وطال الأمر عليه لم ييأسْ من الفرج. فأُخِذَ ولدُه الآخر، ولم ينقطعْ أملُه من فضل ربه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾. وكذلك قال زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، أي: عودتَني على الإجابة. فإياكَ - أيها المسلم- أن تستطيل مدة الإجابة، وكن ناظراً إلى أنه تعالى هو المالك، وأنه الحكيم في التدبير، العالم بالمصالح، وإلى أنه يريد اختبارك ليبلوَ أسرارك، وإلى أنه يريد أن يرى تضرّعك، وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك.. إلى غير ذلك. وإلى أنه يريد أن يبتليك بالتأخير لتحارب وسوسة إبليس، وكلُّ واحدةٍ من هذه الأشياء تقوّي الظنَّ في فضله، وتوجب الشكر له إذ أهّلك بالبلاء للالتفات إلى سؤاله، والفقرُ الملجئُ إليه غِنىً كله.

وقال في موضع آخر: «نزلتْ بي شدة، وأكثرتُ من الدعاء أطلب الفرج والراحة، وتأخرت الإجابة فانزعجت النفس قلقت، فَصحْتُ بها: ويلك، تأملي أمرك، أمملوكةٌ أنتِ أم مالكة؟ أمدبَّرةٌ أنتِ أم مُدبِّرة؟ أما علمتِ أن الدنيا دارُ ابتلاء واختبار. فإذا طلبتِ أغراضك، ولم تصبري على ما ينافي مرادَك فأين الابتلاء؟ وهل الابتلاء إلا الإعراض، وعكس المقاصد؟ فافهمي معنى التكليف، وقد هان عليك ما عزْ. وسهُل ماستصعب.

«إنكِ تطالبين الله بأغراضكِ، ولا تقضين حقَّه عليك، وهذاعَيْنُ الجهل، والمملوك العاقل يُطالب نفسه بأداء حقّ المالك، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى. لقد استبطأتِ الإجابة وقد سددتِ طريقها بالمعاصي، فلو فتحتِ الطريق أسرعتْ. وكذلك أنتِ تطلبين مالا تعلمين عاقبتَهُ، وربما كان فيه

ضررك، فمثلك كَمَثَل طفل محموم يطلب الحلوى، والمدبِّرُ لكِ أعلم بالمصالح: ﴿ وَعَسَىٰ أن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

وقال رحمه الله في موضع آخر: «ينبغي لمن وقع في شدة ثمّ دعا أن لا يختلج في قلبه أمرٌ من تأخير الإجابة، لأنّ واجبه أن يدعوَ ربَّه. وقد دعا، والمدعو مالك حكيم، فإن لم يُجبْ فَعَلَ ما يشاء في مُلْكه، وإن أخّر فعل بمقتضى حكمته. وفي الحديث: (ما من مسلم دعا الله إلا أجابه، فإما أن يعجِّلها، وإما أن يؤخرها، وإما أن يدخرها له في الآخرة)، فإذا رأى- يومَ القيامة - أنّ ما أُجيب فيه ذهب، ومالم يُجَبْ فيه. بقي ثوابُه، قال ليتكَ لم تجبْ لي دعوةٌ قطّ!! فافهمْ هذه الأشياء، حتى يسلمَ قلبُك من أن يختلج فيه رَيْبٌ أو استعجال ».

إنني أعتقد- والله تعالى أعلم- أن من أهم أسباب تخلّفنا- نحن المسلمين- عدمَ فهمنا قانونَ السببية، والازدواجية المتناقضةَ في تطبيقه، وخلْطَنا بين التوكل والتواكل؛ فالأول أخذٌ بالأسباب، وبذلٌ للجهد، واستعانةُ العقل والقلب بالله، والثاني كسلٌ بلا عمل، وإحالةُ الأمور على الأقدار. ومالم نصحِّحْ هذا التصور الخاطئ فمن العسير أن يتغيّر واقعنا، وهذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة - حسب فهمي-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

والله تعالى أعلم.

٥٦

«عبرة لأولي الألباب»

لم يقصَّ علينا القرآن الكريم القصص عبثاً، ولم يعرض قصص الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام بأسلوبه الفريد المميّز المعجز إلا لحكمٍ باهرة: بعضها مُستترةٌ عنا، وبعضها ظاهرة . وبقدْر ما أوتي الإنسان من فضل الله: في العقل، والعلم، والتقوى، وبقدر مايبذل من الجهد: دراسةً، ومُدارسةً، وتأملاً، وتفكراً، تتكشف له من حقائق تلك القصص، ما يثبّت الفؤاد ويعظ، ويذكّر:

قال تعالى في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فالعبر القيمة، والدروس المفيدة لا ينالها إلا أولو الألباب، أي: أصحابُ العقول النيرة، والبصائر الصافية.

وقد أكرمني الله سبحانه - بمحض فضله - فأنفقتُ شهوراً أدرس قصص الأنبياء من القرآن أولاً، ومن السنة الشريفة ثانياً، فخرجت ببعض العبر أحببت أن أضعها أمام أنظار القارئ الكريم:

١- **وحدة الدعوة النبوية**: فالأنبياء الكرام دعوا الناس إلى عقيدة واحدة لاتختلف، وإن اختلفت شرائعهم بحسب ما تقتضيه الحكمة من مراعاة ظروف الأزمنة والأمكنة والأقوام. وقد وحّد القرآن الكريم صيغة التعبير

عن هذه العقيدة على لسان كل نبي حين خاطب قومه بقوله: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

٢- **اختيار الرسول من قومه:** فالرسول الذي يبعث في قومه يكون معروفاً لديهم، ويكونون معروفين لديه، فلا يشكّون فيه بسبب جهلهم بحاله. ويعرف هو البيئة التي سيدعو فيها، والجوَّ الذي سيتحرّك فيه. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ... ﴾، وقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا... ﴾، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا... ﴾، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... ﴾.

٣- **الابتلاء:** شاءت حكمة الله تعالى أن يبتلي عباده ويختبرهم بالمكاره، ليُعرف الصابرون على قضاء الله، المسلِّمون لقدره، فيوفون أجورَهم، كل على حسب ابتلائه وصبره. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

وشاءت حكمته أن يبتلي من عباده من يحبّ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عزّ وجلّ إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع»، رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

وكلما علا مقام المؤمن عند ربه ازداد ابتلاؤه: فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يارسول الله، أيّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقّة خفف عنه. وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس على خطيئة». رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي

فلا غرو إذن أن يبتلى أنبياء الله بأشد أنواع الابتلاء ولا غرو أن يصبروا أجمل صبر وأحسنه. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام- مثلاً- ابلتي بالإلقاء في النار، وبمحاولة جبار مصر الاعتداء على زوجته، وبالأمر بذبح ولده إسماعيل عليه السلام. ويوسف صلى الله عليه وسلم ألقي في البئر وهو صغير. وبِيع بَيْع الرقيق، وابتلي بإغراء النسوة وكيدهن، ولبث في السجن مظلوماً بضع سنين: ابتلي بالضراء، والسرّاء، والإغراء، فكان خير الصابرين.

وابتلي الأنبياء الكرام جميعاً بتكذيب أقوامهم لهم، وبإيذائهم، وسبّهم لهم، وشتمهم، وضربهم، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن قُتل، فلم يصرفهم ذلك عن دعوتهم قِيْدَ شعرة. فالابتلاء إحدى سنن الحياة التي اقتضتها حكمة الله، وعلينا أن نَعِيَ هذه الحقيقة، حتى تهون علينا المصائب، وتصغرَ في أعيننا العظائم، ولنشعرَ أننا سائرون في نفس ذلك الدرب المضيء الذي سار فيه أنبياءُ الله، وخِيرتُه من خلقه فتطمئنَ نفوسُنا وتسكنَ قلوبُنا.

٤- الفضائل والشمائل: لقد تحلّى أنبياء الله جميعاً- عليهم أزكى صلاة وسلام- بأعلى الفضائل، وأكرم الصفات، فكان كل واحدٍ منهم أمةً في سجاياه ومزاياه. تحلّوا بالحِلم، والإنابة، وسلامة القلب، وبالشجاعة، والكرم، والعفة، وصدق الحديث، وبالنبل والفضل والحياء، وتحلّوا قبل ذلك كلّه بتقوى الله، وحبه وخشيته، فكانوا أنوراً أضاءت وأطياباً فاحت، وعوالم من الصفاء والنقاء، والكمال والجمال، صلى الله عليهم وسلم. فما أحرانا أن ننهج نهجهم، ونقتدي بهم: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ... ﴾.

٥- الاحتساب: دعا أنبياء الله الكرام أقوامهم إلى الهدى، وبذلوا من أجل ذلك النفس والنفيس، وضحّوا بالمال والولد، ولذائذ العيش، لا يريدون الأجر إلا من الله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ... ﴾.

إن الناس ينظرون باحترام أكبر وثقة أشدّ إلى من يدلّهم على الخير، ويقدّم لهم خدمة لا ينتظر منهم أُجرة، أو يأخذ منهم راتباً.

٦- الحكمة في الدعوة: كان الأنبياء الكرام - عليهم الصلاة والسّلام - خير من عمل بأمر الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾، فاستعملوا الترغيب، والترهيب، وذكروا أقوامهم بنعم الله عليهم، ولانوا لهم، وخفضوا لهم الجناح، والتزموا الأدب البالغ، وأظهروا الشفقة التامة، والإخلاص الكامل، ومن أقرب الأمثلة: دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه، وللملك، ولعَبَدة الكواكب من قومه، ولعَبَدة الأصنام. وكذلك دعوة يوسف الصديق عليه السلام لصاحبيه في السجن... إلخ.

٧- موقف الملأ: الملأ هم السادة، والكبراء، وأصحاب الجاه والثراء الذين يحكمون المجتمع، ويسيطرون على الضعفاء، وهؤلاء كان أكثرهم من المكذبين للرسل، المحاربين لهم، والمستهزئين بهم وبأتباعهم، المدلّين بجاههم ومالهم: ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾.

٨- البينات والأدلة: جاء الأنبياء أقوامهم بالأدلة والبراهين القاطعة على صدق نبوتهم فلا بُد في الدعوة من الأدلة والبراهين، سواء كانت معجزات حسيةً، أم أدلةً عقليةً، أم حُسْنَ منطق ومحاججة.

٩- العناد واستعمال القوة: ومع كل ذلك لم تُجْدِ الحجة في كثير من الأحيان، ولم يقتنع الأقوام، بل عاندوا، وكادوا أنبيائهم: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا... ﴾.

١٠- العاقبة انتصار الحق واندحار الباطل: قد يغلب الباطلُ الحقَّ فترة من الزمان، فيعلو وينتفش. ويظن بعض الناس أنه قد انتصر النصر الأخير،

خاصة إذا رأوا دماء الأبرياء تسفك، وارواح الشهداء تزهق: فعن نوح عليه السلام قال سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وعن هود عليه السلام قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وعن لوط عليه السلام قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾... إلخ.

٥٧

شوّال ليس كرمضان!!

من الموضوعات المعهودة المعروفة المتوقعة في خطب الجمعة في الأسبوعين الثالث والرابع من رمضان المبارك، عند كثير من الإخوة خطباء الجمعة تشجيع المصلّين على أن يكونوا بعد رمضان كما كانوا في رمضان، لأنّ «ربُّ شوال هو ربُّ رمضان» كما يقولون.

وبعضهُم يقرّع المصلّين، ويخوّفهم من عدم قبول عبادتهم وصيامهم، لأنّ (السلف) - ولا أدري هل التعميم، أو الإبهام في هذا المقام يصلح للاحتجاج؟ - كانوا بعد رمضان يدعون الله ستة أشهر أن يتقبّل منهم صيامَهم، ثم يدعونه ستة أشهر أن يبلّغهم إياه!!

وحول هذا الموضوع أودّ أن أضع أمام القارئ الكريم بعض الأفكار للتأمل:

١-إن شوال ليس كرمضان، ففي رمضان- كما جاء في الصحيحين -: «تُفتّح أبواب الجنة، وتُغلّق أبواب النار، وتُصفّد الشياطين »، وهذا لا يحدث في شوال!!

٢- حتى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الإنسان الكامل، لم يكن في سائر شهور العام كما هو في رمضان، بل حتى في رمضان نفسه لم يكن في ثلثيه الأوّلين كحاله في العشر الأخير منه. ففي صحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل..» وفيهما أنه «إذا دخل العشرُ

(الأخير) أحيى الليل، وأيقظ أهلَه، وشدَّ المئزر»، كناية عن زيادة العبادة، أو اعتزال الأهل.

٣- المقارنة بين حال المسلم في رمضان وحاله في شوال الذي يليه، خطأٌ فيما أرى، فالمقارنة ينبغي أن تكون بين شعبان الذي يسبق شهر الصوم وبين شوال الذي يتلوه، والنتيجة المتوقعة المرجوة، التي ينبغي للمسلم أن يحرص عليها هي (التحسّن)، وأن يكون (خَطّهُ البياني) في الطاعة والعبادة صاعداً، وإلاّ فالنفس لا تطيق الجدَّ الدائم، وهي تحتاج إلى الراحة، والاستجمام، واللهو المباح، وإلى هذا يشير حديث حنظلة رضي الله عنه:

روى مسلمٌ والترمذي رحمهما الله أن حنظلة بن الربيع رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر النار، ثم جئتُ إلى البيت، فضاحكتُ الصِّبيان، ولاعبتُ المرأة، فخرجت فلقيت أبا بكر (رضي الله تعالى عنه). فذكرتُ ذلك له، فقال: وأنا فعلتُ مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، نافق حنظلةُ، فقال: مَهْ؟ فحدّثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلتُ مثل ما فعل، فقال عليه الصلاة والسّلام: «يا حنظلةُ، ساعةٌ وساعةٌ، لو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة، حتى تسلّم عليكم في الطرق»، فساعة للعبادة، وساعة للراحة، وساعة للتسلية، وساعة لأمر الدينا، وكل هذه الساعات لله إذا صلحت النيّة.

٤- الناس في رمضان أنواع، منهم من اجتهد في الطاعات، والقربات، وقراءة القرآن، وإحياء الليالي، وهؤلاء قلة - والله أعلم - ولن نتحدث عنهم.

وطائفة طيّبة كحالنا: صُمنا، وصلينا، وحرصنا على تلاوة القرآن، وعلى التراويح، ولكنْ باعتدال تطيقه قوانا، وظروفنا، والله العالم بالخفايا مُطّلع على

قلوبنا؛ يعلم أننا نحبّه ونحبّ رسوله، ونخجل من تقصيرنا، ونودّ لو كنا أحسن، ولكن...

وطائفة أخرى قضتْ جُلَّ نهارها بالنوم، وجُلَّ ليلها بالسهر الفارغ من الطاعات، المملوءِ - على تفاوت - بالمخالفات. صامتْ ظاهراً وشكلاً، ولم تصم حقيقةً وروحاً. فخطاب هؤلاء ينبغي أن يختلف عن خطاب أولئك.

أما العصاة بترك الصوم، فهم غالباً عصاة بترك الصلاة، وليسوا من رواد المساجد، فخطابهم في المساجد وضع للشيء في غير موضعه.

٤- إن العلماء، والدعاة، وطلبة العلم، ومن شاكلهم يحسُنُ بهم أن يأخذوا أنفسهم بما تُطيقه من عزائم الدين، ويأخذوا الناس بما يتّسع له صدر الدين من اليُسر. وبهذا يكونون مبشرين لا منفرين، وميسرين لا معسّرين.

٥- أكمل هذا المقال ببعض الأبيات الرمضانية لوالدي الشاعر الراحل عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله، من ديوانه مع الله:

قال في مدينة جدة في رمضان (١٣٧٣هـ) بعنوان (رب) مؤكداً على أهمية حقيقة العبادة أكثر من ظاهرها:

إنّ رباً خلقَ الكونَ وما فيه جميعاً

لا يؤدَّى حقُّه قطُّ سجوداً وركوعا

وطوافاً، واعتكافاً، وقضاءَ الوقت جوعا

إنما تلك رموزٌ من ذوي الألباب تُوعى

حققتنا بالعبودية لله، خضوعا

وقال في مكة المكرمة في الشهر نفسه بعنوان (الكعبة):

الكعبةُ الشمّاء في مذهبي قيمتُها ليست بأحجارها

والقربُ من خالقها ليس في تشبّثِ المرء بأستارها

قدسية الكعبة في جمعها أُمتنا من كل أقطارها

وانها محور أمجادها وانها مصدر أنوارها

وكعبة المؤمن في قلبه يطوف أنّى كان في دارها

وقال في العام نفسه، وهو في الحرم النبوي الشريف، جالسٌ في الروضة المشرّفة:

اتئد يا إمامُ لا ترفع الرأس سراعاً من السجود لربي

أنا لما تنسّم الروح عَبْر الأُفقْ عَرفاً عن أشرف الخلق ينبي

وتطلّعتُ خاشعاً مستهاماً بجَنانٍ مولّهٍ مشرئبٌ

هام قلبي بين السماوات والأفلاك يسعى إليه من كل درب

ثم لما سجدتُ في الروضة الغراء أرمي عن كاهلي عبء ذنبي

خِلتُ قلبي ألقى النياط جذوراً في جنان الهوى لغرسة حُبّي

فاتئد يا إمام! لا ترفع الرأس سراعاً؛ تكاد تجتث قلبي

٥٨

القرآن هو الحل.. ولكن كيف؟!

كلنا نؤمن أن القرآن الكريم هو الحلّ لجميع مشكلاتنا: الفردية والجماعية، والنفسية والجسمية، والسياسية والاجتماعية والاقتصادية... إلخ، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه.. وأنه.. وهذا صحيح لاشك فيه، ولكن كيف..؟

سؤال سهل، فهل الجواب عنه سهل أيضاً؟!

فيما يأتي بعض التأملات والتساؤلات قابلة للتخطئة، والتصويب، أو التكميل، والتوضيح:

١-القرآن كلام الله العزيز الحميد، ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾. فهل فَهْمُنا له كذلك؟ هل ما يفهمه فردٌ، أو جماعةٌ، أو إمامٌ، أو مدرسةٌ فقهية، أو مذهبٌ مُعتبر هو حجةٌ على من يخالفهم في هذه الفهم؟

أنا مقتنع برأيٍ يخالف رأيك، درستُ الموضوع، وخرجتُ بنتيجة معينة، وناقشتكَ فازددتُ برأيي اقتناعاً، فماذا ينبغي أن يكون موقفي منك، وموقفُك مني؟ التعادي، أم التعاون فيما اتفقنا عليه؟

٢- القرآن فيه كل شيء يحتاج إليه الإنسان في الآخرة قطعاً، وفي الدنيا كذلك... لذلك قال لنا: إن مصادر المعرفة الدنيوية تعتمد في الدرجة الأولى على اكتشاف مخلوقات الله وأسرارها، وقوانينها: فالتفكر ﴿فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

﴿وَالْأَرْضِ﴾ ماذا يعني؟ ألا يشير التفكر في خلق السماوات للإنسان المعاصر إلى دراسة علم الفلك، وفي خلق الأرض إلى دراسة علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)؟ وكيف نرى آيات الله في الآفاق وفي الأنفس إذا لم ندرس الآفاق والأنفس. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، فهو سبحانه سيري الناس جميعاً معجزاته الباهرة، وآياته الظاهرة في الآفاق كلها، وفي الأنفس البشرية، ليعلم الناس أن هذا الدين حق، وأن هذا القرآن وحي منزل من عند الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. وفهمي الخاص - والله أعلم- أن آيات الآفاق تشمل - من ضمن ما تشمل - الفيزياء، والكيمياء، وعلوم النبات، والحيوان، وخصائص الأشياء... إلخ، وأن آيات الأنفس تشمل الطب والتشريح، والطب النفسي، وعلم النفس... إلخ. وعلى المسلمين أن يكونوا سادةً في هذه العلوم يسخّرونها لنفع البشرية، فإن كانوا جهلة فيها كانوا أذلة، وبهذا لا يحققّون قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾!!

٥- قال لنا القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾، فكيف نأخذ وننتهي إذا لم ندرس السنّة المشرفة، والأحاديث النبوية؟

وقال لنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فكيف نتأسى به ونقتدي إذا كنا لا نعرف سيرته العطرة؟

وقال سبحانه مخاطباً خاتم رسله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فهو الذي سيبين لنا ما يحتاج إلى بيان من القرآن، وهذا أيضاً يدعونا إلى الاهتمام بقوله عليه الصلاة والسلام، فأيٌّ أدلة أعظم من هذه الأدلة على حجية السنة، وأن القرآن وحده لا يكفي (بنص القرآن)، كما يزعم بعض الناس!!

٤- قال لنا القرآن الكريم آمراً ومؤكداً: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾وقال لنا: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وحبل الله هو القرآن والإسلام، وطاعة الله ورسوله، والاعتصام بها هو التمسّك بها، وكثيرٌ منا يعتصمون بحبل الشيطان لا بحبل القرآن، وقد نجحوا في التنازع، والفشل، وذهاب الريح بدرجة امتياز!!!

٥- قال لنا القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أ- الخطاب موجّه للمؤمنين يأمرهم أن لا يتخذوا بطانةً من دونهم، والبطانة- مثل بطانة الثوب- الأشخاص المقربون، والمستشارون، والدخلاء الذين يطّلعون على الأسرار، وينبسط إليهم المؤمنون، ويثقون بهم، فلا تتخذوهم من دونكم، أي: من غيركم، بلا اتخذوهم منكم.

ب - ولماذا؟ لأنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، يُقال في اللغة: ألا في الأمر يألو، إذا قصّر فيه، والخبال: الفساد، فهم لا يقصّرون، ولا يدّخرون وسعاً في جلب كل مافيه فسادٌ، وشرٌّ إليكم.

ج - وماذا أيضاً: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾، العنت: شدة الضرر والمشقة، وأصلُهُ: انهياض العظم بعد جبره، أي: تمنَّوا أن يضرّوكم في دينكم ودنياكم أشدَّ الضرر وأبلَغَه.

د- ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، يقول الزمخشري في الكشاف: «لأنهم لا يتمالكون- مع ضبطهم أنفسَهم، وتحامُلِهم عليها - أن ينفلتَ من ألسنتهم ما يُعلم به بعضُهم للمسلمين».

والزمخشري - رحمه الله - توفي عام (٥٢٨هـ)، فماذا يقول لو عاش الآن؟! هل يقول: ينفلت من ألسنتهم، وجرائدهم، ومجلاتهم، وقنواتهم الفضائية، وشبكات الإنترنت.. ما يُعلم به بغضهم للمسلمين؟! أم أن الانفلات تحوّل إلى تصريح جريء وإعلان؟

قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: قال القاضي أبو يعلى: وفي هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة (يعني: اليهود والنصارى وغيرهم من المعاهدين) في أمور المسلمين.. ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب دع عنك قتال المسلمين!!

هـ- ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾، واضح لا يحتاج إلى تعليق.

و- ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، فالأدلة على صحة هذه الأمور واضحة بيّنها لنا الله سبحانه، هذا إذا كنا نعقل، أما إذا كنا لا نعقل!!! فحسبنا الله ونعم الوكيل.

نعود إلى التساؤل: كيف يكون القرآن حلاً لجميع مشكلات المسلمين؟ ونحاول أن نجيب باختصار:

أولاً: بتلاوته مع الفهم الصحيح المتوازن المتكامل، مدى الحياة.

ثانياً: بتطبيقه في واقع الأفراد والجماعات والشعوب، كلاً لا يتجزأ، بقدر الطاقة والاستطاعة والوسع، لا أن يؤمَنَ ببعض، ويُكفَرَ ببعض ولاأنَ يُقَصَّ ويُفصَّلَ لتحتج به العقولُ الجاهلة أو النفوسُ المريضة، أو ليناسب الواقع المنحرف الذي لا يكاد يخلو من مكان.

إن هذا المقال المتواضع لا يعدو أن يكن إثارة للتساؤل، ويستغفر كاتبهُ اللهَ من أن يزعم أنه أتى فيه بالحقّ الكامل، فهو- كما ورد في أوله - قابل للتخطئة، والتصويب، أو التكميل، والتوضيح.

والله تعالى أعلم.

٥٩

قُلْ لي: ماذا تدعو، أَقُلْ لكَ: مَن أنت!!

كثر الحديث والخلاف بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) حول الكثير من القضايا والمسائل، منها موضوع الدعاء على الكفار وأعداءِ الإسلام؛ فأكثَرَ بعضُ الناس، وبالغوا، وتفنّنوا في ابتكار صيَغ الإهلاك والتدمير، حتى أشفقتْ طائفةٌ أخرى، ونهتْهم عن ذلك الدعاءِ بتلك (الوحشيّة) التي ستنال الأبرياء لو استجاب الله الدعاء! وقال آخرون: قبل أن ندعو على الكفار، يجب أن ندعو الله أن يعافينا من أسباب ضعفنا، وجهلنا، واختلافنا التي سلّطت علينا أعداءَنا، وجعلت لهم علينا سبيلاً، ولوكنا أقوياء لما تجرّؤوا علينا، كما لا نتجرّؤ نحن عليهم، فيجب أن نلوم أنفسنا، لا أن نلومهم.

وقال لي أحد الأصدقاء: أنا لا أكره الكفّار ولكن أكره كفرهم، ولا أريد لهم الأذى، بل أريد لهم الهدى، وأن يدخلوا في دين الله أفواجاً. وأن ينالَهم الله برحمته، ويدخلَهم فسيحَ جنّته: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ...﴾.

قال: ويعلم الله اني احزن لأي طفل يهودي، أو نصراني، أو بوذي، أو هندوسي تشوكه شوكةٌ. ولكل امرأة، أو شيخ، أو عجوز، أو بريءٍ تصيبه مُصيبة. ولكني أدعو على الظالمين، (ولو كانوا من بني جلدتي)، أن يعاقبهم الله بظلمهم، وأن ينتقم منهم شرَّ انتقام، كما قتلوا الأبرياء، ويتّموا الأطفال، ورمّلوا النساء، وشوَّهوا، وعوّقوا الأسوياء، وسرقوا الأموال، وروّعوا الآمنين، وضيّعوا الحقوق، لأفراد قلائل، أو لشعوب تُعَدُّ بالملايين.

قال صاحبي: جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما»، فالظلم ليس حراماً على أحد حلالاً لأحد: استعمرتْ فرنسا الجزائر مئة عام قتلتْ فيها مليون شهيد واليومَ يَقتل في الجزائر بعضُ الظالمين بعضَ الأبرياء. فهم سواء. «ودم الأفغاني البريء ليس حراماً على الروسي والأمريكي وحدهما، بل هو حرام على فصائل الأفغان المسلمين السُّنيين الأحناف أيضاً. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: أراد قتل صاحبه». رواه النسائي وغيره.

وقد دعا بعض الأنبياء الكرام عليهم صلوات الله وسلامه على أقوامهم بعد أن آذوهم، وكذبوهم، وحاربوا أتباعهم، وعذبوهم، وقتلوهم، وأصرّوا على كفرهم وعنادهم:

- وقال نوح: ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾. والديّار: مَن يسكُن الدار.

«وقال موسى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا... ﴾.

- وفي صحيحي البخاري ومسلم رحمهما الله، أن نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم دعا على أحياءٍ من العرب (رِعْل، وذكوان، وبني عُصَيَّة الذين عصوا الله ورسوله)، في صلاة الصبح، يقنُت فيها، أربعينَ صباحاً، وفي رواية شهراً، لأنهم (قتلوا) ظلماً وعدواناً، أصحاب بئرِ معونة، وكانوا سبعين رجلاً من الأنصار، يُقال لهم القُرّاء. وهذه سنة صحيحة في الدعاء على الظلمةِ والقتلة في الصّلاة.

ونقترب الآن أكثر من عنوان هذا المقال:

من الأقوال المشهورة: «قل لي: مَنْ تصاحب أقل لك: من أنت». وهذا صحيح لأن «المرء على دين خليله»، ثم قيل «قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت»، وهذا صحيح أيضاً إذ يمكن الاستدلال من المقروء على اهتمامات القارئ. ثم لما ظهر الوعي الغذائي بين الناس نتيجة تقدّم «علم التغذية»، صار بعض المهتمين بهذا المجال يرددون: قل لي ماذا تأكل أقل لك من أنت. وانا لا أرى مانعاً من النسج على هذا المنوال بأن نقول: «قل لي ماذا تدعو أقل لك من أنت ».

بعض الناس المتدينين يخافون كثيراً من المرض، فيشكل الدعاء بالصحة والعافية والسلامة جزءاً كبيراً من دعائهم. والمرهقون بالديون يكثرون من الدعاء بالرزق. والمهتمون بأشخاص، هم أغلب دعائهم لأنفسهم، والذين تسكن قلوبهم همومُ الأمة يدعون لها، ولا ينسونها في صباح أو مساء. والمحرومون من الأولاد لا يمرّ يومٌ لا يدعون فيه أن يُرزقوا بالذرية. والذين عَضّتْ عليهم السّجون دائمو الدعاء بالفَرَج. وبعض الناس يحملون في قلوبهم «طبيعة الجزارين»، فهم كثيرو الدعاء بالموت، والمسخ، والسّحق، والمَحق، لكل من خالفهم في رأي أو معتقد، أو آذاهم أذى بسيطاً، وبعض من جُبلوا على التسامح يدعون لأعدائهم بالهداية: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ».

وخير الأمور الاعتدال، والحكمة وضع الشيء في موضعه، والكلام في الدعاء كثير، وكتابة الأولين والآخرين فيه كثيرةٌ كذلك، وهدفنا في هذا المقال، وإن كان موجهاً نحو الدعاء، إلا أنه يعالج موضوعه من زاوية خاصة جداً كما يرى القارئ الكريم.

إن الظالم يجب أن يخاف ويحذر من دعوة المظلوم. فإنه «ليس بينها وبين الله حجاب»، كما ورد في الحديث الشريف. ولأهمية الظلم- على مستوى

الأفراد ومستوى الأمم- فقد كثر ذكره في القرآن الكريم حتى كاد يبلغ (بجميع مشتقات مادة: ظ، ل، م) (٣٠٠) مرة!! منها:

❖ أن الله سبحانه وتعالى قد يستأصل الظالمين فلا يبقى لهم أثراً، كما ورد في سورة الأنعام: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

❖ وفي سورة يونس: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾.

❖ وقد يكون مصيرهم الأخروي العذاب الأبدي: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

❖ وفي سورة هود: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾.

❖ وفي سورة الكهف: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾.

❖ وقد تقتضي حكمة الله أن يؤخر بعض الظالمين، ويدّخر لهم العذاب في الآخرة كما جاء في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾. ومعنى: ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾: ترتفع فيه أبصار أهل الموقف فلا تطرف أجفانهم من هول ما يرونه. و ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾: مسرعين إلى الداعي بذلة واستكانة، كإسراع الأسير والخائف. و﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾: رافعيها إلى السماء. لايلتفتون يميناً ولا شمالاً، و﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾: قلوبهم فارغة خالية لا تعقل من شدة الخوف والدّهشة.

ما أشد حاجة الظالمين: من الأفراد، والجماعات، والقبائل، والفصائل والأحزاب، والدول، والحكومات.. إلى التأمل في هذه الحقائق، والانتهاء عما هم فيه قبل فوات الأوان!!

٦٠

ماذا قال سفير ألمانيا؟

في العدد السادس والخمسين من المجلة الزاهرة الزاخرة «المعرفة» التي تصدرها وزارة التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية حوارٌ أجراه رئيس تحريرها الأديب الألمعي الأستاذ زياد بن عبد الله الدريس مع السفير الألماني السابق لدى المغرب الدكتور مراد ويلفريد هوفمان. هذا الحوار جدير بالتأمل لأسباب عدة، منها أن الدكتور هوفمان رجل غير عادي، وأن محاوره أيضاً رجلٌ غير عادي، يعرف كيف يوجه السؤال المناسب للرجل المناسب.

من هو مراد هوفمان؟

ومضات سريعة على جزء من شخصيته: جاوز الخامسة والستين من عمره المبارك إن شاء الله. حصل على الدكتوراه في القانون من جامعة هارفارد، كان سفيراً لبلاده في المغرب، ومديراً لقسم حلف شمال الأطلسي والدفاع في وزارة الخارجية الألمانية، ومديراً لإدارة المعلومات الخاصة بخطر التهديدات بالعدوان في حلف شمال الأطلسي ببروكسل.

أسلم عام ١٩٨٠م. من أهم كتبه: الإسلام كبديل، يوميات مسلم ألماني، الطريق إلى مكة.

قال في المقابلة:

- ربّيت ابني طوال الـ (١٤) عاماً الأولى من حياته بدون التلفزيون، وذلك لكي أنمّي خياله، ولا أحبسه في نطاق ضيق. ولكن حينما كبر اضطررت إلى

أن أجعله يتعرف على التلفزيون حتى لا يصبح شخصاً منبوذاً، لا يملك المعلومات التي يعرفها جاره مثلاً.

- من المهم والضروري جداً وجود وكالة أنباء إسلامية، فالوكالات العالمية مثل: رويترز، وفرانس برس تتحكم في سُوق الأخبار في جميع انحاء العالم، ومعظم الصحف العالمية في كل مكان تستخدم ٧٥٪ من الأخبار التي توفرها، وتبثها هذه الوكالات. وهذه مشكلة كبرى بالنسبة للمسلمين لأن أخبارهم لا تنقل للعالم.

- ورداً على سؤال الأستاذ زياد الدريس: أطل عام ٢٠٠٠ م على الغرب، فما هو استشرافك للمستقبل الغربي، وما مدى انتشار المقولات التي روّجت في الغرب بأن هذا العام سيكون نهاية الحياة، وعودة السيد المسيح عليه السلام؟ قال:

إن العام القادم عندي كمسلم هو عام ١٤٢١هـ! وعموماً فالغرب ليس في أفضل حالاته إذا ما تناولناه من ناحية الدمار الذي تشهده الأسرة هناك، ممثلاً في ظاهرة انتشار الشذوذ الجنسي على نطاق واسع للغاية. وظهور ما يسمى بـ «الأم العَزباء» التي تُنجب وتربي أولاداً دون أن يكون لها زوج، أو يكون لهؤلاء الأولاد آباء. علاوة على ذلك إدمان المخدرات في كل مكان، وانتشار ظاهرة العنف.

إنني ارى الغرب - في جوانب كثيرة - يتجه صوب كارثة.. ومن هنا أجد أنهم في حاجة فعلية حقاً إلى الإسلام، ويدرك بعضُ المفكرين والمثقفين هذا الأمر، حتى داخل الكنيسة..

إن العقيدة المسيحية ليست عقلانية. وإذا أردتَ أن تجعلها عقلانيةً دمّرتَها، ففكرة: التثليث، والتجسيد، والخطيئة الأزلية، وموت الرب من أجل الخلاص، كلها افكار مجنونة تماماً!

هذا بعض ماجاء في مجلة المعرفة.

لكنّ للدكتور مراد هوفمان مقالاً قيماً بعنوان: الإسلام والبرود في الغرب، يقع في (٣٠) صفحة نُشر في كتاب - سبق أن أشرت إليه في مقالة سابقة- عنوانه: الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، أعده مركز البحوث والدراسات في قطر بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع. وفيما يلي بعض ماجاء في هذا المقال:

- إن معلومات الأوروبيين اليوم عن الإسلام- على الرغم من وجود ملايين المسلمين بينهم- لا تزيد كثيراً عما كانوا يعرفون عن الإسلام عندما كانت معرفتهم بالشرق مستمدة- بالدرجة الأولى- من آداب الاستشراق، وقصص المغامرات! إنه لواقع محزن، بيد أنه عين الحقيقة.
- في ظل مشاعر العداء المتأصل للإسلام في أوروبا يبدو واقعياً أن نفترض أن أقصى ما يطمح إليه المسلم هناك هو أن يقابل بالتسامح، وأسوأ ما يتوقعه هو أن يمارس ضده التمييز المصحوب بالعنف. وربما يكون من التعقّل ألا يبالغ في الطموحات، وألا يستعجل في تحقيقها. فأوروبا- على أي حال- لم تكن مكاناً للتعددية الدينية، بل إنها عُرفت بعدم التسامح الديني. وكان ذلك مبنياً على حماستها للتبشير بالمسيحية وتحقيق السيادة، بحث أصبح الظهور المفاجئ لدين جديد (الإسلام) يمثل مشكلة نفسية كبرى على المستوى الجماعي. ولا يمكن - حتى من الناحية النفسية - أن تنسى أوروبا بين عشية وضحاها تراكمات السنين من آثار الدعاية الغربية الخبيثة المعادية للإسلام، والتي استمرت من أيام الحملات الصليبية، مروراً بالحقبة الاستعمارية، إلى القرن العشرين..
- وفي ظل هذه القابلية لنشوب الصراع، فإن من الحكمة عدم إثارة المخاوف

بفرض التغيير في عقائد راسخة لأناس بُرمجت عقولهم لعدة قرون ضد الإسلام، وذلك من خلال حملات التشويه المنظمة.

- إن أوروبا قد دخلت- بدرجة أكبر من الولايات المتحدة- في عهد (ما بعد المسيحية). لقد تراجعت المسيحية في أوروبا إلى الحد الذي لم تعد معه عاملاً فاعلاً، لا في السياسة ولا في الاقتصاد، وليس لها سوى تأثير ضئيل في حقل العلوم، كما اضمحل أثر المسيحية كذلك على أخلاقيات الأفراد.
- أدى كفر الإنسان بربه إلى تأليهه لنفسه، أو للدولة، مثلما آلت إليه الحال في الأنظمة الفاشية والشيوعية لاحقاً، وكانت أهم الشخصيات على هذا الطريق المفضي للهلاك: فيورباخ، وماركس، وداروين، ونيتشة، وفرويد. كان هؤلاء الآباء الروحيين لكوارث عجيبة حلّت بأوروبا خلال القرن العشرين.
- دخلت الكنيسة معركة خاسرة، ولا تزال تخسر إلى اليوم. والأسوأ أن بعض الكنائس البروتستانتية تأقلمت مع هذا المزاج السائد إلى حدّ القبول بتنازلات أخرجتها عن نطاقها، مما أضرّبها أبلغ الضرر. ومن الأشياء التي لا تصدق أن بعض الوعاظ أعلنوا صراحة أنهم من الشواذ جنسياً، أو أنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت!!
- إن ما وصفتُه بأمانة يعني بوضوح تام أن هناك أزمةً تعصف بالغرب، وهي أزمة ثقافية وجودية على الرغم من إنجازات الغرب في ميادين الديموقراطية، وحقوق الإنسان، والاقتصاد، والتكنولوجيا. وهي أزمة يمكن ان تاذن بسقوط الغرب بعد فترة لا تطول كثيراً، بعد سقوط الغريم الأول للغرب (أي الشيوعيين) حوالي عام ١٩٩٠م.
- إن المحنة الخلقية التي يمرّ بها الغرب ترجع جذورها إلى نحو (٢٠٠) عام..

إن المطلوب هو نموذج ديني لفهم العالم، واقتناعي أن الأمل معقود على الإسلام في تحقيق ذلك، إن شاء الله.

- إن تفشّي الشذوذ الجنسي في أي مجتمع هو دليل على التفسّخ الحضاري لذلك المجتمع، وإنذارٌ مبكر ينبئ بأن الحضارة آخذة في الانحطاط. وفي الغرب لا يعتبر الشاذون جنسياً- من الرجال والنساء- أناساً منحرفين، وهم يقومون بترويج (مذهبهم) على نحو يتّسم بالعدوانية، ويطلبون الاعتراف بهم، ويحصلون عليه بوصفهم أقلية تحتاج إلى الحماية: كالنساء، والسود. وفي سان فرانسيسكو بأمريكا تحوّل سكان اثنين من أحياء المدينة بكل مَنْ فيها إلى شذاذ جنسياً. أما في أوروبا فقد أوشكوا على الحصول على (حق) الزواج، ومن ثم التمتع بكل الحقوق المترتبة عليه.

- إن القليل من الغربيين يدركون فداحة الأزمة الحضارية التي تمرّ بها بلادهم، فأغلبهم قد أعماهم غرور المباهاة بالانتصار، لذا فليس من المتوقع من الناس تغيير اتجاههم في منتصف الطريق، ولكنهم ماضون قدماً في غيّهم يعمهون.

- إذا كان الأمر كذلك، فإن الغرب - رغم انتصاره على الشيوعية - قد يكون هو نفسه في طريقه إلى الزوال في هيجة سكر يدمر فيها نفسه. فهو ضحية لتناقضاته الداخلية، وأكثرُها فتكاً هو الشّرك، وذلك بتأليهه للبشر. وهذا أمر محتوم، مالم يعترف الغرب مرة أخرى بالمقدسات، والحقائق الغيبية، ويؤمنْ بالله، ويبدأ من جديد في العيش وَفقاً للقيم المطلقة، والهدي الرباني، الذي بُلّغ للبشرية في القرآن المبين، وعَزَّزته سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

وبعد: فهذا ما اجتهدتُ في اختياره، مجتهداً الا أخلّ بأمانة النقل. وقد

يختلف بعض القراء الكرام مع الدكتور مراد هوفمان، بناءً على تجربة شخصية لهم، أو قراءاتٍ مُحددة، لكنّ الذي ينبغي أن يكون - مهما كانت المواقف - هو النظر باحترام لوجهة نظره، فهو الخبير البصير الذي يتكلم عن معاينة ومعايشة.

والله تعالى أعلم

٦١

«الرَّجل على دين خليله»
والطِّباعُ سَرَّاقة

قلْ لي مَنْ تصاحبْ، أقل لك من انت

إنّ الطيورَ على أشكالها تقعُ.

وشِبْهُ الشيءِ مُنْجذِبٌ إليه. والرفيقُ قبلَ الطريق.

وصُحبةُ العاقلِ زَيْنُ الفتى، وفقدُ الإخوان غُرْبة، ومَنْ فسدتْ بِطانته كان كمن غصَّ بالماء، ويقاس المرءُ بالمرءِ إذا ماهو ماشاه.

هذه أمثلة قليلة على معنى واحد هو مدار حديث هذه المقالة التي اخترتُ لها ما هو أبلغ من هذه الأمثال، وهو الحديث الذي رواه أبو داود رحمه الله في سننه، في كتاب الأدب، باب «مَنْ يُؤمر أنْ يُجالس». قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرجل على دين خليله، فلْينظُر أحدكم مَنْ يُخالل». يعني: الإنسان (رجلاً كان أم امرأة) على عادةِ صاحبه، وطريقته، وسيرته، فليتأملْ، ويتدبَّرْ من يختاره لصحبته، فمن رضي دينه، وخُلقَه، وعاداته، وطبائعه فَلْيصاحِبْه، وإلا فَلْيَجتنبْه، فإن الطباعَ سَرَّاقةٌ، يسرقُ بعضُها من بعض خِفْيةً، فلا يُحسُّ الإنسان إلاَّ وقد تأثّر، أو لا يُحس بأنه تأثر!!

ولهذا ورد أيضاً في الحديث الشريف قوله عليه الصلاة والسلام (في المصدر نفسه): «لا تصاحبْ إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ»، أي: لا تُطعم

طعامك إلا تقيأ. وهذا - كما قال العلماء - في طعام الدعوة والوليمة، لا فيما تُطعمه للمحتاجين، فإنك تُطعم الكفار.

وفي الصحيح «: مَثَلُ الجليس الصالح كمثَل صاحب المِسك، إنْ لم يُصبْك منه شيء أصابك من ريحه، ومثل جليس السُّوء كمثل صاحب الكِير إن لم يُصبْك من شراره أصابك من دُخانه». وكِيْر الحدّاد: هو المِنفاخ الذي ينفخ فيه.

وقد يصعب في زماننا الذي تباعدت فيه المسافات، وكثرت الأعباء، وتنوعّت الصوارف عن الخير، ملازمةُ الصالحين، والعلماءِ العاملين، والإكثارُ من صحبة الأبرار، وطلبةِ العلم الأخيار، ولكنْ هناك - بفضل الله - بديل حَسَنٌ، وإن كان لا يُغني كلَّ الغَناء، وهو كثرة المطالعة في كتب التراجم والسِّير التي ترجمَتْ لأئمتنا، وعظمائنا، وعلمائنا، وصالحينا، وعباقرتنا على مرّ العصور والأزمنة، فكثرة المطالعة لأخبارهم تعدل جزءاً من مجالستهم، وما لا يدرك كُلّه، يدرك بعضه، وقد يدرك جُلّه.

ومن هذه الكتب النافعة كتاب: «صِفةِ الصفوة» للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، المتوفى عام (٥٩٧هـ) رحمه الله، فقد ذكر فيه- كما قال- «أخبار العاملين بالعلم، الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، المستعدّين للنقلة بتحقيق اليقظة، والتزوّد الصالح.. قال الإمام العلم سفيان بن عُيينة رحمه الله: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، وقال محمد بن يونس رحمه الله: ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين ».

والعظيم الذي اخترت الحديث عنه في هذه المقالة رجلٌ نعرفه جميعاً، ولكننا نسينا أخباره، وإذا أحببنا أن نكتب مانذكر منها مازدنا على خمسة

سطور، ذلك هو الخليفة الراشد الخامس، عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، ومن كتاب «صفة الصفوة» أختار مايلي:

أُمُّهُ بنتُ عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه!

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: يُروى في الحديث أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مئة من يُصحّح لهذه الأمة أمر دينها، فنظرنا في المئة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز، ونظرنا في المئة الثانية فإذا هو الشافعي، رحمهما الله ورضي عنهما.

ويروي ابن الخليفة أن أباه عمر عندما دفن الخليفة السابق، سليمان بن عبد الملك، وخرَج من قبره سُمع للأرض رجّةٌ، فقال: ما هذه فقيل: هذه مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين قُرّبت إليك لتركبها، فقال: أبعدوها عني، وقربوا إليّ بغلتي! ولما جاءَ صاحب الشرطة ليسير أمامه مُمسكاً بالحربة، أبعده وقال: إنما أنا رجلٌ من المسلمين فسار وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعِد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقال: **يا ايها الناس إني قد ابتُليت بهذا الأمر من غير راي مني، ولا طلب، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت مافي اعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم**، فصاح المسلمون صيحةً واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فتولَّ أمرنا باليُمن والبركة. فخطب فيهم خطبة تشبه خطبة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، ثم نزل فأمر بالستور فخُلعت، والبُسطِ والسجاد التي كانت تبسط للخلفاء فبيعت وأُدخل ثمنها في بيت مال المسلمين.

وعن مالك بن دينار قال: لما تولّى عمر بن عبد العزيز الخلافة قالت الرّعاة في رؤوس الجبال: مَن هذا الخليفة الصالح الذي قدم على الناس؟ فقيل لهم: وما علِمكم بذلك؟ قالوا: إنه إذا قام خليفة صالح كفّتْ الذئاب عن شياهنا!!

وعن جابر بن حيوة قال: كان عمر بن عبد العزيز من أعطر الناس، وأجملهم ثياباً، ومِشْيةً، فلما تولّى الخلافة قوّموا ثيابه التي عنده كلّها باثني عشر درهماً!!

وعن مسلمة بن عبد الملك، الخليفة، قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لأختي، فاطمة بنت عبد الملك، زوجة عمر:

يافاطمة، اغسلي قميص أمير المؤمنين، قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدتُ فإذا القميص على حاله، فقلت: يا فاطمة، ألم آمرْكُم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه؟ قالت: والله ماله قميص غيره.

وكان عمر بن عبد العزيز مرة يقسِمُ تفاحَ الفيء بين المسلمين، فتناول أحد أبنائه الصغار تفاحة، فانتزعها من فمه، فتألم الصغير، وذهب إلى أمه يبكي، فأرسلت إلى السوق فاشترت له تفاحاً، فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال لزوجته: يافاطمة هل أخذتِ شيئاً من هذا الفيئ؟ قالت: لا، وقصّت عليه القصة، فقال: والله لقد انتزعتها من ابني، وكأنما نزعتُها من قلبي، ولكن كرهت أن أضيّع نصيبي من الله عزّ وجل بتفاحةٍ من فيء المسلمين.

وحين تولّى عمر الخلافة منع أقرباءه ما كان يجري عليهم من بيت المال، وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم، فشكوه إلى عمّته، فدخلت عليه فقالت: إن قرابتك يشكونك، ويزعمون أنك أخذت منهم مالاً أعطاهم إياه غيرك. فقال: مامنعتهم حقاً لهم، ولا أخذتُ منهم حقاً لهم. ودعا بدينار، ومَجْمَرةٍ، فألقى الدينار في النار، وجعل ينفخ عليه، حتى إذا احمرَّ قال لعمّته: ألا تخافين على ابن أخيكِ من مثل هذا!؟ فقامت، فخرجت على قرابته

فقالت: تزوجون ابنكم إلى آل عمر بن الخطاب، فإذا أشبههم جزعتم؟! اصبروا له!!

وقد كان قبل الخلافة فيه شيءٌ من السّمنة، فلما صار خليفة نحُل جسمُه، حتى قال أحد من راه يطوف بالبيت، لو شئت أن أعدَّ أضلاعه من غير أن أمسَّها لفعلت.

توفي- رحمه الله ورضي الله عنه عام (١٠١هـ)، وعمر (٣٩) سنة وأشهر!!

اللهم ارزق المسلمين حكاماً كعمر بن عبد العزيز، واجعلهم أهلاً لأن يولّى عليهم أمثاله.

٦٢

الإمام أبو حنيفة.. قادحُ زِناد الفكر ومُورِيه

يقال في اللغة: قَدَحَ الزَّنْدَ: ضربة بحجرٍ ليُخرج النارَ منه.

والزِّناد: أداة تدقُّ الزَّندةَ فتشتعل.

وأورى الزَّندَ: أخرج ناره. وأورى النار: أوقدها. والمُوري: المُوقد.

وهكذا يتبيّن معنى العنوان!!

الإمام أبو حنيفة رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، واحد من عظماء المسلمين وعباقرتهم، وأحد الأئمة الأربعة المتبوعين عند أهل السُّنة، وإذا امتاز كل واحد من أولئك العظماء العباقرة: مالكٌ، والشافعي، وأحمد بن حنبل رحمهم الله بمزية، فإن مزية أبي حنيفة -فيما أظن- هي مزيد من العناية بالفكر، والرأي، والعقل، حتى لقد سُمّيتْ مدرسته الفقهية: مدرسة الرأي.

وقد كُتب الكثير عن الإمام أبي حنيفة، وسأقتطف للقارئ الكريم بعضَ ما أورده حافظ المغرب الإمام ابن عبد البرّ الأندلسي المتوفى عام (٤٦٣هـ) رحمه الله في كتابه: الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء:

- إن أبا حنيفة رحمه الله من أعظم الناس أمانةً، وأراده الولاة على أن يتسلّم مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره! فاختار عذابهم على عذاب الله!
- قال الإمام القاضي أبو يوسف رحمه الله، صاحب أبي حنيفة: كنا نختلف في المسألة، فنأتي أبا حنيفة، فكأنما يخرجها من كُمّه فيدفعها إلينا. أي: كان هؤلاء العلماء الأجّلاء يتناقشون في مسألة عويصة من مسائل العلم،

ولا يصلون فيها إلى رأي يرضونه، فيأتون إلى الإمام رحمه الله، فيجيبهم مباشرة، وبسهولة، وكأنما يخرج شيئاً من جيبه ويعطيهم إياه. فكان الصعبُ على أولئك الجهابذة يسيراً عليه بتوفيق الله وفضله. قال أبو يوسف: وما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة.

- وروي عن عبادته الكثير، من ذلك أنه كان يصلّي في رمضان التراويح مع عُمر بن ذر، مقتدياً به، وكان ابن ذرّ يصلّي إلى قُرب السَّحر.
- ولم يكن متعصبّاً لرأيه، ولا معتدّاً به، وفي ذلك يقول: «هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول: يجب على أحدٍ قبوله بكراهة، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به»، يعني: حتى نترك قولنا ونأخذ قوله.
- قال الإمام سفيان الثوري رحمه الله: كان أبو حنيفة شديد الأخذ للعلم، ذابّاً عن حُرَمِ الله أن تُستحلّ، يأخذ بما صحّ عنده من الأحاديث التي يحملها الثقات، وبالآخِرِ من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما أدرك عليه علماء الكوفة. ثم شَنَّعَ عليه قومٌ يغفر الله لنا ولهم.
- وقال الإمام نفسه عن مذهبه في الاجتهاد والفُتيا: «إني آخذ بكتاب الله إذا وجدتُه، فمالم أجده فيه أخذت بسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآثارِ الصِّحاح عنه التي فَشَتْ في أيدي الثقاتِ عن الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أخذت بأقوال أصحابه، مَنْ شئتُ، وأدعُ قولَ من شئتُ، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم. فإذا انتهى الأمر إلى (علماء التابعين) فقومٌ قد اجتهدوا. فلي أن أجتهد كما اجتهدوا.
- وكان رحمه الله يقول: لا يحلّ لمن يُفتي من كتبي أن يفتيَ حتى يعلم من أين قلتُ، أي: حتى يعلم دليلي.

- قال أبو عمر بن عبد البرّ: كثير من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبي حنيفة رحمه الله لردّه كثيراً من أخبار الآحاد العدول، لأنه كان يذهب في ذلك إلى عَرْضها على مااجتمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن، فما شذّ عن ذلك ردّه وسمّاه شاذاً... وكان محسوداً لفهمه وفطنته.
- ويحسن في هذا المقام إيراد ماقاله الإمام الحافظ الذهبي رحمه الله في كتابه «ميزان الاعتدال»: «كلام الأقرانِ بعضِهم في بعض لا يُعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة، أو لمذهب، أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصمه الله. وما علمتُ أنّ عصراً من الأعصار سَلِمَ أهلُه من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئتُ لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم».
- اخرج الخطيب البغدادي رحمه الله في كتابه «الفقيه والمتفقه» عن أبي يوسف رحمه الله قال: سمعت أبا حنيفة رحمه الله يقول: «من تكلم في شيء من العلم، وتقلّده، وهو يظنّ أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيتَ في دين الله؟ فقد سهُلَتْ عليه نفسُه ودينه!!؟». وقال: «لولا الخوف من الله تعالى أن يضيع العلم ما أفتيتُ أحداً: يكون له المَهْنَأُ وعليَّ الوزر»!
- أما الأمثلة على ذكاء الإمام أبي حنيفة، وفطنته، وحدّة ذهنه المدهشة والتي من أجلها تحدثت عنه في زناد الفكر، فكثيرة جداً، وجُلُّها دقيق يحتاج إلى طالب علمٍ مستأنٍ يقرؤها بتأمّل ليفهمها، وسأختار للقارئ الكريم أسهلَها عليّ:
- قيل لأبي حنيفة: إن الفقيه الفلاني (عبد الملك العَرْزمي المتوفى عام ١٤٥هـ)، يقول: سافرتْ عائشة رضي الله عنها مع غير ذي مَحرم منها. فقال أبو حنيفة: كانت عائشة أمَّ المؤمنين كلِّهم، فكانت من كل الناس ذاتِ محرم!!

❖ قال الإمام زُفَر بنُ الهُذَيل: اجتمع أبو حنيفة وجماعة من العلماء في وليمة، فأتوهم بقارورة من فضة فيها طيب، فأبوا أن يستعملوه، فأخذه أبو حنيفة، وسلته بأصبعه، وجعله في كفّه ثم تطيّب به، وقال لهم: ألم تعلموا أن أنس بن مالك رضي الله عنه أُتي بحلوى في وعاء من فضة، فقلبها على رغيف، ثم أكله؟ فتعجّبوا من فطنته وعقله.

❖ قدِم الضحّاك الشاري (أحد الخوارج) الكوفة، فقال لأبي حنيفة: تُبْ، فقال: ممَّ أتوب؟ قال: من قولك بتجويز الحكمين بين عليّ ومعاوية. فقال له أبو حنيفة: تقتلني أو تُناظرني؟ فقال الضحّاك: بل أناظرك عليه، قال أبو حنيفة: فإن اختلفنا في شيء مما تناظرنا فيه، فمن بيني وبينك؟ قال: اجعل أنتَ من شئت، فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحّاك: اقعُدْ فاحكم بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا، ثم قال للضحّاك: أترضى بهذا بيني وبينك حكماً؟ قال: نعم، قال أبو حنيفة، فأنت قد جوّزت التحكيم! فانقطع الضحّاك.

❖ وهذه مسألة تحتاج إلى شيءٍ من التركيز:

قال علي بن عاصم: سألت أبا حنيفة عن ردهمٍ لرجل، ودرهمين لآخر، اختلطتْ، ثم ضاع درهمان من الثلاثة، لا يُعلم أيُّها هيَ، فقال: الدرهم الباقي بينهما أثلاثاً.

قال علي: فلقيت ابنَ شُبرُمة (الإمام القاضي) فسألته عنها، فقال: سألتَ عنها أحداً غيري؟ قلتُ: نعم، سألت أبا حنيفة عن ذلك، فقال: يقسم الدرهم الباقي بينهما أثلاثاً. قال: أخطأ أبو حنيفة. ولكنْ درهمٌ من الدرهمين الضائعين من المؤكد أنه أحد الدرهمين، والدرهم الباقي يحتمل أن يكون الدرهمَ الثانيَ من الدرهمين، ويحتمل أن يكون الدرهم المنفردَ المختلطَ

بالدرهمين، فالدرهم الذي بقي، بينهما نصفين. قال علي بن عاصم: فاستحسنت ذلك.

ثم لقيت أبا حنيفة، فوالله لو وزن عقلُه بعقول نصف أهل الكوفة لرجح بهم، فقلت له: يا أبا حنيفة، خولفتَ في تلك المسألة، وقلت له: لقيتُ ابن شُبرمة، فقال: كذا وكذا، فقال أبو حنيفة: إنّ الدراهم الثلاثة حين اختلطت ولم تتميّز رجعت الشركة في الكل، وصار لصاحب الدرهم ثلثُ كل درهم، ولصاحب الدرهمين ثلثا كل درهم، فأيُّ درهمٍ ذهب فعلى هذا.

وأجدني - في ختام هذه المقالة - مدفوعاً إلى أن أردد قول الفرزدق - دون قصد الإساءة لجرير-:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم
إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ!!

والله من وراء القصد.

٦٣

كتبٌ لابُدَّ من قراءتها

في عالم المتغيرات السريعة التي لم يشهد لها الإنسان مثيلاً في تاريخه، والله أعلم بالمستقبل، في هذا العالم اللاهث تبقى بعض الثوابت المادية والمعنوية التي يستحيل تجاهلها: فلابد من الهواء للإنسان كي يتنفس ليعيش، ولا بدّ له من الطعام والشراب، والكساء والدواء.

الجوع حقيقة والمرض حقيقة، والموت حقيقة، والحياة بعد الموت عندنا- وعند كثيرين غيرنا- حقيقة. ولكن المستجدّات، والاكتشافات، والعلوم الحديثة، والتكنولوجيا، والحاسب الآلي، والصعود (من) القمر... إلخ لا تلغي الحقائق!!

عشرات الألوف من الكتب الجديدة الجديرة بالقراءة التي يلزم أن يقرأها المسلمون: كلٌّ في تخصّصه، لا تُترجم، ولا يقرؤها النائمون!! وتبقى بعضُ الكتب حقائق ثابتة لا بدّ منها، ولا يُغني عنها سواها: أولها القرآن الكريم، وتتلوه كتبُ الحديث الشريف.

هناك أربعة من هذه «الكتب الحقائق» من الضروري لكل مسلم، جادٌّ، غيرِ متخصص في العلوم الشرعية، أن يقرأها، بل أن يصطحبها ليعيد النظر فيها المرة تلو المرة بين حين وحين. بل من الضروري حتى لغير المسلم الذي يحترم الثقافة البشرية، ويودّ الاطلاع على البلاغة العربية في أكمل صورها، ويحرص على الاستفادة من الحكمة الإنسانية الكاملة المهتدية بالتسديد الإلهي، حيث يحني أرسطو وأفلاطون وأمثالهما رؤوسهم ذُلاً وخضوعاً، من الضروري أن

يقرأ هذه الكتب الأربعة في الحديث الشريف، التي وقع عليها اختياري بعد صحبة لها، وتفكير طويل، والله أعلم بصوابي!

وقد قلت قبل سطور: «غير متخصص في العلوم الشرعية» لسبب واحد هو أنّ المتخصص في «الحديث الشريف» قد يقول: إنه يرجع للأصول، هذه الكتب هي على الترتيب التالي:

١- رياض الصالحين ٢- مختصر صحيح البخاري ٣- مختصر صحيح مسلم ٤- الأذكار.

وإن شئتُ أن أضيفَ لها خامساً قلتُ: هو كتاب الشّفا بتعريف حقوق المصطفى صلّى الله عليه وسلم.

أولاً: رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي المتوفى عام (٦٧٦هـ) رحمه الله. وهو كتاب أشهر من أن يُعرَّف، ومع ذلك فلو سألتَ مئةَ مسلمٍ- لا على التعيين - كم واحداً منهم قرأه من أوّله إلى آخره، فلعلك لا تجد أحداً!!!

في الكتاب (١٨٩٦) حديثاً شريفاً في (٣٧٢) موضوعاً مختلفاً. قال المؤلف عنه: إنه مختصرٌ من الأحاديث الصحيحة، مشتمل على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، والتزم ألا يذكر في الكتاب إلا حديثاً صحيحاً.

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط الذي حقّق الكتاب في إحدى طبعاته الجيدة: «إنه وجد في الكتاب (٤٦) حديثاً ضعيفاً لم يجدْ لها ما يقوّيها، لأن المؤلف تابع الإمامَ الترمذي رحمه الله في تحسينها، وسكوتَ الإمام أبي داود رحمه الله عنها. وعلى هذا الرأي يكون حوالي (٩٨) في المئة من الأحاديث الواردة في هذا الكتاب المبارك صحيحاً بالإجماع وأظن أن هذا يكفي!

ثانياً: مختصر صحيح البخاري المسمّى: التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزَّبيدي، مُحدِّث البلاد اليمنية في عصره، المتوفى عام (٨٩٣هـ) رحمه الله. وقد بلغت أحاديث هذا المختصر (٢٢٣٠) حديثاً، كلها صحيح إن شاء الله تعالى.

إن أصحّ وأشهر وأعظم كتاب في الحديث هو كتاب الإمام البخاري المتوفى عام (٢٥٦هـ) رحمه الله ورضي عنه وأرضاه. لكنه- كما يقول الإمام النووي في مقدمته لشرح صحيح الإمام مسلمٍ رحمهما الله -: «يذكر الوجوه المختلفة في أبواب متفرقة متباعدة، وكثير منها يذكره في غير بابه الذي يسبق إليه الفهم أنه أولى به، فيصعب عل الطالب جمع طرقه، وحصول الثقة بجميع ماذكره من طرق الحديث. وقد رأيتُ جماعةً من (الحفاظ) المتأخرين غلطوا في مثل هذا، فنفوا رواية البخاري أحاديث هي موجودة في صحيحه في غير مظانّها السابقة إلى الفهم».

يقول الإمام الزبيدي، صاحب المختصر: «لذلك أحببت أن أجرّد أحاديثه من غير تكرار، وجعلتها محذوفة الأسانيد ليقرُب تناول الحديث من غير تعب. وإذا أتى الحديث المتكرر أُثبتُه في أول مرة، وإن كان في الموضع الثاني زيادةٌ فيها فائدة ذكرتها وإلا فلا. وقد يأتي حديث مختصر، ويأتي بعدُ في رواية أخرى أبسطَ، وفيه زيادة على الأول فأكتب الثاني. وأترك الأول لزيادة الفائدة».

وقد طُبع هذا الكتاب الثمين طبعة جيدة في دار النفائس، بتحقيق: إبراهيم بركة. وهو في مجلد واحد، وعدد صفحاته (٦٣٠) صفحة وفيه حواشٍ كثيرة لشرح الأحاديث الشريفة والتعليق عليها، وعدد من الفهارس العلمية، وملحق للتعريف برواة الأحاديث.

ثالثاً: مختصر صحيح الإمامِ العَلَمِ، تلميذِ الإمام البخاري، مسلمِ بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة (٢٦١هـ) رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه. وقد قام باختصاره الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري. المتوفى سنة (٦٥٦هـ) رحمه الله تعالى، وهو صاحب الكتاب الشهير: الترغيب والترهيب. قال عنه الإمام الذهبي: «لم يكن في زمانه أحفظُ منه».

وقد حقّق الكتاب الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، وطبع في مجلد واحد كبير في (٦٤٧) صفحة. وبلغ عدد أحاديث المختصر (٢١٧٩) حديثاً.

يقول المنذري رحمه الله في مقدمته: «هذا كتاب اختصرته من صحيح الإمام مسلم اختصاراً يُسهِّله على حافظيه، ويُقَرِّبُهُ للناظر فيه، ورتبته ترتيباً يُسرع بالطالب إلى وجود مطلبه في مظنّته، وقد تضمّن - مع صغر حجمه - جُلَّ مقصود الأصل».

رابعاً: كتاب (الأذكار) للإمام النووي أيضاً. وهو أشهر من أن يُعرَّف كذلك، وقد قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط الذي خدم إحدى طبعاته خدمةً جيدة: هو كتاب لا يستغني عنه طالبو الآخرة الأخيار، حتى قال بعض العلماء الذين عليهم المدارة: «بِعِ الدار واشترِ الأذكار»، ولذلك عُني به العلماء عناية عظيمة، فمنهم من شرحه ووضّحه، ومنهم من اختصره وهذّبه... إلخ. ولعله أثمن كتاب في موضوعه، يغني عن غيره، ولا يغني عن سواه.

قال المؤلف عن كتابه: «... وأحذف الأسانيد إيثاراً للاختصار، ولكونه موضوعاً للمتعبدين، وليسوا إلى معرفة الأسانيد متطلّعين. ولأن المقصود به معرفة الأذكار النفائس من علم الحديث، ودقائق الفقه، ومهمات القواعد، ورياضات النفوس، والآداب التي تتأكد معرفتها على السالكين، وأذكر جميعَ ما أذكره موضّحاً بحيث يسهُلُ فهمه على العوامّ والمتفقهين».

خامساً: كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، هو أجمع كتاب في فضائل نبينا عليه الصلاة والسلام، وشمائله، ومعجزاته وحقوقه، وجميع ما يتعلق به، وهو كتاب حافلٌ عظيم الفائدة، عمّ المشارق والمغارب، ولا تخلو مكتبة عالم منه. له أكثر من (٣٠) شرحاً. وخرّج أحاديثه عدد من العلماء. مؤلف الكتاب هو: القاضي عياض بن موسى اليحصُبي الأندلسي الذي ولد بسبتة، وتوفي في مراكش عام (٥٤٤ هـ) رحمه الله. وكان إماماً مجتهداً، ومحدثاً، فقيهاً، شاعراً، أديباً، خطيباً.

غير أن في الكتاب أحاديثَ ضعيفة، وأُخرَى لا أصل لها، وأقوالاً لا مستند لها، ومن فضل الله أنْ وفّق الشيخَ الفاضل المحدّث المربيّ عبد الله بن عبدالقادر التليدي، من علماء طنجة إلى تهذيب الكتاب فحذف أسانيد المؤلف، ونقّى الكتاب من الأحاديث الضعيفة والأقوال الواهية، وخرّج أحاديثه؛ فجاء الكتاب في مجلد واحد يقع في (٥٨٤) صفحة، مطبوع طباعة أنيقةً مُشرقة، وسماه: إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشُفا.

هذه- أيها القارئ الكريم- خمسة كتب، إن لم تكن بالنسبة للمسلم المثقف الجادِّ الحريصِ على دينه ودنياه أهمَّ ما ينبغي له أن يَقْتَنِيَهُ ويقرأه، ويحرصَ عليه، فهي في مقدمة أهمّ هذه الكتب.

وأُكرّر: إن الانتفاع بها يزداد كلّما ازداد المرءُ قراءةً لها، وتأملاً في معانيها، وتطبيقاً لما جاء فيها.

والقيام بهذا العمل- على مستوى الفرد- نقلةٌ في حياته عظيمةٌ، وعلى مستوى الأمة خطوةٌ من أهمّ الخطوات للخروج من العطالة إلى الفاعلية، ومن التخلّف إلى التقدم، ومن الجهل إلى العلم، ومن الذِلة إلى العِزة. والله الموفق.

٦٤

هندسة النفس الإنسانية، دعوة إلى التفوق

من الظواهر التي أسعدتني تزايد الاهتمام بالقدرات التي يملكها الفرد، ومعرفة الإنسان للطاقات التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيه، وحسن الاستفادة منها، لكي يُحقّق (المسلم) الهدف الأساس من جعل الله له خليفةً في الأرض، ولكي يعيش حياة: ناجحة، سعيدة، مطمئنة، عامرة بالعطاء.

وظهرت في السّوق العربية كتب كثيرة، جُلُّها مترجم عن الإنجليزية، وأغلب هذه الترجمات سيئة، وبعضها يغيّر المعنى للنص الأصلي تغييراً كاملاً. أذكر مثالاً واحداً على ذلك:

يتحدث ستيفن كوفي في كتابه الشهير «العادات السبع للأشخاص الأكثر نجاحاً»، وحتى هذه الترجمة للعنوان ليست دقيقة؛ إذ الترجمة الحرفية هي: (العادات السبع للأشخاص ذوي التأثير العالي). يتحدث عن دائرتين تحيطان بالإنسان، له تأثير في إحداهما، وليس له تأثير في الأخرى، مع أنها تهمّه يسمي الأولى: «دائرة التأثير»، والثانية: «دائرة الاهتمام».

فهل يصدق القارئ الكريم أن إحدى الترجمتين اللتين اطّلعت عليهما لهذا الكتاب، ترجم صاحبها، دائرة الاهتمام» «بدائرة الهموم »؟! وهذا من أوّل الكتاب سيفهم القارئ المسكين مراد المؤلف؟!

أمامي - الآن - حوالي عشرة كتب باللغة العربية، ومثلها باللغة الإنجليزية، حول هذا الموضوع: كيف تنجح، وتتفوق، وتكون سعيداً في حياتك، وتُطلِق

قدراتك من عُقُلِها، وكيف تفكر بشكل جيد، وماذا تأكل، وكيف تمارس الرياضة البدنية، وكيف تتخلص من القلق... إلى آخر هذه الموضوعات التي سمّاها برايان تريسي: علم نفس النجاح، وسمّاها الدكتور محمد التكريتي هندسة النفس الإنسانية في كتابه. آفاق بلا حدود، ترجمةً (للبرمجة اللغوية العصبية) التي صارت (موضة) هذا الميدان الآن، وصار يرمز لها بالحروف الثلاثة الأُوَلى: النون، واللام، والباء المشدّدة (NLP).

كثير من هذه الكتب (العربية) فيها فوائد طيّبة. لكنّ القارئ العربي ينبغي أن يكون يقظاً في قراءته، لأنه ربما يقرأ أشياءَ مختلفة عن الأصل، وربما يقرأ أخطاء!! ولكنْ لا حيلة له إلا أن يقرأ بذهنٍ متفتّح، وعقل واعٍ.

نقطة أخرى: وقع أكثر المؤلفين أو الناشرين تحت تأثير العقلية التسويقية الغربية، التي ينطلي خداعُها على عقول السّذج، في الدعاية، وأنقل الآن نماذج دعاية واحدة منها بالحرف الواحد:

هل تودُّ أن تتعلم:

- لأول مرة في العالم
- أقوى الأساليب العالمية للتنمية البشرية؟
- تحسين جميع أركان حياتك؟
- تحقيق أهدافك.
- أحدث الطرق العالمية لفن الاتصال؟
- كيف تحصل على مزيد من السعادة والنجاح؟
- أسرار قوانين الطاقة والعقل؟

ثم: سيساعدك هذا (الكتاب) أو هذه (الدورة) التي ربما لا تزيد على (خمسة أيام) في جميع أركان حياتك بطريقة لم تكن تخطر لك على بال من

قبل، سواءً كان ذلك في حياتك الشخصية، أو العملية، أو الصحية، أو المادية!!
كما سيحقرك، ويملؤك بالنشاط، والحيوية، والطاقة الذهنية، والجسمانية، لأقصى الدرجات، وتمدك بأقوى أساليب النجاح والسعادة لتحقيق أهدافك وأحلامك..

هذا ما وجدته بالحرف الواحد دعاية (لا يليق تسمية كاتبها، أو كتابه)، فهل يدّعي هذا عاقل، وهل يصدّقه إنسان ناضج؟

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يدّعوا هذا، ولم يفعلوه مع أقوامهم، وإذا حصلت في تاريخهم المبارك (معجزاتٌ)، فهي أمور خارقة للعادة، يعجز عنها سواهم.

ثم إذا قرأت مايقولون، تجده كلّه تقريباً معروفاً، والموفّق فيهم من وفّق في حُسْن العرض والتقديم. وأقول (تقريباً) لأن كتابَيْ ديل كارينجي الشهيرين: «دعِ القلق وابدأ الحياة» و «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس»، هما- من وجهة نظري- فعلاً كتابان رائدان لم يُسبَق مؤلفهما إليهما. وترجمهما الأستاذ عبد المنعم الزيادي وطبعهما قبل أكثر من خمسين عاماً. وكانا في حينها قد ترجما إلى (٥٦) لغة!!!

وبالمناسبة، فقد قرأ العالمُ الأديب الداعية الشيخ محمد الغزالي المصري رحمه الله كتاب «دع القلق وابدأ الحياة»، فأُعجب به، وألّف كتاباً بعنوان «جدد حياتك»، قال في مقدّمته:

«لقد قرأت كتاب: دع القلق وابدأ الحياة للعلامة ديل كارينجي، الذي عرّبه الأستاذ عبد المنعم الزيادي، فعزمت فور انتهائي منه أن أردّ الكتاب إلى أصوله الإسلامية. لا لأن الكاتب الذكي نقل شيئاً عن ديننا، بل لأن الخلاصات التي

أثبتها بعد استقراء جيد لأقوال الفلاسفة والمربين، وأحوال الخاصة والعامة تتفق من وجوه لا حصر لها مع الآيات الثابتة في قرآننا، والأحاديث المأثورة عن نبينا».

أما ديل كارينجي مؤلف الكتاب الأصلي فقد قال في مقدمته:

«ويحسن أن أخبرك إنك لن تجد في هذا الكتاب شيئاً جديداً، ولكنك ستجد الشيء الكثير مما يتجاهله الناس. وهذا هو المهم... إننا نعلم مايكفي لأن يجعل حياتنا كاملة من جميع نواحيها، فَعِلّتنا ليست الجهل، وإنما هي التجاهل، ومَهمّة هذا الكتاب هي تكرار حقائق قديمة معروفة، مع تجسيمها، وإبرازها، لتحفزك على تطبيقها».

يقول د. محمد التكريتي: «نرى رجالاً ونساءً ذوي حظ وافرٍ من الذكاء، ولكنهم لم ينجحوا في حياتهم، ونرى في الجانب الآخر أشخاصاً أقلَّ ذكاءً ولكنهم شقّوا طريقهم وحققوا لأنفسهم سجّلاً حافلاً بالإنجازات..

«الهندسة النفسية طريقة تعين الإنسان على تغيير نفسه: إصلاح تفكيره، وتهذيب سلوكه، وتنقية عاداته، وشحذ همته، وتنمية ملكاته ومهاراته.. وعلى التأثير في غيره.. مهمتنا إذن: التغيير والتأثير. (أقول: وهل التربية غير هذا؟!!)

«الهندسة النفسية هي المصطلح العربي (الذي أقترحه) للبرمجة اللغوية للجهاز العصبي، أو برمجة الأعصاب لغوياً، ويرجع تاريخها إلى منتصف السبعينيات عندما وضع عالمان أمريكيان أصل البرمجة اللغوية للذهن، وبنيا أعمالهما على أبحاث تشومسكي وغيره. ونشرا اكتشافهما عام ١٩٧٥م في كتاب بعنوان: «بنية السحر». وامتدت تطبيقات (هذا العلم) إلى كل شأن يتعلق

بالنشاط الإنساني؛ كالتربية والتعليم، والصحة النفسية والجسدية، والرياضة، والتجارة، والدعاية، والتمثيل، والجوانب الأسرية والعاطفية، وغيرها ...

وحول نفس الموضوع يدور كتاب الدكتور إبراهيم القعيّد: «العادات العشر للشخصية الناجحة»، وهو ينجو من سلبية الترجمة، ويشترك مؤلفه مع د. التكريتي في أسْلَمَةِ وتعريبِ كثير من الموضوعات.

ولا أجد ما أختم به هذا المقال خيراً من الحكمة الشهيرة التي تُروى على أنها حديث شريف: «مَنْ عَرَفَ نفسه فقد عرف ربَّه»، وهي صحيحة المعنى وإن لم تكن حديثاً، والله تعالى أعلم.

٦٥

« رؤية غير سياسية لمأساة أفغانستان »

كلما حاولتُ أن أفهم في «السياسة» فهماً عميقاً، وأن أحمل نفسي على القراءة فيها أخفقت! فقلت: لماذا لا أدع المجال لأهله، وأشتغل في التربية والتعليم، الأمر الذي أقدر عليه، ورددّت قول الشاعر:

إذ لم تستطع شيئاً فدَعْهُ

وجاوزه إلى ما تستطيعُ.

قرأت في سورة آل عمران قول الله تعالى: ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وتوقّفت عند قوله سبحانه ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾، وأحببْتُ أن أرجعَ إلى بعض كتب التفسير لأزداد فهماً للآية الكريمة، فكانت الحصيلة السّطور التالية:

الآية تتحدث عن المصيبة التي حلّتْ بالمسلمين يومَ أحد. فقُتل منهم سبعون، وفرّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكُسرتْ رَباعيَتُه (بفتح الراء وكسر العَين، وعدم تشديد الياء: السّن بين الثنية والناب، وهي أربع:، رَباعيتان في الفك الأعلى، ورَباعيتان في الفك الأسفل)، وهُشّمت الخوذة على رأسه وسال الدم على وجهه الشريف!!

و﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾: يومَ بدر، إذ قتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين.

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾: من أين أصابنا هذا، ونحن مسلمون، ننصر دين الحق،

ومعنا الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعداؤنا ينصرون الشرك بالله، والكفر، فكيف انتصروا علينا؟!

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله، في تفسيره:

«واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجهين: الأول ما أدرجه عند حكاية السؤال، وهو قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يعني: أن أحوال الدنيا لا تبقى على نهج واحد، فإذا أصبتم منهم مِثْليّ هذه الواقعة، فكيف تستبعدون هذه الواقعة؟...

«الثاني: أنكم إنما وقعتم في هذه المصيبة بشؤم معصيتكم؛ وذلك لأنهم عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور: قال لهم: المصلحة في أن لا نخرج من المدينة وهم أبَوا إلا الخروج، فلما خالفوه توجَّه إلى أُحُد، وفشلهم، ومنازعتهم، وفارقوا المكان الذي أمروا بالاستقرار فيه وعدم مغادرته، واشتغالهم بطلب الغنيمة، فهذه الوجوه كلها ذنوب ومعاصي، والله تعالى إنما وعدهم النصر بشرط ترك المعصية... فلما فات الشرط، فات المشروط».

«انفسكم هي التي تخلخلتْ، وفشلت، وتنازعت في الأمر، وانفسكم هي التي أخَلّتْ بشرط الله وشرط رسوله صلى الله عليه وسلم، وانفسكم هي التي خالجتها الأطماع والهواجس، وانفسكم هي التي عصت أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام، فهذا الذي تستنكرون أن يقع لكم، وتقولون: كيف هذا؟ هو من عند انفسكم، بانطباق سُنَّة الله عليكم، حين عرّضتم انفسكم لها».

أكتفي بهذا القدر من الآيات الكريمة، مع أن القرآن المجيد زاخرٌ بالآيات التي تؤكد على هذا المعنى، وكذلك الأحاديث الشريفة، وأنظر نظرة إلى مأساة أفغانستان (ويقاس عليها مآسي المسلمين في كل مكان).

وأبادر فأقول: إنني حزينٌ أشدَّ الحزن لما أصاب هذا الشعب الشقيق، مُنكسر القلب على الأبرياء المظلومين، غاضبٌ على الظالمين المعتدين، ولكني كذلك غاضب على القيادات الأفغانية المتناحرة، المتنافسة، التي أحرقتها العَصَبية العِرقية الجاهلية المقيتة، غاضبٌ على الذين يريدون الدنيا منهم، ويقتتلون لأجلِ الزعامات في هذا البلد البائس، غاضب على الخونة الذين باعوا دينهم بعرض زائل...

لقد كانت المأساة فظيعة راح ضحيتها كثيرون من الأبرياء، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾، ومصداق ما جاء في الحديث الشريف: قالوا: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

والعيوب الموجودة لدى الشعب الأفغاني، موجودة بنسب متفاوتة في بقية الشعوب الإسلامية، وإلا فما السبب الأول والأهمّ لتخلّفها، وتداعي الأكلةِ عليها؟!

ربما يتألم بعض الناس من هذا الكلام، ويرون فيه قسوة وغلظة، لكني أخالفهم، وأرى أن أيام التعزية قد انقضتْ، ولابد من النقد الذاتي، ولا بُد من النصيحة لأنفسنا، ولإخواننا. وليس أحدٌ منا بمنجاةٍ من أن يصيبه مثلُ ما أصابهم إذا تحققت المقدمات التي تؤدي إلى نتائجها.

كلنا قرأنا عن هزيمة اليابان في الحرب العالمية، وكيف دُمرّتْ، وكلنا نرى أين وصلت اليابان اليوم، وما حققتْه ليس سِحراً. والأسلوب الذي انتهجتْه ليس سرّاً، واليابان دولةٌ غير مسلمة، لا تستفيد من قرآن كريم، وسُنّة مطهرة، لكنها عرفتْ أسبابَ الهزيمة والنصر، فأخذت بأسباب النصر، فوصلت إليه. فما

عذرنا نحن أمام أنفسنا، وأمام الأجيال القادمة وقبل كل ذلك وبعده أمام الله سبحانه الذي سيسألنا يوم القيامة عن تفريطنا، والذي قال لنا: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾، فتنازعنا، وفشلنا، فذهبت ريحُنا وقوّتنا! وقال لنا: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾، فلم نعتصمْ، وتفرّقنا، وحارب بعضنا بعضاً، وعادى بعضُنا بعضاً، وكفّر بعضنا بعضاً.

إن العودة إلى الله سبحانه، جزءٌ أساسٌ منها حُسْنُ عبادته، والانتهاءُ عن المحرمات، وفعلُ الطاعات، ولكنَّ الذي يتدبّر الكتاب والسُّنة يرى أن هناك أشياءَ أخرى لابد منها، مالمْ تتحققْ، سنظل أذلةً على الكافرين، مدفوعينَ بالأبواب، نتجرّعُ المهانة والمذلّة، ونقاسي مما نقاسي منه الآن.

مَنْ الذي يجبرنا على الرشوة، وأكل الحرام، والكذب، والخيانة، والغش، والكسل، وإضاعة الوقت، والفوضى، والحسد، والحقد، وترك الصلاة، واتباع الشهوات، والكبر، والعُجب... إلى آخر هذه القائمة؟ لا أحد.. لا اليهود، ولا النصارى، ولا الشرق، ولا الغرب، كلها أمراض تفتك بالأفراد والأمم. ولا بأس أن ندعو على الظالمين: الذين سرقوا أموالنا، وهتكوا أعراضنا، وسفكو دماءَنا، واخرجونا من ديارنا، وظاهروا على إخراجنا، وأودعونا السجون، وعاملوا مسجونينا وأسرانا معاملة وحشية.. لا بأس أن ندعو عليهم، بل يجب أن ندعو عليهم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا على الذين قتلوا سبعين رجلاً من الأنصار، وظل شهراً يقنت في صلاة الصبح ويدعو عليهم (كما ورد في صحيح البخاري) واقتداء بنوح عليه السلام، وبموسى عليه السلام اللذين دعوا على أقوامهما بعد اليأس من هدايتهم، ولكننا قبل ذلك، ومعه، وبعده يجب أن نعلم علم اليقين أن المسؤول الأول عن هذه النكبات والمصائب التي تحّل بنا هو نحن أنفسنا، ولو كنا: أتقياء، أقوياء، علماء عاملين، لخافوا منا كما

نخاف منهم، ولسالمونا كما نسالمهم، ولحسبوا لنا ألف حساب كما نحسب لهم، والذي تسول له نفسه إيذاءَنا، سيناله منا ما نناله نحن منهم الآن. ولنتدبر قول الله تعالى مرة أخرى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، ولنكرر مراراً: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ولنتدبر أيضاً قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ..﴾ [الرعد: ١١]، فالتغيير مالم يبدأ بالنفس لن يتحقق في الواقع الخارجي، وحوادث التاريخ كلّها تؤيد هذا. والله تعالى أعلم.

٦٦

«بانيم مخوعاروت بمرآة»: مناهجنا أم مناهجهم؟!

هذا عنوان باللغة العبرية، معناه: «وجه قبيح في المرآة»، لبحث نشره البروفيسور «أدير كوهين»، أستاذ أدب الأطفال بجامعة تل أبيب، وكان البحث نتيجة لدراسة محتوى (ألف) كتاب من كتب الأطفال في اللغة العبرية، أثبتت هذه الدرسة أن الإسرائيليين يصوّرون الإنسان العربي بصورة مخيفة، وينقشون هذه الصورة في أذهان الأطفال، ومع أن الشاهدَ الذي يدلي بهذه الشهادة منهم. فإن الغرب العادل الحرّ لا يعدُّ هذا تطرفاً وسبباً للإرهاب، ولا يطالب حكومة اليهود أن تعدّل مناهجها!

هذه الكتب تصور العربي بصورة القاتل، ذي الوجه القبيح، والأظافر الطويلة. وكانت نتيجة ذلك أن ٧٥٪ من الأطفال في المدارس الابتدائية الذين قابلهم كوهين قالوا له: «إن العرب يريدون قتلنا، واحتلال مدننا، وإلقاءنا في البحر»!

يقول الدكتور إبراهيم البحراوي. أستاذ الدراسات العبرية في جامعة عين شمس، في مقال له بعنوان: «الشّحن العدواني للنشء الإسرائيلي»:

إن المطالعة الفاحصة في برامج التعليم الرسمية المقررة في المدارس الإسرائيلية باللغة العبرية، خاصةً في مادة التاريخ، ومادة الصهيونية، وكذلك في الموسوعات الخاصة بالأعمار الصغيرة التي تصدر عن دار الموسوعات الرسمية الحكومية، تبين عملية التلقين، والشحن الفكري والعاطفي المشابهة لما

كان يحدث في المدارس الفكرية، كالمدرسة الفاشية، والمدرسة النازية، والمدرسة الشيوعية، التي تهدف إلى صبِّ عقول النشء الغض وقلوبهم في قوالب العنصرية والاستعلائية في رؤية الذات، ورؤية الآخر المغاير.

ولقد قام المؤلف الفاضل ببحث يكشف عن «مفاهيم ثقافة العدوان: في برامج التعليم للأطفال الإسرائيليين وفي مناهجهم الدراسية، وخاصة فيما يتعلق: بصورة الإنسان العربي، والتاريخ العربي، والثقافة العربية، والحق العربي في فلسطين، والدين الإسلامي عموماً. وأثبت أن هناك عملية تشويه فكرية لهذه المحاور جميعاً، تهدف إلى نزع الصفات الإنسانية عن العرب، وتصوير تاريخهم تصويراً يثير الفزع منهم. ويدعو إلى تحقيرهم، وتسهيل الفتك بهم لأنهم كائنات خطرة يجب المبادرة في القضاء عليهم، لأن ذلك ضرورة أمنية، حتى لا ينقضوا على الكيان الصهيوني.

إن تأمل المواد المنشورة في الموسوعات تحت عناوين مثل: الإسلام، والجزيرة العربية، المكتوبة بأقلام أساتذة للتاريخ في الجامعات الإسرائيلية لا تشوه حقائق التاريخ فحسب، بل تضع اليهود الأنذال المتآمرين موضع الضحية البريئة التي لقيت عقاباً لم تكن تستحقه. وأوضح مثال على ذلك موسوعة (انسيكلوبيديا لنوعر) التي لا تزال طبعاتها تتجدد حيناً بعد حين.

وفي مقال للشاعر الأستاذ هارون هاشم رشيد بعنوان: «الصهيونية في الكتب المدرسية الإسرائيلية»، يذكر عدداً من الكتب المقررة في المدارس اليهودية، يعطي اسم الكتاب، واسم المؤلف، والسنة الدراسية التي يدرسه طلابُها، ثم يقتبس من الكتاب ما يبين: الكذب، والبهتان وشحن الطلاب بروح العداء للعرب والمسلمين، كما يتعرض بالدراسة لقصص الأطفال ويعطي مثالاً عليها سلسلة قصص «داني رين»، وهو شخصية أسطورية، خارقة، متفوقة

قادرة على هزيمة العرب مهما كانت قدرتهم العسكرية. وتعتمد هذه السلسلة على الخيال، فداني رين شخص يَرى ولا يُرى، ومن عناوينها: «داني رين في حرب الأيام الستة». «داني رين بين الوحوش الضارية» و«داني رين في جهاز التجسس» و «داني رين في الطائرة المخطوفة»..

تهدف هذه القصص إلى عدد من الأهداف، منها:

١- غرس الحقد ضد الدول العربية جميعها.

٢- تقوية ثقة الأطفال اليهود بجهاز الأمن الإسرائيلي، وترغيبهم في العمل معه لمصلحة الوطن.

٣- تعويد الأطفال على الحذر الدائم من الجواسيس العرب الذين يحملون أسماءً عبرية، ويجيدون التحدث بالعبرية.

٤- الاستهزاء بشبكات التجسس العربية لأنها لم تستطع اكتشاف «داني دين».

٥- إبراز التقدم الحربي الإسرائيلي بشكل يضفي روح الاطمئنان على الأطفال، لتفوقهم في استعمال آلات الحرب والدمار.

٦- إظهار داني رين، واليهود عامة ، بمظهر العباقرة الذين يدمرون الخطط، ويكشفون شبكات التجسس.

٧- تخويف الأطفال اليهود من التجسس لصالح العدو، لأن أجهزة تجسس الأعداء مخترقة من قبل اليهود.

ثم يخلص الكاتب إلى أن المرتكزات التي قامت عليها العملية التربوية في دولة اليهود هي:

١- تخريج الطالب اليهودي متعصباً لعنصره، حاقداً على الآخرين، لاسيما العرب الذين اغتصبوا أرضه.

٢- ربط كل بقعة من فلسطين بالتاريخ القديم لليهود.

٣- غرس حب التوسع في نفس اليهودي، وإشعاره أن كل بقعة يحتلها مجبولة بدم اليهود وعرقهم عبر العصور.

٤- السعي الدائب لاسترداد الأرض واجب مقدس.

٥- غرس الاستعداد للقتال حتى الموت في نفوس الطلاب لأنهم مهددون بالفناء، وهذا الشعور يتخذ ذريعة للاعتداء تحت غطاء الأمن والاطمئنان.

٦- إحساس الطالب أن حياته متوقفة على موت الآخرين.

هذه المقتطفات مقتبسة من كتاب المعرفة رقم (٢)، الذي تنشره مجلة المعرفة الشهرية، التي تصدرها وزارة التربية والتعليم السعودية، وعنوان الكتاب: «التعليم في إسرائيل: ديني أم علماني؟»، وفيه مقالات قيمة لتسعة كتّاب. وهو مرجع عربي جيّد لمن يهمه هذا الموضوع.

يقول الأستاذ زياد الدريس رئيس تحرير مجلة المعرفة في تقديمه للكتاب:

«صرفنا جهد سنوات طويلة في تعاطي السياسة مع إسرائيل فلم ننجح! وصرفنا أموالاً كثيرة في تكديس السلاح العربي (لإرهاب) إسرائيل، فلم تنسحب! وصرفنا، وصرفنا.. ومازالت (إسرائيل) حيةً كالحية!

«ماذا علينا لو جرّبنا اقتحام خنادق أخرى للمواجهة؟

«نحن هنا في (المعرفة) أردنا أن نقتحم خندق التعليم، لأننا ندرك وتدركون أن التعليم هو أول جرعة يتعاطاها الطفل اليهودي- وكافة أطفال العالم- قبل أن يتعاطى الاقتصاد، والسياسة والعسكرية.

«إذا كان هذا هو الترتيب المنطقي لمدخلات الطفل: التعليم، ثم الاقتصاد، فالسياسة، فالعسكرة، فلا بد أن يكون سرّ انتصارهم يقبع خلف تعليم ينمّي

روح الانتصار، ولا بد أن يكون سرّ هزيمتنا- نحن العرب- يقبع خلف تعليمٍ ينمّى روح الهزيمة، أو- على الأقل- لا ينمّي روح الانتصار!!

«نحن لا نزعم أن تقديمنا ملف (التعليم في إسرائيل) هو الذي سيطفئ المدفع الإسرائيلي، لكننا ندعو إلى النظر في تاريخ الصراع، ومراجعة الحسابات، ندعو إلى تبني الطرح التربوي والتعليمي في قضايانا كافة. ندعو إلى تشجيع الدراسات الجادة في هذا الشأن، وأخذها مأخذ التحليل والمقارنة بين مواطن القوة ومواطن الضعف.

«ففي التعليم اليهودي تكمن جميع الأسرار! والتعليم هو الذي يغيّر خريطة العالم»!

وفي الكتاب مقال بعنوان: «الجذر الديني للتعليم في الدولة العبرية» للأستاذ زين العابدين الركابي ينقل فيه تفسير وزير الشؤون الدينية في دولة اليهود لانتصارهم على العرب عام ١٩٦٧م. فيقول: «إننا آمنّا بعقيدة التوراة، ثم خدمنا هذه العقيدة بأساليب علمية»، كما ينقل قول الكاتب اليهودي المخضرم «يهيل مايكل باينز» المتوفى عام ١٩١٢م: «إن أي شعب آخر يستطيع أن تكون لديه تطلّعات وطنية منفصلة عن الدين، أما نحن اليهود، فلا نستطيع ذلك!».

يقول الأستاذ الركابي: «إن الواقع الماثل شاهدٌ قويٌّ فصيح على (الصّبغة الدينية) لكيان بني إسرائيل. فقاتل إسحاق رابين، أقدم على فعله بدافع ديني تلقاه في المدرسة والجامعة لأن رابين (يميّع) الصراع مع العرب، وينتقص من (نقاء) الدولة اليهودية.. واجتياح القدس بالمستوطنات يعللونه بأساطير دينية، واستجلاب مزيد من اليهود إلى فلسطين المحتلة مسنود بمزاعم دينية، ونظرية (التفوق المطلق) على العرب مستمدة في الأساس من تاريخ عسكري ديني هو

تفوق - داود عليه السلام - الذي يمثل اليهود بزعمهم، على جالوت الذي يمثل العرب بزعمهم أيضاً ...».

ثم ينهي المقال بقوله: «التفسير العربي الذي يجرّد الصراع مع اليهود من المضمون الديني (وأقول: من المضمون القرآني الإسلامي النبوي، بدلاً من الديني) يخدم اليهود خدمة مجانية كبرى. فهذا التجريد يفرّغ الصراع في جانبه العربي من التعبئة الدينية المكافئة، في حين يظل الطرف الإسرائيلي مُدَرَّعاً بمثل هذه التعبئة. وهذا هو أحد عوامل التكافؤ في الصراع».

أتساءل الآن: أيّ المناهج - أيها الغربيون المنصفون العادلون الأحرار، الذين لم تستعمروا في يوم من الأيام ديارنا، ولم تسفكوا دماءنا، ولم تأخذوا أموالنا، ولم.. ولم... - أي المناهج يجب أن يغيّر لأنها تدعو إلى التطرف والإرهاب؟؟!! مناهجنا أم مناهجهم؟

٦٧

هل المدفأة معطَلة

كان لرجل متوسط الحال يعيش في إحدى العواصم أمٌّ عجوز تعيش منفردة في بلدة نائية، قارسة البرد في الشتاء، فاقترض من صديق له مبلغاً من المال، واشترى مدفأةً كهربائية بعث بها إليها، وكانت المدافئ الكهربائية حديثة عهد بالظهور، حداثة دخول الكهرباء إلى تلك البلدة النائية. واطمأن ضميره إلى أن والدته التي جاوزت سبعينها تنعم بالدفء. وبعد بضعة أشهر زار أمه فوجد المدفأة في صندوقها، فقال لها: آمل أن تكوني قد استفدت من المدفأة يا أماه؟ قالت: إن المدفأة لا تعمل يا بنيّ، وما أردت إخبارك حتى لا أزعجك أو أحرجك!! فتعجب الرجل، وتألم، وأخرج المدفأة، ووضع سلكها في (الآخذ)، وضغط على بعض أزرارها، فأضاءت، واشتغلت المدفأة الجديدة، ولم يكن فيها أي عطل!!

لقد قضت الأم المسكينة شهور الشتاء القارس، ووسيلة الدفء بجانبها، ولكنها لجهلها بكيفية استعمالها. لم تنتفع بها؟!

ذكرتُ هذه القصة بين يدي تساؤلٍ مهمّ لدي، قديمٍ قديم، ووددتُ أن أضعه أمام أنظار القارئ الكريم لعلّه يجد فيه ما يفيد. تساؤلي:

لماذا لا انتفع بصلاتي؟؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فيذكر تعالى عدداً من أسباب فلاحهم أولها: الخشوع في الصلاة!

قال العلامة أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى عام (٣٩٥هـ) رحمه الله في معجمه الفذّ: «مقاييس اللغة»: الخاء، والشين، والعين، أصل واحد يدلّ على التطامن. يُقال: خَشَع، إذا تطامن وطاطأ رأسه.. وهو قريب المعنى من الخضوع، إلا أنّ الخضوعَ في البدن، والإقرار بالاستخذاء، والخشوع في الصوت والبصر. قال ابن دريد: الخاشع: المستكينُ، والرّاكع.

وقال العلامة الراغب الأصفهاني: الخشوع: الضراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تُستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما رُوي: إذا ضرع القلبُ خشعتِ الجوارح.

وجاء في تفسير ابن كثير رحمه الله: «خاشعون: خائفون ساكنون. وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع حشوع القلب. وقال الحسن البصري رحمه الله: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح... والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذٍ تكون له راحةً وقرة عين. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة)، وكان يقول لبلال رضي الله عنه: (أرِحْنا بالصلاة)، فهي له عليه الصلاة والسّلام راحةٌ، وسرور، واطمئنان، وكيف لاتكون وهو الإنسان الكامل الذي يقف بين يدي ربه تعالى يناجيه؟!

قال في «الظلال»: «تستشعر قلوبهم رهبةَ الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح، والملامح، والحركات. ويغشى أرواحَهم جلالُ الله في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه، وهم مُستغرقون في الشعور به، مشغولون بنجواه. ويتوارى عن حسّهم في تلك الحضرة القدسية كلُّ ما حولهم، وكلُّ ما بهم، فلا يشهدون

إلا الله... ويتطهر وجدانهم من كل دنس، وينفضون عنهم كل شائبة، فما يضمّون جوانحهم على شيء من هذا مع جلال الله.. عندئذ تتصل الذّرة التائهة بمصدرها، وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب الموحش مثواه. وعندئذ تتضاءل القيم، والأشياء، والأشخاص، إلا ما يتصل منها بالله سبحانه وتعالى».

وفي صحيح الإمام البخاري رحمه الله، عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (بعد أن توضأ): «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلّى ركعتين لا يُحدّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه».

قال الإمام العلاّمة الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري: «المراد بـ : (لايحدّث فيهما نفسه) ما تسترسل النفس معه ويمكن للمرء قطعُه.. فأما ما يهجم من الخطرات والوساوس، ويتعذّر دفعه فذلك معفوٌ عنه.

ونقل القاضي عياض رحمه الله عن بعضهم أن المراد: من لم يحصُلْ له حديث النفس أصلاً. وردّه الإمام النووي رحمه الله فقال: الصواب حصول هذه الفضيلة مع وجود الخواطر العارضة غير المستقرة. نعم، من لم يحصل في نفسه حديث أصلاً. أعلى درجةً بلا ريب. ثم إن تلك الخواطر منها ما يتعلّق بالدنيا، والمراد دفعه مطلقاً وقد ورد في إحدى روايات هذا الحديث: «لا يحدث نفسه بشيء من الدنيا»، ومنها ما يتعلق بالآخرة، فإن كان أجنبياً (يعني: إذا كان الخاطر ليس له علاقة بالصلاة، والله أعلم) أشبه أحوال الدنيا، وإن كانت له صلة بتلك الصلاة، فلا». انتهى النقل بشيء من التصرف.

روى الإمام أبو داود رحمه الله في سننه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل لينصرف، وما كُتب له إلا عُشْرُ صلاته، تُسعُها، ثُمُنُها، سُبُعُها، سُدُسُها، خُمُسُها، رُبُعُها، ثُلُثُها، نِصفُها».

وهذا الحديث الشريف يشهد للأثر الذي روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أو عن غيرهم: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَل منها»، كما يشهد له الحديث الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: «رُبَّ قائمٍ حظُّه من قيامه السهر»، ويرى الإمام الفخر الرازي، صاحب التفسير الكبير أن الخشوع في الصلاة واجب، ويستدل على ذلك بأدلة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟!

والتدبر لايُتصوّر بدون الوقوف على المعنى.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾، وظاهر الأمر للوجوب، والغفلةُ تضادّ الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً الصلاة لذكره سبحانه.

٣- مارواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «عِظْني وأوجز. فقال: «إذا قُمْتَ في صلاتك فصلِّ صلاة مُوَدِّع، ولا تكلَّمْ بكلام تعتذر منه غداً، وأجمع الإياس مما في يد الناس».

والذي أفهمه من (صلاة المودع) أنها آخر صلاة للمرء يودع بها الدنيا ليستقبل الآخرة. فكيف يكون خشوعه، وحضور قلبه، وخوفه، ورجاؤه، إلى آخر ذلك من المشاعر.

خلاصة ما أريد عرضه على القارئ الكريم في هذه المقالة لنشترك في التفكير فيه: أننا نصلي ولا نصلي!! نصلّي ظاهراً؛ نركع ونسجد، ونتشهد ونسلّم، ولكنّ آثار الصلاة في الفرد والمجتمع لا تكاد تُرى.. وهذه مشكلة من أكبر المشكلات -فيما أرى- تحتاج منا إلى اهتمام بالغ. ولا أظن أن حلّها عويص، كل ما يحتاجه هو: إدراك المشكلة، ثم التدرب والتّمرن على الخشوع في الصلاة، بحذف العلائق، واختيار المكان المناسب، وخير الأماكن المساجد، ثم التفكر فيما نقرأ، وإطالة التسبيح في الركوع والسجود مع التأمل، واستشعار عظمة الله سبحانه، وعندئذ نتقدم قليلاً قليلاً، ومالا يدرك كلُّه يدرك بعضه، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

٦٨

مالكٌ وما أدراكَ مَنْ مالك؟!!

تُعرف أقدار الرجال بموازين عدة، منها: سيرتهم وسلوكهم، ومنها ما خلّفوه وراءهم من آثار وأعمال، ومنها ما قاله الخيّرون فيهم. فإن كان حاصل هذه المقاييس، أو أحدِها، أو أكثرَ منها، عظيماً. كان قدر الرجل عظيماً. وبهذه المقاييس كلّها، وبكثير غيرها، كان الإمام مالك، إمام دار الهجرة، عظيماً، بكل ماتعنيه العظمة من آفاق وأعماق، وأبعاد وامتداد، فرحمه الله وأكرم مثواه، ورضي عنه وأرضاه، وجمعنا به في دار كرامته لحّبنا إياه، «فالمرء مع من أحبّ»، كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

روى عددٌ من الأئمة الكبار، أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أسانيدها مقال، لو صحّتْ لكانت أعظم ثناء يمكن أن يناله رجل بعد أصحاب نبينا صلوات الله وسلامه عليه؛ منها:

- عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالماً من عالم أعلم المدينة».

قال الإمام سفيان بن عينية: أظنه مالكَ بن أنس.

- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخرج الناس من المشرق والمغرب، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم أهل المدينة».

أما ماقاله الأئمة العظام في هذا الإمام العظيم فكثير أجتزئ منه بما يلي:

- قال الإمام العلمُ سفيان بن عيينة رحمه الله: وما نحن عند مالك بن أنس؟ إنما كنا نَتَّبَّعُ آثار مالك، وننظر الشيخَ إن كان كتبَ عنه مالكٌ كتبنا عنه.

وابن عيينة هو الذي يقول عنه الإمام الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب عِلمُ الحجاز!

- ويقول الشافعي رحمه الله عن أستاذه: مالك بن أنسٍ معلّمي، وعنه أخذت العلم. ويقول: إذا جاءك الحديث عن مالك فشُدَّ به يديك. وإذا جاء الأثر فمالكٌ النجم. ويقول: إذا ذُكر العلماء فمالكٌ النجم، وما أحدٌ أَمَنُّ عليَّ من مالك بن أنس.
- وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله: ما رأيت أحداً أعقلَ من مالك بن أنس.
- وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، يا أبا عبد الله، رجل يريد أن يحفظ (الحديث الذي يرويه رجل واحد بعينه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، حديث مَنْ ترى له؟ قال: يحفظ حديث مالك!!
- وقال الإمام يحيى بن معين رحمه الله: كان مالكٌ من حُجج الله على خلقه.
- وقال الإمام النَّسائي رحمه الله: أمناء الله عزَّ وجلَّ على علم رسوله عليه السّلام. شُعبةُ بن الحجّاج، ومالك بن أنس، ويحيى بنُ سعيد القطان. وما أحدٌ عندي - بعد التابعين - أجلّ من مالك بن أنس، ولا أحد آمَنُ على الحديث منه.

هذه ستة نُقولٍ، هي غيضٌ من فيض الثناء على الإمام مالك رحمه الله، من عظماء يعرفون أقدار الرجال، فيها الكفاية إن شاء الله.

اختُلف في السنة التي ولد فيها الإمام مالك، قيل (٩٣) للهجرة وقيل (٩١) هـ، وقيل (٩٤) هـ. وتوفي عام (١٧٩) هـ رحمه الله تعالى.

روى عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد من الأئمة الأعلام، منهم: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وشعبة بن الحجاج، والأوزاعي، والليث ابن سعد، وكلهم مات قبله إلا ابنَ عيينة.

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله: ما زال العلماء يروي بعضهُم عن بعض، لكن رواية هؤلاء الأئمة الجِلّة عن مالك وهو حيّ، دليلٌ على جلالة قدره، ورفيع مكانه، في علمه ودينه، وحفظه وإتقانه.

أما الذين رووا عن كتابه (الموطأ) فقد قدّرهم الإمام الدار قطني بحوالي ألف رجل!

كان مالك رحمه الله شديداً في نقد الرجال، لا يأخذ الحديث إلا عن الثقات. قال: أدركت جماعة من أهل المدينة، ما أخذت عنهم شيئاً من العلم، وإنهم لَمِمَّنْ يؤخذ عنهم العلم.

وقال: إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم. لقد أدركت سبعين ممّن يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين، وأشار إلى الأعمدة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أخذت عنهم شيئاً، وإنّ أحدهم لو اؤتُمِنَ على بيت مال لكان به أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل الشأن، وقدم علينا ابنْ شهاب الزُّهري فكلّنا نزدحم على بابه (لكي يحدثنا).

وكان الإمام مالك رحمه الله آية في سرعة الحفظ وقوة الذاكرة، سمع من الإمام الزهري نيفاً وأربعين حديثاً بأسانيدها مرة واحدة، فأعاد عليه منها أربعين حديثاً في اليوم التالي! ولهذا قال الأئمة النقاد: كان أحفظ أهل زمانه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما فضائله الشخصية وأخلاقه، فهي كذلك بحرٌ يغرق فيه أمثالنا في هذا الزمان، إذ كان إلى جانب علمه، متواضعاً، تقياً، عفيفاً، ورعاً...

سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري! وقال خالد ابنُ خِداشَ: قدمتُ على مالك من العراق (إلى المدينة المنورة) بأربعين مسألة، فسألتهُ عنها، فما أجابني منها إلاّ في خمس مسائل. وقال مالك: كان (التابعي الثقة) ابنُ عجلان يقول: إذا أخطأ العالم قول: (لا ادري) أُصيبتْ مقاتلُه. وروَى: ينبغي للعالم أن يورِّثَ جلساءه قولك (لا أدري)، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه (أي: دستوراً يلجؤون إليه)، فإذا سُئل أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري.

ولما حجَّ الخليفة أبو جعفر المنصور، دعا الإمام مالكاً، وأخبره بعزمه على أن يامر بنسخ كتابه (الموطأ). ويبعث بنسخه إلى الأمصار ويأمر الناس بالعمل به، وترك ما دونه، لأنّ أصلَ العلم روايةُ أهلِ المدينة وعلمُهم.

فأجاب مالكٌ الخليفةَ: «لا تفعلْ هذا، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سِيق لهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلافِ أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرِهم، وإنَّ ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدعِ الناس وما هم عليه، وما اختار أهلُ كلّ بلد لأنفسهم».

وكان مالك - رحمه الله - رجلاً مهيباً، وجيهاً عند العامة وعند السلاطين على حدّ سواء. قال: دخلت على أبي جعفر، فرأيتُ غير واحدٍ من بني هاشم يُقبّل يده المرّتين والثلاث، ورزقني الله العافية من ذلك، فلم أقبّل له يداً.

ولما طلب إليه الخليفة المهدي أن يصحبه إلى مدينة السلام، قال لرسول الخليفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، ولم يذهب!

وكما امتُحن غير مالك رضي الله عنه عند الولاة امتحن هو أيضاً، وذلك لجرأته في الحق وعدم كتمانه للعلم:

ذُكر أن الخليفة المنصور نهاه أن يحدّث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس على مُستكرهٍ طلاق»، ثم دسّ إليه من يسأله عنه فحدّث به على رؤوس الناس. وقد غضب عليه والي المدينة، فجرّده من ثيابه، ومدّه، وضربه بالسياط (وكان عمره إذ ذاك حوالي ٥٥ سنة!)، ومُدّت يده حتى انخلعت كتفه! حتى كان بعد ذلك إذا قام من مجلسه حمل يده المتضرّرةَ بيده الأخرى!!

قال إسماعيل بن أبي إدريس: اشتكى مالكٌ، فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت، فقالوا تشهّد، ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد. وتوفي صبيحة (١٤) من شهر ربيع الأول سنة (١٧٩) هـ، ودفن بالبقيع، وكان عمره حوالي (٨٥) سنة رحمه الله ورضي عنه.

هل نحن بحاجة إلى معجم جديد؟

قبل حوالي (١٤) قرناً قال سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، (الذي وصفه النبي المعصوم عليه الصلاة والسلام بالعبقري الذي لم ير عبقرياً يأتي بالعجب مثله، انظر صحيح البخاري، كتاب المناقب)، قال:

«تعلّموا العربية فإنها تثبّتُ العقل». (انظر: صبح الأعشى- القلقشندي: ٢٠٥/١)

إن اللغة للفكر كالأرقام للحساب، إذ لا يمكن تصور عملية حسابية بدون أرقام، مع أن الحساب- من حيث هو عملية عقلية- شيء، والأرقام شيء آخر، كذلك لا يمكن تصور فكرة بدون ألفاظ. إن للفكر حرماً منيعاً عزيزاً ليس له إلا طريقٌ واحدة تؤدي إليه هي الألفاظ، أي الكلام. (انظر: اللسان والإنسان- د. حسن ظاظا: ٧٥-٧٩).

يقول جوزيف جاسترو في كتابه: «التفكير السّديد»:

«إن جزءاً كبيراً من تفكيرنا يجري في ألفاظ. والكلام والكتابة يبلوران الألفاظ وينظمانها. إن التدرب على الاستعمال الصحيح للّغة، وتوسيع دائرة المفردات هو أحد أنواع التدرّب على التفكير. وإن معرفتك كيف تقول ما تفكر فيه بشكل سديد مبدأ من أهم مبادئ (الصحة المنطقية)، إذ الفكر ينضجُ عن طريق التعبير..».

ولن أمضي في التدليل على أهمية إتقان اللغة (وأقصد اللغة الأم لأي إنسان- وأخصّ هنا اللغة العربية التي أكرمنا الله سبحانه فجعلنا من أبنائها، فلم يعرف أكثرنا قدر هذه النعمة!). فلذلك مجال آخر.

إنني كلما (دخلت) إلى قسم المعاجم الإنجليزية في المكتبات الضخمة، خاصةً في البلاد الناطقة بها، أشعر بالأسى يعتصر قلبي على تقصير أبناء العربية في خدمة لغتهم الرائعة. وأشعر بالإعجاب بالجهود الهائلة المدهشة التي يبذلها أبناء اللغات الأخرى، الحيَّة بحياة أبنائها. وأقول: ما أحوجنا إلى عشرات المعاجم، تتبناها المؤسساتُ العلمية المبعثرة في الوطن العربي لعلها تُسهم في إيقاظ العقل والفكر، فيتَّجهان إلى العلم الذي يثمر العمل!

ولأكُفَّ عن التحسّر، وأتحدثْ عن مشروعٍ يبعث في النفوس بعضَ الأمل، كما تبعثه في نفس مَنْ أضناه بردُ الشتاء رؤيةُ زُهيراتٍ ملونة مُعلنةٌ قدوم الربيع!

«معجم المفردات اللغوية لطلاب المرحلة الابتدائية»

هذا مشروع تبنته وزارة التربية والتعليم، الباحث الرئيس فيه الدكتور علي ابن صالح الخبتي، هدفه إعداد معجم خاص لطلاب المرحلة الابتدائية من التعليم العام (بنين وبنات)، يشتمل على الكلمات التي يجب أن يتعلمها ويستعملها الأطفال في سنّ الدراسة لهذه المرحلة.

ويساعد هذا المعجم واضعي المناهج على استخدام المفردات التي تناسب كل مرحلة عمرية (صف دراسي)، كمّاً ونوعاً، عند تأليف الكتب المدرسية. كما يكون مرجعاً للمعلمين في إعداد دروسهم، وفي تدريسهم، ويساعد الأطفال على تعلّم الكلمات الفصيحة المناسبة لأعمارهم. ولإتمام ذلك لابد من تحديد عدد الألفاظ لكل مرحلة عمرية، وصعوبتها، والمجرّد منها والمحسوس.

وأنقل الآن بعض ما جاء في الدراسة التعريفية بالمشروع:

شهد النصف الثاني من القرن العشرين اهتماماً بإحصاء المفردات الشائعة. ومن أشهر الجهود العالمية في هذا المجال ما قام به خبير تعليم اللغة الإنجليزية البريطاني المشهور مايكل وست. وقد سبقه عمل آخر قام به فريق من كلية المعلمين بجامعة كولومبيا في نيويورك ألّف معجماً للمعلمين يضم (٣٠) ألف كلمة. وهناك أعمال مماثلة في فرنسا، وألمانيا، وغيرها من الدول. أما المعاجم فهي كثيرة جداً، منها العشرات للأطفال، ومعاجم المترادفات، والمعاجم المصورة، هذا عدا عن المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون ومصطلحاتها.

وفي المملكة العربية السعودية قام باحثون من جامعة الملك سعود، وجامعة أم القرى بعدد من الدراسات، كانت أولاها الدراسة التي قام بها داود عبده عام ١٣٩٩هـ في معهد اللغة العربية بجامعة الملك سعود، وقدمت أكثر (٣٠٠٠) كلمة شيوعاً. وقام أبو الفتوح عام ١٤٠١هـ من المعهد نفسه بدراسة لمفردات القرآن الكريم ودرجة تكرارها. والجدير بالذكر أن الهدف الرئيس لهذه الدراسات كان مساعدة مؤلفي كتب تعليم اللغة العربية لغير أهلها.

ولعل أحدث رسالة رصينة في هذا المجال هي رسالة الدكتوراه التي أعدها الباحث دخيل الله محمد الدهماني (١٤١٨هـ) بعنوان: «خصائص لغة التلاميذ الشفوية والكتابية في الصفوف الثلاثة الأخيرة من المرحلة الابتدائية في المنطقة الغربية بالمملكة العربية السعودية».

توضح الدراسات في هذا المجال أن الطفل يجب أن يتعرض لمفردات تفوق مستواه بمرحلة واحدة، فإذا قدمت للطالب العادي مفردات تفوق مستواه بمرحلتين فسوف يجد صعوبة في الفهم والاستفادة مما يقرأ ويسمع.

وتمضي الدراسة التعريفية بالحديث التفصيلي عن أمور فنية مثل: تنفيذ المعجم وطباعته وإخراجه، وعيّنة الدراسة التجريبية، وخطة إدارة المشروع، والخطوات الإجرائية، والميزانية التفصيلية، وما إلى ذلك، مما لا يهمّ غير الباحث المتخصص.

وحسبنا في هذه المقالة أن ننجح في إثارة (المواجع)، وإيقاظ العزم (الهاجع)، ولفت نظر المثقفين إلى لزوم سدّ هذا الفراغ، واستصراخ الهيئات والمؤسسات العلمية والفكرية إلى التشمير عن ساعد الجد، وبذل الجهد، لتلبية هذه الحاجة. وتبقى- قبل ذلك وبعده- المسؤولية الكبرى ملقاة على عواتق المربّين في أن يوجدوا في نفوس أبنائهم وطلابهم ذلك الشوق العارم إلى لغتهم العربية الخالدة، والتعطش إلى النهل من ينبوعها الثرّ.

وأختم بما قاله الدكتور إدوارد دو بونو، أشهر شخصية عالمية معنيّة بتعليم التفكير في كتابه الذي يحمل نفس الاسم: «تعليم التفكير»: «يتعيّن أن تحتل اللغة الصدارة، إذ يأتي معها التواصل الذي تنعدم بدونه أهمية أي أمر وتلي ذلك مهارات التفكير لتحتلّ الموقع الثاني، لأنها تساعد المرء في التعامل مع العالم، واكتساب المعرفة. وتأتي المهارات الرياضية في الموقع التالي، لأن الرياضيات نظام تفكير متقن. كما أن العديد من القرارات يُبنى على فهم نظام الأعداد. أما المهارات الاجتماعية فإنها تشتمل على التعامل مع الأفراد والمجموعات، ولعل ذلك يمتدّ إلى المهارات العاطفية أو الانفعالية».

فهل نحن بحاجة إلى معجم جديد؟؟

(٧٠)

بيان من حكماء أمريكا إلى العالم

قرأت- باللغة الإنجليزية - ما نشرته جريدة «واشنطن بوست» في ١٢ فبراير ٢٠٠٢م، ثمّ ترجمته «السفير» ونشرته في ١٦ فبراير ٢٠٠٢م، تحت عنوان: (من أجل ماذا نقاتل؟ رسالة من أمريكا)، وهو خطاب كتبه ستّون من أشهر المفكرين، والكتاب، والعلماء الأمريكيين، ووجّهوه إلى العالم أجمع، وإلى أمّتهم، وإلى العالم الإسلامي (منهم: فوكوياما، وهنتنغتون).

وددتُ أن أذكر بعض تعليقاتي الخاصة على هذا البيان لعدة أسباب، منها أنّ في البيان البالغ تسعَ صفحاتٍ بالإنجليزية، ماعدا أسماء الموقعين، نداءً يقول: «نأمل- - بشكل خاص - أن يصل صوتنا إلى إخواننا وأخواتنا في المجتمعات المسلمة. نقول لكم بصراحة: إننا لسنا أعداءً بل أصدقاء. بل يجب أن لا نكون أعداء لأنّ بيننا أموراً مشتركة كثيرة، ولدينا الكثير لنفعله معاً. فكرامتكم الإنسانية ليست اقل من كرامتنا، وحقوقكم في حياة كريمة ليست اقل من حقوقنا.. نعلم أن بعضكم لا يثق بنا، ونعلم اننا نحن الأمريكان مسؤولون (جزئياً) عن انعدام هذه الثقة، لكن يجب أن لا نكون أعداءً..»

سأختصر تعليقاتي بالنقاط التالية:

أولاً: أنا وأمثالي الذين يوافقونني في الرأي، نحترم كل خيرٍ حققه الشعب الأمريكي، ونحن معجبون بكل ما أنجزه من تقدم في شتى المجالات العملية، والسياسية، والاجتماعية... إلخ، لكن هذا الموضوع ليس مجال بحثنا الآن.

ثانياً: لن تكون تعليقاتي كاملة، لأنني- مع الأسف - لست متخصصاً، لا في التاريخ، ولا في السياسة، ولا في الاقتصاد، ولا في الأمور العسكرية، ولا بد لمن يريد التعليق المستوفي على مثل هذا البيان أن يكون خبيراً في هذه المجالات كلها، وربما في سواها، لذا فمن الأكمل أن يشترك أكثر من شخص في التعليق، كما اشترك عشرات المثقفين الكبار في إعداد البيان.

ثالثاً: وردت عدة نقاط إيجابية، وجيدة في البيان نتفق معها، مثل: «ليس مقبولاً أخلاقياً استهداف المدنيين لذاتهم في العمليات العسكرية»، و «إن الآخرين الغرباء عنا، المختلفين عنا في اللغة، أو العرق، الذين يعتنقون ديناً نشكّ في صحته، يتمتعون أيضاً بحق الحياة الذي نتمتع به، وبالكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان التي نتمتع بها»، ومثل العديد مما سُمّي بالحقائق الأساسية التي تتصل بالناس كافة.

رابعاً: في البيان اعترافات مهمة- بالإضافة إلى الاعتراف السابق بأن الأمريكان أنفسهم مسؤولون (جزئياً) عن انعدام ثقة الآخرين بهم - وهذه الاعترافات ينبغي الوقوف عندها طويلاً، من هذه الاعترافات:

١-جواباً على السؤال: ما هي قيمنا؟ يقول البيان: إن كثيراً من الناس، منهم كثير من الأمريكان، وعدد من الموقعين على هذا البيان، يعتقدون أننا نحمل بعض (القيم) الضارة، مثل: الاستهلاك كطريقة حياة، والحرية التي لا تحدّها قوانين أو ضوابط، والمبالغة في إعطاء القيمة للفرد الذي يشعر أنه صنع نفسه بنفسه، ولا يدين للآخرين أو للمجتمع إلا بالقليل، وضَعْف حياة الأسرة وتفكك روابطها، بالإضافة إلى جهاز إعلامي ضخم (للتسلية ووسائل الاتصال) يمجد هذه القيم ويدعو لها، ويبثها في كافة أرجاء هذا الكوكب!!

٢- نعترف ان امتنا- في بعض الأوقات- تصرفت بغطرسة وجهل مع الشعوب الأخرى، كما اتبعت سياساتٍ غير عادلة. وفي كثير من الأحيان اخفقت امتنا ان تعيش على مستوى مثلها العليا. لذا فلا نستطيع ان نحثّ المجتمعات الأخرى على التمسك بهذه المبادئ بدون ان نعترف اننا قد اخفقنا في تطبيقها.

بعد هذا الاعتراف، لماذا يستغرب بعضُ الناس أن تصبح أمريكا هدفاً للكراهية، والانتقام؟ مادامت سياساتها مسؤولة عن قتل ملايين الأبرياء في هيروشيما وناغازاكي، وفي فيتنام، وفي منطقة الخليج، وفي أماكن أخرى كثيرة من العالم. أقْدَرُ مني على تعدادها علماء السياسة، وعلماء التاريخ!!

خامساً: كثيرون جداً من العلماء، والسياسيين، والمفكرين الغربيين والشرقيين من غير المسلمين يجزمون أن أحداث ١١ سبتمبر هي نتيجة لمؤامرة امريكية نُفِّذت على أعلى مستويات السّرية، والدهّاء، والخبرة، والمهارة، وأُتلفتْ جُلّ أو كلّ أدلتها ووثائقها، وربما تبقى لغزاً مثل: اغتيال الرئيس جون كنيدي، وموت الأميرة ديانا في حادث سيارة. ومِنْ هؤلاء المفكر الفرنسي روجيه غارودي الذي خصّ جريدة (الوطن) بمقال مهمّ نشرته يوم ١٤٢٢/١٢/٢٣هـ، وقال فيه: إن رواية البيت الأبيض لأحداث ١١ سبتمبر (هشّة، وغير منطقية، وغير ثابتة، وتحمل تناقضاتها في داخل كل تفصيلةٍ خاصة بها بشهادة ومناقشة أكثر من (٢٠٠) طيار مدني وحربي أمريكي!! وأن أهم النقاط التي تدحض الرواية الأمريكية هي أن الرموز السرية للطيران فوق تلك المناطق التي كانت أهدافاً لا يعرفها إلا مجموعة صغيرة جداً من البشر، ويتمّ تغييرها بصورة مستمرة عن طريق جهاز المخابرات المركزية الأمريكية..) إلى آخر ذلك من الأدلة التي عدّدها، والتي ملأت أربع صفحات.

إن رسالة حكماء أمريكا تقرر بدون أدنى ريب «أن الذين ارتكبوا هذا العمل الحربي...» كانوا أعضاء في شبكة إسلامية دولية، عاملة في حوالي ٤٠ دولة، ومعروفة باسم (القاعدة)... حظيت بتسامح. ودعم بعض الحكومات، وتجهر علناً، وتبدي قدرة متزايدة على استخدام القتل العمد لتنفيذ اهدافها».

تساؤلي: ما موقف مفكري العالم، وقادته، من المسلمين وغير المسلمين الذين لم يصدّقوا رواية الحكومة الأمريكية، ما هو موقفهم من بيان حكام أمريكا؟؟

سادساً: إن الاعترافات بأخطاء الأمة الأمريكية التي وردت في البيان، من أنها اتّبعت سياسات غير عادلة مع الشعوب الأخرى، ما الذي يضمن لنا أن لا تتكرر الآن أو أنها مستمرةٌ تحت ستارات متعددة، أو سافرة بدون ستار؟

سابعاً: إن المثل القائل: «الحق مع القوة» مع أنه خطأ في ذاته، إلا أن التاريخ أثبت أنه المتبع واقعياً. ترى لو حدث الذي حدث في أي دولة من دول العالم الثاني أو الثالث. هل كان سيتحالف (العالم) من أجله كما تحالف اليوم مع أمريكا؟

ثامناً: إن أكثر الذين كتبوا هذه الرسالة: مفكرون علماء، أذكياء، صاغوها ببراعة، ولكنهم بدأوا وفي قصدهم أن يبرهنوا على أن حرب أمريكا ضد (الإرهاب)، الذي لم يتطرقوا إلى تعريفه حتى لا يشمل دولة يهود، هي حرب عادلة، وضرورة واجبة، نابعة من قيم أخلاقية محترمة.

تاسعاً: لا أذكر أنني لقيت شخصاً واحداً فرح لمقتل الأبرياء يوم ١١ سبتمبر، ولا أظن أن مسلماً طبيعياً عنده حدّ أدنى من العلم الشرعي يرضى بقتل الأبرياء، ولو كانوا يعبدون البقر، أو الحجر، أو الشجر!!

عاشراً: إن كل من ناقشتهم من المثقفين- العرب وغير العرب- الذين قرؤوا هذا البيان قالوا ما معناه، بصرف النظر عن التفاصيل، وبالنظر إلى المحصلة، والنتيجة، والهدف الذي يريد أولئك المفكرون الأمريكان الوصول إليه.. إن البيان تبرير أخلاقي لا لمشروعية ما تقوم به حكومتهم فحسب، بل بضرورة ما تقوم به، لأنه واجب لا يسَعُها التقاعُس عن أدائه!

هذه انطباعات رجل (أكاديمي) غير متخصص بالسياسة، أو الاقتصاد، أو التاريخ، أو الشؤون العسكرية، لكنه إنسان: يسمع، ويرى، ويفكر. ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يحقق أمل المفكرين الأمريكيين الذي عبرت عنه آخر جملة في رسالتهم وهو: «التعاون مع المسلمين وكل مُحبّي الخير في العالم، لبناء سلامٍ عادل ودائم» في كرتنا الأرضية.



من قال: إننا نحتاج إلى تعليم التفكير؟

من قال: إننا نحتاج إلى أن نتعلم أو نعلم التفكير؟

أليس الإنسان مفكراً بطبعه؟ بلى! ولكنْ هناك فرقٌ بين من يريد أن ينّمي هذه الملكة الفطرية التي وهبه الله تعالى إياها، مستفيداً من خبرات البشر، وتجاربهم المتراكمة على مرّ العصور، وبين من يفضّل إبقاءها على فطريّتها!

الإنسان يمشي، ويجري من غير أن يعلّمه معلمٌ، ويحمل الأثقال من غير أن يعلّمه معلم، لكنّه إذا أراد أن يصبح بطلاً في الجري أو في حمل الأثقال، فلا بُدّ له من مدرّب خبير، وهكذا..

ترجم الدكتور عبد العزيز البابطين كتاباً بعنوان: «التدريس من أجل تنمية التفكير». ونَشَرَه مكتبُ التربية العربي لدول الخليج. ومع أن صفحات الكتاب لا تكاد تزيد على مئتين، إلا أنه جُهدٌ اشترك فيه (١٢) كاتباً من المختصين في هذا المجال، وقام بتحريره اثنان من مؤلفيه، وهو يضمّ عشر مقالات جاءت عناوينها كما يلي:

١- مهارات التفكير في المناهج.
٢- أسس ومبرّرات طرق تدريس التفكير.
٣- إثراء عملية التفكير التأملي.
٤- استخدام الأدوات التعليمية المساعدة في تعليم استراتيجيات المستويات المعرفية العليا.

٥- الطالب كباحث ومدرّس.

٦- تشخيص المهارات المعرفية الأساسية وتنميتها.

٧- تقدير مستويات التفكير العليا من أجل تحديد المسؤوليات.

٨- تدريس التفكير: أسلوب متكامل التركيب.

٩- حلقة التفكير.

١٠- التأمل في حركة التفكير.

والقارئ العادي لا يهتمّ بهذا الموضوع، بل قد يجده مملاً، ومع ذلك فأنا دائب الحديث عنه، والدعوة إليه، لأنني على يقين أن أحد الجوانب المهمة الغائبة في حياتنا، والمسؤولة عما نحن فيه من الضعف، هي عدم تنمية ملكة التفكير السّديد، بأنواعه المختلفة التي يفرّعها المختصون في هذا المجال والطريق الموصّل إلى الهدف، وإن طال وشقّ على سالكيه، لاشك خيرٌ من الطريق السّهل المفروش بالورود الذي سيؤدي إلى الهاوية!!

والمسلمون- اليوم- قد يحققّون انتصاراتٍ جزئيةً في هذا المجال أو ذاك، ولكنهم- مالم يأخذوا (بأركان) البعث الحضاري كلّها- فلن يكونوا شهداءَ على الناسّ ومن أهمّ هذه الأركان- بعد الإيمان بالله- حُسْنُ الاستفادة من أوقاتهم، التي هي أعمارهم، وحسن الاستفادة من عقولهم، أي: أن يفكروا بشكل جيد. وإن كنت مخطئاً فجزى اللهُ خيراً قارئاً كريماً يسدّدني!

يقول باري بيير في مقاله الذي يحمل عنوان: «تدريس التفكير: أسلوبٌ متكامل التركيب». وهو الفصل الثامن من الكتاب الذي أشرت إليه آنفاً، ما معناه:

لا توجد طريقة واحدة تستطيع أن تحسّن تفكير الطلاب، والأفضل ضمّ أكثر من طريقة لتحقيق الهدف.

إن هناك خمس طرق يمكن اللجوء إليها للحصول على برنامج فعّال لتعليم التفكير هي:

١- تأسيس بيئة تعليمية غنيّة، والمحافظة عليها.

٢- تدريس مهارات التفكير.

٣- استخدام تقنيات (أو طرق) التعليم المباشر في تدريس مهارات التفكير.

٤- صياغة نماذج من أنماط السلوك الجيد لتدعيم عملية التفكير الفعال. وبعبارة أخرى: التحلّي بصفاتٍ نفسية معنية، وأخلاقٍ حميدة، وعاداتٍ صحيحة، تساعد على التفكير الصحيح.

٥- ضمُّ الطرق الأربع السّابقة، ودمجُها مع المنهج المدرسي، وتضمينها في كل المواضيع الدراسية الرئيسية.

نأخذ هذه الطرقَ واحدةً واحدة باختصارٍ شديد:

الأولى: تأسيس بيئة تعليمية جيدة: مما يُسهم في إغناء الجو التعليمي تنظيم مقاعد الطلاب داخل الصف،بحيث يستطيع الطالب مواجهة بعض زملائه. (وهذا يذكّرني بحلقات المساجد التي خرّجت أئمةً أفذاذاً)! والاهتمام بكيفية الحصول على المعلومات أكثر من الاهتمام باستقبالها، وحفظها، وتسميتها، لتنسى بعد ذلك، والأمران- على كل حال- مهمان.

الثانية: تدريس مهارات التفكير: مثل: تحليل البيانات بهدف تحديد المشكلة، بناء الفرضيات، تحديد مصادر المعلومات، تقويم المعلومات ذات الصلة الوثيقة بالموضوع، الدقة، التوصل إلى نتائج عن طريق فرضيات صحيحة.

الثالثة: استخدام تقنيات (أو طرق) التعليم المباشر، وقد رتّبها الكاتب حسب أهميتها كما يلي:

١- المثال أو النموذج ٢- استخدام فكرة المستويات المعرفية العليا ٣- استخدام قوائم التدقيق ٤- التدريب ٥ - استعمال التنظيمات البيانية ٦- التلميح ٧- التصنيف (التسمية).

الرابعة: صياغة نماذج من أنماط السلوك الجيد، مثل: الاشتراك مع الآخرين في عمليات التفكير - إرجاء إصدار الأحكام والقرارات، والتروّي في ذلك - حبّ معرفة وجهات النظر الأخرى المخالفة قبل الموافقة - عدم التعصب للرأي والشعور باحتكار الصواب.. إلخ.

الخامسة: ضمّ الطرق الأربع ودمجها مع منهج الدراسين وهذا ينبغي أن يتمّ في كل الموضوعات الدراسية مما يتيح الفرصة للطلاب كي يحسّنوا مستوى تحصيلهم النظري، ويطوّروا قدراتهم على التفكير الفعال.

وبعد: فما الذي نفهمه - ياترى - بعد هذا الحديث المختصر عندما نقرأ قوله تعالى: (كتاب أنزلنا إليك مبارك، ليدَبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب) ؟!؟

أظنّ أن الجواب لم يعد عسيراً!؟

٧٢

هل يحتاج كُتّاب الصّحف إلى الأدب؟!

أبادر فأقول، ليس مرادي بالأدب: الشعر، والنثر، والبلاغة، وما شاكلها، إنما أريد به: رياضة النفس على محاسن الأخلاق.

يعني: هل يحتاج الذي يكتب في الصحف والجرائد إلى أن يكون مهذّباً، عفيف اللسان متثبتاً فيما يقول: فلا يتسرع في أحكامه، ولا يبني على غير دليل، وإلى أن يتصف بالرفق يضعه في مكانه، وبالشدة يضعها في مكانها، أي: يتصف بالحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه؟

أم أنه- وقد ظفر بزاوية تَنْشُرُ له، ووجد قلماً يكتب به- يجوز له مالا يجوز لغيره؛ من السبّ، والشتم، واتهام الناس في نياتهم، والفحش بالقول، والغمز، واللمز، والكذب، والبهتان، وعدمِ التثبّت فيما يكتب وكأن الآيتين الكريمتين التاليتين منسوختان:

- ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.
- ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾.

كان الحكماء يقولون: قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت.. ويقاس على هذه الحكمة: قل لي ماذا تكتب أقل لك من أنت.

إن الذي يكتب يَعْرِضُ عقله على الناس، وكذلك يعرض علمه، وذوقه، وأدبه، وكياسته.. فليتّق الله في نفسه التي ستُسأل يوم القيامة عما يكتب!

إنني أدعو إلى (الحرية) في كل شيء، حتى في الصحافة. و(الحرّية) هي الخلوص من الشوائب، أو الرقّ، أو اللؤم، أو الفجور. لكنّ الحرية لا تعني: الفوضى، ولا تعني الانفلات من القِيَم، ولا تعني محاربة الأخلاق، ومخالفة تعاليم الدين الحنيف والدعوةَ إلى الفساد في الأرض، وتهييجَ الناس، وإثارة القلاقل والفتن. (ولا أريد الخوض في جدلٍ له وجاهته، لكنه ليس المراد، وليس هذا أوانه. مفاده أن مفهومَ الحرية مفهومٌ مطّاط تحكمه المصالح، والسياسة، والتقاليد الاجتماعية.. إلخ).

إن في صحافتنا العديد من الأقلام الجديرة بالاحترام والتقدير، لأنها تصدر عن علمٍ وأدب ومسؤولية. يقرأ لها المرء فيشعر بالإعجاب، ويستفيد فكراً وعلماً، وفيها مايقابل ذلك مما ندعو لأصحابه بالهداية. والتزام أدب الإسلام في الخطاب والكتاب، لأن الكلمة - كما يقولون - مسؤولية، ومن عدّ كلامه، قلّ كلامه فيما لا يعنيه، كما قال بعض الحكماء من العلماء.

ويحسن في هذا المقام ذكر قول الشاعر:

وما مِن كاتبٍ إلا سيفنى
ويُبلي الدهرُ ما كتبتْ يداهُ
فلا تكتبْ بكفك غيرَ شيءٍ
يُسرُّكَ في القيامة أنْ تراهُ

إن الكتابة شبيهةٌ بالكلام، وتقاس عليه وكلّ ما ورد في حفظ اللسان وصيانته ينطبق على حفظ القلم وصيانته. لأن الكتابة (من قِبل صاحبها) كلامٌ بالرموز، و(من قبل قارئها) كلام صامت إن أسَرَّه في نفسه، أو كلامٌ حقيقي غيرُ مجازيّ، إن جَهَرَ به.

ولا بأس بشيء من الاستطراد في هذا المقام، أدعو نفسي، والقارئ الكريم، وكُلَّ من حمل قلماً يكتب به إلى تأمله، واقتطفه من بعض كتب التراث:

- الكلام (وكذلك الكتابة -خاصة- إذا نشرت) تَرْجُمانٌ يُعبِّر عن مستودعات الضمائر، ويُخبِرُ بمكنونات السّرائر، لا يمكن استرجاعُ بوادرِه، ولا يُقدَرُ على ردّ شوارده؛ فحقٌّ على العاقل أن يحترز من زَلَله بالإمساك عنه، أو الإقلال منه. وقد رُوي عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: «رَحِمَ الله مَنْ قال خيراً فَغَنِمَ، أو سكتَ فسَلِمَ».
- اعْقِلْ لسانك (وقلمك) إلا عن حقٍّ تُوضّحه، أو باطلٍ تَدْحَضُه، أو حكمةٍ تنشرها، أو نعمةٍ تذكرها.
- وللكلام (والكتابة أيضاً) شروط لا يسلم المتكلم (والكاتب) من الزلل إلا بها، وهي أربعة: أن يكون لداعٍ يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرّ. والشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، والثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته، والرابع: أن يتخير اللفظ له. فهذه أربعة شروط متى أخلّ المتكلّم (أو الكاتب) بشرطٍ منها، فقد أوْهَنَ فضيلةَ باقيها.
- ومن الآداب: ألا يتجاوز في مدحٍ ولا يُسرفَ في ذم، وإن كانت النزاهةُ عن الذم كرماً، والتجاوز في المدح مَلَقاً يصدر عن مهانة، والسّرف في الذم انتقام يصدر عن شرّ، وكلاهما شينٌ، وإن سَلِمَ صاحبهما من الكذب!
- وفي الحديث الشريف في هذا المجال (وغيره طبعاً) دُررٌ حقيقٌ على العاقل الذي يريد الكلام (أو الكتابة) أن يتأمّلها. منها:

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمُتْ»، وهو في الصحيحين.
- و «مَنْ صَمَتَ نجا»، رواه أحمد والترمذي.

- و «إذا أصبح ابنُ آدم قالت الأعضاءُ كلُّها لِلّسان: اتّقِ اللهَ فينا، فإنما نحنُ بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»، رواه أحمد والترمذي.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه، آن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يَتَبَيَّن فيها، يزلّ بها في النار أبعدَ مابينَ المشرق والمغرب»، رواه أحمد، والبخاري، ومسلم. وأنا أكاد أجزم أننا يمكن أن نقول في شرح الحديث: وإن العبد ليكتب الكلمة وما يتبيّن ما فيها... إلخ، وذلك لأن الكتابة أقوى وأبقى، والكلمة تذهب بها الريحُ بعد نطقها!

وبعد: فلا أدري مَنْ يوافقني من القراء الكرام على ماقلت ومن يخالفني؟ أقول:

إننا بحاجة إلى الأدب فيما نتكلم، وفيما نكتب، وفيما نفعل، ومن المؤلم للقلبِ أن نسمع ونقرأ في كل يوم ماهو خارج عن الأدب، وعن العقل، وعن العلم، وعن الحكمة!! وإلى الله المشتكى.



هل يكفي ما فعلناه حتى ننتصر؟!

حملةُ التبرعات لنصرة الإخوان في فلسطين بارقةُ أمل يشرق في القلوب. لا يزال في الأمة خيرٌ كثير والحمد لله. كثيرون بكوا وهم يشاهدون في التلفاز الأموال تتدفق من الموسرين والمعسرين. وكثيرون استبشروا وهم يستمعون إلى السّادة العلماء يحثّون، ويشجعون، ويشرحون، ويبيّنون. إنها - في اعتقادي - وسيلةٌ حضارية راقية لمواجهة الموقف، فجزى الله خيراً كل من كان سبباً فيها، أو مُسْهِماً، بأمرٍ أو توجيهٍ، أوخدمةٍ، أو تبرع.

ولكن.. هل يكفي مافعلناه لتحقيق النصر؟

سأحاول أن أجيب عن هذا السؤال إجابة طالب في امتحان، لا إجابة عالمٍ، أو مُفْتٍ، أو حتى مُعلّم، لأن القضية هي قضية أمةٍ بكاملها، أمةٍ مذلولة، مقهورة، مسلوبةٍ، مُسْتَغَلَّةٍ، مظلومةٍ، منهوبة... إلخ. والجواب يجب أن لا ينفرد به فرد، فإن أصبتُ فبفضلٍ من الله، وإن أخطأتُ فأستغفر الله، وأعتذر إلى القارئ الكريم. ورحم الله امرءاً يُسددُ ويُرشد.

وأجعل (بعض) الجواب عن السؤال الكبير أعلاه على شكل نقاط:

١- الأصل في تحقيق النصر هو الأخذُ بأسبابه، فما أسباب النصر في معركتنا مع دولة إسرائيل؟ وهل أخذنا بها؟

٢- وقبل السؤال الأول ينبغي أن نسأل أنفسنا: لماذا انهزمنا، وضاعت منا أراضينا، وتمكّن منا أعداؤنا؟ وهل أسباب الهزيمة لا تزال موجودة فينا؟

٣- إن كان جواب السؤالين السالفين:

أ - انهزمنا بسبب تفريطنا، ولا تزال أسباب الهزيمة كامنة فينا:

• ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾؟!

ب - لم نحدّد أسباب النصر كلّها في معركتنا مع دولة إسرائيل، ولم نأخذ بها:

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾.

• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

إن كان هذا هو الجواب، فهو بغير حاجة إلى تعليق!

٤- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿...وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ...﴾، فكيف ينصر الله أعداءَه على أوليائه؟! والجواب: قد ينتصر أعداءُ الله، وقد ينتصر الظّالمون- (في الحياة الدنيا) إذا أخذوا بالأسباب- على أولياء الله، أو على المظلومين إذا قصّر هؤلاء في الأخذ بالأسباب: و«معادلة النصر»، إن صحّ التعبير، تحتاج إلى عددٍ من العناصر حتى تتحقّق نتائجُها، وفقدان عنصر واحدٍ من العناصر اللازمة، قد يمنع حدوث النتيجة المطلوبة؟!

٥- الأمة مكونة من أفراد، ورأسمال الفرد الأول هو عمره، أي: وقته فهل يُحسِن الأفراد، وبالتالي الأمّةُ، الاستفادة من وقتهم بالشّكل اللازم لتحقيق النصر؟ وكيفَ يكون ذلك؟

٦- ومن أهم عناصر رأسمال الفرد أخلاقه، وعقله، وعلْمُه، وعمله؛ وهي أيضاً رأسمال الأمة، فكيف هو مستوى الأخلاق في الفرد والمجتمع؟

• وهل تستثمر الأمة رصيد العقول والأفكار؟

• وهل تزداد علماً نافعاً مفيداً في كل يوم تشرق شمسه؟

* وهل يتحوّل العلم النافع إلى عمل صالح؟

إذا كانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفي، فنكتفي- أيضاً- بعدم التعليق!

٧- إذا ذهب مريض يشكو من أعراضٍ معيّنة إلى طبيب عاقل عالم، مخلص، فهل يكتفي الطبيب بمعالجة الأعراض، أمْ يبحث عن الأسباب ليزيلها؟ واقع المسلمين اليوم مَرَضٌ خطيرٌ، معقّد، متشابك، فما هي أسبابه؟ وكيف يمكن أن تعالج؟

٨- قرأنا في كتب التاريخ الحديث:

* عندما هَزمتْ اليابان روسيا في مطلع هذا القرن قال الجنرال الياباني: «لقد انتصر المعلّم الياباني»!!

* وعندما سبق الصاروخ الروسي عام ١٩٥٧م الصاروخ الأمريكي قال العالم الأمريكي كارل الندورفر: «لقد انتصرت المدرسة الروسية على المدرسة الأمريكية».

* في إبّان الحرب العالمية الثانية، ومحنة فرنسا خلالها،قال الجنرال ديغول: «لقد انهزمت المدرسة الفرنسية أمام المدرسة الألمانية».

فإنْ كان ما قرأناه صحيحاً، وإن كان ماقاله هؤلاء الزعماء، والمفكرون، وكثيرون أمثالهم يوافقونهم، صحيحاً، فماذا نستفيد نحن المسلمين من العبر، والعظات، والحِكَم؟

٩- إننا متفائلون بأنّ النصر للحق في النهاية، ومتفائلون بأنّ أمتنا تتحرك نحو العافية والقوة والنصر إن شاء الله، لكنّ هذا التحرك ينبغي أن يكون بالتسارع المطلوب وإذا لم نَذُقْ نحن ثمرته وذاقها أولادنا، فنحن بخير، أما إذا كانت الثمرة من نصيب أحفاد أحفادنا!!! فيجب أن نعيد النظر في خطتنا! هذا إن كان عندنا خطة!! فإن لم يكن، فوامصيبتاه!

١٠- «مَنْ تعجّل الشيءَ قبل أوانه عوقب بحرمانه»، والبِناءُ الذي يُبنى على قواعدَ هَشّةٍ سريعُ الانهيار:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ... ﴾؟ فما هي الأسس التي بنينا عليها؟؟

١١- هذه تساؤلات وإجاباتٌ صغيرة عن ذلك السؤال الكبير الخطير. وحدها لا تكفي، إذ تحتاج إلى انضمام الأفكار إلى الأفكار، وإلى تناصح، وتعاون، وتعاضد، وأخذٍ بالأسباب، وتوكلٍ على الله سبحانه من قبل ومَنْ بَعد، ليتحقّق، النصر بإذن الله:

﴿ ...وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾.

٧٤

الخيانة العلمية: كيف نصل إلى الحقيقة؟!

تحدثت في مقالات للقدرة عن أهمية الوصول إلى الحقيقة، ومعرفة عوائق التفكير السديد التي تمنع من الوصول إليها. كان ذلك مرة تحت عنوان: تدخّل الهوى في الحكم، وأخرى بعنوان: فنّ الكذب، وتارة عن التسلية والترفيه كوسيلة لتضليل العقول... إلخ.

وموضوع هذا المقال يدور حول المحور نفسه، والفضل فيه- بعد الله- لصديقٍ فاضل محترم، هو الدكتور دحّام إسماعيل العاني، الأمين العام للمجلس العلمي في مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الذي كتب مقالاً من الطريف أن عنوانه على صلة وثيقة بمنصب صاحبه، الذي أعرف عنه «الأمانة العلمية»، وتحري الدقة والضبط فيما يقول ويكتب. عنوان المقال: «الأمانة العلمية وأنماط التزييف العلمي»، نشرته المجلة العربية للعلوم.

أبدأ بما ختم به الكاتب العالم[١] مقاله قائلاً:

❖ تنامت ظاهرة التزييف العلمي بدءاً من النصف الثاني من القرن الماضي، في جميع المجالات العلمية، وعلى جميع المستويات، وبأنماط وأساليب متعددة، ولم تسلم من هذه الظاهرة دولة دون غيرها بل عمّت جميعَ الدول بنسب متفاوتة. وقد أدّى انتشار هذه الظاهرة إلى إنشاء هيئات حكومية لمحاربتها والحدّ من تزايدها. وفي حين أن هذه الظاهرة خضعت للقياس والتقنين في

(١) يحمل شهادتي دكتوراه من فرنسا: الأولى في العلوم الغذائية، والثانية في الهندسة البيوكيميائية.

الدول الغـربيـة، إلا أنهـا لا تـزال بعيـدة عن الدراسـة والتـشـخيص في الدول النامية، بما فيها دولنا العربية. ونظراً لخطورة هذه الظاهرة على مستقبل العلم، فإن هـذا يستدعي إجراء دراسات واقعـيـة وتحليلية للوقوف على مدى انتشارها في دولنا العربية، ومن ثم تبني أساليب الحدّ منها، ومعالجة وقوعها.

«وللأمانة العلمية» - أيها القارئ الكريم- أقول لك: إن مقالي هذا لن يعدو أن يكون مختاراتٍ من المقال القيّم المشار إليه، الذي بلغ حوالي عشرين صفحة مع قائمة مراجعه، وهي باللغات الثلاث: العربية، والإنجليزية، والفرنسية.

لم تعـد مـشكلةُ البـاحثين اليـوم كـامنةً في الحـصـول على المعلومـات، بل أصبحت في تحرّي دقتها، والتأكد من صحّتها، واختيار المناسب منها، وربما- في أحيان قليلة - في معرفة مصادر تمويل هذه المعلومات، والمرامي البعيدة من وراء نشر نتائج ابحاث علمية مُلَفقة، او مُضَلّلة!

لقد تواتر الحديث مؤخراً عن الأمانة العلمية، وصحة النتائج المنشورة، وتكرر نشر أخبار عن كشف حالات تلفيق علمية، كما عقدت مؤتمرات للتحذير من تزييف نتائج الدراسات العلمية، من آخرها المؤتمر الذي عقد في لندن عام ١٩٩٧، نظّمته «المجلة الطبية البريطانية»، وشارك فيه مجموعة كبيرة من رؤساء تحرير المجلات العلمية. وقد أظهرت نتائج المؤتمر أن (١٢٠) محرراً في الدوريات العلمية قد اكتشفوا حالاتٍ زيّفت فيها الأعمال العلمية، أو حُرفت نتائج الدراسات في مواضيعَ مرسلةٍ للنشر!

ونعود إلى الوراء قليلاً:

خلال القرون الأربعة الممتدة من القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين كان يُنظر إلى العلماء وكأنهم قدّيسون في مجتمعاتهم، وهكذا أصبح

العلماء، والمثقفون، والفلاسفة هم وحدهم القادرين على تشكيل وصياغة الوعي لدى أفراد المجتمع، ولم تعد الكنيسة، أو الموروثات السّابقة، تملك تلك السلطة. هذه (القدسية) التي اكتسبها العلماء أغرتْ - بين حينٍ وآخر- القوى القابضة على مفاصل التحكم بالمجتمعات، أغرتْها بمحاولة توجيه العلماء لكي يقوموا بما يخدم مصالح تلك القوى، واستراتيجياتها البعيدة. وأُتيح لهذه القوى- بسبب احتياجات بعض العلماء، وطبيعتهم البشرية- أن توجّه دفة العلم، وما يسمح له أن يُعلنه من نتائج تتلاءم ومصالح هذه القوى المهيمنة. وهكذا أصبح عندنا علماء أمناء شرفاء، وآخرون لا يستحقّون هذه الصّفة الجليلة.

ونأتي إلى القرن العشرين لنُدلّل على صحة ما نقول:

١- كشفت إحدى الدراسات المنشورة عام ١٩٩٨ م أن (٥-١٠٪) من مجموع البحوث الطبية فيها نتائج ملفّقة!!

وقد نُشر تقرير عن أكبر سلسلة تزوير علمي بعد الحرب العالمية الثانية فُضِحَ فيه أمر البروفيسور الألماني (فريدهل هيرمان)، المتخصص بأبحاث السرطان والأستاذ الجامعي المرموق في جامعة (أولم)، ومُساعدتِه (ماريون براش) التي قادت فريقه العلمي بين عامي ١٩٩٢م و١٩٩٦م، وأثبت التقرير أن نتائج (٢٧) بحثاً على الأقل مما نُشِرَ لهذين العالمين هي نتائج وهميةٌ مختلقة، وليست منبثقة عن تجارب علمية صحيحة تم إجراؤها!!!!

٢- فضيحة السّير سيريل بورت (١٨٨٣م- ١٩٧١م):

مُنح الأستاذ البريطاني سيريل بورت لقب (سير)، وساماً من طبقة الفرسان، من ملك بريطانيا جورج السادس، تقديراً لأبحاثه الرائدة في علم

النفس والتربية، التي تقول: إن الذكاء إرثي في غالبيته، وليس لعوامل البيئة تأثير فاعل عليه، تمهيداً لنظرية أيديولوجية تقول بحتمية الوراثة، لتسويغ وتفسير أوجه عدم المساواة بين الأفراد داخل المجتمعات من جهة، وبين مجتمع ومجتمع من جهة أخرى، أي: لتجذير مفهوم عنصري طبقي قائم على أسس علمية.

وفي عام ١٩٧٤م نشر العالم الأمريكي ليون كامين، أستاذ علم النفس بجامعة برنستون العريقة كتابه الشهير: «العلم والسياسة في معامل الذكاء»، نسف فيه جميع نتائج بورت حول الذكاء الموروث. وأعلن أنَّها نتائج ملفقة مزوَّرة بناها على أبحاث أخرى لم يكن لها في الأصل وجود!!! وفي عام ١٩٦٧م نشرت مجلة (صنداي تايمز) البريطانية مقالاً فاضحاً للمحرر الطبي (أوليفر جيلي) يعلن فيه أن بورت زوّر نتائج علمية لتتوافق مع نظريته عن الذكاء الموروث، واستغل منصبه في رئاسة تحرير مجلة علم النفس الإحصائي في نشر مقالات بأسماء مختلفة لتدعم نتائجها المزّورة نظريته.

وفي مقال الدكتور العاني أمثلة كثيرة أخرى.

ماذا أريد أن أقول للإخوة القراء؟ أريد أن أذكّرهم ونفسي بقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي وخلف ﴿...فَتَثَبَّتُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. فعلينا- إذا أردنا معرفة الحقيقة - أن نتحرى، ونتثبت، خاصة إذا كان المصدر هم أعداؤنا الذين يتربصون بنا الدوائر! والله تعالى أعلم.

٧٥

قال عالم الهند: هكذا ننتصر!!

في منطقة جبلية قرب مدينة نيروبي عاصمة كينيا، تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة، أُقيم مركزٌ إسلامي كبير، قَرّر عقد مؤتمرٍ للشباب العرب المثقفين عام (١٩٨١م). ودعي المفكر والداعية الهندي المعروف الأستاذ وحيد الدين خان لإلقاء بعض المحاضرات فيه. أُجِّلَ المؤتمر، ولم يحضره المدعو، لكن ثمرة الدعوة كانت كتاباً جديراً بالقراءة، تُرجم إلى العربية تحت عنوان: «قضية البعث الإسلامي: المنهج والشروط».

محور الكتاب- كما يقول المؤلف في المقدمة - هو أن البعث الإسلامي الجديد يقتضي منا:

١- إعمال العقل المفكّر الواعي.

٢- والتخطيط الصائب.

٣- والعمل الجاد الدؤوب، وليس إنفاق الوقت في الأعمال الثانوية، والآمال العريضة الفارغة. يقول المؤلف:

لقد أسكن إبراهيمُ عليه السّلام (الذي عاش حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد) ذريته بواد غير ذي زرع، في مكة، ودعا ربه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

واستجاب الله العظيم دعاء خليله إبراهيم، ولكن بعد أكثر من ألفي عام!! وهذا خير دليل على أن الله لا يُغيّر النظام الكوني من أجل احد، ولا يُحدث أمراً

بالمصادفة، بل إن من سُنته سبحانه ان يحوّل إرادته إلى الواقع من خلال أوضاع تسير سيراً طبيعياً، وليس من خلال خوارق العادات، أو الطلاسم. فمع أن الله سبحانه قَبِلَ دعاء خليله، فإن النبي العربي صلى الله عليه وسلم لم يظهر إلا عندما بلغت الأحوال في سيرها المرحلةَ المناسبة تماماً لظهوره، خاتماً للنبيين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. فكيف نتوقع أن تُكلّل جهودُنا بالنجاح بدون مراعاةٍ للحقائق الموضوعية في هذه الدنيا؟!

إن الظل لن يستقيم مادام العود مُعْوجاً!!

إن المؤلف لا يؤمن بالحلّ السياسي، ولا يؤمن بالعنف، لتحقيق النصر، وقد يكون في تعميه خطأً، وقد يختلف معه الأكثرون، غير أن حجته جديرة بالإنصات إليها: لأن الحقّ قد يكون معه جزئياً أو كلياً، وأنا لا أجد في نفسي الأهلية الكاملة لأحكم على (أحكامه العامة) و(نتائجه النهائية)، لكني أجد من المفيد أن (يُقدح زناد الفكر) لتقويمها، والاستفادة منها. وهذا المقال مقتطفاتٌ مقتبسةٌ بتصرف من الكتاب المشار إليه. وبالمناسبة فإنّ للمؤلف كتابين مهمّين مترجمان إلى العربية هما: «الإسلام يتحدى» و «الدين في مواجهة العلم»، وثقافة المؤلف العلمية والتاريخية والعامة التي تظهر في هذين الكتابين تدعو إلى الإعجاب، وهي مختلفة في تكوينها عما عهدناه في علماء الدين الأفاضل، خاصة في شبه القارة الهندية.

يقول المؤلف:

* إن أساليب الثورة السياسية، أو المدنية، ليست من الأساليب التي يتوخاها الإسلام مباشرة، ولكن التغيير إلى الأصلح هو نتيجة مباشرة لتطبيق الإسلام. وعندما تتكون زمرة في مجتمع ما، تلتزم بأن تحيا للهّ، وتموتَ لله، فإنها سوف تقود العهد وحضارته بطريقة تلقائية: فإن السياسة الإسلامية، أو

النظام الإسلامي عبارة عن انتقال تلقائي للسلطة إلى أيدي ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾. إنهم الرجال الذين يتذوّقون حلاوة الإيمان ولا يرضون بها بديلاً، ويتنازلون عن مطامعهم وأغراضهم الدنيوية، ويعيشون - وهم في الدنيا - في نِعم الآخرة. هذه هي «الزمرة المختارة» المؤهلة لكي تسود، وعندما ينتهي الحكم إليها: تقيم الصلاة، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر (إذ هذه هي دعائم النظام الإسلامي). ولا يمكن تكوين هؤلاء الأفراد إلا ببناء حركة خالصة للآخرة، لا تشوبها شائبة المقاصد الدنيوية.

وعلى العكس من ذلك، إذا حدث انقلابٌ بقوة المظاهرات، أو الهتافات، فلن يكون ذلك انقلاباً إسلامياً، بل فوضى غالباً ما تكثر فيها هتافات الإسلام وتُفقد حقيقته!! وسوف تتكرر كلماتٌ مثلُ: العدل، والحق، ولكنك لا تجد في الحقيقة وراءها إلا أغراضاً شخصية!!

ويسأل المؤلف: ما هو موقف الإسلام من الانقلاب السياسي؟

ويجيب: إن (الانقلاب السياسي) في نظر الإسلام (وأقول: حسب فهم المؤلف)، هو سيطرة أهل الحق على أهل الباطل، ولقد صرّح القرآن الكريم أن هذه السيطرة تتحقق بنصر الله وتوفيقه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، والشرط الأساسي لاستحقاق النصر الإلهي هو القيام بواجب الدعوة، فعندما يقوم أهل الحق بمهمة الدعوة، مستوفين جميع الشروط اللازمة، ويصلون إلى درجة التأهيل الكامل (وأسال: ما هذه الشروط؟ وما ذلك التأهيل؟) فإنهم يستحقون جائزة من الله سبحانه، كما يستحق أهل الباطل - برفضهم الدعوة - عقاباً من الله. فينزل الله نصره، وتنقشع سحب الظلم عن المسلمين وتجري الأمور في المجرى الذي يقلب كفّه الميزان على الأرض، وحينئذ- فقط- ينتصر المسلمون بتأييد الله لهم. هذه هي سنته تعالى في التغيير والنصر: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

لقد قرر القرآن - في أكثر من موضع - أن سيطرة الأمم غير المسلمة، على الأمم المسلمة إنما تكون بحكم قانون (الاختبار والامتحان). أما انتصار المسلمين على أعدائهم فيكون بقانون (القيام بالبلاغ):

- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.
- ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.
- ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.
- ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.. إلخ.

فإذا لم نقم بواجب «الدعوة إلى الله»، فليس لنا أن نتوقع انتصار المسلمين على غير المسلمين.

ويقول المؤلف في موضع آخر من كتابه: ولاستحقاق النصر من السماء يجب أن يتميز المسلمون بمزايا واضحة هي:

١- القيام بالدعوة الإسلامية. ٢- والإصلاح الذاتي. ٣- وتزكية النفس.

وهذه هي المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتق أهل الإيمان. إنها نفسُها «الشهادة على الناس»: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وإنّ مؤهلات النصر والتمكين مرهونة بشرط القيام بمسؤولية الدعوة.

أرجو ألا أكون شوّهتُ أفكار المؤلف بانتقائي الخاص واختياري، ولكني وجدت أنها أفكار جديرة بالتأمل الهادئ بعيداً عن الانفعال، والتأثر بالموروثات السابقة، وما أردت إلا الخير. ومن الله نستمد جميعاً التوفيق، ونسأله أن يرزقنا الإخلاص والصواب، في القول والعمل، إنه أكرم مسؤول.



لا بُدَّ من العقل والعلم معاً!!

العقل: ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها، والملكةُ التي يكون بها التفكير والاستدلال، ويتميز بها الحُسْن والقُبح، والخير والشرّ، والحقّ، والباطل «تمييزاً لا يكتمل أبداً بدون هداية الشرع». والعاقل: المُدرك، ويقال: عَقَلَ، يَعْقِلُ: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعَقَلَ الغلامُ: أدرك وَمَيَّز.

والحماقة: قلَّة العقل. وحَمِقَ فلان (وحَمُقَ): قلَّ عقلُه، فهو أحْمق، وهي حمقاء، جمعه: حُمْقٌ.

والعقلُ أهمُّ من العلم والعاقل الجاهل خيرٌ من العالم الأحمق، وقليلٌ من العلم مع كثير من العقل أفضلُ وانفع للفرد والجماعة من كثير من العلم مع قلة العقل:

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرَّةٍ
بلغتْ من العليـاء كلَّ مكانِ

أما إذا انضاف إلى العقل الناضج، والعلم النافع، العملُ الصالح: فهذا نعيمُ الدنيا!

والإخلاص وحده بدون عقل وعلم لا ينفع صاحبه في الدنيا أما في الآخرة فالرجاء أنه ينفعه عند الله، وهذا من أمر الله الذي لا دخل للعبيد فيه، فالجاهل، والمخطئ لا ينفعه إخلاصه ليعذر في جهله وخطئه، وإن كان هذا ليس على إطلاقه.

وتتفاوت حظوظ الأفراد والجماعات من هذه الفضائل النفسية المذكورة آنفاً، وهي: ١- العقل ٢- والعلم ٣- والعمل ٤- والإخلاص.

فإذا اختل التوازن فيها اختلالاً شديداً كان الوبال على قدر الاختلال؛ ومصداق ما أقول مسطورٌ في صفحات التاريخ، منظورٌ في الواقع المعاش.

ولا أظن أنّ أمتنا العربية والإسلامية تنفرد «بمرض الاختلال» هذا عن سائر الأمم، بل هو داءٌ عضال موجود في الغرب والشرق، والقديم والحديث. وإن كنا اليوم نعاني من أعراضه الحادّة، بسبب حالة التخلف والهوان التي تعاني الأمة منها، و«إنا لله، وإنا إليه راجعون».

قرأتُ في كتاب: «الإمام زيد: حياته وعصره، آراؤه وفقهه».

للشيخ العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى، كلاماً عن الخوارج سأقتبس للقارئ الكريم بعضه بشيء من التصرف، ولا أريد من هذا الاقتباس التأريخَ للخوارج، أو الحُكمَ عليهم، أو التفريقَ بين العاقلِ المعتدل والأحمقِ المندفع منهم، فهذا ليس من تخصّصي، إنما أريد الإشارة إلى ما يمكن أن يستنبطه الحصيف من هذا النقل، ويستفيدَ منه في واقعه الحاضر، دون التخاصم حول الماضي الغابر. إذ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال رحمه الله: «وهذه الفرقة أشدّ الفرق حماسةً لآرائها، وأشدها اندفاعاً وتهوّراً، وهم في اندفاعهم وتهورهم مستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها، وظنوا هذه (الظواهر) ديناً مقدساً...

«ولقد أداهم التمسك بالألفاظ إلى انحراف فكري غريب، فكانوا يمنعون قتلَ الذّمي غير المسلم، أو أكْلَ ماله، ويقتلون المسلم الذي يخالفهم!!.. وبذلك التقت فيهم صفاتٌ متضاربة: ١- تقوى، ٢- وهَوَسٌ في التفكير، ٣- وغِلظة وخشونة، ٤- وتهوّرٌ واندفاع، ٥- ونظرات جانبية إلى النواحي الدينية، شأنَ كلّ من يتعلّق بالألفاظ، من غير أن ينفذ إلى مراميها وغاياتها.

«والسبب في وجود هذه الصفات فيهم أن أكثرهم كان من عرب البادية، وقليل منهم كان من عرب المدن، وهؤلاء كانوا في فقر شديد، وجفوة، واصاب الإسلامُ شغافَ قلوبهم، مع سذاجةٍ في التفكير، وضيقٍ في التصوّر، وبُعدٍ عن العلوم، فتكوّنَ من مجموع ذلك نفوسٌ مؤمنة، متعصّبة لضيق العقول، ومتهورةٌ مندفعة لأنها خارجة من الصحراء، وزاهدة لأنها لم تجدْ، إذِ النفس التي لا تجد- إذا عَمَرها الإيمان، ومَسَّ وجدانها اعتقاد قويّ - انصرفتْ عن الشهوات المادية، وملاذْ هذه الحياة، واتّجهت بكلّيتها إلى نعيم الآخرة.

«.. ولو أنهم عاشوا عيشة رافهةً فاكهةً في أيّ نوعٍ من أنواع النعيم، لخفّف ذلك من عنفهم، وألان من صلابتهم، ورطّب نفوسهم. ويُروى في ذلك أن زياد ابن أبيه بلغه عن رجلٍ يكنى أبا الخير، من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأي الخوارج، فدعاه، وولّاه، وأعطاه أربعة آلاف درهم كل شهر، وجعل عُمالته (أي: أُجرته على عمله) كلَّ سنة مئةَ ألف، فكان أبو الخير يقول: ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطّاعة، والتقلّب بين أظْهُر الجماعة!!!..

«ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب، ولم يفرّقوا بين ذنب وذنب، بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنباً، ولذا كفّروا علياً رضي الله عنه بالتحكيم..

«ولأن أدلّتهم كلّها تمسّكٌ بظواهر النصوص، وعقليتَهم لا تتجاوز الألفاظ في ظواهرها، وتنفذ إلى لبّها ومعانيها، كان عليٌّ كرّم الله وجهه، وهو البليغ الذي يعرف كيف يضع القول في مواضعه. إذا ناقشهم لم يناقشهم بنص قرآني، أوحديث نبوي، بل يناقشهم بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لايجدوا مناصاً إلى المخالفة».

وأختم هذا المقال بسطور قدّم بها أستاذنا العلّامة الفقيه الشيخ مصطفى

ابن أحمد الزّرقا كتيّباً له بعنوان: «العقل والفقه في فهم الحديث النبوي». قال رحمه الله تعالى:

«إن حُسْن فهم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم - الذي أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب - يحتاج إلى ثلاث أدوات لا بدّ منها جميعاً. وإن النقص في أيٍّ واحدة منها يؤدي إلى سوء فهم الحديث وسوء النتائج. إن هذه الأدوات الثلاث هي:

١- التعمّق في اللغة العربية، ومعرفة أساليبها البيانية، لأنها هي لغة القرآن والسّنة.

٢- العقل (وهو كما عرفناه: الملكة التي يكون بها التفكير والاستدلال) لأنه هو الميزان الذي ربط الله به التكليف، وعلى قَدْر سلامته يحاسِبُ المكلفين، وبه يوازن الإنسان بين الأمور، ويميّز الصحيح من الفاسد، ويتجنب التناقض في سلوكه وآرائه.

٣- التمكن من فقه الشريعة الذي به يعرف العالِمُ مقاصدَها، ويقيس الأمور بأشباهها، ويعرف محامل النصوص، ويميّز بين الوسائل والغايات في أحكام الشريعة، ويدرك فقه الأولويات، ويعلم أن الغايات هي الثوابت، وأما الوسائل فإنها غالباً تقبل التبدل والتغير بتبدّل الأحوال والأزمنة والأمكنة، ما حُوفِظَ على الغايات».

أرجو أن أكون بهذه النقول قد بينت مقصودي من العنوان: لابد من العقل والعلم معاً.. والله الموفق.



يُستتاب مالكٌ وإلا يُضْرَب عنُقه!!

الإمام العظيم مالك بن أنس رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، إمام المدينة المنورة، كتبنا عنه مقالاً فيه إشارات إلى علمه، وفضله، وعبقريته، ونبوغه.

وممن عاصر الإمام مالكاً إمامٌ كبير، هو ابنُ أبي ذئب، كان آيةً في العلم، والورع، والزهد، والجراة. بَلَغَهُ أنَّ مالكاً لم يأخذ بحديث «البيّعان بالخيار»، فقال: «يُستتاب مالكٌ، فإنْ تاب، وإلا ضُربتْ عُنُقُه»!!!

يا الله!! يُستتاب مالكٌ وإلا ضُربَ عنقه (والعنق يُذكّر ويؤنث)!! مالكٌ تأوّل الحديثَ على غير المعنى الذي فهمه منه ابن أبي ذئب فتكون عقوبته القتل؟!! أيُّ عقلٍ هذا؟! وأيُّ فهم هذا؟! ومع ذلك فابن أبي ذئب- كما ترجم له العلماء- عظيمٌ عظيمٌ، رحمه الله، وغفر له، ولكنْ لا عصمة لأحد بعد الأنبياء!!

وليس المقامُ مقامَ شرحِ الحديث الشريف «البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا». وبيانَ وجهة نظر الإمام مالك فيه، إنما الشاهد هو هذا الحكم الباطل العجيب من إمام عظيم!! وأمثال هذه (الطامّات) موجودة في تراثنا مع الأسف، لكنها تتضاءل أمام جوانب العظمة المضيئة التي تكثر في تاريخ عظماء الأمة الإسلامية على مرّ القرون، كثْرةً لا أحْسَبُ أنّ أمةً أخرى من الأمم يمكن أنْ تنافسنا فيها.

إن المسلمين اليوم - في كثير من أنحاء الأرض- تزدحم عليهم المصائب والرزايا، والمحن والفتن، جزاءً وفاقاً لما كسبته أيدينا:

أولاً: بالبعد عن ديننا الحنيف وتوجيهاته، وهذا السبب إذا فَصّلنا فيه يشمل ماسيتلوه.

ثانياً: بالتواكل، والقعود عن الأخذ بأسباب العِزة والنصر: من العلم والعمل، والجِدّ والدأب، والتعاون والتضامن، والتآلف والتحابب... فلذلك لا تنتفع الأمة بدعاء أفرادها.

ثالثاً: بكثرةِ الخلاف، وكونِ بأسِنا بينَنا، يَسُبّ بعضُنا بعضاً، ويقتُل بعضُنا بعضاً.. إلى آخر ذلك مما يعرفه حتى الصغار، ولا داعي للتفصيل فيه.

والحل الذي يبدو بسيطاً لكن دون تنفيذه العقبات، هو:

أولاً: الرجوع الصحيح، العميق، الحكيم إلى الدين الحنيف، ولهذا تفصيل يأتي بإذن الله.

ثانياً: فهم طبيعة الاختلاف (فقه الخلاف والاختلاف) لنعرف كيف نتعامل معه بالشكل الصحيح، ومعرفة آدابه لتطبيقها. ومنها عدم الإحساس باحتكار الصواب، الذي يؤدي إلى تخطئة الآخرين في كل ما يخالفوننا فيه، ويؤدي إلى أن ما نؤمن به (من غير أصول الدين) هو الحق المطلق، الأمر الذي ينجم عنه مثل هذه السّوأة الفكرية: «يستتاب مالك وإلا يُضربُ عنقه»!!

ثالثاً: تعليم أصول التفكير، ومناهجه، وأخطائه، ومزالقه، وجُلّها مبنيّة على أسس رائعة من الآيات الكريمة، لا تدرك بدون تعمق وتأمل.

فإذا علمنا أن الحق (قد) يكون مع الأخ أو العالم الذي يخالفنا في الرأي، خفّتْ حدّتنا، وازداد تواضعنا، وتأدّبنا، فاجتنبنا الشتم والسبّ، والوصف السّيىء الرخيص.

ولآخذ مثالاً فيه حساسية في بيئتنا: هو مسألة التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأغلبنا نعتقد أنه شركٌ، أو حرام، ولا نتردد في وصف من يفعله بذلك، ولننظر في رأيي اثنين من أئمة المسلمين يحتّلان عندنا منزلة لا يحتلها غيرهما من العلماء: أحمد بن حنبل، ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى.

أمامي الآن الصفحة (٦٨) من الجزء الثالث (أو القسم الثالث) من الأعمال الكاملة للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وفيها ما نصه:

«قولهم في الاستسقاء: لا بأس بالتوسل بالصالحين، وقول أحمد (بن حنبل) رحمه الله: يُتوسَّلُ بالنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، مع قولهم: إنه لا يُستغاث بمخلوق، فالفرق ظاهر جداً، وليس الكلام مما نحن فيه. فكونُ بعضٍ يرخّص بالتوسل بالصالحين، وبعضهم يخصُّه بالنبي صلى الله عليه وسلم، واكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه. ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور: إنه مكروه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد، لكنّ إنكارنا على من جعل مخلوقاً أعظم مما يدعو الله تعالى، ويقصد القبر يتضرّع عند ضريح الشيخ عبد القادر، أو غيرِه، يطلب فيه تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإعطاء الرغبات. فأين هذا ممّن يدعو الله مخلصاً له الدين، لا يدعو مع الله أحداً، ولكن يقول في دعائه: أسألك بنبيّك، أو بالمرسلين، أو بعبادك الصالحين، أو يقصد قبر معروف أو غيره، يدعو عنده، لكنْ لا يدعو إلا الله، مخلصاً له الدين، فأين هذا مما نحن فيه؟»

هذا كلام إمامٍ مصلحٍ كبير، نضّرَ الله روحه، ونوّر ضريحه، في مثل هذه المسألة المهمة، أفهمُ من تأمله النقاط الآتية:

١- الإمام أحمد يجيز التوسل بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهل أتّهمه بالشرك، أو بالكفر، أو بالإفتاء بمحرّم؟ أو أقول: إنه عالم كبيرٌ أخطأ، وله أجر واحد، غفر الله له.

٢- عَدَّ المسألة من مسائل الفقه ولم يعدّها من مسائل العقيدة.

٣- جمهور العلماء (يعني: ليس كلّهم، فلا إجماع في المسألة) يقولون: مكروه، ولم يقولوا: حراماً!

٤- الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا ينكر على من فعله، لأنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد!!

ما هو هدفي من هذا المقال بعد كل هذا الكلام؟ ليس هدفي مناقشة حديث «البيعان بالخيار»، ولا موضوع التوسّل، الذي احترق من كثرة النقاش، ولا بيان رأيي في الموضوعين، فمن أنا حتى يكونَ لي رأي؟!!

هدفي: إذا كان مثل أحمد بن حنبل، ومحمد بن عبد الوهاب، على هذه الدرجة من سعة الأفق، والمرونة، واحترام الرأي الآخر، والأدب في الخلاف في مسائل الدين، فلماذا لا يقتدي بعض السّادة العلماء، والإخوة طلاب العلم، وسواهم بهذا الخلق الرفيع، ويسارعون في أمور السياسة، والاجتماع، والاقتصاد، فيجرحون مَنْ يخالفهم في الرأي من العلماء الفضلاء المشهود لهم بالصّلاح والاستقامة؟! ويتّهمونهم أشنع التهم، وكأنهم أخذوا من الله شهادة أن فهمهم هم هو الحق، وما عداه باطل!!

اللهم ارزقنا الإخلاص والصواب في القول والعمل، والحكمة فيما نأتي ونذر من أمر ديننا ودنيانا، إنك أكرم مسؤول.



لماذا لا نعرف وننشرُ فضائحهم؟؟

تتصاعد- في الوقت الحاضر- حملات التشويه الإعلامي الظالمة الغاشمة على المسلمين في واقعهم وماضيهم، وعلى الحضارة الإسلامية وقِيَمها الربانية، وتتضافر على شنّ هذه الحملات مؤسساتٌ غربية مختلفة الاتجاهات، متحدة الغايات، هدفها الإساءة إلى ماضي المسلمين وحاضرهم على حدٍّ سواء؛ بتغطيةِ حسناتهم أو التقليلِ من شأنها، وكشف أخطائهم والتكبير من حجمها.

والدارس المنصف لِـ «قصة الحضارات» التي أقامتْها مُخْتلفُ الشعوب، يبني التالي على جهود السّالف ويستفيد منها على مَرّ القرون، يجدُ جوانب مشرقةً تستحقّ الإعجاب، كما يجد أن كثيراً من أمجادها قامت على: الحروب التي تغذيها المطامع، وعلى الظلم، والوحشية، والقتل، والتشريد، والسّرقة. وتزوير التاريخ... إلخ، والواقع الذي نعيشه وعاشه جيلنا: في فلسطين، والبوسنة، وأفغانستان، والعراق، وغيرها، خيرُ شاهد على ما أقول.

من المؤسف أن دراستي للتاريخ غير كافية للكتابة العميقة في هذا الموضوع، لذا فإنني ادعو، وارجو أرباب التخصّص أن يسدّوا هذه الثغرة، ويقوموا بهذا الواجب الكفائي. ودعونا نتساءل:

- كيف قامت إمبراطورية اليونان؟ ما القيم الأخلاقية التي كانت تسودها، وكيف قَهرتْ، وتوسّعتْ، وأخضعتِ الشعوب الأخرى، وكيف عاملتها؟

- ثم كيف قضى الرومان على اليونان؟ وقبلهما: مع الاحترام الكامل لعبقرية بناء الأهرامات، مَنِ الذي بناها، ولماذا بُنيت؟ وماذا كان اعتقاد المصريين في الفراعنة؟
- والصينّ والهند: ما الدّين الذي أعلوا رايته، وما الحروب التي خاضوها؟ وما الشعوب التي استعمروها؟
- والفرس الحكماء العظماء!! لماذا عبدوا النار قبل إسلامهم، وماذا كان موقفهم من سائر الشعوب؟
- والمغول، والتتر، وهولاكو، وجنكيز خان؟
- والروّس الملحدون (باعترافهم وافتخارهم ونفيهم لوجود الله) بأي عدالة ضموا تحت رايتهم دُول (الاتحاد السوفياتي)؟ وكيف وحدّوها؟
- والاستعمار البريطاني؟ والاستعمار الفرنسي الذي خلّف في الجزائر وحدها مليون شهيد؟ والاستعمار الإيطالي الذي ذبح عمر المختار والمجاهدين معه؟ والصّربُ العنصريون؟
- والولايات المتحدة الأمريكية التي تفتخر بأنها أعطتِ الهنود الحمر حقّهم، ولم تستعمل (الفيتو)، وصمةَ العار في جبينها وجبين حلفائها، لإخراس كلّ شعبٍ يطالب بحقّه في الحرية والحياة! ما موقفها في فيتنام، ومن الصهاينة، ومن شارون المجاهد المصلح، بطلِ صبرا وشاتيلا وجنين؟ وهي دولة العدالة المطلقة، والحرية المطلقة، والغطرسة المطلقة؟ وما غزو العراق منا ببعيد!

ويتعب العادّون من العدّ! فهناك ألوف الفضائح والمخازي التي دوّنتها كتب التاريخ عن الأمم السائدة والبائدة؛ ألا يجب على المسلمين أن يعرفوها حقّ المعرفة؟ ألا يجب عليهم- في عصر الإنترنت والقنوات الفضائية، والاتصالات

الخيالية المدهشة- أن يُسلّطوا الضوء عليها، ويضعوها أمام أعين (الرجل الأبيض) في دول أوروبا وأمريكا، وأستراليا، وسواها؟؟ لعلّه يستحيي من نفسه، إن كان ثمة بقية شعور. ولعلّ عقدة الاستعلاء عنده تتكسر حدّتها، وعقدة النقص عندنا تُشفى ولو جزئياً.

أقول هذا وأنا مقرٌّ معترف بأن المسلمين أيضاً في تاريخهم الكثير مما يُستحيا منه، وفي ماضيهم القريب، وحاضرهم المعاش، من الجهل، والتخلف، وفسادِ ذات البين، والتهارش، والتهاوش، والتناوش ما يندى له جبين الإسلام الذي ينتمون إليه، ولكني أظن - وأرجو أن يُصحّح لي المختصّون إن كنت مُخطئاً - أننا خيرٌ ألف مرة من الأمم التي تظلمنا وتستعلي علينا.

حبذا لو عُقدت ندوة علمية محايدة هدفُها الإنصاف في بيان الجوانب المشرقة والمظلمة في الحضارات البشرية، لتحقيق هذا الهدف السامي. ويكون تركيزها على العيوب والجرائم، كما يفعل الطبيب مع المرضى، يُشخّص أمراضهم، ويصفها لهم، ولا ينشغل بالحديث عن أعضائهم السّليمة. ويُذكر أنّ هذا هو الهدف من هذه الندوة، وشعارها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره تعليقاً على هذه الآية.

«إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قطّ إلا حين تتعاملُ في هذا الأمر مباشرةً مع الله، حين تقوم لله، متجردةً عن كلّ ماعداه، وحين تستشعر تقواه، وتُحسُّ أنّ عينَه على خفايا الضمير وذاتِ الصدور..

«وما من عقيدة أو نظامٍ في هذه الأرض يكفلُ العدلَ المطلق للأعداءِ

المشنوئين (المكروهين) كـمـا يكفله لهم هذا الدين، حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر، وأن يتعاملوا معه متجرّدين عن كل اعتبار.

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القِوامة، وأدّت تكاليفها هذه يومَ استقامت على الإسلام، ولم تكن هذه في حياتها مجرّدَ وصايا، ولا مجردَ مُثُلٍ عليا، ولكنها كانت واقعاً من الواقع في حياتها اليومية، واقعاً لم تشهدِ البشرية مثلَه من قبلُ ولا من بعد، ولم تعرفْه في هذا المستوى إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة، والأمثلةُ التي وعاها التاريخ في هذا المجال كثيرةٌ مستفيضة، تشهد كلُّها بأن هذه الوصايا والفرائضَ الربانية قد استحالتْ في حياة هذه الأمة منهجاً في عالم الواقع يؤدي ببساطة، ويتمثل في يوميات الأمة الألوفة.. وحين نطلّ من هذه القمة السّامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها- بمافيها جاهلية العصور الحديثة- ندرك المدى المتطاول بين منهج يصنعه الله للبشر، ومناهج يصنعها الناس للناس، ونرى المسافة التي لا تُعْبَرُ بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة».

تُرى: هل أصبتُ فيما شعرتُ وفكّرتُ وسطّرت؟ أم أنها أخطاءٌ متراكب بعضُها فوق بعض؟ لا أدري، غير أن الذي أدريه أنني- بفضل الله- أخلصتُ واجتهدتُ، فإن حُرمت (أجري) المصيب فأرجو ألا أحرم (أجر) المخطئ.

والله أعلم.

٧٩

النّون واللاّم والباء المشدّدة!! (NLP)

مرة أخرى أعود للحديث عن موضوع سبق أن كتبت عنه تحت عنوان: «هندسة النفس الإنسانية: دعوة إلى التفوق»، وتحدثت فيه عن كتاب الدكتور الفاضل محمد التكريتي لأنه هو الذي ألّف كتاباً سمّاه: «آفاق بلا حدود، بحث في هندسة النفس الإنسانية»، وقال فيه: «الهندسة النفسية هي المصطلح العربي المقترح لما يطلق عليه بالإنجليزية: NLP، وهي الحروف الثلاثة الأوائل من «Neuro-Linguistic Programming» وترجمتها- فيما أعتقد أنا-: البرمجة اللغوية العصبية، أي برمجة الأعصاب عن طريق اللغة.

إن المصطلح الذي اقترحه المؤلف الكريم قد يكون جيداً إذا نظرنا إلى موضوعات {إن إل بي} أو {ب ع ل} = البرمجة العصبية اللغوية، لكنه اسقاط كامل للمصطلح الذي وضعه صاحبا الفكرة في منتصف السبعينات، ثم تبعهما بعد ذلك كلّ الذين ساروا على نهجهما، فكتبوا، وألّفوا، وفتحوا المراكز التدريبية؛ لهذا أرى أن السَّير مع الجميع في مصطلح تعارفوا عليه خيرٌ من الانفراد.

يقول المؤلف عن كتابه: «هذا الكتاب الذي بين يديك يدور حول علم جديد. هو بالنسبة للكون الداخلي كالفيزياء للكون الخارجي»، وهذا تعبير رائع لكنه غير صحيح إلا بنسبة ضئيلة جداً! وحجة المؤلف الفاضل أن «الهندسة النفسية تقود الإنسان إلى التحكم في (بيئته) الداخلية، وتسخّر طاقاته.

وتوجّهها إلى مافيه خير الفرد والمجتمع..» ويقول: إنها «حقل جديد من المعرفة والمهارة بدأ رحلته حديثاً»... «يقول المفكرون، والقادة، والمصلحون، ورجال التربية: إنه يجب على الإنسان أن يكون مثابراً، مجداً صبوراً، متقناً لعمله، منظّماً لوقته... إلى آخر القائمة الطويلة من مفردات (الجودة)، **ولكنهم لم يقولوا: كيف يمكن للإنسان أن يفعل ذلك!!»**

أتوقف قليلاً لأعلّق على هذه السطور. نعم هناك بعض المفكرين ورجال التربية الذين لم يقولوا لنا (كيف نفعل)، بل قالوا: (افعلوا)، ولكنّ كثيراً من المربين والمصلحين علمونا كيف نفعل؟ أوّلهم وأعلاهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم مَنْ بعدهم.. بل إن المصلحين والمربيّن حتى عند الأمم التي هي على غير الهدي الإلهي- كحكماء الهند، والصين، وفارس- بنوا حضارات ضخمة، وربُّوا أجيالاً مقتدرة، وكثيرٌ من شيوخ الصوفية- بغضّ النظر عن استقامة بعضهم وانحراف الآخرين- كانت عندهم مناهج دقيقة مفصّلة في تربية المريدين؛ فإن كان ماقدمتهُ صحيحاً فقول المؤلف الفاضل فيه الكثير من المجازفة، وواقعٌ في خطأ التعميم. ومِثْلُ هذا يَردُ على قوله: «إنها حقلٌ جديد من المعرفة..»

لكنَّ الصواب الذي رأيتُه ولمسته أنّ الاهتمام بهذا الجانب أخذ يتزايد كثيراً في الغرب، ربما منذ ثلاثين سنة، ونما الوعي به بشكل كبير، وأخذ ما يستحقّه من الاهتمام، لأنه - بعد الدّين والأخلاق - من أهمّ ما ينبغي أن يعلَمَه الفرد، وتُعلّمَهُ المؤسساتُ التربوية في كل مكان. وهذا هو المهم، وعن هذا ينبغي أن نبحث في هذا الكتاب وسواه، لنتعلم ما يفيدنا، ثم نضعه موضع التطبيق.

ونتساءل الآن: ما الموضوعات التي تتناولها بالبحث «البرمجة اللغوية العصبية» أو العصبية اللغوية، أو الإنّ، إلى، بي؟ سأختار بعض ما ذكره الدكتور

التكريتي في ص (٢٩) من كتابه، وأرجو القارئ الكريم أن ينتبه إلى أهميتها، وأن يتساءل: هل هذه موضوعات جديدة حقاً، أم أنها أشبعت بحثاً وكلاماً منذ مئات السنين، ثُم هل كثير منها (مُقحمٌ) تحت العنوان أم لا؟

من الموضوعات: الغايات والأهداف المستقرة في أعماق النفس- التواصل والتفاهم مع الآخرين - انسجام الإنسان مع نفسه ومع الآخرين - الحالة الذهنية - أنماط التفكير ودورها في عملية التذكر والإبداع - علاقة اللغة بالتفكير- كيف نستخدم حواسنا في عملية التفكير - كيف نتعرف على تفكير الآخرين- علاقة الوظائف الفسيولوجية بالتفكير - كيف يتمّ تحقيق الألفة بين شخصين- كيفية تغيير (المعتقدات) وأقترح أن نقول: (الأفكار) السلبية التي تقيد الإنسان وتحدّ من نشاطه - دور اللغة في تحديد أو تقييد خبرات الإنسان، وكيف يمكن تجاوز تلك الحدود - كيف يمكن استخدام اللغة في الوصول إلى العقل الباطن أو اللاشعور، (وهذا من أهم الموضوعات الوثيقة الصلة بالعنوان) - علاج الحالات الفردية: كالخوف، والوهم، والصراع الداخلي - تنمية المهارات، وشحذ القابليات، ورفع الأداء الإنساني- قوة الملاحظة والانتباه.. إلخ.

هذه بعض الموضوعات التي تناقشها كتب البرمجة اللغوية للأعصاب وهي- كما نرى - ليست علماً جديداً، بل ربما تحدث عنها فلاسفة اليونان!! وبعضها الآخر مُقحم، أي لا علاقة له بالموضوع، والأخرى في صلب الموضوع.

ومن خلال قراءاتي في هذه الموضوع وجدت أن من أدقّ ما ينطبق عليه وصف (إن .إل. بي) هو التوكيدات. والتوكيدات جملٌ ليس فيها (أداة نفي)، ولا تدل على المستقبل، بل على الحاضر، وتستخدم ضمير المفرد المتكلم (أنا).

مثلاً إذا أراد شخص أن يُقلع عن التدخين ويستعين بالتوكيدات، أي ببرمجة عقله لغوياً، فلا يقول: أنا لن أدخن، أو أنا سوف أترك التدخين، أو أنا لا أحب التدخين، ولكن يقول: أنا أكره التدخين. التدخين يتلف صحتي ومالي. لقد أقلعت عن التدخين والحمد لله. وهكذا تدخل الفكرة تدريجياً لتستقر في العقل الباطن، وتوجّه السلوك بعد ذلك. ويمكن تطبيق الطريقة نفسها على أي عادة يريد الفرد اكتسابها، أو تركها، كممارسة الرياضة البدنية، أو إنقاص الوزن الزائد بتقليل كمية الطعام. فيقول- مثلاً: أنا أمارس الرياضة بشكل جيد. الرياضة تحسّن صحتي وتزيد من نشاطي. الرياضة سبب لدفع المرض عني بإذن الله. أو: أنا آكل باعتدال. أنا أكره الإفراط في الطعام. الدهون والحلوى تدمر صحتي، وهكذا. وينفع هذا حتى في أمور الدين كمن يريد النوم المبكر ليستيقظ للتهجد في الثلث الأخير من الليل.

بل إنني أعتقد جازماً أن الدعاء الصادق الملحّ هو من أعلى أنواع البرمجة العصبية اللغوية، وكذلك ترديد آية قرآنية، أو بعض آية، أو حديث شريف قصير. ومن المفيد جداً أن تكتب هذه التوكيدات عدة مرات في الصباح وقبل النوم. وينصح بعض الباحثين أن يُكتب توكيد واحد إحدى وعشرين مرة صباحاً ومثلها مساءً، لمدة أربعة عشر يوماً متتالية، حتى تتحقق الغاية المرجوة منه بإذن الله.

فلنعمل، ولنتفاءل، ولْنَدْعُ اللهَ، ولنأخذْ بالأسباب، ولنعاودِ الكرات مرات ومرات، وصدق الشاعر الحكيم القائل:

أخْلِقْ بذي الصّبرِ أن يحظى بحاجته
ومُدْمِنِ القرعِ للأبوابِ أنْ يَلِجا



مُداواةُ النفوس

أبو محمد، علي بن أحمد، بن سعيد، بن حزم، الإمام العبقري العلَم، أشهر أئمة «أهل الظاهر» في تاريخ الإسلام، ولد بقرطبة عام (٣٨٤هـ) وتوفي عام (٤٥٦هـ)، وعمره حوالي (٧٢) سنة، رحمه الله وأكرم مثواه. قال عنه خير الدين الزركلي رحمه الله في قاموس تراجمه الشهير: «الأعلام»: «عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام. كانت له، ولأبيه من قبله، رئاسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد بها، وانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين: فقيها، حافظا، يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، بعيداً عن المصانعة. رَوَوا عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو (٤٠٠) مجلد تشتمل على قريبٍ من (٨٠) ألف ورقة!! وكان يُقال: لسانُ ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقان».

ما علاقة هذا الكلام بعنوان المقال؟ علاقته أن (مداواة النفوس) عنوان كتاب صغير من تأليف هذا الإمام العبقري، غفر الله له، ولكل أئمة المسلمين وعلمائهم، ورزقنا حبَّهم جميعاً، من غير تعصّب لأحد، ورزقنا عدم الخوض والحديث عن عيوبهم وأخطائهم.

سبب اختياري الحديث عن (مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق، والزهد في الرذائل) ما أراه من شدة احتياجنا - نحن المسلمين- إلى هذا الأمر. قال محقق الكتاب إبراهيم بن محمد في مقدمته: إن الانحلال الذي تعرّضت له الدولة الأموية في أثناء قيادتها لقرطبة، ولم يَقْوَ أحدٌ على صدّه، ولا أُتيح

لطبيبٍ مداواته، إنما نشأ- كما رآه - كما رآه ابن حزم رحمه الله - عن تفسخ أخلاقي مروع ... فأراد أن يكافح الداء أن يكافح الداء في مكمنه، ويقوِّم الاعوجاج الذي طرأ على قاعدة المجتمع الأندلسي، وما أشبه اليومَ بالأمس.

ثم نقل كلام بعض من سبقه إلى إخراج الرسالة وتحقيقها، منهم الشيخ عبد الرحمن محمد عثمان، الذي قال:

إنه ليبدو لي أن ابن حزم كتب هذا الكتاب في أخريات عمره، بعد أن استخلص من تجاربه عِبَرَ الأيام، وطاف بروحه في عوالم الحكمة، فعزفت نفسه عن الدنيا، وتاقت إلى لقاء الله من هنا أطال الوقوف، وأمعن النظر في نفوس البشر، وراح يتغلغل ببصيرته في خفاياها...

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: إنه جمع في كتابه معاني كثيرة وهبه الله تعالى إياها لينفع بها من يشاء من عباده، وقد أتعب فيها نفسه، وأطال تفكره، ليأخذها القارئ سهلة هينة، فتكون له أفضل من كنوز الدنيا.

يقول ما معناه: بحثت عن غرض يستوي الناس كلهم في استحسانه وطلبه فلم أجد إلا واحداً هو طَرْدُ الهمّ. وهم- على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وأغراضهم- لا يتحرّكون حركةً أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، فمِنْ مخطئٍ وهم الأكثر، ومن مصيبٍ وهم الأقل!

بحثتُ عن سبيلٍ موصلة- على الحقيقة- إلى طرد الهم، الذي هو المطلوب النفيس الذي اتفق جميع الناس: الجاهل منهم والعالم، والصالح والطالح، على السعي إليه، فلم أجد إلا التوجه إلى الله عزّ وجل بالعمل للآخرة.

وإلا فإنما طلب المالَ طلاَّبه ليطردوا به همّ الفقر عن أنفسهم وطلبَ العلمَ مَنْ طلبه ليطرد به عن نفسه همَّ الجهل... وهكذا ووجدت العمل للآخرة سالماً

من كل عيب، خالصاً من كل كدر، موصلاً إلى طردِ الهمّ على الحقيقة، ووجدتُ العامل للآخرة إن امتُحِنَ بمكروه في تلك السبيل لم يهتمَّ، بل يُسَرّ، لأنّ رجاءَه هو في عاقبة ما ينال من الأجر، وهذا الرجاء يُعين على ما يطلب. ووجدتُه - إن عاقه عائقٌ عن تحقيق مراده - لم يهتمَّ لأنه غير مؤاخذٍ بعد أن بذلَ جُهده في الأخذ بالأسباب، ورايتُه إن قُصد بالأذى سُرّ، وإن نكبتْه نكبةٌ سُرَّ، وإن تعبَ فيما سلك فيه سُرّ، فهو في سرور متصلٍ أبداً. وغيره بخلاف ذلك أبدا.

❖ لا تبذل نفسك إلا فيما هو أغلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عزّ وجل. وباذلُ نفسه في غرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصا. والعاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة.

❖ ومن أهمّ أسباب الراحة عدم المبالاة بكلام الناس، والمبالاةُ بكلام الخالق عزّ وجل. ومن قدّر أنه يسلم من طعن الناس فهو مجنون. وإن من عرف الحقائق كان اغتباطه بذمّ الناس إياه أشدَّ من اغتباطه بمدحهم إياه، لأسبابٍ كثيرة منها أنه يأخذ من حسناتِ من ذمّه بالباطل، فيحظى بها في دار الجزاء، وهو أحوجُ ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعبْ فيها. وهذا حَظٌّ رفيع لا يزهد فيه عاقل.

❖ إن العاقل لا يتغبط بصفة يفوقه فيها سبُعٌ، أو بهمية، أوجماد، وإنما يغتبط بتقدمه في الفضائل. فمن سُر بشجاعته (التي يضعها في غير موضعها وهذا قيدٌ مهمَ جداً في كل ما سنذكره) فليعلمْ أن النّمر أجرأ منه وأن الأسد أشجع منه. وم سُرَّ بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً. ومن سُرَّ بحمله الأثقال فلْيعلمْ أن الحمار أحملُ ومن. ومن سُرّ بسرعة عَدْوِهِ وَجَرْيِهِ فليلعم أنّ الكلب والأرنبَ أسرعُ عَدْواً منه. فأي فخرٍ وأي سرور فيما تكون فيه البهائم متقدمةً عليه؟! لكن العاقل يُسَرّ إذا اتّسع علمُه، وحَسُنَ عمله فإنه لا يتقدمه في هذا، إلا الملائكة وخيار الناس.

أقول مكرراً ماسبقت الإشارة إليه: قوة الجسم والنفس إذا وضعتْ في محلّها هي من الفضائل والمزايا، ولا تصحّ المقارنة فيها بين الإنسان المكرّم والحيوان الأعجم، أما إذا أُسيئ استخدامها، وكانت غايةً في نفسها، أو وسيلةً لأذى الناس، كان صاحبُها أدنى درجة من الأنعام، واضلَّ سبيلاً.

- إذا حَقّقتَ مُدة الدينا لم تجدْها إلا (الآن) الذي هو فصل الزمانين فقط. أما ما مضى وما لم يأت، فمعدومات كما لم يكن. فمَنْ أضلُّ ممن يبيعُ باقياً خالداً بمدةٍ هي أقلُّ مِن كَرِّ الطَّرْف؟!
- من أساءَ إلى أهله وجيرانه فهو أسقطُهم، ومن كافأ مَن أساء إليه منهم فهو مثلُهم، ومن لم يكافِئْهم بإساءتهم فهم سيدّهم، وخيرُهم، وأفضلُهم.

هذه وقفات مع مقتطفات من «مداواة النفوس»، وقراءتها (كما تُقرأ الجرائد!!) لا تُسمن ولا تغني من جوع، إنما تأملها، وتكرار النظر فيها هو الذي ينفع بإذن الله.

والكلام الجيدُ كثيرٌ في نفسه، وإن كان قليلاً بالنسبة إلى ما سواه، ولكن أين المنتفِعون؟!

والله الموفق.

٨١

اعترافات الإمام ابن حزم!!

الاعتراف بالأخطاء والعيوب نادر في الرجال، لأسباب عديدة منها الهيّن ومنها المهم: أما الهيّن فكون المرء لا يرى عيوب نفسه، فهذا معذور من هذا الوجه. وأما المهم فهو أن الاعتراف بالأخطاءِ والعيوبِ يحتاج إلى قوة نفسية هائلة لا يملكها إلا الأقلّون. ومن خداع المرء لنفسه، أو لمن حوله، أو من تلبيس إبليس عليه أنه إذا اعترف بعيوبه (نادراً) شعر فوراً بالفخر والاستعلاء لأنه يملك شجاعة الاعتذار، فيُدلّ بها، ورحم الله المتبي الذي قال: لهوى النفوس سريرة لا تُعلم!

يقول عباس محمود العقاد في مقال له بعنوان: «اعترافاتي»: «حسبي اعترافاً أن أحداً من الناس لم يسلم من عيوبي وخطاياي، فهل في وِسْعِهم جميعاً أن يدّعوا مساواتي في جميع فضائلي ومزاياي»؟ وهذا الكلام جميلٌ أدباً، وحُسْنُ تخلصٍ، وغيرُ جميل: لا في ميزان «الأخلاق» ولا في ميزان إمكانية الاستفادة منه.

أما أبو محمد بن حزم، الإمام العلامة، فهو يعترف بجرأة وشجاعة بعيوب يشترك فيها أكثر الناس، ويستغربون أن توجد في العظماء، ثم يبين كيف استطاع أن «يداوي نفسه» منها، ويتغلب عليها بتوفيق الله. وسأنقل للقارئ الكريم كلام الإمام رحمه الله، مجتهداً في تبسيط بعض عباراته:

كانت فيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات

الله عليهم، وما قاله الأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين، في الأخلاق وآداب النفس، حتى أعانني الله عز وجل فتخلّصتُ من أكثرها، وأنا أذكرها ليتّعظ بذلك يوماً من الأيام مُتّعظ. فمنها:

١- الإفراط في الرضا والغضب: فلم أزل أداوي ذلك، حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب، وتحمّلت من ذلك عناءً شديداً، وصبرت على مضضٍ مؤلم. ربما أمرضني أحياناً، وأعجزني ذلك في الرضى، فسامحت نفسي. أي أنه- رحمه الله- استطاع أن يكظم غيظه بعد مشقّة شديدة ومعاناة، لكنه بقي في حُبّه مبالغاً، وسامح نفسه في ذلك.

٢- ومنها دعابة غالبة، أي: كان رحمه الله يحبّ كثرة المزاح، فاستطاع أن يمنع نفسه من المزاح الذي يُغضب الآخرين، وسامح نفسه فيما عداه، إذ رأى ترك الممازحة نهائياً من الانغلاق، ومشابهاً لِلْكِبر.

٣- ومنها عُجبٌ شديد، (أي: كان- غفر الله له- شديد الاعتزاز والاعجاب بنفسه، وسبب ذلك عبقريته، لذلك كان سليط اللسان على الأئمة الأعلام، يكاد لا ينجو واحد من لسانه)، قال: فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب العُجْبُ كلُّه ولم يبق له والحمد لله أثر. بل كلّفتُ نفسي احتقار قدْرها، واستحمالَ التواضع. أقول: واحتقار النفس يكثر الحديث عنه عند العلماء المعتنين بالسّلوك، وكان هذا الأمر يسبب لي إشكالاً كبيراً إلى أن وصلتُ إلى اقتناعٍ مفاده: أن التواضع هو مطلوب، والثقةُ بالنفس ومعرفة قُدُراتها الكامنة مطلوبة كذلك، أما احتقار النفس فغير صحيح، ودليلي الشرعي على ذلك دعاء النبي عليه السلام الذي رواه البيهقي: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا ..» فكيف يستبشر بإحسانٍ من يحتقر نفسَه؟، وكذلك ما أخرجه البخاري رحمه الله في جامعه الصحيح من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو

شاب يافع، يشجعه على إبداء رأيه في استنباط المعاني من القرآن الكريم: «يا ابن أخي، قل، ولا تحقر نفسك!» والله تعالى أعلم.

٤- ومنها حركات كانت تولّدها غفلة الصبا، وضعف الأعضاء، فقسرتُ نفسي على تركها، فذهبتْ، (وفي هذا إجمال، فلا ندري ما تلك الحركات؟).

٥- ومنها محبة في بُعْد الصّيت والغلبة، فالذي وقفتُ عليه من معاناة هذا الداء: الإمساك فيه عما لا يحلّ في الديانة، والله المستعان على الباقي. (فحبُّ الشُهرة، والسّمعة، والصّيتِ الحسن من شهوات النفوس، ويعترف- رحمه الله- بأنه لم يستطع التخلّص منها كلّها).

٦- ومنها إفراط في الأنفة (وهي: العِزّة والحميّة) بَغّضَتْ إليّ إنكاح الحُرَم (أي: المحارم) جُملةً، بكل وجه، وصعّبَتْ ذلك في طبيعتي، وكأني توقّفتُ عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قُبْحه، لعوارض اعترضت عليّ. والله المستعان.

٧- ومنها عيبان قد سترهما الله وأعانني على مقاومتهما، وأعانني بلطفه عليهما، فذهب أحدهما تماماً ولله الحمد، وطاولني الثاني ثم يسّر الله قهره.

٨- ومنها حقْد مُفرط!! (والحِقْدُ: الانطواء على العداوة، والتربّص لفُرصتها). قدرتُ بعون الله تعالى على طيّه وستره، وغلبتُه على إظهار جميع نتائجه. وأما قطعُه نهائياً فلم أقدر عليه، وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً. (أقول: وهذا ليس مطلوباً من المسلم ولا من غيره..)

ويمضي الإمام ابن حزم رحمه الله قائلاً:

وأما الذي يَعيبُني به جُهّالُ أعدائي من أني لا أبالي - فيما أعتقده حقاً - بمخالفة من خالفتُه، ولو أنهم جميعُ مَنْ على ظهر الأرض، وأني لا أبالي

موافقة أهل بلادي في كثير من زيّهم الذي تعودوه لغير معنىً، فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها. ولَعَمْري لو لم تكن فيَّ هذه الخصلة - وأعوذ بالله - لكانت من أعظم تمنياتي وطلباتي عند خالقي عزّ وجلّ! وأنا أوصي بذلك كلَّ من يبلغه كلامي، فلن ينفعه اتّباعه الناس في الباطل والفضول إذا أسخط ربّه تعالى، وغَبَنَ عقله، أو آلم نفسَه وجسده، وتكلّف مؤونةً لا فائدة فيها.

أقول تعليقاً على قول الإمام رحمه الله: لقد خلط- غفر الله له- بين أمرين: الأول أنه لا يبالي بمخالفة جميع أهل الأرض فيما يعتقده حقاً، وهذا الكلام صحيحٌ نظرياً، غيرُ صحيح عملياً، إذْ لم يخصَّ الله سبحانه رجلاً واحداً بالصواب دون سائر البشر. ولهذا وقع الإمام رحمه الله في فتاوى مُضحكة لا مجال لذكرها تأدباً معه، خالف فيها علماء أهل الأرض!!

والأمر الثاني: أنّ اتباع الناس في الباطل إذا أسخط الله تعالى.. إلخ إثم وخطل، وهذا لا يخالفه عاقل.

وما أحكمَ، وأجمل قولَ عبدِ الله بن المقفع رحمه الله في كتابه العظيم الأدب الصغير (والأدب الكبير):

«على العاقل أن يجبن عن المضيِّ على الرأي الدي لايجد عليه موافقاً، وإن ظن أنه على اليقين»!!

وبعد: فهذا حديث عن (الاعترافات) أردت منه أموراً عديدة أُجملها فيما يلي:

١- لا يوجد عظيم بدون أخطاء، فلنقتصِدْ في تقديرنا (أو تقديسنا للأشخاص). أما الأنبياء الكرام عليهم السلام، فلهم وضع آخر.

٢- الاعتراف بالنقص (على الأقل مع النفس) ضروري لعلاجه، وإلا فالذي لا يعرف ويعترف أنه مريض لا يذهب إلى طبيب.

٣- الحديث الشريف: «إنما الحلم بالتحلم» دستور عظيم في تغيير العادات، وترك السلبي منها، واكتساب الإيجابي. والله أعلم، وهو الموفق والمستعان.

٨٢

المسلمون.. من العطالة إلى الفاعلية

إخراج المسلمين اليوم من «العطالة» إلى «الفاعلية» أهمّ قضية على الإطلاق- في يقيني- يجب أن تنفق فيها الجهود، والأوقات، والأموال، ويجب أن ترتب أولوياتها، ويحصل عليها (اتفاق عام تقريبي)، لأن (الاتفاق الكلي القطعي) غير ممكن عادة. وترتيب أولوياتها- كما أرى-:

أولاً: حُسن الصلة بالله، بكل ما يقتضيه ذلك من أمور.

ثانياً: حسن الاستفادة من الوقت، الذي هو عمر الفرد والأمة.

ثالثاً: حسن الاستفادة من الطاقات الفردية، والمواهب الإنسانية.

رابعاً: حسن استثمار المال الخاص والعام.

خامساً: التفوق في العلوم التطبيقية.

سادساً: العمل الجماعي التعاوني، (بروح الفريق).

أمامي الآن كتاب جيد يؤدي بعض الغرض من كتابة هذا المقال، عنوانه: «التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر» للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.

يقع الكتاب في (١٢٠) صفحة، وعدد مراجعه (٢١)، منها (١٤) باللغة الإنجليزية، وقد اعتمد بشكل لافت للنظر على الكتاب الشهير: العادات السبع للأشخاص الناجحين (أو ذوي التأثير العالي) لمؤلفه ستيفن كوفي حتى إنه وضع على غلافه الخارجي أهمّ (صورة) في كتاب كوفي، وسار على نهجه في

جزء لا يستهان به من الكتاب، إلا أنّ ذاتية المؤلف مع ذلك واضحة. وكان يشير في الحواشي إلى أنه قد أخذ واقتبس، فينسب الفضل لأهله، ولا يدلّس على القراء كما يفعل بعض مرتزقة الكتاب.

واستأذن القارئ الكريم أن أقتطف له من الكتاب المذكور بعض ماوجدته جديراً بالاهتمام، (بشيء من التصرف).

يقول المؤلف في المقدمة: «الأمم الواعية حين تحسّ بأزمة معينة، أو تنزل بها نازلة فإن أول شيء تفعله هو قيام الخبراء فيها بإعادة فحص النظم التربوية السائدة، لتشخيص السبب الذي أدّى إلى الأزمة، وهو عادة كامنٌ في التربية.

وهذا مافعلته بريطانيا إزاء التفوق الألماني خلال الحرب العالمية الثانية: ففي الوقت الذي كانت أنظمتها الدفاعية تتصدى للقوى الألمانية كان المربون البريطانيون يجتمعون في المخابئ والملاجئ يدرسون نظمهم التربوية، وثقافتهم الاجتماعية!!

«وهذا مافعلته الولايات المتحدة الأمريكية حين سبقها (الاتحاد السوفياتي) في النزول على القمر، وفي مواجهة التفوق الياباني في ميادين الصناعة، والتجارة الدولية.. ومافعلته اليابان أيضاً إثر هزيمتها في الحرب العالمية الثانية».

وضع البلاد العربية والإسلامية اليوم لايخفى على البصير، ولا على فاقد البصر، فوضوحه صاعق ساحق لا يغيب إلا على من فقد حواسّه كلّها، فماذا فعل المربون؟ ماذا فعل الآباء والأمهات أولاً؟ والمعلمون ثانياً؟ وعلماء الشريعة المطهرة ثالثاً؟ وماذا فعل المصلحون، والمنظّرون، والمخطّطون، والصّغار، والكبار؟ ماذا فعلوا؟؟

يقول المؤلف الفاضل: «في الولايات المتحدة الأمريكية تُعقد المؤتمرات، والندوات الشهرية بين ممثلي ثلاث قوى هي: ١- قوة المعرفة، ٢ - وقوة المال، ٣- وقوة السياسة والقتال، بغية تحقيق أمور ثلاثة: الأول: التعرف على الوسائل التي تحقق أعلى نسبة من (المخرجات) مقابل أقل نسبة من (المدخلات)، والثاني: تقويم مدى التناسق والتعامل بين مؤسسات القوى الثلاث المذكورة، والثالث: تقويم النتائج الحاصلة. والتعرف على تفاصيل (التغذية الراجعة) التي تستفاد منها. والتغذية الراجعة لا علاقة لها بالتغذية، وهي في رأيي ترجمة غير موفقة لمصطلح إنجليزي، لعلّ علماءنا الأفاضل يجدون بديلاً عربياً مناسباً له، وما أروع وأغنى اللغة العربية، وما أبأس وأفقر أهلها!!. وأقترح أن نقول: والتعرف على نتائج التقويم).

ومن أمثلة هذه المؤتمرات المؤتمر الثاني لاجتماعيات العلوم الاقتصادية، (لم أفهم المراد باجتماعيات!) الذي عقد في آذار /مارس ١٩٩٠م في جامعة جورج تاون في مدينة واشنطن العاصمة، حيث حضر أكثر من ثمانمئة مشترك، بينهم متخصّصون في علم النفس، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والفلسفة، والاقتصاد، وإدارة الأعمال، وقدّم حوالي (مئتي بحث)، نوقشت في (خمسين) جلسة، ثم جمعت خلاصة الأبحاث المشار إليها في مجلد بعنوان: «الأخلاق، والعقلانية، والفاعلية»، وكان محور المؤتمر المذكور امتداداً للمؤتمر الذي عقد في كلية إدارة الأعمال بجامعة هافارد عام ١٩٨٩م.

في الباب الثاني من الكتاب، وعنوانه: التربية ودرجات نضج الشخصية وعاداتها الفكرية والنفسية يبدأ المؤلف (يأخذ بغزارة) من كتاب ستيفن كوفي «العادات السبع». ويقول: «إن الأساس الأول الذي تقوم عليه تنمية الفاعلية أن تعي مؤسسات التربية كيفية تحقيق النضج الكامل في شخصية الإنسان»، وأن

تتضافر معها مؤسسات الإدارة، والأمن، والتوجيه، لحماية هذا النضج من الإعاقة والتشويه، لأنه الشرط الأساسي في فاعلية الإنسان، وقدرته على الإنجاز، وحمل المسؤوليات، وإنجاح المشاريع، والتربية الواعية تعمل على تنمية نضج الشخصية الإنسانية عبر ثلاث درجات من (الحالات النفسية - الاجتماعية) هي:

١- درجة الاعتماد على الغير (في الطفولة) ٢- درجة الاستقلال عن الغير ٣- درجة التعاون مع الغير، وهي أعلى الدرجات، وهو ما يعبر عنه (بروح الفريق)، وبتعبير أروع وأرقى (بالجسدية) وهو ماورد في الحديث الشريف: «كالجسد الواحد».

وللمؤلف كلام جميل في الفصل الخامس الذي عنوانه - بتصرف- «التربية التجديدية وتربية قولبة العقل وقولبة الإدارة، يقول:

«إنسان التربية التجديدية يتمركز في قلب التحديات القائمة، فلا يغترب في (ماضي الأسلاف العظام)، لأن منجزات السلف العظيمة هي أعمالهم وليست عمله، وهي تلبية لحاجات أزمانهم وليست تلبية لحاجات زمنه، وإنسان التربية التجديدية لا يغترب في (حاضر) غيره من المجتمعات المعاصرة المتقدمة؛ لأن منجزاتهم هي ثمرة تفاعلهم مع بيئتهم لا بيئته، وهي حلول لمشكلاتهم لا مشكلاته، وتلبية لحاجاتهم لا حاجاته. (واستيراد) الخبرات التربوية من الخارج يفرز (اغتراباً) في الثقافة، وإحساساً بالدونية، وإحباطاً في الآمال، وأزمة في الهوية والانتماء. ولا يعني ذلك أن إنسان التربية التجديدية يقطع جذوره من الماضي، أو يغلق أبوابه عن حاضر الآخرين، وإنما معناه أن هذا الإنسان يركّز عمله لمجابهة تحديات حاضره هو ومشكلاته، ثم

يستثمر خبرات الماضي المستخرجة من تراث الأسلاف للتعرف على أصول حاضره، ويستورد من الخارج ما يرفعه ويغنيه، لا ما يضعه ويفنيه!!»

مهما تحدثنا في هذا الموضوع فهو يستحق أكثر، ولا بد من أن يصبح همَّ (الأمة)، لأنه المقدمة الصحية الصحيحة لنهضتها، ولا مقدمة سواها. والله سبحانه أعلم. ونستغفره من الزلل والدَّخَل في النية والقول والعمل.

٨٣

لا يُلْهِيَنَّكُمْ ما أنتم فيه عما أقوله لكم!!

يموت عزيز غالٍ على إنسان، فيحزن، ويبكي، وربما جَزِع ومَرِض، وربما عزَّ عليه النومُ. وأعرض عن الطعام يوماً أو يومين، لكنه لا يلبث أن يعود إلى حياته العادية بالتدريج، لأنه لا يستطيع العيش من غير طعام أو منام؛ فهما ركنان لا تقوم حياة البدن بدونهما.

ويصاب ولده في حادث سيارة يَشلُّ يده ورجلَه، فلا تمنعه المصيبة من حمله إلى المستشفى، والأخذِ بأسباب علاجه، واستفراغ الجهد والمال في ذلك، ثم التسليم لقضاء الله وقدره.

وتحدث كارثة في بلد مسلم- كفلسطين مثلاً- فتهيج المشاعر، وتنطلق بالدعاء الحناجر، وتذرف العيونُ الدموع، ويُسهم الفقير والغني بالمال، ثم تمضي الحياة على رتابتها السّابقة، دون أخذ بأسباب العافية، واسترجاع الحقّ السليب، ونصرة المظلوم، والأخذ على يد المظالم، لأن تلك الأسباب ليست آنيّةَ التأثير، أو سريعةَ النتائج، إنما هي- كشجرة النخل- لا تُثمر إلا بعد زمن يصعب معه الانتظار، ولكنّ الذي يريد الثمر لا بدّله من الانتظار، مع الأخذ بالأسباب، والاستعجال لا يُفيد شيئاً. وقديما قال علماؤنا: «مَنْ تعجّل الشيء قبل أوانه، عوقب بحرمانه».

إنني مؤمن اعمق الإيمان- وقد أكون مخطئاً- أن مصائبنا في فلسطين، وأفغانستان، والجزائر،.. وغيرها أعراضٌ وليست أمراضاً، ونتائج وليست

أسباباً، ومالم نعالج المرض فلن يختفي العرض ومالم نمنع السبب فلن نمنع النتيجة.

قدّمتُ بهذه المقدمة التي أؤمن بأهميتها لذاتها، بين يدي موضوع أؤمن بأهميته لذاته، قد يبدو بعيد الصلة بها لكنه وثيق، وقد يقول من يقرؤه: أهذا أوانه ونحن نعاني مما نعاني؟! ولهذا القائل وأمثاله جعلت عنوان مقالي هذا: «لا يلهينكم ما أنتم فيه عما أقوله لكم!!»، لأنكم إذا لم تلتفتوا إليه وإلى أمثاله فلن يتحقق لنا النصر، لأننا لم نأخذ بأسبابه، وإذا تحقق (افتراضاً وتخيلاً)، فما الذي يحدث؟ هذه بلاد إسلامية أخرى ليس فيها محتل غاصب، يفعل بعض أبنائها ببعض، أسوأ مما يفعله المحتل الغاصب! «وإنا لله وإنا إليه راجعون».

لا بُدّ من بناء الفرد لأنه لبنة بناء الأمة. وموضوع اليوم متعلّق ببناء الفرد، وتغيير شخصيته نحو الأحسن، واكتسابه للعادات الإيجابية، وتركه للعادات السلبية، أي: بالتحلّي، والتخلّي، بالتحلي بكل ماهو نافع مفيد، والتخلّي عن كل ضارٍ مؤذٍ.

فهل هذا ممكن؟ نعم! ممكن كما قرره الحكماء، وممكن كما شاهده المبصرون. وقد كتب الكثيرون عن العادات التي تؤدي إلى النجاح والتألق والتفوق، ومن أشهرهم عند قرّاء العربية، وربما غيرها، ستيفن كوفي، ومنهم: برايان تريسي، وجون كيهو، وكثيرون. لكني سأختار اليوم كلاماً لإمام عربي مُسلم، توفي عام (٧٥١هـ)، يعرفه أكثر مثقفينا، يتحدث عن هذا الموضوع بأسلوب عصره (الذي يصعب -مع الأسف- على كثيرين منا)، لذلك سأسمح لنفسي بالتصرف فيه، إما شرحاً، وإما تعديلاً طفيفاً لا يخلّ بالمعنى المراد، إن شاء الله.

يقول ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبي بكر، رحمه الله وغفر له:

«مبدأ كل علم نظري، وعمل اختياري، هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة». دعونا- أيها القراء الكرام- نُرَقِّمْ هذه المراحل هكذا:

١- فكرة ٢- تصور ٣- إرادة ٤- فعل ٥- تكرار ٦- عادة، ونأخذ مثالاً يشرحها: أنا - مثلاً - مقتنع بوجوب ممارسة الرياضة البدنية، ولكني لا أمارسها. أشعر بالحاجة إليها، وأقرأ عن فائدتها، فتتكون لدي (الفكرة). أتخيَّل انني سأذهب إلى النادي الفلاني لأشترك فيه، أو سأشتري حذاء رياضياً لأمشي كل يوم ساعة، فينشأ (التصور).أعزم على ذلك، فأشترك في النادي، وأشتري الملابس اللازمة وهذا يحتاج إلى (إرادة)، ينجم عنها جزءٌ من (الفعل) يكتمل بممارسة المشي، أو التدرب في النادي. إذا (فعلتُ) هذا (بتكرار) معيَّن (يعني لم أ نقطع عنه بعد شهر أو شهرين) تكونت لدي (عادة) ممارسة الرياضة. وقل الشيء نفسه عن العادات كلّها الحميدة منها أو الذميمة، اكتساباً وتركاً. كترك التدخين للمدخن. والاعتدال في الطعام للمفرط فيه، وتلاوة جزء من القرآن في كل يوم لمن لا يفعل هذا، والنوم المبكر لمن ابتلي بالسّهر، والقيام للتهجّد لطالب الآخرة، والإقلال من تضييع الوقت أمام التلفاز، والمطالعة المفيدة، و... أشياء أخرى كثيرة.

يقول ابن القيم: «فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار. وفسادها بفسادها. فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لولّيها، وإلهها، صاعدةً إليه،

دائرة على مرضاته ومحّابه، فإنه سبحانه به كلُّ صلاح، ومن عنده كلُّ هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن تولّيه لعبده كل حفظ، ومن إعراضه عنه كل ضلال وشقاء..

«ومعلوم أن الإنسان لم يُعْطَ إماتة الخواطر، ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النَّفَس، إلا أن قوة الإيمان والعقلِ تعينه على قبول أحسنها، وعلى دفع أقبحها وكراهته له، كما قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله، إن أحدنا يجدُ في نفسه ماإن يحترقُ حتى يصير حُمَمَةً (أي: رماداً وفحماً) أحبُّ إليه من أن يتكلّم به، فقال عليه الصلاة والسلام: (أَوَقَدْ وجدتموه؟) قالوا: نعم، قال: (ذلك صريح الإيمان)، وفي لفظ (الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة)، والحديث رواه الأئمة: أحمد، ومسلم، وغيرهما.

«وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرّحى الدائرة التي لا تسكن، ولابد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حَبٌّ طحنته، وإن وضع فيها ترابٌ أو حصى طحنته. فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرّحى معطلة قطّ، بل لابد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حباً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصىً وتبناً، ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبيّن له حقيقة طحينه». انتهى كلامه رحمه الله بشيء من التصرف.

إنّ الموضوع- فيما أرى- جديرٌ بالمناقشة الحرّة: قبولاً أو رفضاً، موافقةً أو مخالفة، تصحيحاً وتنقيحاً، تعديلاً أو تبديلاً.. والله تعالى أعلم.

٨٤

إلى جيل مسلم جديد طال انتظاره!

(العرب واليابانيون)

ليس لي في هذا المقال - كحالي في أكثر ما أكتب - فضل إلا حُسنُ الاختيار، هذا إذا أحسنت الاختيار! وقديماً قال بعض حكمائنا: «لكل شيء صناعة، ومن صناعة العقل حسن الاختيار». والفضل الأول في هذا المقال للدكتور مسعود ضاهر، المتخصص في التاريخ الاجتماعي في جامعة من أرقى جامعات العالم وأعرقها هي جامعة السّوربون بباريس، وأستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية، الذي ذهب عامين أستاذاً زائراً لجامعة طوكيو. والفضل بعد ذلك للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت الذي يصدر سلسلة شهرية متميزة من الكتب يعرفها كل مثقف في الوطن العربي، هي «عالم المعرفة»، لأنه أصدر في شعبان ١٤٢٠هـ كتاباً بعنوان: (النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج!!) للدكتور مسعود ضاهر، وأنا من هذا الكتاب أنقل، وعنه أتحدث، فليس لي من الفضل شيء يذكر، والشكر والدعاء والثناء، كلها لأهل الفضل.

نقطتان صغيرتان جداً قبل أن أبدأ الحديث:

الأولى: لم أجد في الكتاب القيم، وهو يحمل الرقم (٢٥٢) من السلسلة، لا كلمة «بسم الله الرحمن الرحيم»، ولا أي كلمة أخرى فيها ثناء على الله أو شكر له!!

والثانية: أن عنوان هذا المقال هو السطر الأول من إهداء المؤلف الفاضل كتابه، لكني غيّرت فيه كلمة واحدة فقط، إذ كتبت إلى جيل مسلم بدلاً من إلى جيل عربي، وقد يكون إهداء المؤلف أصوب لأن العرب يقدرون على قراءة كتابه، بينما أكثر المسلمين من غير العرب لا يعرفون العربية مع الأسف. مع الإهداء الكامل وهو جدير التأمل فهو: إلى جيل عربي جديد طال انتظاره...

جيل يستفيد من دروس وعبر النهضة العربية الأولى التي انتهت إلى التغريب، جيل يأخذ العبر من تجارب التحديث الناجحة في العالم، وفي مقدّمتها التجربة اليابانية، وينفتح على جميع العلوم العصرية دون خوف أو مركب نقص، ليعبر بالعرب إلى «حداثة حقيقية» تحافظ على التراث الثقافي العربي، ويشارك في الثقافة العالمية من موقع الإبداع الثقافي، وليس المستهلك لثقافات الغير.

في الكتاب.. بعد المدخل الذي هو تعريف بالدراسة والمنهج- سبعة فصول جاءت بالتسلسل التالي:

١- العرب واليابان في مواجهة التحدي الغربي ٢- أسبقية النهضة المصرية على النهضة اليابانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ٣- اليابان تبعد نفسها عن الضغوط الغربية (١٦٣٧-١٨٥٣م) ٤- مصر: من التحديث الذاتي إلى التغريب ٥- إصلاحات الإمبراطور مايجي (١٨٦٨-١٩١٢م) ٦- النهضة العربية والنهضة اليابانية في القرن التاسع عشر (دراسة مقارنة) ٧- مايشبه الخاتمة.

كتب المؤلف الفاضل مدخل كتابه في بيروت عام ١٩٩٩م، وفيه يقول: بعد مرو أكثر من قرن على نجاح تجربة التحديث اليابانية، التي دفعت باليابان إلى

واجهة الدول الكبرى، ذات الدور الكبير والفاعل في إعادة رسم خارطة القوى العالمية منذ القرن التاسع عشر حتى الآن، مازال الفكر العربي أسير نظرة سكونية لم تتفاعل بعمق مع هذه التجربة الرائدة في إقامة التوازن بين التراث والمعاصرة، بين الأنا والآخر، بين النزعة الإمبريالية التوسعية، والانفتاح الودي على دول الجوار، بين التراكم الاقتصادي الهائل والإنجازات النوعية التي حققها اليابانيون للحضارة الإنسانية الشمولية، بين التوظيف في قواعد الإنتاج والتوظيف في البشر، وهم (أي البشر) الراسمال الأكبر، وصانعو كل حركات التحديث الناجحة.

لا نبالغ إذا قلنا: إن العرب، أفراداً ومؤسسات ثقافية، لم يبذلوا الحد الأدنى من الجهد العلمي المطلوب لمعرفة الأسباب الحقيقية لنجاح التجربة اليابانية، وما رافقها من تضحيات هائلة بذلها اليابانيون، طوعاً أو قسراً، لإنجاح تجربة فريدة في بابها: خارج نادي التحديث الغربي، بشقّيه الأوروبي والأمريكي. ومازالت الضغوط الخارجية على اليابان تعيق حركة التحديث الياباني. وتحاصرها لمنعها من التحول إلى نموذج يحتذى في دخول مجال الحداثة دون السقوط في التبعيّة والتغريب. فقد تمّ تكبيل اليابان باتفاقيات مجحفة طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم تستطع التخلص منها إلا ببناء دولة إمبريالية ذات نزعة عسكرية توسعية، طبعت تاريخ اليابان منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية بطابع دموي مازال يعيقُ حرية الحركة أمام اليابانيين لبناء علاقات طبيعية مع دول الجوار، وبشكل خاص مع الصينيين والكوريين. كما تمّ تكبيل اليابان بالوجود العسكري الأمريكي المستمر على أراضيها!!، ومصادرة حرية قرارها السياسي والاقتصادي: إقليمياً ودولياً، منذ الحرب العالمية الثانية.. فصورة اليابان كعملاق اقتصادي، بوصفها الدولة

الثانية الأكثر غنى في العالم، وفي الوقت ذاته هي (قزم عسكري) لأنها منزوعة السلاح، يتجرّأ على مياهها الإقليمية حتى أعفّ جيرانها ككوريا الشمالية، هذه الصورة لا تعزّي كثيراً من المثقفين اليابانيين الذين يدعون إلى قيام نظام عالمي جدي على أسس أكثر عدالة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٩م.

ويمضي المؤلف قائلاً: لقد تجلى النجاح الأكبر للتجربة اليابانية في رفض اقتباس الثقافات الغربية التي تقود إلى التعريب في المسكن، والأكل، واللباس، والتعليم، والتخاطب اليومي، (أقول: كما حدث في العالم العربي)!!! فنجحت حركة التحديث اليابانية في اقتباس تكنولوجيا الغرب فقط حين عملت على توطينها، واستيعابها، وتطويرها، دون أن تغادر أصالة تقاليدها الاجتماعية، وعاداتها المتوارثة، وفنونها الرائعة، وثقافتها الإنسانية التي ميزت اليابانيين عن باقي الشعوب.

(أقول: وَدَرَسَتْ ودرّستْ كلَّ هذه العلوم بلغتها الأم، لا بالإنجليزية والفرنسية كما يدعو بعض (الطيّبين) عندنا، ولم تتفرنسْ كما حدث في دول شمال أفريقية العربية، بعد أن انتهى استعمار أصدقائنا وأحبابنا الفرنسيين)!!

ثم يقتبس المؤلف من مقال قيّم للأستاذ شارل عيساوي، يصفه بأنه: «باحث عربي ذو معرفة دقيقة بالتاريخ العالمي». ويقول عن المقالة: مع أنها لم تزد على عشرين صفحة فهي- حتى تاريخ صدورها- أكثر الدراسات العربية عمقاً، ولعلها أفضل ماكتب حتى الآن بالعربية في مجال المقارنة بين النهضتين العربية واليابانية، وعنوان المقالة: لماذا اليابان؟ والمقالة بكاملها دفاع عن وجهة نظر ترى أن مصر كانت في وضع أفضل من اليابان لحظة انطلاق تجربتها

التحديثية في عهد محمد علي باشا. وبالمقابل ذكر الأستاذ عيساوي خمس مميزات كبرى تفتقر إليها مصر، أسهمت في تحويل اليابان إلى بلد غني هي:

١- مصر تقع في قلب العالم القديم، بينما تقع اليابان في طرف العالم، وهذا حدَّ من خطر التدخل الخارجي فيها.

٢- التماسك الاجتماعي في اليابان لامثيل له في العالم.

٣- الموارد البشرية المتقدمة.

٤- التوجّه المبكر نحو النمو الاقتصادي، إضافة إلى قدر أعلى من حبّ الاستطلاع.

٥- زعامة حكيمة على نحو غير عادي، يبدو أنها كانت ذات براعة خارقة للعادة في اتخاذ الإجراءات الاقتصادية السليمة.

إن غالبية الدراسات المقارنة بين النهضة اليابانية ودول العالم الثالث بشكل كامل، والعربية منها بشكل خاص، جزئية وتقتصر على عدد محدد من المقولات المسبقة... يضاف إلى ذلك انبهار كامل بتجربة التحديث اليابانية، مع فهم خاطئ وحيد الجانب لها. فلا يملّ الباحثون العرب من كيل المديح لتجربة النهضة اليابانية في القرن التاسع عشر لأنها حمت اليابان من الغزو الأوروبي. وحولتها إلى دولة قوية في محيطها الإقليمي، وحافظت على أصالة التقاليد اليابانية. لكنّ تلك التجربة بالذات هي موضع نقد صارم من اليابانيين أنفسهم، لأنها أدت إلى بروز جيش قوي ذي نزعة إمبريالية توسعية. أشعلت حروباً عدة، واحتلت مساحات شاسعة تفوق مساحة اليابان بعدة مرات. وارتكبت مجازر دموية في الصين وكوريا، وأفسدت علاقات حسن الجوار بين اليابان ومحيطها الإقليمي. ومازالت الحكومات اليابانية المتعاقبة منذ الحرب العالمية الثانية تعمل على طي تلك الصفحة السوداء في تاريخ اليابان الحديث

والمعاصر، عبر الاعتذار العلني للشعوب التي خضعت لهمجية (العسكرتاريا) اليابانية!!

وبعد: فالكتاب- في رأيي- مصدر غنيٌّ لكل مهتم بالقضية اليابانية، وهو يحتاج إلى دراسة مستأنية، وحبذا لو قرأه كبار المسؤولين في مؤسساتنا التعليمية ليستفيدوا منه، لأسباب عدة، منها أن «التعليم في اليابان هو المحور الأساسي للنهضة اليابانية» كما قال كثيرون منهم د. محمد عبد القادر حاتم، وهذا هو عنوان دراسته الصادرة في القاهرة عام ١٩٩٧، والله تعالى أعلم.

٨٥

القارئ الحكيم لا يصدق كلَّ مايقرأ!

قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ ...وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾، ثم قال لهم: ﴿ ...وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ... ﴾، اي: ما أُريد بنهيي إياكم عن البخس والتطفيف أن انهاكم عنه ثم افعله! وإنما أختار لكم ما أختار لنفسي.

وأبادر فأقول للقارئ الكريم: إني أدعوك إلى أن تطبّق عنوان هذا المقال على هذا المقال، فلا تقبلْ إلا ما تقتنع به، ولا تتردّدْ في ما يتبيّن لك خطؤه، وَتَوقَّف فيما عدا ذلك.

إن القارئ الحكيم يقرأ بعقلٍ واعٍ، وذهنٍ مُتفتّح، وفكرٍ ناقد، لأنه يقرأ لبشر، معرّضين للخطأ، غير منزهين عن الهوى. والكلمة المطبوعة لها سحرٌ أشد تأثيراً من سحر الكلمة المسموعة، خاصة إذا كانت في كتاب أُلِّفَ قبل قرون، قد لَفَّه (التاريخ) بجلبابٍ من الاحترام والتقديس. والقارئ الذي يحصرُ نفسَه بالقراءة لعددٍ محدود من المؤلفين، مِنْ مَشْربٍ واحد، أو مدرسةٍ في الفكر واحدة أبعدُ عن الحقيقة، وأكثرُ عُرضةً للخطأ من الذي يُنوّع في قراءته، ويختار عن عَمْد- في المسائل المهمة- أن يقرأ لكتّابٍ من مدارسَ فكريةٍ مختلفة، حتى تتكونَ لديه مَلَكةٌ نقدية، و (مَحَكٌّ) يميز به الصّدق من الكذب، والصوابَ من غير الصواب، قَدْرَ المستطاع.

إنّ أيَّ شيءٍ يقرؤه الإنسان: سواءٌ كان كتاباً، أو مقالاً، أم قصة، أم خبراً في جريدة، أم افتتاحية لمجلة، أم تعليقاً على حادثة.. يحاول صاحبه أن يوصلَ للقارئ رسالة ويُقنِعَه بصوابها، حتى أنا صاحب هذا المقال، لذلك دعوت القارئ الكريم أن لا يستثني كلامي مِن وَضْعِهِ على (محكٍّ) الاختبار، ليقبل منه ما هو جدير بالقبول، ويردَّ ما ينبغي أن يرد.

وقد يستغرب القارئُ أن يكون لكاتب القصة هدفٌ من وراء قصته. إن كثيراً من الأدباء المقتدرين يحاولون أن يوصلوا للقراء رسالة ويقنعوهم بفكرة، وإن أبطال القصص المشهورين لهم تأثيرٌ في شرائحَ واسعةٍ من القراء، إذ يتبنى القُـرّاء عن غيرِ وعيٍ منهم في أغلب الأحيان، (فلسفةَ) هؤلاء الأبطال في الحياة، وطريقتهم في معالجة الأمور، والكيفيةَ التي ينظرون بها إلى الأشياء.

أما الصحف اليومية، ليس في لغتنا العربية وحدها، فحدِّث عن البحر ولا حرج!! فهي ملأى بالمعلومات والأخبار التي تحتاج إلى تصحيح، أو تنقيح، أو تعديل أو تبديل، وكلُّها تؤثر في تكوين عقلية القارئ، وسلوكه، ومواقفه. فإذا جئنا إلى الدعاية والإعلان، فالأصل فيها التدليس والكذب وغسلُ أدمغة الناس للحصول على نقودهم! ولكنْ أين من يتحرّى، ويُحقّق، ويُدقّق؟؟

من أجل هذا يدعو كثير من التربويين إلى تبني موقف «الشك» فيما تقرأ وتسمع حتى تتأكد من صحته، وأنا أفضّلُ أن استعمل بدلاً من «الشكّ»، (النقد)، لأنها أقلُّ حدة، وأكثر لطفاً مع الكتّاب الذين فيهم فضلاءُ، يُقدّمون الحقيقة بأقصى مايمكنهم من جهد.

وبالمناسبة، فإن علماء الحديث الشريف هم السّادة القادة الرّادَةُ في تاريخ البشرية- حسب علمي- في التحقّق مما يُقرأ، ويُروى، ويُسمع، فقد وضعوا

قواعدَ في جرح الرجال وتعديلهم، وقَبولِ الرواياتِ وردِّها، ليس لها نظيرٌ في الفكر الإنساني لامِنْ قبلهم، ولا مِنْ بعدهم!

إن القارئ الذكي يحاول أولاً أن يفهمَ ما يقرأ بشكل جيّد، ثم يتساءَلُ:

- هل النتائج التي توصل إليها الكاتب صحيحة؟
- هل مناقشته منطقية، وحججه مقنعة؟
- هل تفسيره وتعليله للأمور جدير بالثقة والقبول؟
- هل (المعلومات) التي قدمها، و(الحقائق) التي أوردها يُعتمد عليها؟
- هل كان الكاتب (أميناً) في النقل، بعيداً عن (التحيّز)؟
- هل (المطبوعة) التي تضمُّ المادة المقروءة معروفة بتحرّي الصدّق، واحترام القارئ، أم انها تكتب لمن هبَّ ودبَّ، ماهبّ ودبّ؟ وقديماً قال بعض أئمتنا: إن هذا العلم دِيْنٌ، فانظروا عمّن تأخذون دينكم.

وقالوا: الإِسنادُ من الدين، ولولا الإسناد لقال مَن شاءَ ما شاء. وشاعتْ الرواية بالأسانيد حتى في كتب الأدب، وإن كان أكثرها لا يوثق به ولا يعتمد عليه.

إن التربويين في المقام الأول، والمعلمون في مقدّمتهم، هم المسؤولون عن تكوين (ملكة القراءة الواعية) لدى طلابهم، وإنها عملية تستغرق وقتاً طويلاً. ومتابعةً، ولا يمكن الحصول فيها على نتائج سريعة. فهي - كالرياضة البدنية - لا تظهر آثارها في الأسبوع الأول والثاني من مزاولتها. بل لا بد من الصبر بضعة أشهر. ثم ليقدَم المرء باطّراد.

كما أنهم مسؤولون - في هذا العصر بالذات - عن غرس حبّ القراءة في نفوس النشء الذين صرفتهم: الملهيات، والمسلّيات، والموضات، والمؤذيات.. عن القراءة النافعة، والدراسة الجادة التي بدونها لن يتقدم فرد ولن تنهض أمّة.

وأنا أعترف أنها مَهَمَّةٌ شاقة عسيرة، ولكنه التحدي الكبير، ولا بدَّ مما ليس منه بُدٌّ.

والكتب النافعة الجديرة بالقراءة والدّرس نادرةٌ نُدْرةَ الموهوبين بين الطلاب أو غير الطلاب. فقد قرّر المختصون- بعد دراساتٍ أجروها- أنّ نِسبة الموهوبين هي حوالي (٢) في المئة، ولعلّ الحديث الشريف يشير إلى هذا: «الناسُ كأبلٍ مئة، لا تجد فيها راحلة»، أو كما قال عليه الصلاة والسّلام. ولن نكون متشائمين نُردّد مع الشاعر قولَه:

وإذا صفا لكَ مِنْ زمانكَ واحدٌ
فهو المُرادُ فعشْ بذاك الواحِد

أو قول الآخر:

سألتُ الناسَ عن خلٍّ وفيٍّ
فقالوا: ما إلى ذاك سبيلُ
تَمَسَّكْ إن ظفرتَ بذيل حُرٍ
فإن الحُرَّ في الدنيا قليلُ

قلتُ: والكتب المهمة الجديرة بالقراءة قليلة، والسَّعيد من يوفَّق إليها.

وقد تحدّثنا في مقال مضى عن كيفية التعرف على أُمهات الكتب، والمراجع الأساسية، وعن الكتاب البارعين، والعلماءِ المحترمين، والأدباء النابهين... الذين يُنتفع بما يكتبون.

ولا أجد ما أختم به هذا المقال خيراً من القول: «إن العجب لا ينقضي من أن تكون (أولُ) كلمةٍ من الوحي السّماوي في الدّين (الخاتَم)، على النبي (الأمّي)، صلّى الله عليه وسلم، هي كلمة (اقرأ) !، فليعتبر أولو الألباب».

٨٦

ليستْ دعوةً إلى الحزن، ولكن..

ليست هذه المقالةُ دعوةً إلى الحزن، ولكنها محاولة لوضع الشيء في موضعه.

ليست دعوةً إلى الحزن، لأنّ النبي عليه الصلاة والسّلام استعاذ بالله من الهمِّ والحَزَنَ (كما ورد في صحيح البخاري)، ولو كان الحُزنُ مطلوباً لَسألَ اللهَ الهمَّ والحزن!!

بل هي محاولةٌ لتصحيح مقولةِ بعضِ الناس لمن يمرضون بالاكتئاب، أو لبعض ذوي النفوس الحسّاسة عندما تصيبهم مصيبة: «لو كان إيمانكم قوياً لما مرضتم بالحزن والاكتئاب»!!

تأملتُ- فيما يتعلق بهذه النقطة- في سورة يوسفَ عليه السلام فوجدت الآتي:

١- حذّر يعقوبُ عليه السلام ولده يوسف عليه السلام، من أن يقصَّ رؤياه على إخوته: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ... ﴾، إذن كان يتوقع منهم كيداً عظيماً دافعُهُ الغيرةُ والحسد.

٢- لما طلب إخوة يوسف عليه السلام من أبيهم أن يأخذوا أخاهم معهم للنزهة: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ... ﴾.

٣- لم يُصدّق يعقوب عليه السلام كِذْبَةَ ابنائه ان الذئب أكلَ أخاهم، و﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

٤- بعد أن مكّن الله ليوسف عليه السلام في الأرض، ومَنَعَ الكيل عن إخوته حتى يأتوه بأخيه، ووعدوه بأن يراودوا عنه أباهم، خاف يعقوب عليه السلام، و ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ...﴾؟ فلما احتجز يوسفُ عليه السلام أخاه، ورجع الأبناء بالخبر المحزن إلى أبيهم، قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا...﴾ فهو لا يزال يرجو ويؤمل عودتهما، لذلك قال لأبنائه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾.

٥- طلب يعقوب عليه السّلام هذا الطلب من أبنائه، بعد أن ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾. لقد فَقَدَ بصره من شدة الحزن، وهو نبيٌّ، كريمٌ، معصومٌ، يَعلَمُ أن الله سيردُّ عليه ولده الحبيب، وسيجعلُ رؤياه حقاً، فقال في الآية ٨٦: ﴿...وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، وقال في الآية ٩٦ بعد أن ألقى البشير على وجهه قميص ولده الحبيب، وارتدَّ بصيراً: ﴿...أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟ فهل كان يعقوب عليه السّلام ضعيف الإيمان حتى حزنَ هذا الحزن المُحرق الذي أذهب بصره؟! أستغفر الله وأتوب إليه!!

ليس هذه المقالة دعوةً إلى الحزن، لكنها محاولة لوضع الشيء في موضعه، وتصحيح بعض المفاهيم المغلوطة.

وأُذكّر المحزونين بما يَحْسُنُ أن يُذكر في هذا المقام:

-جاء في صحيح مسلم رحمه الله، قولُ رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام: «ما يُصيبُ المؤمنَ من وَصَبٍ وَجَعٍ)، ولا نصبٍ (تعبٍ)، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ، حتى الهمَّ يُهِمُّهُ، إلا كُفّر به من سيّئاته».

- وفي الصحيحين: «ما مِن مُسلمٍ يُصيبُه أذىً، مِن مرضٍ فما سواه، إلا حطَّ الله به سيِّئاتِه، كما تحُطُّ الشجرةُ ورقَها».
- وفي صحيح مسلم: «ما مِنْ مسلمٍ يُشاكُ شوكةً فما فوقها إلا كُتبتْ له بها درجةٌ، ومُحيتْ عنه بها خطيئة».
- وفي سنن الترمذي وسنن ابن ماجه: «إن عِظَمَ الجزاءِ مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرِّضا، ومَن سخِط فله السَّخط»، وفيهما: «... فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركَهُ يمشي على الأرض وما عليه خطيئة».

فما العلاجُ إذن؟

أخرج الإمام أحمد في مسنده، وأبو حاتم في صحيحه من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أصابَ عبداً همٌّ، ولا حزنٌ، فقال: (اللهم إني عبُدك ،ابن عبدك، ابن امتِكَ، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهابَ همّي وغمّي) إلا أذهب الله همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحا، قالوا يارسول الله، أفلا نتعلّمهن؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعهنّ أن يتعلَّمهن».

قال الإمام ابن قيّم الجوزية رحمه الله، في كتابه (الفوائد)، تعليقاً على هذا الحديث، مامعناه:

صدّر الداعي سؤال بقوله: «إني عبدك، ابن عبدك، ابن أَمَتِكَ»، وفي ذلك استجداءٌ بين يديه سبحانه، واعتراف بأنه مملوكه، وأن العبد ليس له غير باب

سيده وفضله وإحسانه، وأن سيّده إن أهمله وتخلّى عنه هلك، ولم يُؤْوِهِ أحد، بل يضيعُ أعظمَ ضيعة..

ثم قال: «ناصيتي بيدك»، أي: أنت المتصرّف فيّ، تصرّفني كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي.. ومتى شهد العبد أن ناصيته، ونواصي العباد كلّهم، بيد الله وحده، لم يَخَفْهُمْ، ولم يَرْجُهُم، ولم يُنَزِلْهُم منزلةَ المالكين، بل منزلةَ عبيدٍ مقهورين مربوبين، المتصرّف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرُهم..

وقوله: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري»، الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبّه القرآن به لحياة القلوب به وكذلك شَبَّهَهُ الله بالنور، وجمع بين الماء وبين النور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ...﴾، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلّها بحياةِ القلب، سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها.

ولما كان الحزنُ، والهمُّ، والغمُّ يضادُّ حياةَ القلب، واستنارتَهُ، سأل أن يكون ذهابُها بالقرآن؛ فإنها أحرى ألاّ تعود. أما إذا ذهبت بغير القرآن: مِن صحّة، أو دنيا، أو زوجةٍ، أو ولد.. فإنها تعود بذهاب ذلك.

والمكروه الواردُ على القلب: إن كان من أمرٍ ماضٍ أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهمّ، وإن كان من أمر حاضرٍ أحدث الغم، والله تعالى أعلم.

ادّعاءُ العلم فضيحة!!

هكذا قال أحد الحكماء: لأن الذي يدعّي العلم يُعرّض نفسَه لأمورٍ كثيرة، منها: سؤالُ الجاهلين له ليتعلّموا منه، وحَسَدُ الحاسدين من الأقران، وكشْفُ حقيقة المدّعي- إن لم يكن على مقدار دعواه- من قِبل أهلِ الاختصاص العارفين..

هكذا كانت الحال في الماضي. أما اليوم فلم يعدِ ادّعاءُ العلم فضيحةً لأنّ الجهلَ فشا في الناس فُشوّاً عجيباً، فما عُدتَ تجدُ (مَن يقدر) على كشف الزّيف، بل ما عُدتَ تجد من (يهتمُّ) بكشف الزيف!

وهذا الكلام لا ينطبق على فئة من المدّعين دون أخرى، ولا على علمٍ دون علم، ولا على قُطْرٍ دون قطر، وإن كانت الآفةُ في دول العالَمِ (الثالثِ) أعظمَ، والبليّةُ أدهى وأمَرّ!!

قال ابن المقفع في «الأدب الكبير»:

«لا تُكثرنَّ ادعاءَ العلمِ في كلّ ما يعرض بينكَ وبين أصحابك، فإنك من ذلك بين فضيحتين: إما أن ينازعوك، فيما ادّعيتَ، فيُهجَم منك على الجهالة والصلَف، وإما ألا يُنازعوكَ، ويُخلُّوا في يديكَ ما ادّعيتَ من الأمور، فينكشفَ منك التَّصنُّعُ والمَعْجزَةُ.

«واستَحْيِ الحياءَ كلَّه مِنْ أن تُخبرَ صاحبَك أنك عالمٌ وأنّه جاهل: مُصرّحاً أو مُعرّضا.

«وإنِ استطلتَ على الأكفاء، فلا تثقنَّ منهم بالصَّفاء. وإن آنست من نفسك فضلاً فتحرَّجْ أنْ تذكُرَه أو تُبْديَه. واعلم أنّ ظهورَه منك بذلك الوجه، يُقرِّر في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل». يعني: إذا وجدتَ عندك مزيةً، فابذل جُهدك ألاّ تذكرها وتظهرها، فإن الناس يعيبون عليك ذلك، وينسَون فضلك ومزيّتك. وسوف يُعلم فضلُكَ بعد زمنٍ يطول أو يقصر؛ فتسمو في عيون الناس وقلوبهم. ولذلك قال: «واعلمْ أنكَ إن صبرتَ ولم تَعْجَل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف عند الناس. ولا يَخْفَيَنَّ عليك أنَّ حِرْصَ الرجل على إظهار ما عندَه وقِلَّةِ وَقارِه في ذلك بابٌ من أبواب اللؤم.

«وإن أردتَ أن تلبس ثوبَ الوقار والجمال عند العامة... فكنْ عالماً كجاهل، وناطقاً كِعَيِيّ». يعني - فيما أحسَب - : لا تبادر بإظهار علمك. وفصاحتك. وانتظر حتى يُحتاج إليك. فتُسألَ، فتجيب. «فأما العلمُ فيُزَيِّنُكَ، وأما قِلّة ادعائه فتنفي عنكَ الحسد، وأما المنطق -إذا احتجتَ إليه- فَيُبْلِغُكَ حاجتك، وأما الصّمتُ فيكسبُكَ المحبةَ والوقار.

«وإذا رأيت رجلاً يحدّثُ حديثاً قد علمتَه، أو يخبرُ خبراً قد سمعتَه، فلا تشاركْه فيه، ولا تتعقّبْهُ عليه، فإنّ في ذلك خِفَّةً وسوءَ أدب.

«وليعرفْ إخوانُك، والعامّةُ، أنك- إن استطعتَ- إلى أن تفعلَ مالا تقول، أقربُ منكَ إلى أن تقولَ مالا تفعل، فإن فضلَ القولِ على الفعل عارٌ، وفضلَ الفعل على القول زينة».

يعني: ليعرفْ إخوانك وسواهم أن فِعلَكَ أكثرُ من قولك، وأنكَ تعِدُ بأقلَّ مما تقدر عليه، لأنَّ من العيب أنْ تفيَ بأقلَّ مما تعد، ومن الزينة أن يزيدَ فعلكَ على قولك.

ويبدو أنَّ هذا (المرضَ) الاجتماعيَّ قديمٌ. ومِنْ أعراضه الخطأُ في استعمال عبارةِ: «إن شاء الله» فيما بيننا؛ فقد تَتَبَّعْتُ الذين يقولون: نلتقي إن شاء الله. أو: في المستقبل إن شاء الله، أو: (بَعْدين) إن شاء الله، أو: في فرصة أخرى إن شاء الله.. إلخ. فوجدت عدمَ الوفاء في تسعٍ من عشر حالات!! وقد كنتُ مع أحد الأجانب المقيمين في الرياض، فقلت له: سوف أفعل (كذا وكذا)، ووعدتُه وعداً، وقلت له: إن شاء الله. فقال لي: من فضلك، بدون: إن شاء الله! لأنه وَجَدَ من تجربته، مع عدمِ معرفته باللغة العربية - سوى مفرداتٍ قليلةٍ - أنَّ من يستعملون معه هذه العبارة لا يقصدون بها تحقيق مواعيدهم! وعبثاً حاولت إقناعه!!

ويمضي ابن المقفّع قائلاً: «وانت حقيق (أي: جديرٌ) فيما وعدتَ مِنْ نفسِكَ، أو أخبرتَ به صاحبك ان تَحْتَجِبَ بعضَ ما في نفسك (أي: تُخْفِيَهُ عنه)، إعداداً لفضلِ الفعل على القول (أي: ليكونَ فعلُك أكثرَ من قولك)، وتحرُّزاً بذلك عن تقصير فعلٍ إنْ قصرَ، وقلّما يكونُ إلاّ مُقصّراً»، أي: الغالبُ أن يكون الفعلُ أقلَّ من القول.

ونعود إلى العنوان فنقول: ما أكثر ادّعاءِ العلم في زماننا الذي كثرت فيه الألقاب، وكبرتْ الصّفات، وصَغُرَت الحقائق والمسمّيات!

إنّي لأفْتَحُ عيني - حِيْنَ أفتحُها - على كثيرٍ، ولكنْ لا أرى أحداً!!

وأذكر- في هذا المقام- بيتاً للأخ الشاعر الدكتور عبد الرحمن العشماوي، يشير فيه إلى دخول الطالب الجامعة ثم تخرّجه فيها، فيقول:

ودخلتُ فيها جاهلاً متواضعاً

وخرجتُ منها جاهلاً مغروراً

إن الغـرض من هـذا المقـال، واضحٌ بدون أن يقـدح القـارئ له «زناد فكره»، وموضوعه وثيق الصلة بالفكر من ناحية، وبالعلم والأخلاق من نواحٍ أخرى،وإن كـان يمكن للمتـحـذلق أن يخـرج به عن مسـاره، فيـفـوّت على المريض فرصـة العلاج، ويخفي عنه حقيقة أنه مريض.

أكثر من فكرة..

إني لأغبط الكتّاب (المقتدرين) الذين لهم عمودٌ يوميٌ في بعض الصحف يزوّدون القرّاء عن طريقه بالزاد الفكري النافع، إلى جانب أعمالٍ أخرى يقومون بها. وأرثي (لغير المقتدرين) الذين يرضَون لأنفسهم أن يعرضوا على قرائهم ما لا يَستحقُّ أن يُقرا! فالكتابة المستمرة - لمن يحترم نفسه وقارئه - أمرٌ عسير إلا على مَنْ يسَّرَه الله عليه، وقليلٌ ما هم، فالزّادُ إلى نَفاد مهما كان كثيراً، وما أقلَّ الذين يغرفون من بحرٍ، كجرير، بل ما أقلَّ الذين ينحتون من صخر، كالفرزدق!! ونسأل الله السّتر على كل حال.

ومن الأمور التي أصارح القراء الكرام بها أنني في أحيانٍ عِدّة أجدُ في نفسي ما أحتاجُ إلى أن أقوله لهم، وفي أحيانٍ أخرى أبحث عن شيءٍ جديرٍ بأن أكتبه لهم، وقد يُتعبني هذا البحث يومين أو ثلاثة، إلى أن يفتح الله بشيء، فأتذكر حال التاجر الذي يمرّ به يومٌ أو يومان لا يبيع فيهما شيئاً، وقد يبيع في ساعةٍ مِنْ نهارٍ أو ليلٍ ما فيه ربحُ أسبوع كامل. ولن أتحدث عن المقاولين الكبار الذين يربحون في صفقة واحدة نفقة عام أو أعوام!. لذا فقد رأيت أن يدور هذا المقال حول أكثر من فكرة.

١- أمامي الآن عدد اليوم الإثنين ٥ أغسطس من جريدة (ديلي نيوز)، وتعني: (أخبار اليوم) التي تصدر في مدينة ديربان في جمهورية جنوب إفريقيا. وفي الصفحة الأولى قرأت العنوان التالية: «نظرة إلى فقدانكِ عُذْرِيَّتك»!!

وجاء تحته: «إن خسارة العذرية (أو البكارة) يجب أن تكون قضية خاضعة للاختيار المريح لا لملابسات مزعجة، أو سبباً للندم».

وفي صفحة داخلية صورةٌ على قدر الصفحة لا يناسب المقام الحديث عنها، ومقابلات مع بنين وبنات تزيد أعمارهم قليلاً على الخامسة عشرة، ومع أطباء وطبيبات، وعلماء نفس وعالمات، وكلهم تتّفق كلمتهم على إباحة الجنس خارج إطار الزواج الشرعي، وإن اختلفت وجهات نظرهم قليلاً، وكلهم قد نَسُوا معنى الشرف، والعفة، والحياء، والدين!!.

اليس عجيباً أن جنوب إفريقيا التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الأبيض الظالم بكل ما في قاموس الظلم من معانٍ، كانت أكثر حياءً، وشرفاً، وأقلَّ إباحية وعُهْراً مما هي عليه بعد أن نالت استقلالها، وحكم البلد الأسود أبناؤه السُّود؟!.

٢- وأمامي الآن كذلك عدد فبراير ٢٠٠٢م من مجلة عنوانها (لونجيفتي)، وتعني: (طول العمر)، أو (الحياة المديدة)، وتتحدث - كما تقول - عن (فن وعلم المحافظة على الشباب) وفي الصفحة الأخيرة منها زاوية (وجهة نظر) للكاتبة المعروفة (مونيكا فيرول)، خبيرة الصحة التي تتحدث في الإذاعة مساء كل يوم اثنين عن أمور الصحة وشؤونها.

بدأت الكاتبة مقالها بالقول: «في نهاية العام الماضي أعلن أحدهم عن (اليوم الوطني للإيجابية)، وكان الهدف منه إخراج الناس من حالة السلبيّة، والتشكّي، إلى حالة الإيجابية، والمبادرة والإبداع، فكرة عظيمة، لكنها لم تلق الرّواج المؤمل منها، ولعل أحدَ أسباب ذلك تزامُنُها مع أسبوعٍ وقعتْ فيه بعضُ الأمور الفظيعة: طفلان صغيران تعرّضا لاعتداء وحشي من أفراد أسرتهما،

مراهق اغتصبَ أمَّه! ستّة رجال اغتصبوا رضيعةً في الشهر التاسع من عمرها!!! إن العالم يسير نحو الجحيم، وإنّ أعظم الناس تفاؤلاً يتهشّم تفاؤله أمام سماع هذه المروّعات».

وليس القصدُ الحديثَ عن مقالِ الكاتبة، إنما القصد الاستشهاد بما روته من أحداثٍ وقعتْ في مجتمعها، وأحدثت ضجّةً هائلة، لكنّ هذه الضجة هدأت، والأصواتَ خفتت، ولا يزال المجتمعُ يسير نحو الهاوية!!

والذين يتتبّعون أمثال هذه الأخبار في صحف العالم، إما يمرضون، وإما يعتادون عليها، كما يعتاد الطبيب على صراخ المتألمين، ومعاناة المعانين.

البشرية بحاجةٍ إلى علاج، وهذا العلاج موجودٌ في الإسلام، لكنّ المسلمين - وا أسفاه - مرضى يحتاجون إلى من يُطبّبهم بدوائهم، وإن الدواهي التي تحدث لهم بما كسبتْ أيديهم قد لا تصل إلى فظاعة ما ذكرناه، لكنها تقاربها... ومع ذلك فالحكمة تقتضي نبذ اليأس، والعملَ حسبَ الوُسْعِ، والإعذار أمام الله سبحانه.

٢- في المجلّة نفسها، جاء في افتتاحية رئيسة التحرير «سونيا نوري»: قبل أسبوع من كتابة هذه المقالة اقتحم منزل إحدى الزميلات العاملات معنا في الشركة عدد من المسلّحين (فروّعوا، وسرقوا، وخرجوا)، وانتشرت الأخبار بين العاملين، وانتشر الذعر فيما بينهم، لأنهم جميعاً معرّضون لمثل ما تعرّضت له زميلتهم في مجتمعنا الذي تتصاعد فيه موجات العنف. ولا يوجد أحدٌ - فيما أحسب - إلا ويذكر أن أحد معارفه واجه مؤخراً حادث اختطافٍ، أو سرقة، أو اغتصاب، أو اعتداء، وربما كان هو أو هي الضحية»!

أقول: إن المجتمعات الغربية، وغيرها التي تسير على منوالها، مصابة

بمرض (الفِصام)، فهي ذات شخصية مهذبة، حضارية، مثقفة، ....إلخ من جهة، وذات شخصية مريضة، مجرمة، آثمة، معتدية... إلخ من جهة أخرى.

إن العنف والإرهاب الموجودين في دول العالم الأول والثاني والثاث لهما عدة أسبابا، أهمها على الإطلاق -: غياب الوازع الديني والأخلاقي، والجشع المادي الكافر للرأسمالية الغربية التي نجمت عنها (حضارة وحشية) صاحَبَها تقدُّم علميٌّ هائل، كان من آثاره الجانبية انحراف صناعة السينما، والقنوات الفضائية، وأفلام الرعب، والجنس، والجنوح، والجنون، وارتكاس الفطرة البشرية إلى درجةٍ دون الحيوانية البهيمية.

إنّ الخبثاء اللّئام يعلمون في قرارة أنفسهم أن الأديان الصحيحة، - الإسلام على وجه الخصوص - لا يمكن أن تكون سبباً للعنف والإرهاب، هذا مع إقرارنا أن المسلمين بَشَرٌ فيهم الصالح والطالح، والمستقيم والمنحرف، ومَنْ هو من أصحاب اليمين ومَنْ هو من أصحاب الشمال... إنهم يعلمون هذا، ويعلمون أن ما يعانيه العالم من المآسي سببُه الأول شرورهم المتفاقمة، وسببه الثاني جهل، وتخلّف الجاهلين والمتخلّفين.

إنّ ما أصاب البشرية من كوارث على أيدي: اليونان، والرومان، والتتار، والإنجليز، والفرنسيين، وإسبانيا، والبرتغال، وإيطاليا، وآمريكا...، يزيد على ألف ضعف مما سببتـه لها أخطاء المسلمين من جهلةٍ أو منحرفين، وهذه الحقيقة ينبغي أن توضّح حتى تصبح في أذهان الناس أوضح وأشهر من (الكوكاكولا) ليعرف عُميانُ البصائر الحقيقة، وليُقلّل المجرمون من إجرامهم، وليخفَّ الضغط قليلاً عن المسحوقين، ولتزول عقدة النقص من نفوس صغار النفوس، ولمآرب أخرى، ومنافع الناس.

ومع ذلك فعلينا أن نعلم أنّ (الحقّ مع القوة) في واقع الناس وإن لم يكن كذلك في دين الله، وفي حقيقة الأمر، لذلك قال لنا الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ... ﴾.

وصدق الله العظيم.

العادات السّبع لكبار الناجحين

وقع في يدي تلخيصٌ مركَزٌ جداً لكتاب «العادات السبع» بقلم مؤلفه، يقع في بضع صفحات، فأحببتُ أن أترجمه لأنه يعطي فكرة جديد عن الكتاب الذي رأيت له ترجمتين ليستا جيدتين، وكنت - خلال قراءتي في الترجمة - إذا لم أفهم فكرةً بشكل جيدة، عُدّت إلى الأصل الإنجليزي حتى ينجلي لي معناها!!!.

وَجْهَا النجاح:

يروي ستيفن كوفي قصّة مزارع عنده وزّة، وذات صباح ذهب لتفقّدها فوجد إلى جوارها بيضةً من ذهب. أخذ البيضة إلى بيته وهو لا يكاد يصدّق عينيه، وبعد فحصها تأكد أنها من الذهب الخالص! وخلال مدة قصيرة أصبح المزارع من كبار الأثرياء، فأُصيب بداء الجشع الذي دفعه لاستعجال النهاية؛ فذبح الوزة ليأخذ كل ما في جوفها من البيض الذهبي، فلم يجد شيئاً! (ومَنْ تعجّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه).

وببراعة يوظف كوفي الحكاية توظيفاً معاصراً فيقول: إن الكثيرين منا يسلكون طريقة المزارع الأحمق، فَيَسْعون إلى الحصول على نتائجَ سريعة (البيض الذهبي) على حساب النجاح المستمرّ المستقرّ الذي يأتي على المدى الطويل (الوزة)، فنحن - فيما يبدو - نفضّل أن نقوم (بالعمل بشكل صحيح) عوضاً عن القيام (بالعمل الصحيح)؛ أي: نفضّل (الكفاية، أو المهارة، على

الفاعلية). فالمزارع في محاولته ليكون (كفيّاً، ماهراً، أو شاطراً كما يقال بالعامية) فَقَدَ قُدرتَه على تحقيق آماله.

إنّ مِن عادة الناجحين أن يقوموا بالأمور التي لا يُحبُّ المُخفقون القيامَ بها، وهذا لا يعني - بالضرورة - أنّ الناجحين يُحبّون دائماً ما يفعلون، لكنهم يجعلون مشاعرِهم تابعةً لقوة إرادتهم لا مُسيطرةً عليها. فالعمل المفيد الذي يجب إنجازه يقومون به سواءٌ كانوا يحبونه أم لا.

تتكون (العادات) - في نظر كوفي - من ثلاثةِ عناصرَ متداخلة:

١- المعرفة

٢- المهارة.

٣- الموقف (الشعور تجاه أمرٍ ما).

وبما أن هذه العناصر الثلاثة ليست وراثيةً، بل يمكن اكتسابُها وتعلُّمها، لذا فإنّ العادات تشكّل الطبيعة (الثانية) للإنسان، لا الطبيعة (الأولى). فـ (نحن) شيءٌ، و(عاداتنا) شيء آخر، لذا علينا أن لا (نُحدّد) أنفسنا بالقول: إننا نتكون من مجموع عاداتنا وصفاتنا وميولنا، وهذا أمر لا نملك تغييَره. فالعادات الإيجابية يمكن (التحلّي) بها، والعادات السّلبية يمكن (التخلّي) عنها، ويخطئ من يُقيّد نفسه بقيودٍ وهمية من الأفكار والتصورات، أقول: وهذا ما عبّر عنه الشاعر أحمد شوقي بقوله:

وهمٌ يُقيّد بعضُنا بعضاً بهِ

وقيودُ هذا العالِم الأوهامُ

إن الناجحين قومٌ استطاعوا أن يجعلوا العاداتِ الإيجابية المفيدة (عادات الفاعلية والتأثير) جُزءاً من حياتهم اليومية. إنهم قومٌ يحركهم شعورٌ داخلي

قوي نحو تحقيق أهدافهم وغاياتهم. لقد تحكّموا بمشاعر إعراضِهم عن القيام ببعض الأعمال، وعدمِ محبّتهم لها، وبذلك اكتسبوا (العادات السبع) التي سنتحدث عنها، واستطاعوا أن ينظّموا حياتهم على أساسها.

إنّ (العادات السبع) للناجحين عاداتٌ مترابطة بشكل عضوي، تعتمد إحداها على الأخرى، ويتلو بعضُها بعضاً بصورة طبيعية: فالعادات الثلاث الأولى مرتبطةٌ بالشخصية، وهي تساعد صاحبها على تحقيق (أهدافه اليومية)، مما يحقق له (الاستقلالية) والاعتماد على النفس. والعادات الثلاث التي تليها هي التعبير الخارجيُّ الظاهرُ عن الشخصية، وهي تُوصِلُ صاحبها إلى تحقيق (المنفعة المشتركة) أما العادة السّابعة فهي تُساعد على مواصلة عملية التقدم والنمو، والمحافظة عليها.

العادة الأولى: كُنْ مُبادِراً:

بادِرْ ولا تنتظر. إنّ هذه العادةَ تعني أن تتحمَّل مسؤولية مواقفك وأعمالك. إنّ الناجحين قومٌ مُبادِرون، ينمّون في أنفسهم القدرةَ على (اختيار ردودِ أفعالهم) تجاه المواقف والأحداث، ويجعلونها ثمرةً للقيم التي يحملونها، والقرارات التي يتخذونها، لا تابعةً لأمزجتهم وأوضاعهم.

إنهم يتمتّعون بـ (الحرية) في اختيار مواقفهم حيالَ أيِّ وضعٍ داخلَ أنفسهم أو خارجها.

إنكَ كلما مارستَ حُريّتك في اختيار مواقِفِك واستجاباتك وردودِ أفعالك أصبحتَ أكثر مبادرةً وإيجابية. وسبيل ذلك:

أ - أن تكون هادياً لا قاضياً

ب- أن تكون مثالاً يُحتذى لا ناقداً

ج- أن تكون مُبَرْمِجاً لا برنامجاً.

د- أن تُغَذِّيَ الفُرصَ وتُجيعَ المشكلات.

هـ- أن تحافظ على الوعود لا أن تختلق الأعذار

و- أن تركّز على الدائرة الضّيقة للتأثير الممكن، لا على الدائرة الأوسعِ للأمور التي تُهِمُّك، ولا سيطرةَ لك عليها.

تطبيقات العادة الأولى:

١- حاول - لمدة ثلاثين يوماً - أن تعمل في دائرة التأثير، أي: في حدود إمكانيتك واستطاعتك. حافظ على مواعيدك. كنْ جزءاً من الحلّ لا جزءاً من المشكلة.

٢- تذكّر موقفاً حدث لك في الماضي تصرّفت فيه بشكل انفعالي يعتمد على ردّ الفعل، وقرِّرْ مُسبقاً أنك ستتصرّف في مواقف مماثلةٍ بشكلٍ حكيم يعتمدُ على المبادلة والإيجابية.

٣- انتبه إلى أسلوبك في الكلام: هل تستعملُ عباراتٍ انفعاليةً تعتمدُ على ردود الفعل، مثل: لا أستطيع، يجب عليّ...، لو أني فعلتُ كذا وكذا... إلخ، وبذلك تُحمِّلُ مسؤولية مشاعرك وتصرفاتك شخصاً آخر، أو تلقيها على الظروف؟ إن كانت هذه هي الحال فابدأ باستعمال أسلوبٍ أكثرَ مبادرةً وإيجابيةً، تعبّر فيه عن مقدرتك على اختيار مواقفك وردودِ أفعالك، وعلى إيجاد حلولٍ أخرى.

٤- حدِّدْ ما يقع في دائرة إمكانك، أي: ما تستطيع فِعْلَه، وركِّز اهتمامك وجهودَك عليه لمدةِ أُسبوع، ولاحظ نتيجةَ ذلك في عملك. أقول: وتذكّر قوله تعالى: (لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها...)، وقول الشاعر:

إذا لم تستطعْ شيئاً فَدَعْهُ ... وجاوزه إلى ما تستطيع

العادة الثانية: ابدا والنهايةُ أمامَ عينيكَ، أي: ليكنْ هدفُك واضحاً منذ البداية.

هذه عادة القادة الناجحين. ابدأ يومك بأهداف واضحة تريدُ تحقيقها، وأعمالٍ محددةٍ تسعى لإنجازها. إنّ (الناجحين) يعلمون أن الأشياءَ توجدُ في (الذّهن) قبل أن توجدَ في (الواقع)، لذلك فهم (يكتبون) أهدافهم ويجعلونها (مَرْجِعاً) عند اتخاذِ قراراتهم المستقبلية. إنهم يحدّدون بدقة وعناية (أولوياتهم) قبل الانطلاق لتحديد أهدافهم.

أما (المخفقون) فيسمحون لعاداتهم القديمة، ولأناسٍ آخرين، وللظروفِ المحيطة بهم أنْ تُمليَ عليهم أهدافَهم، أو تؤثّرَ في أولوياتهم. إنهم يتبنّون القِيَمَ والأهداف السائدةَ في مجتمعهم، وتقاليدهم، وثقافتهم، دون فحصِها للتأكد مِن صحتها، أو مناسبتها لهم، ويَشرعون في تسلُّقِ (سُلَّم النجاح) الذي يتخيّلونه، فإذا وصلوا إلى آخر درجةٍ فيه، اكتشفوا أنه مُستنِدٌ على غيرِ الجدار المطلوب!

إن (التصور الثاني)، أي: الوجودَ الفعلّي المادي، يتبع (التصورَ الأول)، أي: الوجودَ الذهنيَّ، كما يتبعُ إنشاءُ مبنىً على الأرض وجودَ (مخططِ) البناء. فإذا كان المخططُ صحيحاً كان البناءُ صحيحاً، وإذا كان ممتازاً، وتمّ التنفيذ بالشكل المطلوب كان البناء ممتازاً.

تطبيقات العادة الثانية:

١- تأمّل الفرق بين (القيادة) و(الإدارة)، واعزِمْ على الاتجاه الذي تريدُ المُضيَّ فيه، والغايات التي تريدُ الوصول إليها في حياتك.

٢- تخيَّلْ أنك مِتَّ بعد ثلاثةِ أعوامٍ من الآن، وقامَ للحديث عنك أربعة

أشخاص: واحدٌ من أفراد أسرتك، وآخرُ صديقٌ حميمٌ لك، والثالثُ زميلٌ لك في عملك، والرابعُ إمامُ المسجد الذي تُصلّي فيه (والتصرّفُ الأخير هذا من عندي، لأنّ المؤلف قال: راعي الكنيسة). اكتب ما تودُّ أن يقوله عنك كلُّ واحد من هؤلاء، واجعلْ ما كتبتَه مِن ضمن أهدافك.

٣- حدِّدْ مشروعاً عليكَ القيامُ به في المستقبل القريب. طبِّقْ مبدأ (التصور، أو الوجودِ الذهني)، واكتبِ النتائجَ التي تودُّ الوصولَ إليها، والخطواتِ التي ينبغي سلوكُها لتحقيق تلك النتائج.

العادة الثالثة: قدّم الأهمَّ على المُهمّ: (رتّبْ أولوياتك)

تتّصل هذه العادة اتّصالاً وثيقاً بـ (إدارة الوقت)، وبترتيب الأمور المُشار إليها في العادةِ الثانية، والتي ينبغي عليكَ القيامُ بها بحسب أهمّيتها.

لقد تبيّنَ من الدراسات التي أُجريت في هذا المجال أن (٨٠) بالمئة من النتائج المرجوّة هي حصيلةُ (٢٠) في المئة من الجهودِ المركّزة المبذولة في سبيل تحقيقها. لذلك علينا- إذا أردنا استثمارَ وقتِنا بالشّكل الأمثل- ان نُقلّلَ من اهتمامنا بالأمورِ المستعجلة القليلةِ الأهمية، وأن نُخصّصَ وقتاً أطولَ للأمور المهمة التي قد لا تكونُ بالضرورة مستعجلة.

إن الأمور المستعجلةَ الطارئةَ تتطلب منا اتخاذَ إجراءٍ مستعجلٍ حيالَها مما يُضيّع علينا الوقتَ اللازمَ للقيام بالأمور الحيويّة المهمة، لكنّها- بطبيعتها- غيرُ مُستعجلة، ويمكنُ تأخيرُها قليلاً دون حصولِ ضررٍ يُذكر من هذا التأخير.

لذا علينا أن نكون (مُبادرين) في إنجاز الأمور المهمة غيرِ المستعجلة. وعندما نستطيعُ أن نقولَ: (لا) لغيرِ المهم نستطيع أن نقول: (نعم) للمُهِمّ.

وإذا لم نفعلْ هذا فإنّ الأمورَ الطارئة العاجلة ستملأ علينا وقتنا، وقد تفسدُ في المآل حياتَنا، وهذا ما يؤدي إليه التخطيطُ اليومي يتعامل دونَ التخطيط الأسبوعي أو الشّهري، لأنّ التخطيط اليومي يتعامل مع القضايا والمشكلات التي تتطلّب حلولاً سريعة، دون أن يكونَ لها نفعٌ في تحقيق الأهداف الكبرى على المدى البعيد. أقول: فكيف بمَنْ لا يُخطّط حتى ليومٍ واحد، وما أكثَرَهم بيننا!!

ولمزيدٍ من الإيضاح لا بأس أن نرسم ما يُمكن أن يسمّى «المربعات الأربعةُ» لإدارةِ الوقت وحُسْنِ الاستفادة منه، ونلاحظُ أن الجهد الأكبر، والوقت الأوفر، والعناية الأكثر يجب أن تُعطى للمربع رقم (٢):

(١)	(٢)
١- مهمّ ومستعجل، مثل: - إيصال الأولاد للمدرسة - أخذ الولد إلى الطبيب. - تسليم تقرير في موعده - حضور جنازة صديق.. إلخ.	٢- مهم وغير مستعجل، مثل: - التخطيط - ممارسة الرياضة البدنية - التعوّد على الغذاء الصحّي - قراءة وِرْدٍ يوميٍ من القرآن الكريم - الكشفُ الدوري على الجسم، أو الأسنان.. إلخ.
(٤)	(٣)
٤- غير مستعجل وغير مهم - بعض المكالمات الهاتفية - أكثر المجاملات الاجتماعية - أكثر البرامج التلفزيونية... إلخ.	٣- مستعجل وغير مهم - بعض المكالمات الهاتفية - بعض الاجتماعات في العمل - بعض البريد الوارد - كثير من النشرات الإخبارية.. الخ

تطبيقات العادة الثالثة:

١- اكتب عملاً واحداً مهمّاً يُحسِنُ القيامُ به في حياتك الشخصيّة (كممارسة الرياضة البدنية إذا لم تكن ممارساً لها، وكالإقلاع عن التدخين إذا كنت مُدخنا) وآخرَ في عملك الوظيفي (كالوصول قبل بدء الدوام بربع ساعة مثلاً)، ثم ضعْ جدولاً للأسبوع القادم مبنياً على أولوياتك.

٢- ارسم (المربعاتِ الأربعةَ) الخاصةَ بك، وقدِّرْ كم من الوقتِ تُنفِقُه في كل مربّع، ثم سجِّلْ لمدة ثلاثةِ أيام (كلَّ ساعة) ما قُمتَ به في المربّع الذي يناسبه. راجعْ ما سجّلْتَ، وعدِّلْ سلوكَكَ ومخططاتِكَ لينال المربعُ الثاني من وقتك النصيبَ الأوفى.

٣- ابدأ بالتخطيطِ لحياتك على أساس أسبوعي، واكتبْ أهدافك، وارسمْ الخطط لتحقيقها، وليكُنْ ذلك كتابةً أيضاً.

العادة الرابعة: فكِّرْ وَفقَ قاعدةِ: «أربَحُ ويربحُ الآخرون»، أو «الفائدة للجميع».

هذه الطريقةُ في التفكير هي أساسُ العلاقةِ الناجحة بين أيِّ اثنين فأكثر، إذ هي علاقةُ التعاون الجماعي، لا الاستقلال الفردي: في الزواج، بين الأهل، بين الأصدقاء، في الجمعيات، في الشركات.. إلخ. ونقطةُ البداية في هذه العادة أن يلتزم الإنسان بالبحث عن الحلولِ والبدائل التي تتحقّقُ فيه الفائدةُ للجميع، ولا يرضى بالحلول التي تحقّقُ النفعَ الفرديَّ فقط. وهذا يتطلّبُ ذِهناً متفتّحاً، وتفكيراً إبداعياً، واعتقاداً بإمكانِ ذلك. ولا يقدِرُ على تبنّي هذه العادةَ، وتطبيقِ هذه النصيحةَ أصحابُ الذهن المحدود الذين يعتقدون أنّ الفائدة متاحةٌ للنخبة فقط، وهمُ الذين يُفكرون وَفْقَ قاعدةِ: «أرْبَحُ ويخسرُ الآخرون». إنّ اتفاقية: « أربحُ ويربح الآخرون» تقوم على خمسةِ عناصر واضحة:

١- الأهدافُ المأمولة ٢- الإرشاداتُ اللازمة والخطوطُ العريضة الجليّة

٣-المصادر المتاحة ٤- المسؤولية المحدودة ٥- النتائج المترتبة.

تطبيقات العادة الرابعة:

١-ابحثْ عن مناسبة تسعى من خلالها إلى الوصول إلى اتفاقية ما، أو تتفاوض فيها حول قضيةٍ معينة، وحاول أن تجد الخيارات التي يستفيد منها جميع الأطراف. ثم طبق قاعدة: «إما أربح ويربح الآخرون، أو البحثُ عن خيارٍ آخر».

٢-حدّد ثلاث علاقات مهمة في حياتك: (مثلاً :علاقتك بوالديك، علاقتك بزوجتك، علاقتك بأولادك، علاقتك بإخوتك وأخواتك...إلخ)، وتصوّرْ أن كلَّ واحدة من هذه العلاقات شبيهةٌ بـ (حسابٍ مَصْرفيٍ عاطفي).

اكتبْ على ورقة الطرق التي تُعينُك على (الإيداع) في تلك الحسابات ليزدادَ رصيدُك فيها .

٣- ابحث عن إنسان تعرفه (إما شخصياً، وإما تاريخياً) يمثل الأُنموذج الذي يُحتذى في تطبيق عادة: «أربح ويربح الآخرون»، وحاول أن تتعلم منه دروساً تطبّقُها في حياتك اليومية.

(أقول: في التراث الإسلامي المتمثل أولاً في القرآن والسّنة، ثم في الفهم المستنير لهما، والتطبيق الصحيح لهما عبر التاريخ ينابيعُ ثرَّه تُغني هذه القاعدة! والحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّه لنفسه» خير تعبير عن المعنى الذي تدور حوله القاعدة.

العادة الخامسة: افهمْ جيداً ما يُقال ثم أفهِمْ جيداً ماتقول

ونصُّ المؤلف: «اسْعَ أولاً إلى أنْ تَفْهَمَ ثم إلى أنْ تُفْهَمَ»

هذه العادة هي عادة (التواصل والتفاهم)، وهي من أهمّ القواعد في حياة الناس، وهي- كذلك- مفتاح لبناء علاقة (أربح ويربح الآخرون).

لابدّ للطبيب من أن (يُشخّصَ) المرض قبل أن يصفَ الدواء، يعني: لابُدَّ من أن يفهمَ أولاً. ولابدّ للتاجر الناجح من أن يعرف حاجةَ السُّوق قبل عَرْضِ البضاعة المطلوبة، وتقديم الحلول للمشكلات الموجودة؛ إذ لا يمكن أن ينجحَ بمجرّد إنزال البضاعة التي عنده إلى السوق، مالم تكن هناك حاجة إلى شرائها من قِبَلِ المستهلكين.

إننا نرى العالمَ من خلال ذواتنا، ولا نراه كما هو بالفعل، ورؤيتنا تعتمد على الخبرات التي اكتسبناها، والتجارب التي مررنا بها، والتصورات المُستقرَّة في أذهاننا، وعلى نوعية ثقافتنا ومداها.

إن أكثر المشكلات التي تتعلّق بالمصداقية والثقة بين الناس ناجمة عن اختلاف في الإدراك والتصورات فيما بينهم. ولحلّ هذه المشكلات، وإزالة تلك الخلافات، واستعادة الثقة المتبادلة، على المرء أن يتحلّى بالقدرة على التقدير الحقيقي الصادق لظروف الطرف الآخرن ومحاولة أن يضع نفسه مكانه، حتى يفهم وجهة نظره.

إن الإصغاء المتفهّم هو علاج نفسي فعّال، لأنه يتيح للمرء أن يُفضيَ بمكنون نفسه لمن يُصغي إليه باهتمامٍ وتقدير، ويُعيره أُذُناً واعية. ومتى جد الناسُ من يتفهّمُ ظروفهم ويقدّرها يتخلَون عن موقف الدفاع عن أنفسهم، وتبرير تصرفاتهم.

تطبيقات العادة الخامسة:

١- عندما ترى في المستقبل شخصَيْن يتحاوران، غطِّ أُذنيك لمدة دقائق وراقبهما بدقة. ما المشاعر المتبادلة بينهما التي لا يمكن التعبير عنهما بمجرّد اللغة؟ حاول في مقابلاتك القادمة أن تستشعر تلك المشاعر، واتّخذْ منها موقفَ التفهمِ والاحترام.

٢- اختر علاقةً مابينك وبين شخصٍ آخر تشعر أنّ (الرصيد العاطفي) فيها قد انتهى. حاول أن تتفهّمَ وضع ذلك الشخص، وتسجّل ملاحظاتك على ورقة كما تبدو من وجهة نظره هو، لا من وجهة نظرك. وفي مقابلتك التالية معه أصغِ إليه باهتمام، وقارنْ ما يقولُه بماسجّلته.

إلى أي درجة كنتَ مصيباً في تقديراتك؟ هل فهمتَ الآن وجهةَ نظره؟

٣-عندما (تضبط نفسك مُتَلَبِّساً) بعملية سَبْر مشاعر الآخرين، والحكم عليهم من خلالها، وتصنيفهم، وتأويل كلامهم وتصرفاتهم، اعترفْ بذلك بينكَ وبين نفسك، وإذا دعا الأمر اعتذرْ من الطرف الآخر، وابدأْ بالإصغاء إليه بقصد التفهّم التام لظروفه ومشاعره.

العادة السّادسة: التّعاون المُبدع

هذه عادة التعاون والتآزر، والشعور (بالجسد الواحد)، والعمل بروح الفريق الذي يُخفقُ إذا لم يتخلَّ كلُّ فردٍ فيه عن الأنانية، ويتحلَّ بالإيثار. وتظهر نتائجُها لأولئك الذين يؤمنون بسياسة: (أرْبحُ ويربح الآخرون)، ويتمتّعون بعقلية متفتحة ذكية، ويتفهمون ظروف الآخرين ويقدّرونها، ولا (يقيّمونها) من خلال ذواتهم هُم، وخبراتهم الخاصة. في هذه الحال يكون المجموع أكثر من آحاده، وعندئذ يصبح: ١+١=١١٢!!

إن (التعاون المبدع) هو حصيلة تقدير الفروق الفردية بين الناس، والسّعي لتقريب وجهات النظر بروح الاحترام المتبادل. وفي هذه الحال يشعر الأفراد بحرية البحث عن أفضل البدائل الممكنة، ولا يقيدون أنفسهم بما هو مطروح، بل ربما يأتون بحلول ناجعة لم تكن في الحسبان.

إن (التعاون المبدع) هو طريقة ناجحة لحلّ المشكلات بدلاً من طريقة (إرضاء كلّ الأطراف) أو (تهدئة الأوضاع).

إن (الخائفين) يسعَون إلى أن يُلقوا مسؤولية اتخاذ القرارات، واقتراحِ البدائل والحلول، على أكتاف الآخرين، ويُحيطون أنفسَهم بأشخاص يتّفقون معهم في وجهات النظر، وطرائقِ التفكير، حتى يأمنوا من النقد والمعارضة. ويضمنوا التأييد والمعاضدة. إنهم لا يفرّقون بين التماثل والوحدة، وبين التشاكل والاتحاد. فالتماثل بين أفراد يلبسون زياً واحداً لا يعني أنهم على قلب رجل واحد، والتشاكل في المظهر لا يعني الاتفاق في المخبر.

تطبيقات العادة السّادسة:

١- خُذْ شخصاً ينظر إلى الأمور بطريقة مغايرة لطريقتك، وتأملْ في الاختلاف بينكما: هل يمكن أن يؤدي إلى حلولٍ وبدائلَ لم تكن مطروحة؟ اطلب من هذا الشخص صراحةً أن يُقدّم اقتراحاته، ويبيّن وجهات نظره في حلّ مشكلة قائمة أو تنفيذ مشروع مقترح. أظهر اهتمامك بما يقول، وعبّر عن رأيك بشجاعةٍ ولباقة.

٢- ابحث عن مصادرَ حقيقيةٍ تُحقّقُ الشعورَ بالأمن لدى الجميع، وفكّر في كيفية الاستفادة من هذه المصادر لتحقيق التعاون المنشود في علاقاتك مع الآخرين.

٢- حدّد حالة ترغب أن تحصل فيها على تعاونٍ أكبر بين المُشاركين وعملٍ بروح الفريق. ماالشروط التي تحتاج إليها تحقيق هذا التعاون؟ وماذا بإمكانك أن تفعل لتحقيق هذه الشروط؟

العادة السابعة: اِشْحَذِ المِنْشار

هذه عادة تجديد الذات (أو: التجدّد الذاتي). إن الدرس القاسي الذي تلقّاه المزارع الأحمق، صاحبُ الوزّة، يعلّمنا أنّ للنجاح وجهين:

أ - (الوزّة) التي تمثّل (القدرة على الإنتاج)،

ب - و(البيض الذهبي) الذي يمثل (الإنتاج)، أو الثمرة المرجوّة. ومن الحكمة المحافظة على التوازن بين الوجهين. فأكثر الناس حينما يكونون مشغولين (بالإنتاج، أو العمل، أو عملية النَّشر) لايهتمون (بشحذ المنشار) لأنّ (الصيانة) نادراً ما تعطي أرباحاً كبيرة سريعة.

إن عملية (شحذ المنشار) تعني أن يكون لدى الإنسان برنامج متوازن لصقل نفسه وقدراته، ومواهبه، وتجديد ذاته في النواحي الخمس التالية:

١- الناحية الروحية ٢- الناحية العاطفية ٣- الناحية الجسمية ٤- الناحية العقلية ٥- الناحية الاجتماعية.

وبدون هذا البرنامج تضعف هذه النواحي جميعاً، أو يضعف بعضها، ويذبل ويفقد حيويته، وتتناقص قدرة المرءِ العطاء.

إن العادة السابعة يمكن أن نطلق عليها (قانون الحصاد) فنحن نحصد ما نزرع، فإذا زرعنا في نفوسنا العادات التي تحدثنا عنها، وطبّقناها في حياتنا، زرعنا النجاح والسعادة، والفاعلية، بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

تطبيقات العادة السابعة:

١- انهض من فراشك في وقت محددٍ كل يوم، ومارس الرياضة البدينة لمدة (٣٠) دقيقة.

٢- اقرأ شيئاً يُغني روحَك وينمّيها (أقول: لايوجد خيرٌ من القرآن الكريم والحديث الشريف)، وتفكر فيما تقرأ، وحاول تطبيقه في حياتك العملية.

٣- خَصّص كلّ أسبوع (ساعتين مثلاً) تقضيهما مع أفراد أسرتك وأقاربك، لتقوية صلتك بهم، وتحسين علاقاتك معهم. (أقول: وفي الحديث الشريف كنوزٌ لا تنفد في: صلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب والجيران والإخوان... إلخ، وبناء علاقات إنسانية واجتماعية مثالية لا يلتفت إليها أكثرنا مع الأسف!)

إن بعضَ أو جُلَّ ماجاءَ في الكتاب قد يكون ليس جديداً علينا، وربما نستغربُ من النجاح الكبير، والشهرة الواسعة التي حققها الكتاب والمؤلف، وأنا أعتقد أن جزءاً كبيراً من هذه الشهرة سببه الأول: الدعاية الجيدة، والتسويق الجيد، وما أُنفق في سبيلهما من المال!! ثم تأتي بعد ذلك قيمة الكتاب الذاتية. وقدرة المؤلف الكبيرة على حُسْن التعبير بلغتهن ومخاطبةِ قومه بمايفهمون، وما يحتاجون. ولو ظهر هذا الكتاب - أوّلَ ما ظهر - باللغة العربية، لما التفت إليه أحد. ولما تُرجم إلى أي لغة أخرى! وهذه طبيعة الثقافة الغالبة والثقافة المغلوبة!! فعامة الناس لا يهتمون بما قيل، بل يهتمون بمن قال! وقيمة الكلام يأخذونها من قيمة صاحب الكلام، وكم أوقعنا هذا الخطأ التفكيري- نحن المسلمين- في مآسي دفعنا ثمنها أموالاً ودماءً!

يبقى تعليق يناسب المقام: إن أعظم دواء لا ينفع المريض مالم سيتعمله بالشكل الصحيح، وما أكثر الحِكم التي نعرفها، وما أقلَّ ما نطبقه منها!!

٩٠

رويدكم.. إنه كلام الله... !!

تحت عنوان: «أصحابُ اللّهب وحمّالو الحطب» كتب عالمٌ، مهندس في الطيران، فاضلٌ، أُحبُّه وأحترمه، مقالاً آلمتني قراءتُه!! وأعطاني المقالَ رجلٌ عالم فاضل أُحبّه أيضاً وأحترمه، راغباً أن أستفيد منه، متوقعاً أن ينال إعجابي كما نال إعجابه.

ولولا أن المقال يدور حول سورةٍ من الكتاب العزيز، ولولا أن للرجلين في نفسي مقامَ الحبّ والاحترام، لما كتبتُ هذه السّطور.

وأودّ- في البداية- أن أذكر النقاط الآتية:

أولاً: روى الترمذي رحمه الله في سُننه عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «.. ومن قال في القرآن برايه فَلْيَتبوّأ مقعده من النار»، وقال: حديث حَسَن. وفي رواية: «مَنْ قال في القرآن بغير علمٍ فليتبوّأ مقعده من النار». وأخرج الحديث الإمام أحمد في مسنده، والإمام الطبري في تفسيره. وتكلّم العلماء في أحد رواة الحديث، فضعّفه بعضُهم، ووثّقه آخرون، وقال الدارقطني: يُعتبر به، وحسّن له الترمذي، وصحّح له الحاكم.. إلى آخر هذا الكلام الذي ليس هذا محلَّه. إلا أنّ المرادَ العامّ منه صحيحٌ وهو: أن لا (يتسرّع) العالم في تفسير القرآن الكريم بقولٍ لم يُسْبَقْ إليه، إلا بعدَ التحرّي الكامل، والرجوعِ إلى المصادر، والتأكّد من أن تفسيره جارٍ على قواعد اللغة العربية. وللعلامة ابن الأثير كلام قيّم في هذا الموضوع في

أول حرف التاء من كتابه: جامع الأصول. (انظر ج٢ ص٣ وما بعدها، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط).

ثانياً: أحجم عددٌ من علماء السّلف تورّعاً واحتياطاً عن القول في القرآن برأيهم، مخافة الا يبلغوا ما كُلّفوا به من إصابة الحق في القول، وكانوا يرون أن التفسير شهادةٌ على الله أنه عنى باللفظ كذا وكذا، منهم:

١- أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقد قال حين سُئل عن تفسير بعض آيات القرآن الكريم: «أيُّ سماءٍ تظلّني وأي أرضٍ تُقلّني.. إذا قلت في حرفٍ من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى؟».

٢- قال رجل للإمام التابعي الجليل مجاهد بن جبر، المتوفى عام (١٠٤هـ). أوثقِ تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما في الرواية عنه، الذي اعتمد تفسيره الإمامان العظيمان الشافعي والبخاري قال له الرجل: أنت الذي تفسّر القرآن برأيك؟! فبكى، ثم قال: إني إذاً لجريء. لقد حملتُ التفسير عن بضعةَ عشر رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي عنهم.

٣- وهذا هو الأصمعي إمام اللغة العبقري، كان مع علمه الواسع شديد الاحتراز في تفسير كتاب الله، بل والسنة أيضاً، فإذا سُئل عن معنى شيء من ذلك يقول: «العرب تقول: معنى هذا كذا.. » (انظر: التفسير والمفسرون- د. محمد حسين الذهبي: ج١ ص٢٦٠ وما بعدها).

وأنا أرى- مع من يرى- أنهم رحمهم الله أحجموا حين لم (يتأكدوا) من الصواب: فقد تكلّم الصحابة رضي الله عنهم، والعلماءُ مِنْ بعدهم بالرأي (المبنيِّ على علمٍ) في تفسير آيات كتاب الله، وإذا أغلقنا هذا الباب في وجهِ (أهله) كيف نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان؟! وقد

وردت في القرآن الكريم آياتٌ تحثّ على النظر والاجتهاد في فهم آياتِ الذكر الحكيم، منها - على سبيل المثال -: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾. والمجتهد في حكم الشرع مأجورٌ أصاب أم أخطأ. قال الإمام الراغب الأصفهاني في مقدمة تفسيره: «.. من اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يُحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحدٍ الخوضَ فيه فقد عرَّض (القرآن الكريم) للتخليط، ولم يعتبر حقيقةَ قولِه تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ... ﴾ ..».

ثالثاً: التفسير الإشاريّ (يعني الذي يشير إليه نص القرآن الكريم إشارةً دون تصريح) منه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود. ولقبوله شروط اتفق عليها أكثر العلماء، أرى وجاهتها وضرورتها من أهمها:

١- أن لا يكون التفسير الإشاري منافياً للظاهر من النظم القرآني.

٢- أن لا يكون له شاهد شرعي يؤيده

٣- أن يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٤- أن لا يدعي صاحبه أن تفسيره هو وحدهُ المراد دون الظاهر، بل لابد من الاعتراف بالمعنى الظاهر أولاً. قال السيوطي في الإتقان: «ومن ادّعى فهمَ أسرارِ القرآن، ولم يحكّم التفسيرَ الظاهر، فهو كمن ادّعى البلوغَ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب»!!

رابعاً: كتبُ التفسير جهدٌ بشري قد يعتريه النقص والخطأ، والنص القرآني غير تفسير النص. ومن المؤسف أن بعض كتب التفسير ضمّت بين جنباتها مالايليق من: الإسرائيليات، أو التعصّب المذهبي، أو التطرّف الطائفي وما إلى ذلك من العيوب. ولكنّ الصفحات المشرقة الرائعة في التفسير أكثر بكثير والحمد لله.

آتي الآن إلى مقال الكاتب الفاضل وعنوانه: «أصحاب اللهب، وحمّالو الحطب»، الذي فسَّر فيه سورة: «تبّتْ يدا أبي لهب وتبّ»، وأذكر (بعض) ملاحظاتي عليه:

أ- يقول عن هذه السورة: «وَضَعَها المفسّرون في زنزانة تاريخية تتعلّق بعمّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم... ووصفوا هذه الروايات التاريخية بأنها أسباب نزول هذه الآيات»!

أقول: سبب نزول هذه السورة ما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله في صحيحهما من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، صَعِد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصّفا فقال: «ياصباحاه». (وهي كلمةٌ اعتاد العربُ قولَها عند وقوع أمرٍ عظيم، يقولونها ليجتمعَ الناس ويتأهّبوا)، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لَكَ؟ فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». قال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أين (زنزانة التاريخ) في هذه الرواية؟ ثم أليس من (العَيب العِلْمي) أنْ توصف أحاديثُ البخاري ومسلم بأنها روايات (تاريخية)؟ ولن أجادل أو أناقش أن بعض الأئمة ردَّ أحاديث قليلةً وردتْ في الصحيحين أو أحدهما، لأسباب أوردوها، لكن ما سببُ الطعن في هذا الحديث الذي يورده الكاتب الفاضل، ونقل ما لا وزن له، مع أن هذا الحديث هو أول ما فسّر به الآية الإمامُ ابن كثير رحمه الله في كتابه المشهور، وكذلك الفخر الرازي في تفسيره الذي أحال إليه الكاتب، ونقل منه.

يقول صاحب المقال هداه الله: «وربما وقعت حادثة في وقت نزول آيات قرآنية، فذلك ينبغي ألا يجعلنا نربط بين هذه الآيات وتلك الحادثة، إلا إذا كان

ذلك مما احتوته هذه الآيات، وأشارت إليه إشارةً واضحة لا لَبْس فيها»، وهل هناك إشارةٌ أوضح مما أشارت إليه هذه الآيات، وفسّرته تفسيراً يقبله العقل والمنطق أصحُّ كتب الحديث على وجه الأرض البخاري ومسلم؟!

يقول الكاتب غفر الله له: «وفي هذه الآيات إشكال عجيب..» وهذا سوءٌ في التعبير ونقصٌ، فغالب ظني أنه يريد أن يقول: «إن تفسيركم هذا يثير إشكالاً عجيباً»، وإلا فما يقولُ مِسلمٌ: إن في الآيات إشكالاً عجيباً. بل الإشكال قد يقع في ذهن القارئ لا في النص القرآني.

يقول الكاتب:

«وفي هذه الآيات إشكال عجيب. فهذا عبد العزّى (أبو لهب) يوعد أنه من أهل النار هو وزوجته، ومعنى ذلك - وكما يقول بعض المفسرين القدماء - (ولا أدري مَنْ مِن المفسرين قال هذا؟) أنه مطلوب منه أن يؤمن بأنه لن يؤمن! فطالما المرء حيّ يظل مطالباً بالإيمان بالقرآن، والرجل كان لا يزال حياً عندما تنزّلت هذه الآيات، ولا يزال القرآن يطالبه بالإيمان به، فكيف يؤمن بكتاب يؤكد أنه لن يؤمن، وأنه من أهل النار؟». مناقشةٌ ذكية جانبها الصواب فيما أرى، لأسباب منها:

أولاً: هذا الاعتراض يظلّ قائماً حسب تفسير الكاتب الفاضل بأنّ المعنيّ (كما سنرى) مؤسسةٌ معينة، أو قسمٌ مُعيّن، لأن هذه المؤسسة التي تضمُّ مجموعة من الناس، مطالبة بأن تؤمن بالقرآن الذين يقرر أنها لن تؤمن به!! بل الإشكال هنا أكبر لأنه لا يتصل بشخصين اثنين هما أبو لهب وحمالة الحطب فقط، بل يتعدّاه إلى مجموعات كبيرة، وعصابات، وشركات، وأجهزة استخبارات تضمُّ عشرات الألوف من الناس!!.

ثانياً: على قاعدة الكاتب الفاضل يجب أن نردَّ سبب نزول الآيات في سورة المدثر، وهي: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ إلى قوله: ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ و﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾، فالوليد بنُ المغيرة مطالب بالإيمان بقرآن يقرر بوضوح أنه سيصلى سَقَر!! فقد وردت روايات كثيرةٌ متضافرة تقرر بوضوح أنها نزلت فيه، وهو الذي قال في القرآن الكريم: «والله ما هو بشِعر ولا بسحر.. وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه...» (انظر تفسير ابن كثير، والدر المنثور للسيوطي، وتفسير الطبري... وسواها).

وإشكال الكاتب الفاضل يبقى قائماً بعد أن أنذر أنبياء الله عليم السّلام أقوامهم بعذاب الاستئصال، لأن الأقوامَ مطالبون بالإيمان بهم إلى آخر لحظة من حياتهم، والعذاب واقع لا محالة!!! فكيف يؤمنون بأنبياء يعدونهم بالتدمير لا بالنجاة؟!.

والحقيقة أنه لا إشكال ألبتة: فعِلمُ الله المحيط بكل شيء، الكاشف لكل شيء يقرر أحياناً مصير المكذبين الضّالين: تارةً بأعيانهم وتارةً بأوصافهم. والقرآن مملوء بهذا. أما بخصوص أبي لهب، فيحسنُ إيراد ما قاله ابن الجوزي رحمه الله في تفسيره، قال: «وفي هذا دلالة على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه أخبر بهذا المعنى. أنه وزوجته يموتان على الكفر، فكان كذلك. إذ لو قالا بألسنتهما: قد أسلمنا، لوجد الكفار متعلَّقاً في الرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، غير أنه علم أنهما لا يُسلمان باطناً ولا ظاهراً، فأخبره بذلك»، يعني: كان أبو لهب يستطيع أن يقول بلسانه: آمنتُ بك يا محمد وبرسالتك، فيكون قد كذّب القرآن!!! وهذا لا يحتاج إلى عبقرية!!!.

بعد أن أورد الكاتب الفاضل عدداً من الروايات التي أتفق معه على أنها ضعيفة أو سقيمة، لكنه ترك الروايات الصحيحة المشرقة الواضحة وضوح

الشمس في رابعة النهار، قال ما نصّه: «ولا نريد أن نستطرد في ذكر مثل هذه الروايات لأن المنهج الذي سنسير على هديه يعتمد على تحرير هذه الآيات من قيود الروايات الثقيلة التي تحول بيننا وبين استشراف المعاني الرفيعة التي تشرق من هذه الآيات».

بعد ذلك مباشرة يأتي عنوان جانبي: (تفسير حضاري للسورة)، يعني تفسيره هو!! ولا يخفى ما في هذه العبارة من تهوين لشأن أئمة التفسير على مدى (١٤٢٠) سنة، ومن ثقة الكاتب الفاضل بنفسه!!

وفي حوالي صفحة ونصف يفسّر الدكتور المهندس (ولا أقول هذا غمزاً ولا لمزاً. فأنا أحبّ الرجل وأحترمه) سورة المسد بكلام جميل **لكنه لا يصلح - فيما أعتقد - تفسيراً لها**. يقول - بالحرف -:

«تحدّثنا هذه السورةُ وتصف لنا ما نسمّيه (مؤسسة الفتنة) التي لا يخلو منها وجه الحياة في كل مستوياتها: الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والدولية، وفي هذه المؤسسة قسمان كبيران: آ- قسم التخطيط، وب - قسم التنفيذ، أو قل: قسم التأليف، وقسم الأداء، وقسم التخطيط هو الذي يصنع وقود الفتنة ويجمع حطبها، وفي سبيل ذلك هو يدرس كل الخيوط التي يمكن أن تسهم في صناعة الفتنة: خيوط عَقَدية، وخيوط نفسية، وخيوط اقتصادية، وخيوط اجتماعية، وخيوط عنصرية، وخيوط سياسية، وخيوط قانونية، وبعد أن يدرس كل هذه الخيوط يفتل منها حبل الفتنة، أو المسد. فالمسد لغةً: هو الحبل المفتول من أي مادة كان، والقرآن يعبر عن هذا القسم من مؤسسة الفتنة: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

«ويلحظ الأخ القارئ وصف هذه المؤسسة بأنها حمالةَ الحطب، (بفتحة على التاء في حمالة)، أي (حمالة) هنا هي حال لهذه المؤسسة الخبيثة.

«أما القسم الثاني من مؤسسة الفتنة فهو قسم التنفيذ، أو قسم الأداء، وهذا هو القسم الظاهر للعيان، ولذلك جاء ذكره في السورة أولاً (!!!)، ذلك لأن قسم التخطيط غالباً ما يخفى عن الأعين: في الحجرات المظلمة، في دوائر الاستخبارات، أو في عقول المجرمين الأشرار.. ويحتاج قسم التنفيذ لثلاث مقومات: (القدرات المالية، القدرات الفنية، الإشراق في مجال التنفيذ. وقد عبر القرآن عن القدرات المالية والقدرات الفنية باليدين، وعبّر عن الإشراق في الأداء باللهب... واللهب هنا هو هذا البهاء والإشراق الذي يتمتع به بعض الأشخاص، سواء كان ذلك في الفنون، أو الآداب بأنواعها المختلفة... إلخ».

إنني (أجزم) أننا لو طلبنا من مئة عالم فاضل من أمثال الأخ الكريم، أن يفسّر لنا سورة المسد على هذا المنهج نفسه لحصلنا على مئة تفسير يختلف واحدها عن الآخر!.

كما (أجزم) أنّ مثل هذا (التفسير) ينفي الأمان عن القرآن، بل وعن اللغة والعقل أيضاً!!!

وما أشبهه بتفسير بعض المتصوفة المتطرفين الغالين، أو بعض الباطنيين. الذين فسّروا (الزكاة) بتزكية النفس، و(الصفا) بالنبي صلى الله عليه وسلم و(المروة) بعلي رضي الله عنه، و(الطواف بالبيت سبعاً) بموالاة الأئمة السبعة، و(الجنة) براحة الأبدان من التكاليف، (والنار) مشقّتها بمزاولة التكاليف و(أنهار اللبن) في الجنة بمعادن العلم، لأن اللبن هو العلم و(أنهار الخمر) بالعلم الظاهر، و(أنهار العسل المصفّى) بالعلم الباطن، و(عصا موسى): حجته التي تلقف ما كانوا يأفكون من الشبه لا من الخشب.

إن المنهج الذي اتبعه هؤلاء هو المنهج نفسه الذي أراه في المقال المذكور، مع تنزيه كاتب مقالنا غفر الله له عن قبائح أولئك. وعن أن بعض النتائج التي توصّلوا إليها، تناقض ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وبعد: فما أنا أغيَرُ على دين الله وكتابه من كاتب المقال، وممن أعطاني إياه، بل أحسبهما خيراً مني، وأكثر نفعاً للمسلمين. فإن أخطأتُ فأستغفر الله، وأعتذر منهما، وإن أصبتُ فالحمد لله ﴿ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾. والله تعالى أعلم.

٩١

إنسانيٌ جداً.... هذا الحيوان!!

عنوانٌ غريب لكتاب يُعدُّ - كما قالت جريدة الأوبزرفر اللندنية - «هجوماً مدمراً على المجتمعات الصناعية الاستهلاكية الحديثة، واعتقادِها المحزن أنّ السبيل الوحيدَ للسعادة والغِنى الحقيقيّ مرصوفٌ بسلسلة من التركيبات الاقتصادية والتقنيّة».

المؤلف الفرنسي الأصل، الأمريكي الجنسية هو رينيه دوبو: «Rene Du-bos» استاذٌ جامعي كبير في علم الحياة (البيولوجيا)، نال بالاشتراك مع عالم آخر، جائزة نوبل عام ١٩٧٦م، وجوائز أخرى مهمة، وهو أول من أظهر إمكانية صنع عقاقير مضادة للجراثيم من الجراثيم نفسها.

ومترجِمُ كتابه عالم محترم أيضاً، هو الدكتور نبيل صبحي الطويل، واختار له عنوان: «إنسانية الإنسان».

في الصفحة الأولى سطران من كلام الفيلسوف الأمريكي جون ديوي، حبذا لو تأمل الأمريكيون، وغيرهم، بعض كلماتهما، تأملاً عميقاً ففيهما عبرة عظيمة، مَنْ لا يستفيد منها سينتهي إلى خُسرانٍ مبين!.

يقول ديوي:

«إن الحضارة التي تسمحُ للعلم بتحطيم القِيَم.. تُدمّرُ نفسها بنفسها»!

و (العالَمُ الأول) اليوم يسمح للعلم بأن يحطّم القيم، بل يفعل أسوأ من هذا:

ينشئ قيماً جديدة فاسدة، يجنّد كل أسلحة (علم الكذب) و(فنّ الكذب) ليجعل الناس يؤمنون بها. بل يفعل أسوأ من هذا: لا يترك للناس وقتاً كي يفكّروا بالإيمان!! فهم في جريٍ مستمر، وضغط مستمر، وكدح مستمر، ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾!!.

هذا ما يفعله (العالَم الأول) بنفسه وبغيره: دخلتُ إلى أكبر المكتبات في الغرب فوجدت رفوفاً مخصّصة للّواط والسّحاق!! أي للشذوذ الجنسي بين الرجال وبين النساء، وكيف يجب أن يتمّ بالطريقة المثلى السّليمة!! أما الزّنا، فهو علاقةٌ طبيعية لا غبار عليها، مَن لا يمارسُها يُؤخذ إلى الطبيب النفساني للعلاج!!.

لا أدري لماذا قال دوبو: إنساني جداً هذا الحيوان، ولم يقل: حيوانٌ جداً هذا الإنسان؟ كما لا أدري الفرق بين العبارتين: أيُّهما تُهين الإنسان، وأيّهما تهين الحيوان؟ لكنني أدري أن الحقَّ هو قولُ الحقٌ سبحانه: ﴿ ...أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ... ﴾.

يقول دوبو:

«نحن ندّعي اننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يدار الآن، ليس فيه توازن يسمح للعلم أن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان...»

«إن الحياة الشّاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطّل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية..»

«إلا أن الاحتجاج على الأساليب التقليدية السائدة في السلوك، أو الاعتزال والانسحاب من النظام الاقتصادي الحالي لا يكفيان لتغيير الاتجاه الانتحاري الذي نسير فيه».

ويقول: «وَدِدْتُ لو أنّ كتابي هذا قد أُلّف في جوٍّ غاضب، لأعبّر بأقوى لغة ممكنة عن ضيقي برؤية كثير من القيم الإنسانية والطبيعية تُخرَّب وتدمَّر في المجتمعات الغنية، وعن سخطي لإخفاق الأوساط العلمية في تنظيم جهد منسّقٍ ضدَّ (تدنيس) الحياة والطبيعة. فمن الممكن التسامح في عملية (تقبيح البيئة، واغتصاب الطبيعة) إذا كان الأمر نتيجة الفقر، أما أن تقوم العملية في المجتمعات الغنيّة، بل تكون نتيجة للغنى نفسه، فلا مجال للتسامح في ذلك.. والكتابة بالأسلوب الغاضب يحتاج إلى موهبة أفتقدها لسوء الحظ، وهذا هو عذري إذن في عرض هذا الكتاب بصيغة مناقشة هادئة لذنبنا الاجتماعي».

«يُشبه إنسانُ العصر - من نواحٍ كثيرةٍ - الحيوانَ البريَّ الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات! فالإنسان الآن كهذا الحيوان: يتوافر له الغذاء الكافي، والحمايةُ الكافية، ولكنْ يُحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه العضوية والفكرية. فإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان، وعن الطبيعة، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته»!!

إن هذا (الإنسان) الذي يتحدث عنه عالم الحياة في أمريكا، وأوروبا، والذي تحدث عن الفيلسوف الأمريكي، يحمل معه بذور إفنائه. ونحن المسلمين نكره هذا له مع ما أصابنا منه من: استعمارٍ، وويلات، وقتلٍ، وتشريدٍ، وتدمير، وترويع، وتجويع.... إلخ نكره ذلك لأنّ ديننا يعلّمنا التسامح: (قل للذين كفروا إنْ ينتهوا يُغْفَر لهم ما قد سلف، وإن يعودوا فقد مضت سُنّة الأولين). ونكره ذلك لأننا لا نريد للأبرياء من النساء والأطفال، والشيوخ، أن تشوكهم شوكة مهما كان الدين الذي ينتسبون إليه. ونكره ذلك لأن (الحضارة) أو (العلم) الذي بناه هذا (الإنسان) شيءٌ عظيم لا نريد للإنسانية أن تخسره، ونكره ذلك لأسباب أخرى...

ولفتةٌ موجعةٌ إلى العالم الإسلامي، لا تحتاج إلى تعليق: واقعه لا يخفى على الأعمى، فكيف على المبصرين! نعم هناك خطٌّ بياني صاعد، وهناك مبشّراتٌ، ولكنْ كم من الثمن الفادح سندفع؟ ومتى يمكننا أن نقول: ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾؟!.

أختم المقال بمقتطفات طريفة، من فصل طريف العنوان في الكتاب: «أبنيَتُنا تحدِّد أشكالنا»!! ما أصدقه وما أعمقه! وإن لم يدركْ عمقه العائمون على السّطح، الفاقدون القدرة على سَبْر الأغوار.

عبّر ونستون تشرشل عن الفكرة القائلة: إن الإنسان يهندس مستقبله عبر قرارات يتخذها تتعلق ببيئته، عندما كان يناقش عام ١٩٤٣م شكل الهندسة المعمارية لبناية مجلس العموم الذي هدمته الغارات الجوية إبّان الحرب العالمية الثانية. كان البناء القديم غير عملي وغير مريح، وهكذا سنحت الفرصة لتبديله ببناء أفضل وأريح، مجهزٍ بوسائل أحدث للاتصالات. ومع ذلك ألحّ تشرشل على إعادة البناء بالهندسة القديمة تماماً! وقال: إن أسلوب المناقشات البرلمانية في إنجلترا تأثر بالخصائص المادية للبناء القديم، وأي تغيير في الهندسة المعمارية سيؤثر حتماً على طريقة المناقشات والمساجلات في مجلس العموم، وبالتالي على بنية الديمقراطية الإنجليزية. ولخص تشرشل فكرة التأثير المتبادل بين الإنسان وبيئته بجملةٍ درامية لها قيمتها في كل نواحي العلاقة بين الإنسان ومحيطه، إذ قال: **«نحن نهندس عماراتنا، وعماراتنا تهندسنا بدورها بعد ذلك»!!** وبالمبدأ نفسه نستطيع أن نقول: إننا نهندس برامجنا الإعلامية والتعليمية، وبعد ذلك تقوم هذه البرامج بهندسة شخصياتنا وشخصيات أولادنا!!.

٩٢

لا تُكَذِّبوا بهذا الحديث!!

وصف الله سبحانه كتابه المجيد بـ (الحديث) في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله في سورة الزُّمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...﴾، وقوله في سورة القلم: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾.

لكنّ مقصودي من العنوان الذي هو موضوع هذا المقال هو الحديث النبويُّ الشريف. وهو موجه - بصورة عامة - لعدة فئات من الناس، في مقدّمتهم: الذين يكذبون بالحديث الشريف فلا يقيمون له وزناً، ويجعلون عقلهم وعلمهم فقط معياراً لقبوله أو ردّه ضاربين بقول جهابذته ونقاده الذين أمضوا أعمارهم في خدمته عرض الحائط، مكبّرين الأخطاء والثغرات، مغضين عما سواها. وموجه بصورة خاصة للذين يكذبون بالحديث عن جهلٍ وحسن نية، لا عن مرضٍ في القلب وسوء طوية، وإن كان هؤلاء مكذّبين (عن غير قصد) ببعض القرآن، كما سيتبين بعد قليل ! إن شاء الله.

قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ففي هذه الآية الكريمة نصٌّ على أن من واجبات النبي عليه الصلاة والسلام أن يشرح ويبين للناس ما يحتاج إلى شرح وبيان من (الذكر) الذي هو القرآن، وأن يجيب عن أسئلة السائلين من أصحابه، ويفصِّل ما أجمل في القرآن من الأحكام، وما أكثرها! فهذه هي الصلاة - مثلاً - لا يشك أحد في ثبوت فرضيتها بالقرآن الكريم، كلّ تفاصيلها - تقريباً - مما

بينته السنة المنقولةُ إلينا وفق أدق المعايير التي عرفها البشر في تاريخ النقل، وقل الشيء نفسه عن الطهارة، والصوم، والحج، وغيرها.

وقال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ أي: قدوة، فكيف نقتدي به إذا لم ينقل لنا حديثه، وسيرته؟! وقال عز وجل في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وفي سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وفيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾، فكيف نطيع الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام إذا لم يثبت لنا من حديثه سوى بضعة عشر حديثاً، كما يزعم بعض الناس؟! وفي سورة الحشر: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، فكيف نأتمر وننتهي إذا لم يثبت لدينا شيء؟!! وفي هذا المقدار من أدلة القرآن الكريم، المتواتر نقله، المقطوع بصحته وثبوته، كفاية على حجية السنة وأنها المصدر الثاني من مصادر التشريع.

اهمية الإسناد في الدين:

ينقسم الحديث الشريف إلى متن وسند. أما المتن فهو نص الحديث، وأما السند أو الإسناد فهو سلسلة الرواة، ونأخذ مثالاً على ذلك أول حديث أورده الإمام البخاري، المولود عام (١٩٤هـ) والمتوفى عام (٢٥٦هـ) رحمه الله تعالى، في صحيحه، قال حدثنا: ١- الحميدي قال: حدثنا ٢- سفيان، قال: حدثنا ٣- يحيى بن سعيد الأنصاري، قال: أخبرني ٤- محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع ٥- علقمة بن وقاص الليثي يقول: سمعت ٦- عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرئ ما نوى...» فسند الحديث أو إسناده هم

الرجال الستة بين الإمام البخاري رحمه الله وبين الرسول عليه الصلاة والسلام. ومتنه، هو نصُّه، أي هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله عند ذكر الزنادقة وما يضعون من الأحاديث: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».

وقال الإمام سفيان الثوري رحمه الله: «الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل»؟!.

وقال الإمام شعبة بن الحجاج، أمير المؤمنين في الحديث، الذي قال عنه الإمام أحمد رحمهما الله: «هو أمة وحده»، قال: «كل حديث ليس فيه حدثنا أو أخبرنا فهو خل وبقل»، أي: رخيص لا قيمة له.

وروى الإمام مسلم رحمه الله في مقدمة صحيحه عن التابعي الجليل محمد بن سيرين رحمه الله تعالى قوله: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم..» فبدأ السؤال عن الإسناد، ودراسة أحوال الرواة من أواخر منتصف القرن الأول.

وليس المقام مقام حديث عن هذا العلم (علم الرجال، أو علم الجرح والتعديل. أو نقد الرواة)، كما أنى لست من خير من يتكلم في هذا الموضوع، لكني آمل أن يؤدي هذا المقال بعض الغرض من كتابته، كما ذكرته في بداية الكلام.

نقد المتن:

وقد حظي متن الحديث بالعناية التي هو أهلها، لا كما يزعم بعض الناس من أن علماء المسلمين اعتنوا بالسند وأهملوا المتن. ولذلك وضعوا معايير صارمة للحكم على المتون، وقد كانت أطروحة الدكتوراه للشيخ صلاح الدين

الإدلبي بعنوان: «منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي»، فجاءت شافية وافية، وهي مطبوعة في كتاب لطيف الحجم يقع في (٣٧١) صفحة. ومن المعايير الموضوعة للحكم على متن الحديث:

١- عرض الحديث على القران الكريم، فإن كان مخالفاً له بشكل قطعي لا يمكن الجمع بينهما وفق الأصول التي يعرفها العلماء، يرد الحديث.

٢- عرض الأحاديث بعضها على بعض فيؤخذ بالمحفوظ والمعروف، ويترك الشاذ والمنكر.

٣- عرض المتن على الوقائع التاريخية الثابتة، فما خالفها رُد.

٤- ركاكة لفظ الحديث، أو سخافة معناه، مثل حديث: «عليكم بالوجوه الملاح، والحدق السود، فإن الله يستحي أن يعذب وجهاً مليحاً بالنار»!

٥- مخالفة الحديث للأصول الشرعية.

٦- اشتمال الحديث على أمر منكر، أو مستحيل، قال الإمام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: «كل حديث رأيته يخالف المعقول، أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع».

وقد اطلعت - مؤخراً - على كتاب مفيد فيما نحن بصدده، سهل يسير على المثقف العادي الذي يريد في هذا الموضع بياناً شافياً عنوانه: السنة النبوية حجية وتدويناً، للأستاذ محمد صالح الغرسي، فليرجع إليه من شاء الاستزادة.

وبعد: فهذه إلمامة مختصرة بموضوع خطير، أرجو أن يكون فيها بعض الفائدة لطالبها، دعاني إلى كتابتها مناقشات جرت بيني وبين بعض الإخوة المثقفين الطيبين، خشيت فيها على دينهم، وأشفقت على عقولهم، وعلى منهجهم في التفكير! فإن كان فيها خير وصواب - وهذا ما أظنه - فالفضل لله وحده، وإن كان غير ذلك، فاستغفر الله العظيم، وأعتذر من القارئ الكريم.

٩٣

متى تسقط الحضارة؟

سألني أحد أبنائنا من طلبة الجامعة هذا السؤال: «يا أستاذ متى ستسقط أمريكا»؟ فأجبته: ألمْ أخبركم - يا بنيّ - أنني لا افهم في السياسة، وأن الجواب الصحيح يعتمد على معلومات صحيحة، وأنا لا أملكها؟. قال: وأنا لا أريد جواباً سياسياً! أريد جواباً (حضارياً) مبنياً على معرفة بالتاريخ، وإدراك لقوانين نهوض الأمم وسقوطها.

شعرت بالخجل لعجزي عن الإجابة الشافية، لكنَّ السؤالَ ظلّ يتردد في خاطري: لماذا سأل الشّاب هذا السؤال، وهو يلبس الجينز الأمريكي، «والتي شيرت» المكتوب عليه بالحروف الأميركية، ويعرف من أسماء وأنباء الممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات، الأمريكيين والأمريكيات، أكثر بكثير مما يعرفه عن عباقرة المسلمين والمسلمات، الذين أغنَوا التراث الإنساني على امتداد الزمان والمكان؟ هل بدأ يكره أولئك القومَ وحضارتهم، وهو الذي كان يشعر بعقدة النقص أمامهم، ويفخر إذا لوى لسانه بلهجتهم؟ ولماذا بدأ يكرههم؟

تذكرت (البيان) الذي وقّعه ستّون من أشهر المفكرين، والكتاب، والمثقفين الأمريكيين، واختاروا عنوانه، (من أجْلِ ماذا نقاتل؟ رسالة من أمريكا)، والذي كتبتُ عنه من قبل. جاء في البيان: «.. نعلم أنّ بعضكم (الخطاب موجّه للمسلمين) لا يثق بنا، ونعلم أننا نحن الأمريكان مسؤولون جزئياً عن انعدام هذه الثقة، لكن يجب أن لا نكون أعداءً».

«... إن كثيراً من الناس - منهم كثيرون من الأمريكان، وعدد من الموقّعين على هذا البيان - يعتقدون أننا نحمل بعض (القيم) الضّارة ... بالإضافة إلى جهاز إعلامي ضخم يمجّد هذه القيم، ويدعو لها، ويبثّها في كافة أرجاء هذا الكوكب!!».

«نعترف أنّ أمتنا - في بعض الأوقات - تصرّفت بغطرسة وجهل مع الشعوب الأخرى، كما اتبعتْ سياسات غيرَ عادلة. وفي (كثير) من الأحيان أخفقتْ أمتنا أن تعيش على مستوى مُثُلِها العُليا، لذا فلا نستطيع أن نحثَّ المجتمعات الأخرى على التمسّك بهذه المبادئ بدون أن نعترفَ أننا قد أخفقنا في تطبيقها»!!!

هذه اقتباساتٌ أردتُ أن تدلَّ على فكرة مُعيّنة، وأبادر فأقول للقارئ الكريم: إنها لا تعبّر عن روح البيان ومقاصدِه، حتى لا أُتهمَ بعدم الأمانة في النقل، وقطعِ الكلام عن سياقه.... إلخ.

أنا أعلم علم اليقين أن الاستكبار في الأرض قد يكون عقابه الاستئصال. قال تعالى في سورة فُصلت: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾.

وقال سبحانه في سورة الفجر عن عاد، وثمود، وفرعون: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾، فبيّن بوضوح أن الطغيان والفساد سببٌ لصبِّ العذاب على الطاغين والمفسدين. وقد صرّح المثقفون الأمريكيون فيما أشرنا إليه آنفاً انهم طغوا وافسدوا!!.

وأنا أعلم علم اليقين كذلك أن الله سبحانه قد يؤخر حساب الظالمين إلى يوم القيامة: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾، خاصة - والله أعلم - إذا كان المظلومون ظالمين لأنفسهم وغيرهم، كحال كثير من المسلمين اليوم، على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الشعوب!!.

الأمر الذي أقلقني في (سؤال) الطالب هو (عدم سؤاله): لماذا نحن ضعفاء وأعداؤنا أقوياء؟ لماذا لا نستطيع أن ندافع عن أنفسنا ونردَّ - بالحقّ - الصاعَ صاعين؟ لماذا لا تجبن هذه الدولة أو تلك عن حَربنا، وظلمنا، وقهرنا، وإذلالنا، وسلب خيراتنا، وانتهاك حرماتنا؟ لماذا يفعل بعضُنا ببعض ما لا يفعله العدو بعدوّه؟!

أنا لا يُهمني أن أعلم «متى ستسقط أمريكا» بل أنا لا أريد لها أن تسقط!! أريد لها أن تعودَ إلى الحقّ والعدل، لأنّ ما قدمته أمريكا للعالم (في الجانب الإيجابي) مكاسبُ للإنسانية من الخسارة أن تتحطّم وتضيع! ولا أقول هذا الكلام خوفاً أو مجاملة، بل لأن ديني علّمني أن أتمنّى الخير والهدى لكلّ مخلوق. وأن أحزن لأي أسىً أو أذىً يصيب أيَّ مخلوق.

أنا حزين لأن المسلمين لم يأخذوا بأسباب القوة وأسباب النصر والتمكين. «إن أقدار الله تجري وَفْقَ نواميسه»، وإن القوانين الطبيعية التي خلقها الله لا تُحابي أحداً. إن الذي يضعُ المفتاحَ الصحيح في القفل يفتح الباب، بصرف النظر عن دينه، ولونه، وجنسه.

دعونا نقرأ قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله ما يلي:

وخئولته منذ أكثر من قرن، وهو في وطنيته مسلم، لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول: وطني؛ فالكل عنده وطنُه، ووطنُ كلِّ مسلم.. وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم: هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية، وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاءٌ صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر، ينتظمها جميعاً، كما تنتظم الدولةُ شتّى الأقاليم وعديداً من البلاد..

«وأمّ الرافعي كأبيه، سورية الأصل، وكان أبوها تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، على أنه كان قد اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي.

«في يناير من سنة ١٨٨٠م ولد مصطفى صادق الرافعي، وفي مايو سنة ١٩٣٧م انتقل إلى جوار ربّه عن (٥٧) سنة من العمر» غفر الله له، وأكرم مثواه، وجعل في أبناء العربية اليوم أجيالاً ترقى إلى مستوى أدبه، وتتذوقه، وتنسج على منواله.

إنّ مناسبة حديثي عن الرافعي (في عمود صحفي) عنوانه: زناد الفكر، هو ان هذا الأديب العبقري لن ينال من كنوز عبقريته إلا رجلٌ ملكَ أدواتِ التذوق الأدبي، ثم قدح زناد فكره عند قراءته، وإلا فلاحظّ له من تلك الكنوز، وإنها لخسارة كبيرةٌ أن يُحرَم منها.

جاء في مقدمة (وحي القلم) وهي للأستاذ محمد سعيد العريان رحمه الله: «الرافعي عند طائفة من قُراء العربية أديبٌ عَسِرُ الهضم، وهو عند كثيرٍ من هذه الطائفة متكلّفٌ لا يُصدر عن طبع، وعند بعضهم غامضٌ مُعَمًّى لا تخلص إليه النفس، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب، وذوي الذوق البياني الخالص،

٩٤

القوانين النفسيّة لتطوّر الأمم

أعترف للقارئ الكريم أنّ من أهم ما يشغلني في حياتي الآن هو واقع المسلمين الذين هانوا على أنفسهم فهانوا على الناس كيف يتحوّلون من العَطالة إلى الفاعلية، ومن الضعف إلى القوة، ومن الشّتات إلى الوحدة، ومن الذلة إلى العزة.. إلخ؟؟

وفي كل مرة أنظر إلى القضية من زاوية، وأدلي بدلوى بين الدلاء وأكتب ما أرجو أن يسهم في كشف هذه الغُمّة، ومَحْوِ هذا العار الذي لَطَّخَنا.

عنوان هذا المقال هو عنوان كتاب بالفرنسية ألّفه فيلسوف الاجتماع الشهير: **غوستاف لوبون** (١٨٤١م - ١٩٣١م). الذي عاش تسعين سنة يدرس التاريخ والحضارات القديمة. وهو في الأساس طبيب عمل رئيساً للأطباء في إحدى قطع الجيش الفرنسي بباريس. كان غزير الإنتاج، ومن كتبه المشهورة: حضارة العرب.

كنا نقرأ العبارة المشهورة لغوستاف لوبون: ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب. والمَعْنيُّ: المسلمون، وأظن الرجل منصفاً للعرب والمسلمين: لكني فوجئت بمقدمة الناشرين الفاضلين: الدكتور أسعد السحمراني والأستاذ عدنان حسين وفيها: «ولعل من دواعي اهتمامنا بنشر الكتاب... إطلاع قراء العربية على موقف الفكر الغربي من نشأة الأمم وتطورها، وتصادم هذا الفكر مع العلوم المعاصرة في كثير من جوانبه، وابتعاده عن الواقع خاصة عندما

يحمل في طياته الاستعلاء، والتعصب العرقي الذي يزعمون من خلاله أنهم من سلالات لا تدانيها سواها حضارةً وإبداعاً... كما أردنا ان يطلع القارئ العربي على الحقد الصليبي الاستعماري الذي يمكن أن يلاحظه عند كل محطة وفكرة».

على كل حال، أظن أنه يكفينا التّحدثُ عن حقد الأعداء وشراستهم، وعلينا أن نبحث في أسباب تخلفنا، وكيف يمكننا أن نرقى، حتى لا نصبح كالراعي الذي سرق اللصوص إبله، لكنه سبّهم بمهارة سبّاً قبيحاً: أوسعتُهُمْ شتماً وأوْدَوا بالإبل!! ولعل الأجدر أن نتذكر قول عمر أبي ريشة رحمه الله:

لا يُلامُ الذئبُ في عُدوانه
إنْ يكُ الراعي عدوَّ الغنمِ!!

في قصيدته المشهورة:

أمتي هل لكِ بين الأممِ
منبرٌ للسّيف أو للقلمِ
أتلقّاكِ وطَرْفي مُطرقٌ
خجلاً من أمسِكِ المنصرمِ
ربَّ وامعتصماهُ انطلقتْ
ملءَ أفواهِ الصّبايا اليُتّمِ
لامستْ أسماعهم لكنها
لم تلامسْ نخوةَ المعتصمِ!!

* * *

نعود للحديث عن الكتاب الذي أُلّف عام (١٨٩٤م)، عندما كان عمر مؤلفه (٥٣) عاماً، لنرى هل تغيّرت السُّنن النفسية لتطور الأمم اليومَ عما كانت عليه قبل قرن من الزمان؟ وهل يمكن أن نستفيد - نحن المسلمين - منها، لأننا مأمورون بالاعتبار بحوادث التاريخ، وأخبار الأمم السَّالفة، والحكمةُ ضالّتنا، نأخذها، ولا يضرّنا من أين جاءت.

مع أنّ الكتاب يقع في (١٥٨) صفحة فقط (لأنه - كما يقول مؤلفه - خلاصةٌ لكل ما كتبه في تاريخ حضارات الأمم، وكل فصل من فصوله بمثابة خلاصة لمؤلَّف سابق)، فقد جاء في خمسة أبواب، تحتها ستة عشر فصلاً، جاءت عناوين الأبواب كما يلي:

١- طباع الشعوب النفسية.

٢- ظهور أخلاق الأمم في عناصر مدنيتها.

٣- تاريخ الأمم باعتباره مشتقاً من أخلاقها.

٤- كيف تتحور الصفات النفسية للأمم.

٥- تحليل الخلق وسقوط الأمم.

ومن عناوين فصوله: درجات الفروق بين الأفراد والأمم - أثر المبادئ في حياة الأمم - شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم - كيف تذبل الحضارة فتموت.

ومن هذا الفصل أختار للقارئ الكريم بعض السطور أراها جديرة بالتأمل، وأرجو من أن يطبّقها على (التاريخ) الذي نعيشه اليوم، إن وجدها صالحةً للتطبيق: في ملخص الفصل الذي جاء في رأس الصفحة الأولى كتب المؤلف ما يلي: كيف تنعدم الكفاءة الوراثية في زمن قصير بعد أن احتاجت في تكوينها إلى دهر طويل - أهمّ عوامل انحطاط الأمة انحطاط خُلُقها - طريقة انحلال

المدنية واحدةٌ عند جميع الأمم حتى الآن - علامات الانحطاط البادية في بعض الأمم اللاتينية - نحو حبّ الذات - ضعف الهمة والإدارة.. ثم يقول:

«إذا أمعنّا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم التي يذكرها التاريخ بلا استثناء، لا فرق في ذلك بين الرومان أو العجم، أو غير هؤلاء وهؤلاء، وجدنا أن العامل القوي في انحلالها تغيّرٌ طرأ على مزاجها العقلي، ترجع علّته إلى انحطاط الخلق. ولست أعلم أن دولة واحدة سقطت لانحطاط الذكاء في قومها، فطريقة انحلال المدنيات واحدة.

«إذا بلغت الأمة ذروة الحضارة والقوة فأمست في مأمن من غارة الجار، ومالت إلى التمتع بنعمة السلام، والمعيشة الراضية التي هي بنت اليسر، ماتت فضائلها الحربية، وتجدد لها من الحاجات بقدر ما زاد في حضارتها، وتمكّن حب الذات من النفوس، ولم يعد من همّها إلا سُرعة التمتع بالخيرات التي نالتها على عجل، فتنصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة، وتضيع في الناس الفضائل التي كانت سبباً في عظمة الأمة...

«... وهناك أسباب شبيهة بالتي سبقت تهدد بقاء حضارتنا الراقية، ويزاد عليها أسباب جديدة آتية من التغير الذي طرأ على الأفكار بتأثير الاكتشافات العلمية العصرية. فقد بدل العلم بأفكارنا الأولى أفكاراً أخرى. وأفقد ما كان للمبادئ الاجتماعية الدينية من التأثير في الناس...

«لاحظ أحد كبار الكتاب في هذا العصر ملاحظة أصاب بها الواقع، وهي أن (الحسن النسبي متسلّط على ملكة التصور في هذا الزمان)، وأراد أحد وزراء المعارف أن يشرح هذه المشاهدة في خطاب ألقاه حديثاً فقال - وملامحه تدل على سروره من نفسه -: إن حلول المبادئ النسبية محل المبادئ الكلية في

جميع معارف الإنسان هي أكبر الفتوحات التي أتانا العلم بها. على أن هذا الفتح قديم؛ ففلاسفة الهند كانوا يقولون به منذ عشرة قرون، وليس مما يسرّنا رجوعه عندنا مرة ثانية، لأن الخطر، كلَّ الخطر ناشئ على الأخص من فقدان التصديق بالمعتقدات التي كانت حياة الأمم قائمة عليها...

«وإذا انتقلنا من المقدمات إلى النتائج وجب علينا التسليم بأن علامات الانحطاط أصبحت باديةً في معظم الأمم الأوروبية، وعلى الأخص في الأمم المعبر عنها باللاتينية... وأشبه الإنسان في هذا الزمان مركباً فقد ربّانه فهام مع الرياح، وأخذ يضرب في أودية الفراغ... فلما أضاع الإنسان ربَّه فقد الرجاء...».

إن هذا الكلام قد يدغدغ مشاعر العربي المسلم، ويشعره بنوع من الخدر: هذه هي الأمم الغربية منحطّة خلقياً: اللّواط، والسّحاق، والزنى، والمخدرات، والخمور، والجريمة، والقتل، والسرقات، وتفكك الأسرة... إلخ. فلنجلس ولننتظر سقوطها!! وهذا مكمن الخطر والخطأ في تفكيرنا! لقد كتب لوبون كتابه هذا قبل أكثر من قرن، وها هم أولاء الغربيون والشرقيون لا يزالون يسوموننا سوءَ العذاب. يذبّحون أبناءنا، ويذيقوننا من ألوان الظلم ما لا حاجة للقارئ الكريم إلى ذكره! لا بدّ من التفكير الصحيح، لا بدّ من الإيمان العميق، لا بدّ من اجتماع القلوب وتوحّد الصفوف ونبذ الفرقة، لا بد من الأخذ بأسباب القوة العلمية والصناعية والحربية، وما إليها... لابد، لابد، لابد!!

٩٥

خواطر في الحُبّ والبغض:

لسائل أن يسأل: وما علاقة الحبّ والبغض بزناد الفكر؟ والسؤال وجيهٌ إذا كان للاستفهام أو التعجب، وليس بوجيه إذا كان للإنكار! يقولون: العقلُ والعاطفة، ويقولون: لا دخلَ للعاطفة هنا، ولا دخل للعقل هناك. ومن يستطيع أن يرسم الخطَّ الفارق بينهما، حتى في علم الطب والتشريح؟ أليس الدماغُ مركز التفكير والمنطق والتحليل، وهو في الوقت نفسه يحتوي على مراكز الخوف، والسّرور، والضحك.. وما إليها؟ على كل حال، لا داعي للتفلسف الذي لا تُجنى منه ثمرة ولا يأتي بخير، ولنتحدث في المفيد حديثاً استفدت كثيراً منه من الإمام الألمعي أبي الفرج بن الجوزي، في كتابه الشائق النافع: «صيد الخاطر»، وأبقيت على عبارته في جُلّ الحديث لما فيها من نكهة مميّزة قال رحمه الله:

من أراد اصطفاء محبوب، فالمحبوب نوعان:

١- امرأة يُقصد منها حُسْنُ الصورة،

٢- وصديقٌ يقصد منه حُسْنُ المعنى.

فإذا أعجبتك صورةُ امرأة فتأمّلْ صفاتها الباطنة مُدّةً قبل أن يتعلّق القلب بها تعلّقاً مُحكماً، فإن رأيتها كما تحبّ - وأصلُ ذلك كلّه الدينُ (كما قال عليه الصلاة والسلام: فاظفر بذات الدين) - فَمِلْ إليها، ولكنْ لك منها ولد. وكنْ في ميلك معتدلاً، فإنّ من الغلط أن تُظهر لمحبوبتك المحبةَ كلَّها، فإنها قد

تشتطُّ عليك، وتلقى منها: التجنّي، والهجرانَ، والإدلال، وطَلَبَ الإنفاق الكثير، وإن كانت تحبّك...

يُروى أنه كان لبعض الخلفاء جاريةٌ تحبّه حبّاً شديداً، ولا تظهرُ له ذلك، فسُئلت عن هذا فقالت: لو أظهرتُ ما عندي، فجفاني هَلكتُ! وكذا ينبغي أن لا تُظهرَ كلَّ حبِّك لولدك، لأنه يتسلّط عليك، ويُضيع مالك، ويبالغ في الإدلال، ويمتنع عن التعلّم والتأدّب.

وكذلك إذا اصطفيت صديقاً، وخَبْرتَهُ، فلا تخبره بكلّ ما عندك، بل تَعاهَدْه بالإحسان كما تتعاهدُ الشجرة، فإنها إذا كانت جيدة الأصل حسُنَتْ ثمرتها بالتعاهد. والعاقل يبقى دائماً محتاطاً فقد تتغيّر الأحوال.

وأما إذا أبغضت شخصاً فلا تُظهرنَّ ذلك، له او لغيره، فإنك تَنَبّهُهُ على أخْذِ الحذر منك، وتدعوه إلى المبارزة، فيبالغ في حربك والاحتيال عليك. بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت (لا م باب النفاق، بل من باب كفِّ اذاه) وتبرّه ما استطعت، حتى تنكسر معاداتُه لك حياءً منك. فإن لم تُطقْ فهجرٌ جميل، لا تبين فيه ما يؤذي: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾.

ومتى سمعتَ من ذلك الشخص كلمة نابية فاجعل جوابها كلمةً جميلة، فهي أقوى في كفِّ لسانه. ولا تتكلمنَّ بما تخاف إظهاره أمام أحد، فربما نُقل إلى سُلطانٍ فيؤذيك، أو إلى صديقٍ فينقلب عدواً، أو تصير رهيناً لمن سمع منك، تخافُ أن يفشي سرَّك، فالحزمُ في كتمان الحبِّ والبغض.

أرأيتَ أيها القارئ الكريم مقدارَ الصّلة بين (الفكر) وبين الحبِّ والبُغض؟!.

وللإمام أبي الحسن علي بن محمد البصري الماوردي الشافعي، أقضى قضاةِ عصرهِ، المتوفىَ في عام (٤٥٠ هـ) رحمه الله، صاحب كتاب «الأحكام

السلطانية» مؤلَّف مشهورٌ اسمه «أدب الدنيا والدين»، فيه كلام ذو صِلةٍ بالحبِّ والألفة والمودة، لكنّ أسلوبّه أصعب على مثقفي عصرنا من أسلوب ابن الجوزي، لذا يحتاج إلى مزيدٍ من التؤدة والتأمل عند قراءته.

ذكر رحمه الله: ثلاثة أشياء يصلح بها حال الإنسان، ثانيها: أُلفةٌ جامعة تنعطف القلوب عليها، ويندفع المكروه بها، وهي ذات الصلة بما نحن فيه. قال: الإنسان مقصودٌ بالأذية، محسود بالنعمة، فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطّفته أيدي حاسديه، وتحكّمت فيه أهواء أعاديه. فلم تسلم له نعمة، ولم تَصْفُ (من الصّفاء) له مدّة. فإذا كان آلفاً مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديه، وامتنع عن حاسدي.. وإن كان صَفْوُ الزمان عَسِراً، وسِلمُه خَطِراً، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه: «المؤمن آلِفٌ مألوفٌ، ولا خير فيمن لا يألفُ ولا يُؤلف» رواه الإمام أحمد. ثم يمضي الماوردي في كلام بعيد الصلة عما نحن بصدده.

وتحت عنوان: «فلسفتي في الحب» كتب عباس محمود العقاد رحمه الله في كتاب له عنوانه: (أنا) فيه أربعون مقالة يتحدث فيها عن نفسه، وهو كتاب ممتع مفيد، جدير بالقراءة، كتب يقول:

يسألونك عن الحب. قل: هو اندفاع جسد إلى جسد. واندفاع روحٍ إلى روح. ويسألونك عن الروح فماذا تقول؟ قل: هي من أمر ربي خالق الأرواح.

«لهذه الكثرة الزاخرة في عناصر الحب تكثر العجائب بين المحبين، فيجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان، ويتكرر الحب في حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس في معظم المزايا ومعظم الصفات.

«ويتقارب البعيدان، ويتباعد القريبان، ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنهما من طبيعة الجان، والواقع أن العاطفة حرارة ونار، ولا فرق بين طبيعة الجان، وطبيعة النيران...

«إلا أن القلوب أقرب إلى التناسب والتجاوب إذا هي تناسبت في العمر وتجاوبت في المزاج، وحب الفتى للفتاة كحب الفتاة للفتى لا يدوران على الجسد وحده كما قد يخطر على البال، ولكنهما يتناسبان ويتجاوبان لأنهما ينظران إلى الدنيا بعين واحدة، ويستقبلان الحياة بشوق واحد... ويعطيهما الجسدان المتشابهان فرصةً واحدة للتفاهم على الآراء وتبادل الخواطر والأهواء، فلا تجاوب بين المحبّين أقربُ ولا أعمّ ولا أقوى من تجاوب العمر والمزاج.

«ولكن اختلاف السنّ قد يفتح الأبواب لداعية من دواعي التجاوب بين النفسين لا تتوافر في السن الواحدة على الدوام، وحاجة نفس إلى عطف الأبوة، وطمأنينة التجربة. وسكينة الرضا. قد تقابلها حاجة نفس إلى دفء العاطفة، وحماسة الرغبة، وإسداء العطف والرعاية، فتُقبل النفسُ على النفس، ويعتصم الضمير بالضمير، يقع التبادل بين بضاعتين مختلفتين، لا بين بضاعة واحدة من كلا الطرفين. ولكنها الندرة التي لا يقاس عليها، والمصادفة التي لا تنتظم في حساب.

«وخلاصة التجارب كلها في الحب أنك لا تحب حين تختار، ولا تختار حين تحب، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد، وحين نحب، وحين نموت، لأن الحياة، وتجديد الحياة، وفقد الحياة هي أطوار العمر التي تملك الإنسان ولا يملكها الإنسان...».

هذه قطرة من بحار المشاعر الإنسانية، بدأنا فيها الحديث عن الحب والبغض، فنسينا البغض وبقينا مع الحب ندور. ونعِمْ النسيان هذا النسيان! فيا ليت الإنسان، بل يا ليت الإنسانية كلَّها، تنسى البغض والحقد، والكراهية، وتبقى مع الحب تدور حيث تدار، وسبحان من أودع النفوس أسرارها.

٩٦

هل أنا مُتكبِّر... ؟؟

الكِبـر خُلُق ذميـم، سواءٌ كان من فرد، أو حزب، أو شـعب، أو دولة... وكبـر الأفـراد نراه في كل يوم، وكبْر الدول تمثله الولايات المتحـدة الأمريكية اليـوم أوضح وأبشع تمثيل.

والثقة بـالنفس خُلُقٌ محمود، لا تستقيم الصّحة النفسيـة للفرد بدونه، ولا يُبدعُ المرءُ بدونه. فأين الخطّ الفاصل بين الكبر والثقة بالنفس؟

والتواضع خلقٌ كريم، والذّل خُلُقٌ ذميم، ولكن أين الخط الفاصل بينهما؟

(أكثر) مشايخنا وعلمائنا الذين لقيتُهم، وأكثر كتب السّلوك التي (قرأتُها) سـواءٌ كـان مؤلفوهـا من الصّـوفيين أو السّلفيين، لم أجد فيـهـا الفـرق الذي تسـاءلت عنه آنفـاً، بل إن المحصّلة التي خرجتُ بها من لقـاءاتي وقراءاتي (وقد أكون مخطئـاً) تؤدي إلى: إذلال النفس، وكسْرها، ومحق الثقة فيها، وهذا يئد القـدرة على الإبداع في الفـرد، ويودي بالأمـة في مهـاوي التخلّف. ولم أرَ هذا أبداً في تربيـة الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام لأصحـابه. فمع شدة احترامهم الصـادق له، حتى كأن على رؤوسـهم الطيـر وهم معه، كانوا ينـاقشـونه، ويبـدون آراءً واقـتـراحـات مـخـالفـةً لرأيه أحيـانـاً وأمـثلة ذلك عـديدة، ولهـذا (خـرّجت مدرستُه) عليه أفضل صلاةٍ وأزكى سلام (رجالاً) غيرّوا وجه التاريخ.

أعجبني -فيما يؤيد فكرتي- كلامٌ للإمام ابن قيّم الجوزية رحمه الله تعالى. في كتابه «الفوائد»، سأقتبسه بتصرف، فمن أراد من القراء الكرام أن يزداد

اطمئناناً إلى صحة ما نقلت، فلا بد له من الرجوع إلى الأصل، (وهو في طبعة دار الكتاب العربي السادسة في الصفحة ٢٠٤)، يبّين فيه ما يُحمد وما يكره من كل خُلق.

يقول رحمه الله تعالى ما معناه: للأخلاق حدٌّ لا ينبغي أن تزيد عليه، ولا أن تنقص منه، فالزيادة خطأ والنقص خطأ. فللغضب حدٌّ، وهو الشجاعة المحمودة، والأَنَفَةُ من الرذائل والنقائص، وهذا كمالُهُ، فإذا جاوز حدَّه تعدّى صاحبهُ وجار، وإن نقص عنه جَبُنَ صاحبهُ ولم يأنفْ من فعل الرذائل.

وللحرص حدُّه المطلوب، وهو الكفاية في أمور الدنيا، والحصول على الضروريات والحاجيات منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانةً وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شَرَهاً وطمعاً.

وللحَسَد حدٌّ مطلوب، هو المنافسة في طلب الكمال، والحرص على أن لا يتقدم عليه أحد (كما في المسابقات الرياضية أو الثقافية) فمتى تعدّى ذلك صار بغياً وظلماً، يتمنّى معه زوال النعمة عن المحسود، ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءةً، وضعفَ همّةٍ، وصِغرَ نفس. روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده، والإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلّطه على هَلَكتِه في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها الناس». ونستفيد من هذا الحديث أن لفظ «الحسد» ممكن إطلاقه على معنى شريف. وإن كان عموماً خلقاً ذميماً، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. ولذا يُفضّل بعض العلماء استعمالَ لفظ «الغبْطة». فبدلاً من أن تقول: أنا أحسد فلاناً على كذا وكذا، تقول: أنا أغبطه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى تعليقاً على الحديث الشريف: فهذا حَسَدُ منافسة يُطالبُ الحاسدُ به نفسه أن يكون مثل المحسود، لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حدٌّ معتدل، وهو إراحةُ القلب والعقل وإجمامُهُما من تعبِ الطاعة، واكتسابِ الفضائل، والاستعانةُ بقضاءِ الشهوة على الطاعة. فمتى زادت على ذلك صارت نهماً، وشبقاً، والتحق صاحبُه بدرجة الحيوانات. ومتى نقصتْ عنه كانت ضعفاً وعجزاً، إلا إذا قدّم صاحبُها عليها اعتباراتٍ أخرى تُلْحِقها بطلب الكمال والاستزادة من الفضل.

وللراحة حدٌّ، إذا زادت عنه انقلبت كسلاً وتوانياً وإضاعةً للوقت، وفاتت بها مصالح الإنسان، وإذا نقصت فلم ينل المرء حاجته من الراحة أضعفَته، وربما قطعته وأمرضته.

والبذل إذا زاد قد يكون إسرافاً وتبذيراً، وإذا نقص كان بخلاً وتقصيراً.

وللشجاعة حدٌّ متى جاوزته صارت تهوراً، ومتى نقصت عنه صارت جبناً وَخَوراً. وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام، والإحجامُ في مواضع الإحجام.

والغيرة لها حدٌّ إذا جاوزته صارت تهمةً وظناً سيئاً بالبريء، وإذا قصّرت عنه كانت تغافلاً وبداية دياثةٍ، والعياذ بالله.

وللتواضع حدٌّ إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة، ومن قصّر عنه انحرف إلى الكبر والفخر، وهذا المعنى وثيق الصلة بعنوان المقال، وبدايته.

وللعزّ حدٌّ إذا جاوزه كان كبْراً وخلقاً مذموماً، وإن قصّر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

وضابط هذا كلّه (العدل)، أي: الاعتدال، وهو الأخذ بالوسط بين طرفي الإفراط والتفريط (أي: الزيادة والنقص)، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة. بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه متى خرج بعض أخلاقه عن العدل، وجاوزه، أو نقص عنه، ذهب من صحّته وقوّته بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية: كالنوم، والسهر، والأكل، والشرب، والجماع، والرياضة، والخلوة، والمخالطة، وغير ذلك.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علِمُ الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلَمُ الناس أعلمُهم بتلك الحدود، حتى لا يُدخِلَ فيها ما ليس منها، ولا يُخرجَ منها ما هو داخل فيها. فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلاً.

ويُتبع ابن القيم هذا الكلام بكلام نفيس لإمامٍ من أئمة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، هو أبو الدرداء، عويمر بن مالك الأنصاري الخزرجي، الذي جمع القرآن حفظاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واشتُهر بالشجاعة والنسك. يقول أبو الدرداء: «يا حبذا نومُ الأكياس (ضد: الحمقى) وفِطرُهم، كيف يغبنون به قيامَ الحمقى وصومَهم. والذرّة من صاحب تقوى أفضلُ من أمثال الجبال عبادةً من المغترّين»!

فالكيّس يقطع من المسافة بصحّة العزيمة، وعلوّ الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية، مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير.

أردت من هذا في نهاية المقال بيان أهمية النيّة في الفرق بين الكِبر والعُجْب من جهة، وبين الثقة بالنفس من جهة أخرى، وبين التواضع المحمود والذل

المذموم. وآمل أن يكون الحديث إضاءة للقارئ الكريم في تربيته لنفسه، وتربيته لمن هم تحت يده. فهذه الأمور على غاية قصوى من الأهمية، وهي وثيقة الصلة بحال المسلمين اليوم من الضعف الذي وصلوا إليه، والذّل الذي ضُرب عيهم، فهانوا على الناس لهوانهم على أنفسهم، وتداعت عليهم الأمم كما يتداعى الأكلةُ إلى قصعة الطعام.

إن الذين يقهروننا بقوتهم وضعفِنا، صاروا أقوياءَ لأنهم أخذوا بأسباب القوة، وصِرنا ضعفاءَ لعدم أخذنا بها، وهمُ اليوم يظلموننا، وسينطبق عيهم (قانون الظلم) لا محالة إن شاء الله، لكننا لن نُمكَّن، ولن نَغْلِبَ ما لم نأخذْ بأسباب الغلبة والتمكين والنصر. والله تعالى أعلم.

٩٧

المعنى السيّاسي في العيد*

«كلَّ عامٍ أنتم بخير» هكذا رجح شيخنا علي الطنطاوي رحمه الله، بفتح اللام بدل ضمّها، وحذف الواو قبل أنتم.

فهل نحن (أو أنتم) بخير في كل عام؟! سؤال لا يحتاج إلى جواب!.

توفي الرافعي رحمه الله عام (١٩٣٧م)، قبل ضياع فلسطين، وقبل المآسي القاتمة التي شاهدها وعايشها أبناءُ جيلنا، ترى لو كان حياً اليوم كيف كان سينظر إلى المعنى السياسي في العيد؟!.

قال رحمه الله (وأنقل من كلامه بشيء من التصرف):

ما أشد حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهماً جديداً، فتجيء أياماً سعيدة عاملة، تجدّد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبرُ عملها تجديد الثياب، وتجديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق.

فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليومُ نفسُه (فقد يكون - وهذا كلامي - اليومُ قاتماً بارداً قارساً، مكفهراً، وقد يكون حاراً، كاوياً، شاوياً، منسلخاً من كل معنى من معاني السّرور والفرح). وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم. وكان العيد في الإسلام هو عيد (الفكرة العابدة) فأصبح

(*) عنوان المقال الثالث في الجزء الأول من كتاب (وحي القلم) لمصطفى صادق الرافعي، رحمه الله.

عيدَ الفكرة العابثة. (أي: كان العيد قائماً على فكرة، وتصوّر، ومفهومٍ معين، مرتبط بالعبادة بمعناها الواسع، مع اتّشاحه بوشاح السّرور والحبور والانشراح والانبساط).

وكانت (الفكرة) جمعَها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عَبَثُ الفكرة جمعَها الأمة على تقليد بغير حقيقة، له مظهرُ المنفعة وليس له معناها.

كان العيد إثباتَ الأمة وجودَها الروحانيَّ في أجمل معانيه، فأصبح إثباتَ الأمة وجودَها الحيوانيَّ في أكثر معانيه، وكان يومَ استرواح القوة من جِدّها فعاد يوم استراحة الضعف من ذُلّه: وكان يوم المبدأ، فرجع يوم المادة!.

ليس العيد إلا شعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارَها بأن الأيام تتغير... وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد (لا على شكل عدوان دولة على دولة، وشعب على شعب بقوة السلاح) حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي، ويُهدي الناسُ بعضُهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة: وكأنما العيد هو إطلاق روح الأسرة الواحدة في الأمة كلها.

(أقول: يا حسرةً على المسلمين كيف يقتل بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ويخون بعضهم بعضاً... حتى في أيام العيد، وما الجزائر، وأفغانستان، وغيرهما منا ببعيد!).

وليس العيدُ إلا إظهارَ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزة من نشاط الحياة؛ ولا ذاتية للأم الضعيفة، ولا نشاط للأمم المستعبدة (أقول: قل لي بربك هل بين الشعوب الإسلامية اليوم شعب غير ضعيف، أو غير مستعبد؟؟). فالعيد صوت

القوة يهتف بالأمة: أخرجي يومَ أفراحك يوماً كأيام النصر! (إي وربي: فأيُّ معنى للعيد إذا انسلخ عنه العزّ وتمرّغ في رُغام الذلّ وطينه؟!)...

وليس العيدُ إلا تعليمَ الأمة كيف توجّه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت (أقول: لا أن يوجّهها العبيد الذين تعلّموا وجهلت، وقويتْ شوكتهم وضعفت شوكتها): فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتخرّج عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيداً مالياً اقتصادياً تبتسم فيه الدراهمُ بعضُها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدها، وتوجد للعلم عيده، وبالجملة تنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القواد العسكريين في قيادة الشعب، يقوده كلُّ يومٍ منها إلى معنى من معاني النصر.

هذه المعاني السياسيةُ القوية هي التي من أجلها فُرض العيدُ ميراثاً دهرياً في الإسلام، ليستخرجَ أهل كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة، ويحققه خيالُها، وتقتضيه مصالحها.

وما أحسب (الجمعة) قد فرضت على المسلمين عيداً أسبوعياً يُشترط فيه الخطيب والمنبر والمسجد الجامع - إلا تهيئة لذلك المعنى وإعداداً له؛ ففي كل سبعة أيام مسلمة يجيء يوم فيُشعر الناس معنى القائد الحربي للشعب كله.

الا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواح المدافع، لا رجال في أيديهم سيوف من خشب، انتهى كلام الرافعي رحمه الله.

جديرة هذه المقالة بالتأمل، كما هي أعيادنا جديرة بالتأمل والتألّم! وإن كان لي أن أعلّق بتوضيح (أو مخالفة) فهو على الجملة الأخيرة التي قد يُفهم منها أننا بحاجة إلى خطباءَ تعلو أصواتهم، وينطلقون مع الناس بالناس انطلاق القذائف من مدافعها. وما أحسَب أن العقل الذي أملى صدر تلك المقالة

الحكيمة على قلمه يريد منها هذا الفهم السّقيم! أما أنا فقد فهمت أن يكون الخطباء علماءَ أحياءً يخاطبون الناس بما يبعث فيهم قوة الحياة، لا أمواتاً كتماثيل الخشب. ويؤيد فهمي أن المؤلف نفسه قال في الهامش بعد نهاية المقال: انظر «قصة الأيدي المتوضئة» في الجزء الثاني، وهي تزيل هذا اللبس الذي يمكن أن ينشأ في أذهاب بعض القراء.

يؤلمني إلى حدّ البكاء طائفتان من الناس: طائفة جُنّ جنونها بالقوة والعنف، لا تجد سواها طريقاً للخلاص من الذل والقهر والظلم؛ فما عادتْ تفرّق بين البريء والمذنب، وما عادت تدري عواقب عملها التي قد تكون أبلغ ضرراً وأعظم أذىً على الإسلام والمسلمين. وهي - في موجة الغضب - معرّضة لأشنع الاختراقات من أعدائها الذين يبطشون بها، أو يتخذونها ذريعة لضرب الحق والصواب، وضرب العاملين العاقلين المخلصين.

وطائفة وقفت حياتها على الدعوة إلى (اللاعنف)، فضخّمت النصوص التي تؤيد وجهة نظرها حيناً، وقطعتْها عن سياقها حيناً آخر، وأغفلت النصوص الأخرى، أو أوّلتْها تأويلاً مخالفاً لروح العربية، ومخالفاً لمقاصد الشريعة: فحصل في فكرها ما يُشبه الورمَ السّرطاني الذي أدى إلى اختلال التوازن. ومحصّلةُ هذا الاتجاه (وأكرر كلمة محصلة) تصبّ في مصالح الظالمين من الأفراد أو الدول. فهم المستنيدون في النهاية، يزدادون بطشاً وتمكّناً.

ونعود إلى العيد:

قال ابن الأعرابي: سمّي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرحٍ مُجدّد!! وأصل العيد: ما اعتادكَ من همٍ وشوقٍ ونحوهما؛ قال الشاعر:

والقلب يعتادُه من حُبِّها عِيدُ

وقال يزيد بن الحكم الثقفي يمدح سليمان بن عبد الملك:

أمسى بأسماءَ هذا القلب معموداً

إذا أقول: صحا، يعتادُه عيدا

وَنَصَبَه لأنه في موضع الحال. تقديرُه: يعتاده السُّكر عائداً.

وغفر الله للمتنبي القائل:

عيدٌ بأي حالٍ عُدتَ يا عيدُ؟

بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديد؟

أما الأحبة فالبيداءُ دونَهُمُ

فليتَ دونَك بيداً دونَها بِيْدُ!

لم يترِك الدهرُ من قلبي ولا كبدي

شيئاً تُتَيِّمُهُ عَينٌ ولا جِيدُ!

٩٨

مَنْ عَرَفَ نفسَه عَرَفَ ربَّه

ترجع قصّتي مع هذه الحكمة إلى زمن بعيد.. قرأتها فأُعجبت بها، ثم تأملتها فاحترتُ في معناها؟!.

كنت أظنُّها حديثاً شريفاً، فخطر لي أن أبحث عنها، فوجدتُ في كتاب: «كشفُ الخَفا ومُزيل الإلباس عمّا اشتُهر من الأحاديث على ألسنة الناس» لمؤلفه: إسماعيل بن محمد العجلوني، المتوفى سنة (١١٦٢هـ) رحمه الله ما يلي:

قال ابن تيمية رحمه الله: موضوع. وقال النووي قبله: ليس بثابت. وقال ابن السّمعاني، لا يُعرف مرفوعاً، إنما يحكى من قول يحيى بن معاذ الرازي. لكنّ كُتُبَ الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث. ويقول بعضهم - وهذا من عجائبهم التي لا تُقبل منهم - هذا الحديث وإن لم يصحَّ عن طريق الرواية، فقد صحَّ عندنا من طريق الكشف!!! وللحافظ السّيوطي فيه تأليف لطيف سمّاه: القول الأشبه في حديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه، (وهو موجود في كتابه: الحاوي للفتاوي). وقد وقع في (أدب الدنيا والدين) للماوردي عن عائشة رضي الله عنها: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: من أعرفُ الناس بربه؟ قال: «أعرفهم بنفسه».

وعلى أي حال فهذا القول حكمةٌ مأثورة، استشهد بها كثير من العلماء، واختلفوا في شرح معناها، لأنها - فيما يبدو لي - قابلة للعديد من وجوه التأويل:

فمن عرف نفسه، يعني جسمه، وعجائبه، وبديع صنع الله فيه آمن بربه. وللطبيب الدكتور خالص جلبي كتاب بعنوان: «الطبّ محراب الإيمان» من قرأه ازداد إيماناً بالله تعالى، وتعرّف من صفات المصنوع المخلوق العجيبة المذهلة على صفات الصانع الخالق التي لا يحيط بها عقل ولا خيال، لعدم تناهيها في الكمال.

وللإمام ابن قمّ الجوزية رحمه الله تأملات في هذه العبارة: يقول في كتابه «الفوائد» الذي سبق أن استفدنا منه كثيراً، ما مؤداه: لا ينتفع بنعمة الله عليه إلا من عرف نفسه، ووقف بها عند قَدْرها، ولم يتعدَّ طوره، ولم يقل: هذا لي، وتيقَّن أنه لله، ومن الله، وبالله؛ فهو المانّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد، ولا استحقاقٍ منه، فتُذلُّه نِعَمُ الله عليه، وتكسِرهُ كسرةَ من لا يرى لنفسه، ولا فيها، خيراً البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله، وبه، ومنه، فتحدث له النِّعم ذلاً وانكساراً عجيباً لا يُعبَّر عنه، فكلما جَدَّد له نعمة ازداد له ذلاً وانكساراً، وخشوعاً، ومحبةً، وخوفاً، ورجاء. وهذا نتيجة علمين شريفين:

١- علمه بربه: وكماله، وبرِّه، وغناه، وجودِه، وإحسانه، ورحمته، وأن الخير كلَّه في يديه...

٢- وعلمه بنفسه: ووقوفه على حدها، وقدرها، ونقصها... وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم، فما فيها من الخير تابع لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذان العلمان (صبغةً) للنفس، لا (صيغةً) على لسانها علمتْ حينئذ أن الحمد كلّه لله، والأمر كلّه له، والخير كلّه في يديه، وأنه هو المستحقّ للحمد والثناء والمدح دونها.

ومن فاته التحقّق بهذين العلمين تلوّنت به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبطت عليه، ولم يهتدِ إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الله. وهذا معنى قولهم: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»، فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب

والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم - عرف ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرها، وأثنى على ربّه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبّه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده، وكان أحبّ شيء إليه، وأخوف شيء عنده، وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبودية، والله المستعان.

ويذكّرني هذا المعنى بكلام لأبي الفرج بن الجوزي المتوفي عام (٥٩٧هـ) رحمه الله، في كتابه «صيد الخاطر» الذي اصطدنا منه في هذا الكتاب أكثر من مرة، يقول:

عجبت لمن يُعْجَبُ بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره وآخره..

هذا خبر البدن، أما الروح فهي التي عليها العمل: فإن تجوهرت بالأدب، وتقوّمت بالعلم، وعرفت الصانع، وقامت بحقه، فما يضرّها نَقْصُ المَرْكَب (يعني: الجسد)، وإن هي بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين، بل صارت أخسَّ حالةً منه.

أيها القارئ الكريم: في تراث اللغة العربية المجيدة كثير من الكتب التي تحدثت عن النفس، وآدابها، وتزكيتها، فشرّقت وغرّبت، وشمالت وجنّبت، وانحرفت واستقامت، أما في حاضر هذه اللغة، الذي هو بالطبع حاضر أبنائها، فلا تكاد تجد شيئاً إلا أحد صنفين، اجترار لما خلّفه الماضون (كما يفعل كاتب هذه السّطور!!). أو ترجمة لما كتبه الغربيون، ومع ذلك فنحن لا نترجم من البحر إلا قطرة!! أما هم فقد اعتنوا بميدانين ضخمين جديرٍ بكل (ذي نَفْسٍ) أن يُلمَّ بهما، أولهما وأوسعهما: علم النفس، الذي اتّسع نطاقه، وتعددت دوائره حتى شملت معظم ميادين النشاط الإنساني، وخرجَ عن جنون وانحراف المهووسين من أعلامه، إلى مجال اقترب فيه من (العلم).

وثانيهما: الطب النفسي الذي ازدهر خلال العقدين الماضيين على وجه الخصوص، واكتشف أربابُه أنَّ أمراضه تُحدث تغييرات كيميائية في الدم، أو تحدث نتيجةً لها، كما أخبرني العديدون من الإخوة الأصدقاء استشاريي الطب النفسي.

أما الميدان الثالث، وهو الأقرب إلى الإنسان العادي، والأهمّ في حياته فهو الكتب الكثيرة التي تتحدث عن طاقات الفرد الكامنة وكيف يستثمرها، وذاكرته وكيف يقويها. وضغط الحياة والعمل وكيف يتعامل معه، وتفكيره وكيف يحسّنه، ووقته وكيف ينظّمه، وخياله الإبداعي وكيف يستثمره... وما إلى ذلك..

تُرى إلى أي حدٍ اقتنع القارئ الكريم بصدق المقولة: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»؟ وإلى أي حدّ يمكن أن نستفيد من هذا الاقتناع في حياتنا العملية؟.

٩٩

تحسين التفكير بطريقة القبعات الستّ؛

ما علاقة التفكير بالقبعات؟ ولماذا هي ستّ لا أكثر ولا أقل؟ سؤالان مُهمّان سيجد القارئ الكريم الجواب عليهما بعد قليل إن شاء الله.

كتاب: «قبعات التفكير الستّ» واحدٌ من كتب الدكتور إدوارد دو بونو. فمن هو إدوارد دو بونو؟ هو أشهر المختصين في (التفكير وتعليمه) في عصرنا الحديث.

ولد في مالطا عام ١٩٣٣م، وحصل فيها على شهادة الطب، ثم حصل على الدكتوراه في الفيزيولوجيا وعلم النفس من جامعة أكسفورد العريقة. وهو محاضر في عدد من أكبر الجامعات في العالم، مثل: كامبردج، وهارفارد... ألّف (٦٢) كتاباً تُرجمت إلى (٣٧) لغة، وفي الإنترنت أكثر من (٤) ملايين إحالة إلى كتبه، وذكرٍ لاسمه، والحديثُ المفصّل عنه يطول.

أمامي الآن كتابه المذكور آنفاً باللغة الإنجليزية، وكتاب مختصرٌ له مترجمٌ إلى العربية بقلم الأخ الصديق الدكتور عبد اللطيف خياط. كتاب دوبونو يقع في (١٧٧) صفحة، ومختصره يقع في (٩٠) صفحة.

يقول المترجم: القبعات المقصودة هنا ليست حقيقية، ولكنها رموز على طرائق في التفكير، أي أنه لن يكون هناك لبس أو خلع لأي قبعة، وإنما استخدام طريقة معينة في التفكير. فأنا الآن - مثلاً - أتخيل أنني قد ارتديت القبعة البيضاء، وهذه القبعة تقتضي مني أن أفكر بطريقة معينة. ثم أنتقل إلى

لون آخر كالأسود الذي يتطلب طريقة في التفكير مختلفة تماماً عن الطريقة الأولى. (وسيأتي مزيد من التوضيح للطرائق السّت).

وعلى الغلاف الخلفي للكتاب يقول المؤلف (أو الناشر)، ما أجتهد في ترجمته كما يلي: (بشيء من التصرف):

«لا شيء أكثر إيلاماً من أن تجد مجموعةً من الناس الأذكياء، تُدفع لهم رواتب عالية، يضمّهم اجتماع أو ندوة، ينتظر كل واحد منهم المتكلّم الآخر حتى ينتهي من كلامه، كي ينقضّ عليه بالنقضِ والتفنيد. أما إذا استعمل هؤلاء المجتمعون طريقة القبعات السّت، فلن يسود هذا الجو من التوتر والأنانية، وسيستفيد الجميع من علم، وذكاء، وخبرة كلِّ واحدٍ منهم، ذلك أنّ الجدل لا يأتي بخير، لأن أصحابه يبحثون عن الغلبة لا عن الحقيقة».

نفترض أن هناك اجتماعاً يضمّ عشرة أشخاص قد تدربوا بشكل جيد على طريقة القبعات السّت، يبدأ مدير الجلسة أو رئيس الاجتماع بقوله: دعونا جميعاً نفكر بطريقة القبعة البيضاء...

١- القبعة البيضاء: هي التفكير بالمعلومات، والحقائق، والأرقام، والتساؤل، والسؤال. هي تحديد المعلومات التي نحتاج إليها. وحين تكون المجموعة في حالة تفكير (القبعة البيضاء)، ويشذ أحد أفرادها عن القاعدة، فعلى مدير الجلسة أن يلفتَ انتباهه، ويعيدَه إلى الدائرة، ويطلبَ إليه الالتزام بالحقائق.

في طريقة التفكير هذه نبدأ بجمع المعلومات، والبحث عن الحقائق والأدلة لنصل إلى النتائج، لا العكس. ويجب أن تكون المعلومات دقيقة، وأن نتساءل: هل نحن نبحث عن الأدلة التي تؤيد وجهة نظرنا، أو عواطفنا، أو مصالحنا، أو اعتقادنا السابق، أم أننا نبحث بنزاهة، وحيادية، وتجرّد؟

قد يعجب الكثيرون منا من اليابانيين: كيف لا يجادلون! ولعلهم أيضاً يعجبون من الشعوب الأخرى: لماذا تجادل؟! يأتي اليابانيون للاجتماع وليس لديهم أفكار مسبقة، يأتون للاستماع، والاستفادة، والبحث عن الحقيقة، ويقدم كل واحد منهم معلوماته الموضوعية. فتتشكل بالتدرج قراراتهم الأقرب إلى الصواب، التي أسهم الجميع في بنائها، وبالتالي يتبنّونها.

٢- القبعة الحمراء: وهي تعني التعبير عن الانفعالات، والعواطف والمشاعر. وتفسح المجال أمام الظن والتخمين. إن كثيراً من كبار الموظفين يعتمدون على ظنهم في اتخاذ الكثير من قراراتهم، لكنهم لا يعترفون بهذا للعاملين معهم! والتعبير عن العواطف قد يؤدي إلى تصادمها، بل غالباً ما يحدث هذا، لذا ينبغي علينا: أولاً: أن نقرّ بوجودها.

ثانياً: أن نعرف أنها توجّه - في كثير من الأحيان - تفكيرنا في الاتجاه الخاطئ.

ثالثاً: أن نضعها تحت المجهر الفاحص فنردّ الخطأ منها، ونقبل الصواب.

إن مزية تبنّي طريقة القبعة الحمراء في التفكير، عن قصد واختيار، تشعرنا أن هذا التبني مصطنع، فالعواطف - عادةً - مستقرة في الأعماق ويصعب نزعها، أما حين نتقمّصها عن قصد فيمكن نزعها في ثوانٍ.

إن العواطف هي الخلفية التي تحدث في جوّها المناقشات المنزلية، والمناقشات في العمل، ومناقشات الخصوم، فماذا يحدث لو أننا وضعنا هذه الخلفية في الأمام، وسلطنا عليها ضوء الوعي، وحاولنا التحكم فيها؟.

لقد رأى أكثر القراء الكرام في بعض القنوات الفضائية مناظراتٍ يندى لها الجبين، بين علماء، ومفكرين، وكتابٍ، أو بين حمقى، وجهلة... في طفولة عقلية مخجلة، وسوآت فكرية منفّرة، فما سبب هذا؟؟

٣- القبعة السوداء: هي قبعة الحكم السّلبي على الأمور، ولكن لسبب، لذا يجب أن نوضح للحاضرين أن لا يخلطوا بين طريقتي القبعتين الحمراء والسوداء. ففي القبعة الحمراء قد نقدم نقداً مبنياً على الانطباعات والعواطف، أما في القبعة السوداء فينبغي أن يُبنى على أسباب منطقية معقولة. إذن تفكير القبعة السوداء سلبي لكنّه منطقي - إنه ينظر إلى الجانب القاتم، لكنه يقدّم الأسباب والمسوّغات. إنه تفكير مطلوب ومفيد، ولا يحسن التخلّص منه، لأنه يسعى إلى تقديم الحقائق.

ومن مزايا هذه الطريقة في التفكير أنها تخفف جداً من ميل الناس إلى الانتقاد، فنحن نقول للمجتمعين: الآن جاء دور القبعة السوداء، فليوجّه كل منكم ما شاء من انتقاد. لكن بشرط أن يدعمه بالأدلة. وبهذا نمتصّ إلى حد كبير - عاطفة النقد السلبي، والتجريح، ونحولها إلى اتجاه إيجابي. ومن مزاياه أيضاً أن يكشف لنا العيوب والأخطاء والأخطار - إن وجدت - لنتجنّبها.

٤- القبعة الصفراء: تبرز الجوانب الإيجابية، وتتساءل: لماذا ستنجح الفكرة، أو المشروع، أو الخطة، وتبين السبب الذي يدعو إلى هذا التوقع. إنها أملٌ مبني على سبب. وفي الوقت الذي تحمينا فيه طريقة القبعة السوداء من الأخطار وتبعدنا عنها، تبعث فينا طريقة القبعة الصفراء السرور، وتحرك فينا دافع الفضول، لأنها تمكننا من إخراج الأفكار إلى حيّز الوجود.

٥- القبعة الخضراء: يذكر اللون الأخضر بالنبات، والعشب، والنمو، لذلك اختار دوبونو هذا اللون رمزاً للإبداع والابتكار. إن طريقة التفكير هذه تشمل تقديم الاقتراحات، والبحث عن بدائل، واكتشاف حلول جديدة، وإثارة الفكر الراقد، وهي تتحرك من فكرة إلى فكرة. وهناك أوقات نحتاج أن ندخل فيها ساحات التفكير الإبداعي عن قصد وتعمّد، لا أن ننتظر مجيئه. وهذا النوع من

التفكير يخرج بعض الناس من دوائر الأمان، دوائر الإلف، والعادة والاستقرار، إلى ارتياد آفاق جديدة، واكتشاف أراضٍ لم تكتشف، والسفر في طرق لم تُعَبّد من قبل.

٦- **القبعة الزرقاء:** يقول دوبونو: إن لابس هذه القبعة يشبه قائد الفرقة الموسيقية (المايسترو) الذي يوجّه العازفين، فهو يقول: نحتاج هنا إلى تفكير ابتكاري (أخضر)، أو عاطفي (أحمر)، أو حيادي (أبيض)... إن هذه الطريقة تبحث في نوع التفكير اللازم للوصول إلى النتيجة، فهي تفكير في التفكير. وقد تمّ اختيار اللون الأزرق ليصبغ هذه الطريقة لأن السماء زرقاء، وهي تُظلُّ كلَّ ما تحتها، ولهذا فإن لابس القبعة الزرقاء لا يفكر في الموضوع المطروح للبحث، إنما يفكر: كيف يوجه التفكير اللازم للوصول إلى أحسن نتيجة.

هذه لمحة عجلى تجعل القارئ الكريم مُلِمّاً بهذا الجانب من المعرفة التطبيقية، وقد يجد الفكرة سخيفة لأنه غير معتاد على ارتداء القبعات التي هي من خصائص الزي الغربي القديم، وقد يجدُ أنّ الكثير مما جاء في (الكتاب) قديمٌ معروف، لكن المؤلف صاغه بأسلوب جديد. وقد يكون انطباع قرّاء آخرين مناقضاً تماماً لهذا الرأي. وهذه هي الطبيعة الإنسانية، التي اقتضت مشيئة الله الحكيم وإرادته أن تخلقها في الوجود. والله تعالى أعلم.

١٠٠

هل خيرُ الأمورِ الوَسَط؟!،

كتب الدكتور عبد الكريم بكار في كتابه: «خطوة نحو التفكير القويم: ثلاثون مَلْمَحاً في أخطاء التفكير وعيوبه» تحت عنوان: اللجوء إلى الحل الوسط، ما معناه:

عند العجز عن اتخاذ قرار، وعند التباس الأمور، وفي حالات الخوف، يجد الناس أنفسهم مدفوعين إلى الابتعاد عن الآراء الطَرفيّة، أي: التي تقع في أحد الطرفين، (مثل: خطأ وصواب)، ويانسون بالحلول والاراء المتوسّطة. وهذا ليس شأنَ الناس العاديين فحسب، بل ينهج القضاةُ هذا النهج، وهم من أحرص الناس على الوصول إل الحقيقة (نظرياً على الأقل)، حين يلجؤون إلى الصلّح، أو إلى الحل الوسط، وهم يفعلون ذلك غالباً بسبب غموض المواقف، ونقص الأدلّة.

ويمضي قائلاً: ولست أريد هنا أن أقول: إن الحلول المتوسطة هي خاطئة دائماً على المستويين النظري، والأخلاقي، فالله تعالى مدح الصلح في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء: ١٢٨]، والصلح نوع من الحل الوسط بين الطرفين، ولكني أريد أن أوضّح أن هناك انطباعاً سائداً لدى كثير من الناس بأن الحل الوسط هو دائماً جيد وعادل، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، وبيان ذلك:

١- قد يتم عرض ثلاثة آراء: وسط وطرفين، وتكون الثلاثة كلّها خاطئة،

والصواب هو في رأي رابع. فلو قال شخص - مثلاً - إن ٢+٢ = ٦، فقال ثانٍ: بل (٨)، فجاء الوسيط قائلاً: هي (٧)، حتى يرضي الطرفين، واختار الوسط بين جوابيهما، فهل هو على صواب؟!.

ويعطي الدكتور البكار مثلاً حياً وأخلاقياً وشرعياً وسياسياً، فيقول: وذلك على نحو ما يفعله اليهود في فلسطين، حين دخلوا بيوتاً غير بيوتهم، وطردوا منها أهلها، فجاء الوسطاء وفي جعبتهم مجموعة من الحلول الوسط، فطلبوا من صاحب البيت أن يوقّع على التنازل عن بيته للغاصب، ويفوز هو بغرفة أو غرفتين!.

ومن الجهة الشرعية المحضة لا يكون ثمة حل وسط بين حلال صريح وحرام صريح، «فالحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه...» كما ورد معناه في الحديث الشريف.

٣- يمكن أن يكون الحل الوسط أخذاً لأفضل ما في الطرفين، وهذا حَسَنٌ، لكنه يمكن أن يكون أيضاً أخذاً لأسوأ ما فيها وهذا خطأ مرفوض.

إذن ما مدى صواب الحكمة القائمة: «خير الأمور أوسطها» ، أو «أوساطها»؟.

هذه الحكمة جاءت في سياقٍ غير الذي نحن فيه. أولاً: هي حديث ضعيف كما بيّنه العلامة العجلوني في كتابه: «كشف الخفاء» ، ونقل عن الإمام السخاوي قوله في كتابه: «المقاصد الحسنة» : رواه ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد لكنْ يسند فيه مجهول، عن عليّ رضي الله عنه مرفوعاً - وللديلمي بلا سند عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «خير الأعمال أوسطها» في حديث أوله: «دوموا على أداء الفرائض».

وللعسكري عن الإمام الأوزاعي رحمه الله أنه قال: ما من أمرٍ أمَرَ الله به إلا عارض الشيطانُ فيه بخصلتين لا يبالي أيّهما أصاب: الغلو أو التقصير. ولأبي يعلى بسند جيد عن وهب بن منبه قال: إنّ لكل شيء طرفين ووَسطاً، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء. ويشهد لكل ما تقدم قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ١١٠]. فهذه الحكمة - إذن - هي دعوة إلى الاعتدال والتوازن، ولا علاقة لها فيما نحن بصدده. وعنها عبر القائلان:

١. حبُّ التناهي غلَطْ
خير الأمور الوَسَط

٢. عليك بأوساط الأمور فإنها
نجاةٌ، ولا تركبْ ذلولاً ولا صَعباً

أما قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، فالوسط هنا: العَدْل، والخيار، قال الشاعر:

همُ وَسَطٌ يرضى الأنامُ بحُكمهم   إذا نزلتْ إحدى الليالي بمُفظِمِ

ومما يتصل بالموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه - وهو يدور في جملته حول خطأ من أخطاء التفكير - المَلْمَحُ الرابع الذي ذكره الدكتور بكار تحت عنوان: وَهْمُ الحيادِ الكامل. يقول (بشيء من التصرّف):

كثيراً ما يكمن الخطأ في إنكار إمكانية وقوع الخطأ (عملياً، لا نظرياً) وعقولنا - معاشر البشر - لا تتعامل مع الأشياء من فراغ، بمعنى أنها لا

تستطيع أن تعالج المشكلات دون ثقافة ورؤية ومفاهيم محددة سلفاً، صارت على مرّ الأيام جزءاً أساسياً منها.

الخطأ الذي يقع أكثرنا فيه هو الحسبان بأننا قادرون على إدراك الحقائق الصافية، ورؤية الأمور رؤية واحدة متطابقة مهما اختلف الناظرون، ومهما اختلفت زوايا الرؤية. وهذا إن أمكن في الرياضيات، والعلوم التطبيقية إلى حد كبير، فهو في المسائل الفكرية والاجتماعية والإنسانية عامة جدُّ عسير، بل هو وهمٌ من الأوهام، وكما أن الناظر إلى الأشياء التي يراها متأثراً بلون عدسات النظارة التي يلبسها، كذلك يتأثر نظره إلى القضايا الفكرية، والأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية... بلون ثقافته. (انتهى الاقتباس).

ولنأخذ مثالاً حياً من واقعنا: لماذا يعتقد إخواننا في تركيا وأفغانستان - مثلاً - أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله أعظمُ الأئمة، وأنه أكثرهم صواباً وأقلهم خطأً، وأن كلامه يُعدُّ دليلاً، وفهمه للدليل من الكتاب والسنة هو الفهم والصواب، وهم - إن كانوا أهلاً لدراسة الأدلة، وليسوا بأهل - لم يدرسوا الآراء الأخرى بعيداً عن أثر البيئة، وبعيداً عن الآراء المسبقة، وبحثاً عن الصواب من الأقوال؟.

ولماذا نفعل نحن الشيء نفسه مع الإمامين أحمد بن حنبل، وابن تيمية رحمهما الله، ويفعل إخواننا المغاربة الشيء نفسه مع الإمام مالك رحمه الله، والمصريون مع الإمام الشافعي رحمه الله؟؟ هل هذا حياد؟.

وإذا أخذت أي كتاب معتمد في الفقه عند أي من المذاهب الأربعة، وقلت: إن مؤلف الكتاب محايد، يقول بما أداه إليه الدليل، فإذا درست الكتاب وجدته في (٩٩٪) من المسائل يرى الحق والصواب مع مذهبه، والخطأ هو مذهب من يخالفه!!! أين الحياد في هذا؟؟

إن الناس - من المسلمين وغيرهم - يرزحون تحت أغلال عقلية ونفسية كثيرة. وإذا كان من فضل الله المحض على المسلمين أنهم في أركان الإيمان والإسلام على حقّ، فهذا لا يعني أنهم مصيبون في فروع الأمور والمسائل الدينية وغير الدينية التي لا يكاد يُحصيها العدّ، ورحم الله أحمد شوقي القائل:

وَهْمٌ يُقيِّدُ بعضُنا بعضاً به
وقيودُ هذا العالمِ الأوهامُ

والله تعالى أعلم.

١٠١

بَنُو اللَّقِيْطَة!!

لعل أشهر كتاب من كتب المختارات في الشعر العربي هو: (ديوان الحماسة) لأبي تمّام، حبيب بن أوس الطائي المتوفى عام (٢٣١ هـ) رحمه الله. قال عنه الزركلي رحمه الله في «الأعلام»: «يحفظ أربعة عشر ألف أُرجوزة من أراجيز العرب، غير القصائد والمقاطيع»!!.

أوّلُ مقطوعةٍ افتتح بها أبو تمام مختاراته هي ثمانية أبيات لشاعرٍ من بني العنبر، قيل: إن اسمه (قريط بن انيف) وقيل: (ابو الغول الطّهوي). تذكرتُ هذه الأبيات وجراحاتُ قلبي دامياتٌ، وأنا أرى ما يفعلُه اليهود في فلسطين، وما يفعله كلُّ من خَفَقَ في صدره قلبٌ يهوديٌّ، مهما كان دينُه، أو عرقه، أو اسمه، أو رسمُه.. تذكرتها وأنا أبكي دموعاً غزاراً، لكل طائفة منها طعمٌ يغاير طعم الطائفة الأخرى:

دموع الحزن، ودموع القهر، ودموع الغضب، ودموع الذّل.. وأشدّها إحراقاً دموع الخوف من الله: كيف سألقاه غداً، وبما أُجيبه إذا سألني: ماذا فعلتُ - مما هو في وسعي - في سبيل قضايا المسلمين؟؟

وقبل أن أذكر الأبيات أرجو مِن كلّ مَنْ لا يُحسِنُ العربية، أو يُؤَوّلُ الكلام على غيرِه معناه، أنْ لا يكمل قراءة هذه السطور!! قال الشاعر:

لو كنتُ مِنْ مازنٍ لمْ تستَبحْ إبلي

بنو اللقيطةِ من ذُهْلِ بن شيبانا

إذاً لقامَ بنصري مَعْشَرٌ خُشُنٌ

عند الحفيظةِ إنْ ذو لُوثَةٍ لانا

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذَيْه لهمْ

طاروا إليهِ زَرَافاتٍ وَوُحْدانا

لا يسألونَ أخاهمْ حين يَنْدُبُهُمْ

في النائباتِ على ما قال بُرهانا

لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عَدَدٍ

ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإنْ هانا

يَجْزُونَ من ظُلْمِ أهلِ الظُّلْمِ مَغْفِرةً

ومِن إساءَةِ أهل السُّوء إحساناً

كأنَّ ربَّك لم يخلُقْ لخشْيتِهِ

سِواهُمُ من جميع الناس إنساناً

فلَيتَ لي بِهِمُ قوماً إذا ركبوا

شنّوا الإغارةَ فُرساناً ورُكبانا

وأستميحُ القارىء الكريم العذر في إلقاء بعض الضوء على هذه الأبيات أقتبسُه من شرح ديوان الحماسة للمرزوقي المتوفي عام (٤٢١ هـ)، الذي نشره الأستاذان أحمد أمين وعبد السّلام هارون، رحم الله الجميع:

١- قصَدَ الشاعر في هذه الأبيات إلى بَعْث قومه على الانتقام له من أعدائه ومُهْتَضِميه، وتهييجهم وهَزِّهم، ومعنى البيت: لو كنتُ مازنياً لم تُغِرْ على إبلي بنو اللقيطة.

٢- اللام في (لَقامَ) جوابُ يمينٍ مُضْمرة، والتقدير: إذاً - والله - لقام بنصري. المَعْشَر: اسم للجماعة، لا واحد له من لفظه. وخُشُنٌ: جمع خَشِنٍ.

والحفيظة: الحميّة. واللُّوثة: الضّعف، والاسترخاء، والحُمق.

٣- إبداءُ النّاجذ - وهو ضِرْسُ الحِلْم - مَثَلٌ لاشتداد الشّر. طاروا: أسرعوا. زرافات: جماعات.

٤- الأصل في النُّدْبةِ: الدّعاء. وتوسّعوا فيه فقالوا: نُدِب فلانٌ لكذا وكذا، إذا رُشّح للقيام به.

٥- معنى البيت: لكنَّ قومي وإن كان فيهم كثرة عدد وعُدّة ليسوا من دفع الشرّ وإنكاره، وقصْدِه وارتكابه في شيء، وإن كان فيه خِفّةٌ وقلّة. فهم يؤثرون السلامة والعفو عن الجناة (ما أمكن). ولو أرادوا الانتقام لقدروا، ولكنّ المراقبة والتقوى تدعوهم إلى إيثار الحسنى.

وأقضي حوالي مئة عام لأصل إلى داليّة المتنبي التي مدح فيها سيف الدولة، وهنّأه بعيد الأضحى عام (٣٤٢ هـ)، وأنشده إياها بحلب هما على فرسَيهما، ومَطلعها:

لكلّ امرئٍ مِنْ دهرِه ما تعوّدا

وعاداتُ سيفِ الدولة الطّعنُ في العِدا

وفيها:

رأيتُكَ مَحْضَ الحِلمِ في مَحْضِ قدرةٍ

لو شئتَ كان الحِلمُ منك المُهنّدا

وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفوِ عنهُمُ

ومَنْ لكَ بالحُرِّ الذي يحفظُ اليدا

إذا أنت أكرمت الكريم مَلَكْتَه

وإن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا

وَوَضْعُ النَّدى في مَوْضعِ السَّيفِ بالعُلا

مُضِرٌّ كوَضْعِ السَّيفِ في موضع النّدى!

١- المهند: السيف. يقول: رأيتكَ خالص الحلم في قدرة خالصة لا يشوبها عجزٌ ولا تقصير، ولو شئتَ لجعلتَ القتل بالسّيف مكان الحلم.

٢- الحُرّ: الكريم، ضدّ اللئيم، واليدُ: النعمة. ويحفظ اليد: يُقدّر العفو عنه. يقول: إنّ العفو عن الكرام قتلٌ لهم، فمن صَفَحَ عن حُرٍّ كريم استرقَّهُ هذا الصَّفح، فيذلّ له وينقاد. ثم قال: وأين تجد الحرَّ الذي يحفظ النعمة ويراعي حقَّها؟.

٤- يقول: ينبغي أن يُعاملَ كلُّ إنسانٍ حسبما يستحقّ، فمن استحق العطاء لم يُستعمل معه السيف، ومن استحق القتل لم يكرم بالعطاء. ومَنْ فعل هذا أضرَّه بعلاهُ، وهَدَمَ أركانَ دولتِه. (انظر: شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، رحمه الله).

وردت في الصفح والمغفرة آيات كريمة كثيرة وأحاديث شريفة عديدة. منها قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

ومن الأحاديث الشريفة قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه». رواه مسلم.

والعالم حقَّ العلم يعرف النصوص جميعاً، ويستشهد بكل نصّ في موضعه، ويفهم النصوص بعضها في ضوء بعض، ولا يُعمل طائفة ويُهمل أخرى، ولا

يركز على معاني دون معانٍ فيصل إلى نتائج خاطئة. هذا مع معرفة سُنّة الاختلاف في الاجتهاد عند من همْ من أهله، وليسوا عالةً عليه. ومن البلايا في عصرنا الذي نعيش فيه أن مجال القول والكتابة مفتوح لمن هبّ ودبّ. ومن مزايا هذا الوضع إعطاء الحرية وعدم تكميم الأفواه (وإن كان هذا ليس على إطلاقه). لكنّ من عيوبه نشر الأخطاء، وتسميم الأفكار، واختلاط الصواب بالخطأ، وتضليل العقول...

إذا كان الحكيم - ولو على غير دين - يدرك بحكمته أنّ القوة الموضوعة في محلّها ليست عنفاً، وأن إكرام المخطئ ومكافأة المذنب وضع للشيء في غير موضعه، فلماذا يطلع علينا (مفكرون) مسلمون، يشار إليهم بالبنان، ولهم في الصحافة تاج وصولجان، فيؤصلون بورمٍ سرطاني مختلّ لأفكار على حساب أفكار، يُخلّون بالتوازن الذي تفقهه عقول (حكماء) أهل الملل والنحل المختلفة، سواءً منهم من يعبد الحجر، أو الشجر، أو البقر؟!.

فضلاً عمّن تفقه بالكتاب والسنة. وإلى هؤلاء أقول: سأتلو عليكم بعض الآيات الكريمات التي لا يجوز عدم الإشارة إليها في الموضوعات التي تعالجونها، فلماذا تسكتون عنها؟؟

وما حُكمها لديكم إذا حكّمتُم الإنصاف المبني على العلم لا الهوى أو الجهل؟!.

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ ﴾[التوبة: ٧٣-التحريم: ٩].

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

- ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].
- ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨] (والعبرة بعموم النص لا بخصوص السّبب).

المراد من هذا المقال ليس الدعوة إلى العنف، ولكن في الوقت نفسه، رفض (تدجين) الدين، وليس تأصيلاً لمذهب معيّن، أو فتوى في واقعنا الأليم، فللتقوى أربابها ولست منهم، إنما هو دعوة إلى الإنصاف في الأحكام، ومراعاة الشمول والتوازن فيها، وعدم السماح للأورام الفكرية السرطانية بالانتشار في جسد الأمة: ﴿...إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. والله تعالى أعلم.

١٠٢

ويلٌ للتاريخ منَ المؤرّخين

«ويلٌ للتاريخ من المؤرخين، لأن الناس لا يعرفون مَنْ يعيشُ بينهم في قيد الحياة، ومن يسمَعُهم ويسمعونه، ويكتب لهم ويقرؤونه، فكيف يعرفون من تقدّم به الزمن ألفَ سنة، ولم ينظر إليهم قط، ولم ينظروا إليه؟». هذا ما كتبه عباس محمود العقاد رحمه الله في مقال له بعنوان: (أنا)، يتحدث عن نفسه.

يقول: «عباس العقاد كما أراه - بالاختصار - هو شيءٌ آخر مختلفٌ كلَّ الاختلاف عن الشخص الذي يراه الكثيرون، من الأصدقاء أو الأعداء. هو شخص أستغرب كلَّ الاستغراب عندما أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه، حتى ليخطر لي - في أكثر الأحيان - انهم يتحدّثون عن إنسانٍ لم أعرفه قطّ، ولم ألتق به مرةً في مكان، فأضحك في نفسي وأقول: ويل للتاريخ من المؤرخين!!!».

قرأت مرةً بيتين من الشعر يقول صاحبهما:

وما كُتبُ الأخبارِ في (كلِّ) ما روتْ

لقرّائها إلا حديثٌ مُلَفَّقُ

نظرنا لأمرِ الحاضرين فرابنا

فكيفَ بأمرِ الغابرينَ نُصَدّقُ؟!

فأعجبني البيتان، وقلت في نفسي: لو وضعنا (جلّ) بدلاً من (كلّ) في البيت الأول لكنّا أقرب إلى الصواب.

دعونا ننظر في واقعنا الحاضر ونتساءل:

إلى أيِّ مدىً تتصِفُ «الدول الكبرى» في تدريس تاريخ «الدول الصغرى»؟

إلى أي مدىً يصدُق (المؤرخون) في كتابة تاريخ أعدائهم؟ هلْ صَدَقت روسيا الشيوعية (الاتحادُ السوفياتي) في تدريس تاريخ غيرها، وتاريخ نفسها؟

وصينُ ماوتسي تونغ؟ ومِصرُ جمال عبد الناصر؟ وألمانيا هتلر؟ والحلفاء مع النازيين والنازيون مع الحلفاء؟ وأمُّ الحضارة والعدلِ والحرية، أمريكا اليوم، مع الهنود الحمر؟ وبريطانيا العظمى عندما استعمرتْ؟ وفرنسا في الجزائر، أرضِ المليون شهيد؟ وإيطاليا في ليبيا؟ وإسبانيا والبرتغال؟ وأقف عن (الحديث) عن التاريخ (الحديث) لسببين:

أولهما: عدم الإحراج، وخشية الإملال، وثانيهما: خوفي على نفسي!! وأترك الحاضر، والتاريخَ القريب، وأرجع بالفكر بضعة قرون:

هذا كتاب الله العزيز، الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تناوله بالشرح علماءُ أجلاّء، عرفنا في سيرهم الفضل والنُّبل، كيف سمحوا لأنفسهم أن (يغرفوا من بحور الإسرائيليات) ما يندى له الجبين ليفسّروا به كلام ربِّ العالمين؟! أليست (الإسرائيليات) جزءاً من التاريخ؟

وبعض الفضلاء من العلماء: كيف اعتمدوا في أمورٍ لها ما بعدها على أحاديثَ واهيةٍ، ومنكرةٍ، وضعيفةٍ، وربّما موضوعةٍ؟! وأشهر مثال على ذلك كتاب إحياء علوم الدين، للإمام العبقريِّ العلم أبي حامد الغزالي، غفر الله له، ورحمه، ورفع مقامه في الصدّيقين!! والشاهد من ذكره: هل نصدق كل ما نقرأ، أم نتوقف للتدقيق والتمحيص؟؟.

والفِرَق الإسلامية المختلفة: أهلُ السّنة فيما بينهم، والشيعةُ فيما بينهم، والخوارجُ فيما بينهم.. إلخ، وكلّ فئة مع الأخرى: هل كانوا صادقين، أم أن كل فرقة ادّعت أنّ الحقّ معها لايتعداها؟

وكلٌّ يدّعي وصـــــلاً بليلى

وليلى لا تُقِــرُّ لهم بذاكـــا!!

سوَّدَ أصحابُ الرأي تاريخَ أصحاب الحديث، فكال لهم أصحابُ الحديث الصاع صاعين! واضطهدت «مدرسة العقل» وعذّبتْ أئمة «مدرسة النقل» فكفّرها أولئك، ولعنوها، وأخرجوها من الملّة...

وأقلب الآن الصفحة، وانا أعتقد أنّ ما ذكرتُه فيها صواب يحتمل الخطأ والله تعالى أعلم، وأستغفره من الزلل، إلى صفحة أخرى مقابلة لا بُدَّ من ذكرها في هذا المقام، وأعتقد أيضاً أنّ ما فيها صواب:

لماذا قصّ الله سبحانه علينا قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقصص الأمم، وغيرها من القصص؟ لنعتبر، ونتدبر، ونتفكر، ولنتّعظ، ونتعلم. قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾، ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا... ﴾، ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... ﴾. ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ... ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾، ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾... إلخ.

ما جاء في القرآن الكريم متواتر مقطوع بصحته، لكنّ ما دونه لا بدّ فيه من النقد والتمحيص، صحيحٌ أننا لا نستطيع تطبيق القواعد الرائعة التي وضعها أئمة الحديث، فكانت تاجاً على رأسِ الإنسانية كلّها -لا نستطيع تطبيقها على كل حادث تاريخي، لكننا مطالبون بالاقتباس منها، والاهتداء بها، وكلما كان الحدث التاريخي أهمَّ كان احتكامُنا لها أكثر.

دارس التاريخ (في بعض أحواله) كسائق السيارة ينظر إلى الخلف في مرآته ليُحسنَ السّير إلى الأمام، وإلا إذا لم يستفد، فالوقت الذي ينفقه يضيع سُدىً:

مَنْ لم تُفِـدْه عِـبَـراً أيامُـه
كــان العـمـى أولى به مِنَ الهــدى

إن الدارس الحصيف الذكّي للتاريخ يقرأ بذهنٍ متفتّح واعٍ، وفكر ناقدٍ مقارن، ولا بُدّ من ضياعِ كثير من (الحقائق الصغيرة) عنه، ولكنّ كثيراً من (الحقائق الكبيرة) يمكن أن يتعلّمها، ويمكن أن يكوّن عنده التأمل فيها ملكةً لا يستغني عنها الأفراد، ولا تستغني عنها الأمم في التعامل مع غيرها، ويصدّق هذا قولُ الشاعر الحكيم:

ومَنْ وعى التــاريخَ في صــدره
اضــاف اعــمــاراً إلى عــمــره

أيها القارىء الكريم: أرجوكَ المعذرة لأني كتبتُ لك في موضوع لستُ متعمّقاً فيه، وإن كان يؤرقني، ويؤلمني أنني طالبٌ مخفق في التاريخ!!.

هذه السطور دعوة إلى دراسة التاريخ بضوابط صارمةٍ قدر الإمكان، وإلى استخلاص العبر منه، والاستفادة منها على مستوى الأفراد (فائدة صغرى)، وعلى مستوى الأمة (الفائدة العظمى).

ما قوانين النصر والهزيمة؟ ما سُنن ارتفاع الحضارات وانهيارها؟ ما أسباب تقدّم الشعوب وتقهقرها؟ ما عيوب حضارات المسلمين وما مزاياها، وما عيوب حضارات الآخرين وما مزاياها؟ هذه وما شاكلها من الأسئلة أتوقع أن تسهم الإجابة الصحيحة عنها إسهاماً كبيراً في تحقيق أمل الأمة في العزة والتمكين. والله من وراء القصد.

١٠٣

مَنْ لم يحترزْ بعقلهِ هَلَكَ بعقله.

يقال في اللغة: احترزَ من الشيء توقّاه. قال العلامة أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في معجمه: «مقاييس اللغة» : «الحاء والراء والزاي أصل واحد، وهو من الحفظ، والتحفظ. واحترز هو: تحفّظ، وناسٌ يذهبون إلى أنّ هذه الزاي مُبدلةٌ من سين» ، وهكذا فاحترز تعني: احترس.

وسُمّي العقل عقلاً لأنه يحبِس عن ذميم القول والفعل. ويقال: عَقَلَ عَقْلاً. إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله. ورجل عقول: حَسَنُ الفهمِ، وافرُ العقل.

معنى العنوان إذن: إن العقل قد يكون سبباً لهلاك صاحبه إذا لم يتوقَّ المزالق التي تؤدي به. والأمر يحتاج إلى مزيد بيان، ولا بأس ببعض التمهيد:

١- هل للسكّر رائحة؟ بالنسبة لنا نحن بنو الإنسان لا، ولكن هل هو كذلك بالنسبة للنمل الذي يتقاطر نحو حبيبات من السكّر إذا نُثرت في زاوية الغرفة؟ شمُّنا محدود جداً أمام شمّ النمل، وأمام الكلاب أيضاً!!.

٢- إذا زادت حرارة الغرفة درجةً واحدة فقط (من ١٧ إلى ١٨ مثلاً)، فنحن لا نُحسّ بها، ونصدّق ميزانَ حرارة جيداً إذا أخبرنا بذلك. فإحساسنا بالبرد والحرّ محدود.

٣- يصف لنا الطبيب حبّة دواءٍ فيها ربع ميلليغرام (أي: واحد تقسيم أربعة آلاف من الغرام: ١/٤٠٠٠ غ) من مادة فعّالة فتنام!! ونحن لا نستطيع أن

نحسّ! بوزن غرام واحد، ولا عشرة غرامات، بينما ميزان الصيدلة الإلكتروني يحسّ بجزءٍ من الألف، فإحساسنا بالوزن محدود.

٤- وقل الشيءَ نفسَه عن محدودية السّمع، والبصر، والذّوق، وغيرها.

٥- الآلة الحاسبة الصغيرة جداً تعطي الجذر التربيعي لعددٍ مكونٍ من عشرة أرقام في جزءٍ من الثانية، بينما يعجز (عقلي) عن الوصول إليه في ألف ضعف هذه المدّة!! وكذلك تقسّم لي (٩١٣١٥٧٨٩١٦) على (٢٥٦٧٩٨) بنفس المدة، فما أضعف (عقلي) أمام الآلة الحاسبة؟!.

٦- ما أعظم هذا (العقل) الذي (يتعب) من كثرة التفكير، و(يتوقّف) عن العمل خلال النوم، و(يهلوس) إذا شمَّ واحداً على مليون من الغرام من مخدر ما، (ويغيب) عن الوعي بربع غرام من غازٍ مخدّر؟!.

ومع ذاك فالعقل مناط التكليف، وسرّ الإبداع، و.... قُلْ ما شئتَ عنه في الجانب الآخر.

٧- الذكاء، والعلم، والحكمة ثلاث صفات مختلفات، وإن تداخلت: فقد تجد طفلاً ذكياً لكنّ علمه قليل، وقد تجد عالماً كبيراً (في الجيولوجيا مثلاً) لكنه أحمق! وقد تجد شيخاً قروياً عادياً عنده من حكمة السّنين ما يفتقر إليه عدد كبير من أساتذة الجامعات!.

ولنعدْ بعد هذه الإيضاحات إلى محور المقال لنقول: إن العقل يدرك بنفسه محدوديته، فيقفُ عند حدود عجزه لا يتعداها، يقف موقف التسليم والجهل، لا موقف الإنكار لما لا يفهمه، أو لا يدركه، أو لا يحيط به. وهنا يحسُنُ التفريق: أ- بين ما هو فوق العقل (وما أكثره!)، ب- وبين ما هو مناقضٌ للعقل (وما أقله!).

أمثلة الأول كثيرة ذكرنا آنفاً بعضها، وأمثلة الثاني مُخالفة (البديهيات)،

كقولنا: إنّ نصف هذا الرغيف أكبر من الرغيف كاملاً، وإن البنتَ جاءت إلى الدنيا قبلَ مجيء أمِّها!!.

قال الإمام أبو الفرج بين الجوزي (وهو غير ابن قيّم الجوزية - رحمهما الله) في كتابه الممتع صيدُ الخاطر:

«سألني سائل: قد قال بعض الحكماء: من لم يحترز بعقله هلك بعقله، فما معنى هذا؟». «فبقيتُ مدةً لا ينكشف لي المعنى، ثم اتّضح. وذلك انه إذا طُلبتْ معرفةُ ذات الخالق سبحانه من العقل فزعَ إلى الحسّ (أي: لجأ إليه). فوقع في التشبيه. فالاحتراز من العقل بالعقل هو أن ينظر فيعلم أنه لا يجوز أن يكون جسماً، ولا شبهاً لشيء. وإذا نظر (العاقل) إلى أفعال الباري سبحانه رأى أشياء لا يقتضيها (العقل)، مثل: الآلام، والذبح للحيوان، وتسليط الأعداء على الأولياء مع القدرة على المنع، والابتلاء بالمجاعة للصالحين، وأشياء كثيرة من هذا الجنس يعرضها العقل على العادات في تدبيره فيرى أنه لا حكمة تظهر له فيها. فالاحتراز من العقل به أن يُقال له: أليس قد ثبتَ عندك أنه مالك، وأنه حكيم، وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً؟ فيقول: بلى.

فيقال: فنحن نحترز من (تفكيرك) الثاني بما ثبت عندك في الأول، فلم يَبْقَ إلا أنه خفي عليك وجهُ الحكمة في فعله، فيجب التسليم له، لعلمنا أنه حكيم (أزيد: وأنه رحمن رحيم، يُحبُّ عباده، ويفرح بتوبتهم، ويغفر ذنوبهم، وأنه: حنَّان، منَّان، غفّار، غفور، غافر، كريمٌ، جواد، ستِّير، مُحسِنٌ، ... إلخ). حينئذ يُذعنُ العقل ويقول: قد سلّمت...

«واعتبرْ هذا بحال موسى والخضر عليهما السّلام، فإنه لمّا فعل الخَضِرُ أشياءَ تخرجُ عن العادات، أنكر سيدنا موسى، ونسيَ إعلام الخضر له بأنه ينظر

فيما لا يعلمه النبي الكريم الكليم من العواقب، وأنه فعل ما فعل بأمر الله سبحانه وتعالى له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾. فإذا خفيت مصلحةُ العواقب على موسى عليه السلام مع مخلوق، فأولى أن يخفى علينا كثير من حكمة الحكيم.

«وهذا أصل إن لم يثبت عند الإنسان أخرجه إلى الاعتراض والكفر، وإن ثبت استراح نزول كل آفة». انتهى كلامه رحمه الله بتصرّف يسير جداً.

وقبل بضع صفحات من الموضع الذي نقلتُ منه آنفاً، يقول في المعنى نفسه:

«من تفكّر في عظمة الله عزّ وجل طاش عقلُه، لأنه يحتاج أن يثبت موجوداً لا أول لوجوده، وهذا شيء لا يعرفه (ولا يدركه) الحِسّ، وإنما يُقرُّ به العقل ضرورة، وهو متحيّرٌ بعد الإقرار.

«ثم يرى من أفعاله ما يدل على وجوده فلا يخفى وجوده، ثم يجري في أقداره امورٌ لولا ثبوتُ الدليل على وجوده لأوجبت الجَحد (والإنكار)... فينبغي للعاقل الذي قد ثبت عنده وجوده بالأدلة الظاهرة الجليّة ألا يمكّن عقله من الاعتراض عليه في أفعاله، ولا يطلب بها عِلّة، إذ قد ثبت أنه مالك حكِيم، فإذا خفي عليه وِجه الحكمة في فعله نَسَبْنا العجزَ إلى فُهومنا... فمتى رأيت العقل يقول: لمَ؟ قل له: يا عاجز، انت لا تعرف حقيقة نفسك، فمالك والاعتراض على المالك»؟؟.

وفي واقعنا الذي نراه اليوم، ندرك أن المسلمين قصّروا في الأخذ بأسباب القوة والنصر، بل تفوّقوا في الأخذ بأسباب الذلّ والهوان والضعف... إلخ، لكنَّ بعض الأسئلة قد تظل تطرق بعض الأذهان: لماذا يتسلط ظالم فردٌ على شعبه فيذيقه العذاب والهوان؟ لماذا تتسلط دولة على مصائر شعوب فتنهب خيراتها، وتجوّعها، وتذبح أبناءَها بيد أبنائها، أو بأيدي جيرانهم؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟، ولعلّ في (بعض) ما ذكرناه (بعض) الجواب. والله تعالى أعلم.

١٠٤

«ليتني كنتُ ذمياً»!!

قال لي صاحبي وهو يحاورني: ليتّني كنتُ ذميّاً في دولة إسلامية راشدة إذن لكان لي من الحقوق أكثر مما لي في وطني الأمّ الذي هاجرتُ منه إلى «جنّة الغرب»، فذقتُ شيئاً من الحرية لم أكن أعرفه، ثم قلبتْ لي الحودث ظهر المِجَنّ، وكشف لي (بعض) الغربيين عن وجوهٍ لم أكن أراها من قبل!!.

كان منفعلاً جداً، فلم أشأ أن أصحح له آنذاك (الخطأ العقيدي) الذي ارتكبه، لأنني على يقينٍ من اطمئنان قلبه بالإيمان والإسلام، ولم يُرِد الارتدادَ عن الدين، (لأن الذميَّ هو المُعَاهَدُ من أهلِ الكتاب الذي أُعطيَ عهداً يأْمَنُ به على دمه، وماله، وعرضه، ودينه).

ومن عجائب المصادفات، (بل من حُسنِ التقدير، إذ ليس هناك مصادفات على الحقيقة)، أنني لما عدتُ إلى بيتي وجدت في أحد رفوف مكتبتي رسالةً صغيرة ذاتَ غلافٍ أزرق، كُتب عنوانها بخطٍ فارسيّ جميل: «حقوق أهلِ الذمة في الدولة الإسلامية»، تأليف: أبو الأعلى المودودي.

ألّف المودودي رحمه الله، أمير الجماعة الإسلامية هذه (الرسالة) ونشرها عام ١٩٤٨ في مجلته (ترجمان القرآن) بعد سنةٍ كاملة من قيام دولة باكستان الإسلامية، واستمد معظمها من كتب الفقه الحنفي. ومما يحسن اقتباسه من تلك الرسالة - والمسلمون يمرّون بالظروف العصبية التي لا تخفى على أحد في ظلّ طغيان «القوة العظمى» على العالم، وفي ظل التّهم الظالمة التي توجَّه

للإسلام، وفي ظلّ الضعف المهين الذي يعيشه المسلمون بما كسبت أيديهم - مما يحسن اقتباسه النقاط الآتية، أتركها بدون تعليق، لأنها لا تحتاج إليه:

١- يثبتُ عقد الذمة ثبوتاً أبدياً إذا دفع المعاهَد (بفتح الهاء) المبلغ المطلوب منه، وتثبت له عصمة نفسه وماله.

٢- يكون أهل الذمة مالكين لأراضيهم، وسواها، تنتقل إلى ورثتهم، ولا يجوز للدولة الإسلامية أن تخرجهم من شيء من أملاكهم. (قارنوا بما يفعله اليهود في فلسطين، وحماية أدعياء العدل الحرية لهم)!!.

٣- يُعيّن مقدار الضريبة (الجزية) حسب الحالة الاقتصادية للفرد، أما الذي لا دخل له فيعفى منها، واللازم عد تعيين المقدار مراعاة اليسر. فقد جعل سيدنا عمر رضي الله عنه وعلى الغني (٤٨) درهماً في السنة، وعلى المتوسط (٢٤) درهماً في السنة، على الفقير (١٢) درهماً في السنة، مقابل حماية أنفسهم وأعراضهم وممتلكاتهم وحرياتهم!!.

٤- لا توضع الجزية إلا على أهل القتال، ويعفى منها: الصِّبية، والنساء، والعميان، والرهبان، والعجائز... إلخ.

٥- من حقّ المسلمين أن يأخذوا المعابد في البلد الذي يُفتح بالقوة، لكنّ الأفضل الا يفعلوا، وكل ما فُتح من البلاد في عهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يتعرض فبها للمعابد.

٦- دم الذمي كدم المسلم، فإن قتل مسلمٌ أحداً من أهل الذمة اقتُصّ منه كما لو قتل مسلماً. أخرج الدارقطني أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة، فرفع ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: «أنا أحقُّ مَن وفى بذمته» ، ثم أمر به فقُتل. وحدث هذا في خلافة عمر رضي الله عنه، وفي خلافة علي رضي الله عنه، وقال: إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا.

٧- القانون الجنائي في الدولة الإسلامية سواءٌ للذمي والمسلم، وكذلك القانون المدني، تطبق أحكامهما بالتساوي، ويستثنى الذميون من أحكام الخمر والخنزير، فلهم أن يصنعوا الخمر ويشربوها ويبيعوها، وكذلك أن يربوا الخنازير ويأكلوها ويبيعوها، وإن أتلف أحد من المسلمين خمر الذمي أو خنزيره فعليه أن يعوّضه ويدفع له الثمن!.

٨- لا يجوز إيذاء الذمي لا باليد ولا باللسان، ولا شتمه، ولا ضربه، ولا غِيبته! كما لا يجوز ذلك في حقّ المسلم.

٩- لا يجوز للمسلمين أبداً نقض عقد الذمة بعد ثبوته، لكنّ أهل الذمة لهم الخيار أن يلتزموه ما شاؤوا، وينقضوه متى شاؤوا!!.

١٠- مهما ارتكب الذمي من الكبائر فهو يعاقبُ عليها، ولا يُنقض بذلك عقده، (مثل: الامتناع عن الجزية، وقتل المسلم، والزنى بالمسلمة، وسبّ النبي صلى الله عليه وسلم!!)، كل هذه الأفعال يُعاقب عيها الذمي كأحد الجناة، لكنه لا يُعد خارجاً عن الدولة، ولا ناقضاً لعهد الذمة!!.

١١- يُنفَّذ على أهل الذمة في قانون الأحوال الشخصية ما هو حلال في دينهم، وإن كان حراماً في الإسلام، وتقضي لهم المحكمة الإسلامية حسب شريعتهم، مثلاً: إذا كانوا يستحلّون النكاح بغير شهود، أو بدون مهر، أو في أثناء العدة، فلا بُد أن يجاز لهم ذلك، بل ذهب الفقهاء إلى أبعد من ذلك؟؟.

كتب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله مُستفتياً: «ما بال الخلفاءِ الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عيه من نكاح المحارم، واقتناء الخمور والخنازير»؟ فأجابه الحَسَنُ البصري: «إنما بذلوا الجزية ليُتركوا وما يعتقدون... وإنما أنت مُتّبع لا مُبتدع، والسّلام».

١٢- كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أحد عُمّاله في شأن أهل الذمة: «إذا قدمت عليهم فلا تبيعهنّ لهم... رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربنَّ أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم... فإنّا إنما أُمرنا أن نأخذ منهم العَفْوَ. فإن انتَ خالفتَ ما امرتُك به، يأخذك الله به دوني، وإنْ بلغني عنك خلافُ ذلك عزلتك».

١٣- وإذا امتنعوا عن أداء الجزية «يُرفق بهم، ويُحبسون حتى يؤدوا ما عليهم».

١٤- وكتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عهد ذمة لأهل الحيرة: «وجعلتُ لهم أيّما شيخ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفةٌ من الآفات، أو كان غنياً فافتقر... طُرِحتْ جزيتُه، وعيلَ من بيت مال المسلمين، هو وعيالُه»!!.

١٥- وابصر عمر رضي الله عنه شيخاً من أهل الذمة يسأل، فقال: مالك؟ قال: ليس لي مال وإنّ الجزية تؤخذ مني. فأسقط عنه الجزية، وأجرى له من بيت مال المسلمين، وكتب إلى أمينه: «ما انصفناه والله! أكلنا شَبِيْبَتَهُ، ثم نأخذ منه الجزية في كبره»!!.

والحديث في هذا الباب طويل.

عدت إلى عبارة صاحبي أتأمّلها: «ليتني كنتُ ذمياً» ، فأدركت بشكل أعمق ماذا كان يعني. ودمعتْ عيناي!!.

١٠٥

حَرْبٌ أمْ غزْوٌ؟!

١- الحَرْبُ - في اللغة العربية - : القتال بين فئتين، أما الغَزْوُ: فهو السَّير إلى قومٍ في ديارهم وقتالُهم. فما أشدَّ انطباق التعريفِ اللغوي في لغتنا الخالدة على ما تتحدّث به الولايات المتحدة الأمريكية عن غزو العراق الذي تسميه حرباً!!.

٢- ذكرتُ أكثر من مرة في هذه المقالات أنني لا أتحدث في (السياسة)، أولاً: لأنني أجهلها، وثانياً: لأنني أخاف من عواقب الحديث فيها!! ولكني أتساءل الآن: هل الحديثُ عن مصائب الأمة ومحنِها وقضاياها الكبرى هو حديثٌ في السياسة؟! إذاً ما معنى الحديث الذي رواه الإمام البيهقي عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم»؟! وما معنى ما أخرجه الشيخان، البخاري ومسلمٌ، رحمهما الله، عن النعمان بن بشير رضي الله عنها، أنه عليه الصّلاة والسّلام قال: «مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطفهم: مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» ، وفي رواية: «المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى راسُه تداعى له سائر الجسد بالسهر الحمّى» ، وفي رواية: «.. إن اشتكى عَيْنه، اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسه اشتكى كلُّه»؟! ما معنى هذه الأحاديث؟؟.

٣- إذا اشتكى إنسانٌ من ألمٍ حادٍ عنيفٍ في عينه، أو أذنه، أو بطنه، أو كُليته، فارتفعتْ حرارة جسده إلى (٤١) أو (٤٢) درجةً مثلاً، ولم يَعُدْ يستطيع

النوم، هل يشتهي الطعام اللذيذ، والحلوى، والفاكهة الطازجة، وهل يتذكر ما يحبّه من الشراب، وما يفضله من الطيب والعطور، أم هو عن هذا كلّه في شغل؟.

٤- جرائم اليهود في الفسلطينيين الأبرياء تقشعر منها جلود العجماوات، ونحن نراها على شاشات التلفاز كل يوم... وما يُهدَّد به الأبرياء من أبناء الشعب العراقي - إذا وقع لا قدّر الله* - أمرٌ تشيب لهوله الولدان، كلّ هذا ونحن ساهون لاهون، نأكل ونشرب ونتمتّع، ولا يتداعى في جسد الأمة عضو سليم لألم عضو يُمزّق، ويُقطّع، ويحرّق! فهل نحن مسلمون؟ بل: هل نحن أناسٌ أسوياء؟! والحديث عن نفسي قبل كل أحد!!.

٥- نحن - الشعوب المسلمة - نجني ثمار تخلّفنا، وجهلنا، وتفريطنا، وتناحرنا، وكسلنا... إلخ والدولة المستكبرة اليوم تجني ثمار عملها، وجِدِّها، وعلمها، وأخذها بأسباب القوة.. إلخ ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾!!.

٦- السبُّ والشتم قليلا الجدوى جداً، أو لا جدوى لهما أبداً إنهما يفرّغان شُحْنة عاطفة سلبية في نفس الشّاتم، أما المشتوم - إذا كان حكيماً - فيردّ بهدوء وتخطيط يوصله إلى غايته.

٧- القنوط من رحمة الله حرام، وانتظار رحمة الله للظالمين لأنفسهم، أو القاعدين، أو المفرّطين خرق لقانون السّببية: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا﴾ - ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ - ﴿وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

٨- أنا أصدقُ أقلَّ ما يُكتب في الصحف، وأكذّبُ بعضاً، وأتوقّف في أكثره! ومما صدّقته قولُ أحد زعماء الدول الغربية: أيها العرب ساعدونا على أن نساعدكم! لا تخذلونا في نصرتكم! لا تتوقّعوا منا أن نكون عرباً أكثر من العرب!

٩- قرأت في جريدة الحياة (عدد ٢٠٠٣/٢/١م) أنَّ هورست ماهلر الألماني، زعيم حزب (فرنج) الديموقراطي الوطني قال: «ليس في إمكان الطائرات المدنية إلحاق هذا النوع من الدمار في برجي مركز التجارة العالمي ووزارة الدفاع الأمريكية... وتمَّ الانهيار بفعل متفجرات وضعها خبراء في البرجين، لا بفعل اصطدام الطائرتين بهما». وقد مَثَلَ الرجلُ أمام محكمتين (في ما ينز، وهامبورغ) بتهمة «تبرير جريمة» ، وَدَفَعَ غرامةً (٧٢٠٠) يورو بعد دفاعه عن هجمات (١١) أيلول، وقوله: إن الخاطفين هم «جيش يواجه أعداءه» وإن أعمالهم كانت مبررة!!.

سبحان الله! أنا العربي المسلم أقول: إن ذلك الفعل حرام، وهو يقول: مشروع! وكثير من (السُّذَّج) في اعتقادي، وأعتذر منهم - إن أسأت الأدب معهم، فأنا لا أعني إلا (السُّذَّج) - يقولون: إن فلاناً وفلاناً من المسلمين هم (وحدهم) الإرهابيون الذين دبَّروا هذا العمل الإجرامي... بينما يقول تيري ميسان الصحفي الفرنسي في كتابه: «الخديعة المرعبة» ، وروجية غارودي، وألوف غيرهم: إن المخططين الدهاة وراء هذه العملية هم من غير العرب والمسلمين، واستخدموا بعض العرب والمسلمين لأسباب لا تخفى على عاقل! فأين الحقيقة الكاملة؟! هل ستكشفها الأيام؟؟ أم أنَّ هذا (الحدث الأكبر) سيلحق بأحداث أصغر بكثير نَسَجَ عليها العنكبوت خيوطَ النسيان (مثل: انتحار مارلين مونرو، ومقتل جون كنيدي، ومقتل الليدي ديانا)؟.

١٠- نرجع إلى عنوان المقال وموضوعه الأساس وهو (غزو العراق)، ولنترك الكلام الذي لا يؤدي إلى نتيجة، ولنتساءل ماذا يمكننا أن نعمل؟؟

سؤال عسيرٌ الجواب عليه، لأنه يعني: بناء الأفراد، ثم بناء الشعوب، وبناء المؤسسات، وبناء الأخلاق، والشورى في الحكم، والتقدم في العلم.. وأهمّ

قواعده وأسسه ومنطلقاته: التربية.. «ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه»، والبناء على أساس واهٍ هو بناء على شفا جرفٍ هارٍ، سريع الانهيار.

ومع ذلك أقول:

- كل واحدٍ منا على ثغرة. فليحذر أن يؤتى الإسلامُ من قِبَلِه.
- اختلاف الظروف يملي نوعية العمل المطلوب:

أ - فجالية إسلامية في فرنسا، تختلف عن جالية إسلامية في ساحل العاج، أو في جنوب إفريقيا.

ب - ومسلمٌ مجاهد في فلسطين غير مسلمٍ في السّودان.

ج - وأسرةٌ مقيمة في مكة المكرمة غير أسرة مقيمة في موسكو.

د - وجمعيةٌ لتحفيظ القرآن في دمشق غير جمعية سياسية في واشنطن.

هـ - ومدرّس لغة عربية في الجزائر غير مدرّسٍ مسلم امريكي أبيض في جامعة هارفارد يُدرّس العلوم السياسية.

و - والطالب ابن الخامسة عشرة، غير الموظف ابن الخامسة والثلاثين، وغير الشيخ ابن الخامسة والسبعين.

ز - وأمّ الأطفال الستّة غير الطبيبة العَزباء في المستشفى.

وهكذا...

المهم ان نعمل، وان نصل كلال الليل بكلال النهار، وأن ندرك أن الأمر جِدّ خطير، والمهم أن نتوب إلى الله من ذنوبنا، ونزيد في عبادتنا، والمهم أن نحسن معاملتنا، وننشر الحب بيننا، والمهم أن ندرك أن الاقتصاد هو أهم أسلحة المعركة، لا ياتي قبله إلا الإيمان والعلم، والمهم أن... وأن... وأن...﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ وصدق الله العظيم : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾، ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾.

١٠٦

مَظهَرُ الشَعيرة أمْ مَقصِدُ الشَّريعة؟؟؟

الشعيرة: ما نَدَبَ الشرع إليه، أو أمر بالقيام به، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

والمراد من العنوان: هل نهتمُّ بمظهر العبادات أم بروحها والمقصدِ منها؟.

والجواب عندي - والله تعالى أعلم - نهتمُّ بالاثنين معاً، مع إعطاءِ أهمية أكبر للمقاصد؛ فإذا تعارض المظهر - لبعض الأسباب - مع تحقيق روح الشريعة ضحّينا به لتحقيق المقصد. والأدلة على أن الحقائق أهمّ من المظاهر كثيرة جداً، منها ما رواه البخاري ومسلم رحمهما اله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لم يَدَعْ قول الزّور والعمل به، فليس للّه حاجةٌ في أن يدع طعامه وشرابه»! فالصوم شُرِع لتحقيق غايات عديدة أجملها القرآن الكريم بقوله: ﴿ ...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فما لم تتحقق التقوى أصبح الصوم شكلاً بلا معنى، وجسداً بلا روح، وفي الحديث: «رُبَّ صائمٍ حظّه من صيامه الجوعُ والعطش، وربَّ قائمٍ حظّه من قيامه السهر» رواه الإمام أحمد رحمه الله. فالأخذ بالمظهر مطلوب، لكنّ المقصد هو الغاية.

بعد هذه السّطور أودّ أن أُحدِّثَ القارئَ الكريم عن كُتيّب صغيرٍ وقع في يدي، لا تزيد صفحاته على الخمسين، عليه أسماءُ ستة من أصحاب الفضيلة العلماء*، كلّهم أشرف على إعداده، أو وافق على ما جاء فيه، أو قدّم له.

(*) وهم: أ. د. صالح بن محمد السلطان، د.عبدالوهاب بن ناصر الطريري، سماحة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن ابن جبرين، معالي الشيخ عبدالله بن الشيخ المحفوظ بن بيه، معالي الشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع، فضيلة الشيخ سليمان بن فهد العودة.

وعنوان الكُتيّب: «السَّكينة أيها الناس: مسائل في الحج»، والسكينةَ هنا، بفتح التاء المربوطة، يعني: الزموا السكينة! والعنوان لفظ حديث نبوي شريف رواه أبو داود والترمذي رحمهما الله، ولفظ أبي داود: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «..... ثم أردف (عليه الصلاة والسّلام) أُسامةَ، فجعل يُعنِقُ على ناقته أي: يسير بين الإبطاء والإسراع مراعاةً للناس، والناس يضربون الإبل يميناً وشمالاً، لا يلتفت إليهم، ويقول: السَّكينة أيّها الناس..».

والكتاب - عندي - أكبر بكثير من أن يكون فتاوى في بعض مسائل الحج، إنه: علمٌ صحيح، وعقلٌ نيّر، وفقهٌ مُتَفَتّح، وفهمٌ عميقٌ لمقاصد الشّريعة، وأدبٌ في الكتابة، واحترامٌ لآراء العلماء، واعترافٌ بالمخالفين في الاجتهاد... وأنا ادعو كلَّ مسلمٍ إلى قراءته، لأنه سيتعلّم منه - إن شاء الله - المعاني التي ذكرتها.

أما الأحكامُ التي بيّنها الكتيّب فهي سبعة مُوجزُها:

١- الرّمي بعد الزوال في أيام التشريق هو السنة الموافقة لفعل النبي صلى الله عليه وسلم. ولكنّ القول بالرّمي قبل الزوال، وبخاصة في يوم النفر الأول، قولٌ له أدلته ووجاهته، وقال به أئمة هدىً، من عمل به فقد اتّبع قولاً مُدلّلاً، واقتدى بسلفٍ صالح.

٢- يجوز لمن هو مشغول أيام الرّمي، أو كان منزله بعيداً عن الجمرات، ويشقّ عليه التردّد إليها أن يؤخّر الرمي فيجمَعُه في اليوم الثاني عشر، أو الثالث عشر، ولا شيء عليه.

٣- البقاء في عرفة إلى غروب الشمس هو فعل النبي صلى اله عليه وسلم وَهَدْيُهُ، ولكنّ القول بجواز النفرة من عرفة قبل الغروب له حظّه من الاستدلال والنظر، وقال به أئمة علمٍ يُقتدى بهم. وإن الحرج الذي يُصيب

الناس في النفرة من عرفة حيث لا يَصلون - أحياناً - إلى مزدلفة، إلا في ساعات متأخرةٍ من الليل يجعل الأخذ بهذا القول، والتوسعةَ به على الناس له اعتباره، وأنّ من فعل ذلك فلا شيء عليه على رأي جمعٍ من أئمة العلم.

٤- ثبتتْ الرخصة في ترك المبيت بمعنىً للرّعاة والسّقاة، وفي معنى هؤلاء من لا يجد مكاناً يليق ليبيت فيه، وكذلك من خرج ليطوف بالكعبة المشرفة فحبسه الزحام حتى فاته المبيت بمنى فلا شيء عليه.

٥- الطرق ليست مكاناً للمبيت، ولا ينبغي لأحد أن يبيت بها، ومن فعل فقد أساء وتعدّى وظلم لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس في الطرقات، ولما فيه من تعريض النفس والغير للهلاك والأذى، وما يسببه من انكشاف العورات، والتضييق، وتعطيل السير. ولذا فإنّ لَفْتَ الناس إلى الرخصة التي يتحقق بها حفظ النفس والعرض أولى من إلزامهم بواجب وردت الرخصة بسقوطه عن العاجز وذي الحاجة، والمصلحة العامة مقدّمة على المصلحة الخاصة.

٦- الزحام اليوم لم يَعُدْ مَظِنّةَ المشقة، بل مظنة الهلاك!! ولذا فإن على الحاج تجنّب المزاحمة التي تُلحق الضرر بنفسه أو بغيره. وتفويت بعض السّنن التي لا يأثم بتركها أولى من التعرض للمهلكات، وأداء العبادة على حال من الخشوع والتضرّع وحضور القلب، مع تعظيم حُرمات المسلمين أولى من تفويت هذه الأمور المهمة لإدراك (أفضلية) الوقت أو المكان.

٧- مشاعر الحج (عرفة ومنى) هي المكان الذي أعلن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيم حرمات المسلمين، ودمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، ومع ذلك فقد صارت هذه المشاعر مكاناً لزهوق الأرواح، والتطاول على الأعراض بالسبّ والأذى، لأسباب منها: قلة الفقه برخص الشرع، وعدم ملاحظة

الآداب الشرعية في أداء المناسك، وقلة تبصير الناس برعاية الفضائل المتعلّقة بذات العبادة، وأن ذلك أولى من الفضيلة المتعلقة بزمانها ومكانها.

والجدير بالذكر أن هذه الرسالة الصغيرة حظيتْ بمقدمةٍ ضافيةٍ نسبةً إلى حجمها بلغت (١٦) صفحة، أي: (٣٢) بالمئة من حجم الرسالة كتبها العلاّمة الشيخ عبد الله بن بيَّه، على غاية كبيرة من الأهمية في (فقه الاختلاف)، أقتبس منها ما يلي:

- اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى لهذه الأمة، كل يتّبع ما صحّ عنده، وكلهم على هدى، وكلهم يريد الله تعالى.
- يرى الإمام ابن تيمية رحمه الله تركَ بعض المستحبّات تأليفاً للقلوب. قال في الفتاوى: «لأن مصلحة التأليف في الدين أعظمُ من مصلحة فعل مثل هذا، كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تغيير بناءِ البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب. وأنكر ابن مسعود على عثمان بن عفان رضي الله عنهما إتمام الصلاة في السّفر، ثم صلّى خلفه مُتِمّاً، وقال: الخلاف شرّ» (الفتاوى: ٢٢/٤٠٧).
- قال الإمام ابن القيّم رحمه الله في (إعلام الموقعين): «إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ، لم ننكر على من عمل فيها مجتهداً أو مقلداً».
- قال الإمام ابن رشد رحمه الله: «إن لله أحكاماً لم تكن أسبابها موجودةً في الصدر الأول، فإذا وجدت أسبابها ترتبت عليها أحكامها».
- لما تولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة أجَّلَ تطبيق بعض أحكام الشريعة، فلما استعجله ابنه في ذلك أجابه بقوله: «أخاف أن أحمل الناس على الحق جملةً فيدفعونه جملةً، ويكون من ذلك فتنة» (ذكره الشاطبي في الموافقات).

وبعد: فإن أمثال هذه الموضوعات الكبرى ينبغي أن تُدرَّس في كليات الشريعة وأصول الدين في العالم الإسلامي، بتوسّع وعناية، لأنها أهمّ بألف مرة من أحكامٍ فقهية فرعية لم تعدْ الحاجة تدعو إليها، يدرسها الطالب، (ويمتحن) بها! ثم لا يعود إليها إلى أن يموت!!. والله تعالى أعلم.



المحتويات

الموضوع		الصفحة

الموضوع		الصفحة
٤٧	وقالوا: من أشد منا قوة	١٨٢
٤٨	هل يمكن أن نعد المفرد	١٨٧
٤٩	أكثر الناس أعداء نعم الله عليهم	١٩٢
٥٠	العبرة بالقيمة لا بالقامة	١٩٧
٥١	واعجباً. كيف صالحته وتركتنا	١٠٢
٥٢	العقل والمرض: دروس مثيرة عن الشفاء الذاتي	٢٠٧
٥٣	هل ادفع زكاة فطري نقداً؟	٢١٢
٥٤	العقاد عبقري.. لا شك عندي	٢١٧
٥٥	لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟	٢٢٣
٥٦	عبرة لأولي الألباب	٢٢٧
٥٧	شوال ليس كرمضان	٢٣٢
٥٨	القرآن هو الحل.. ولكن كيف	٢٣٦
٥٩	قل لي: ماذا تدعو، اقل لك من أنت	٢٤١
٦٠	ماذا قال سفير ألمانيا؟	٢٤٦
٦١	الرجل على دين خليله - والطباع سراقة	٢٥٢
٦٢	الإمام ابو حنيفة.. قادح زناد الفكر وموريه	٢٥٧
٦٣	كتب لابد من قراءتها	٢٦٢
٦٤	هندسة النفس الإنسانية	٢٦٧
٦٥	رؤية غير سياسية لمأساة أفغانستان	٢٧٢
٦٦	«بانيم مخوعاروت بمرآة»: منهاجنا أم مناهجهم؟!	٢٧٧
٦٧	هل المدفأة معطلة	٢٨٣
٦٨	مالك ما أدراك من مالك	٢٨٨
٦٩	هل نحن بحاجة إلى معجم جديد	٢٩٣
٧٠	بيان من حكماء أمريكا	٢٩٧
٧١	من قال إننا نحتاج إلى تعليم التفكير	٣٠٢
٧٢	هل يحتاج كتّاب الصحف إلى الأدب	٣٠٦

الموضوع		الصفحة
٧٣	هل يكفي ما فعلناه حتى ننتصر؟	٣١٠
٧٤	الخيانة العلمية: كيف نصل إلى الحقيقة؟	٣١٤
٧٥	قال عالم الهند: هكذا ننتصر	٣١٨
٧٦	لابد من العقل والعلم معاً	٣٢٢
٧٧	يستتاب مالك وإلا يضرب عنقه	٣٢٦
٧٨	لماذا لا نعرف وننشر فضائحهم	٣٣٠
٧٩	النون واللام والباء المشددة!! (NLP)	٣٣٤
٨٠	مداواة النفوس	٣٣٨
٨١	اعترافات الإمام ابن حزم	٣٤٢
٨٢	المسلمون من العطالة إلى الفاعلية	٣٤٧
٨٣	لا يلهينكم ما أنتم فيه عما أقول لكم	٣٥٢
٨٤	إلى جيل مسلم جديد طال انتظاره	٣٥٦
٨٥	القارئ الحكيم لا يصدق كل ما يقرأ	٣٦٢
٨٦	ليست دعوة إلى الحزن ولكن	٣٦٦
٨٧	ادعاء العلم فضيحة	٣٧٠
٨٨	أكثر من فكرة	٣٧٤
٨٩	العادات السبع لكبار الناجحين	٣٧٩
٩٠	رويدكم.. إنه كلام الله	٣٩٣
٩١	إنساني جداً... هذا الحيوان	٤٠٢
٩٢	لا تكذبوا بهذا الحديث	٤٠٦
٩٣	متى تسقط الحضارة	٤١٠
٩٤	القوانين النفسية لتطور الأمم	٤١٤
٩٥	خواطر في الحب والبغض	٤١٩
٩٦	هل أنا متكبر	٤٢٤
٩٧	المعنى السياسي في العيد	٤٢٩
٩٨	من عرف نفسه عرف ربه	٤٣٤



	الموضوع	الصفحة

المؤلف في سطور



- أحمد البراء بن عمر بهاء الدين الأميري
- ولد عام ١٩٤٤م - سوري الجنسية.
- يحمل دكتوراه وماجستير في الدراسات الإسلامية، شهادتي بكالوريوس: في الشريعة، وفي الأدب الإنجليزية.
- درّس اللغة الإنجليزية، والعربية لغير الناطقين بها، والثقافة الإسلامية بجامعتي الإمام محمد بن سعود الإسلامية والملك سعود بالرياض.
- عمل مستشاراً لوزير التربية والتعليم في الرياض مدة عشر سنوات.
- أعدّ وقدّم ما يزيد على (٣٠٠) حديث إذاعي، وعدداً من البرامج التلفزيونية.
- عقد العشرات من «ورش العمل»، والدورات التدريبية على: التفوق الوظيفي، وفن التفكير، وعلم نفس النجاح، وفن الخطابة والإلقاء.
- شارك في مؤتمرات وندوات عدة، وألقى كثيراً من المحاضرات في الجامعات والنوادي الأدبية والمعاهد... إلخ.
- له ديوان شعر مخطوط، وعشرة كتب منشورة منها:

أيها الأصدقاء تعالوا نختلف - فن التفكير - فن التفوق والنجاح. وكلها من منشورات مكتبة العبيكان.